رواية

آيريس مردوخ

الأجراس

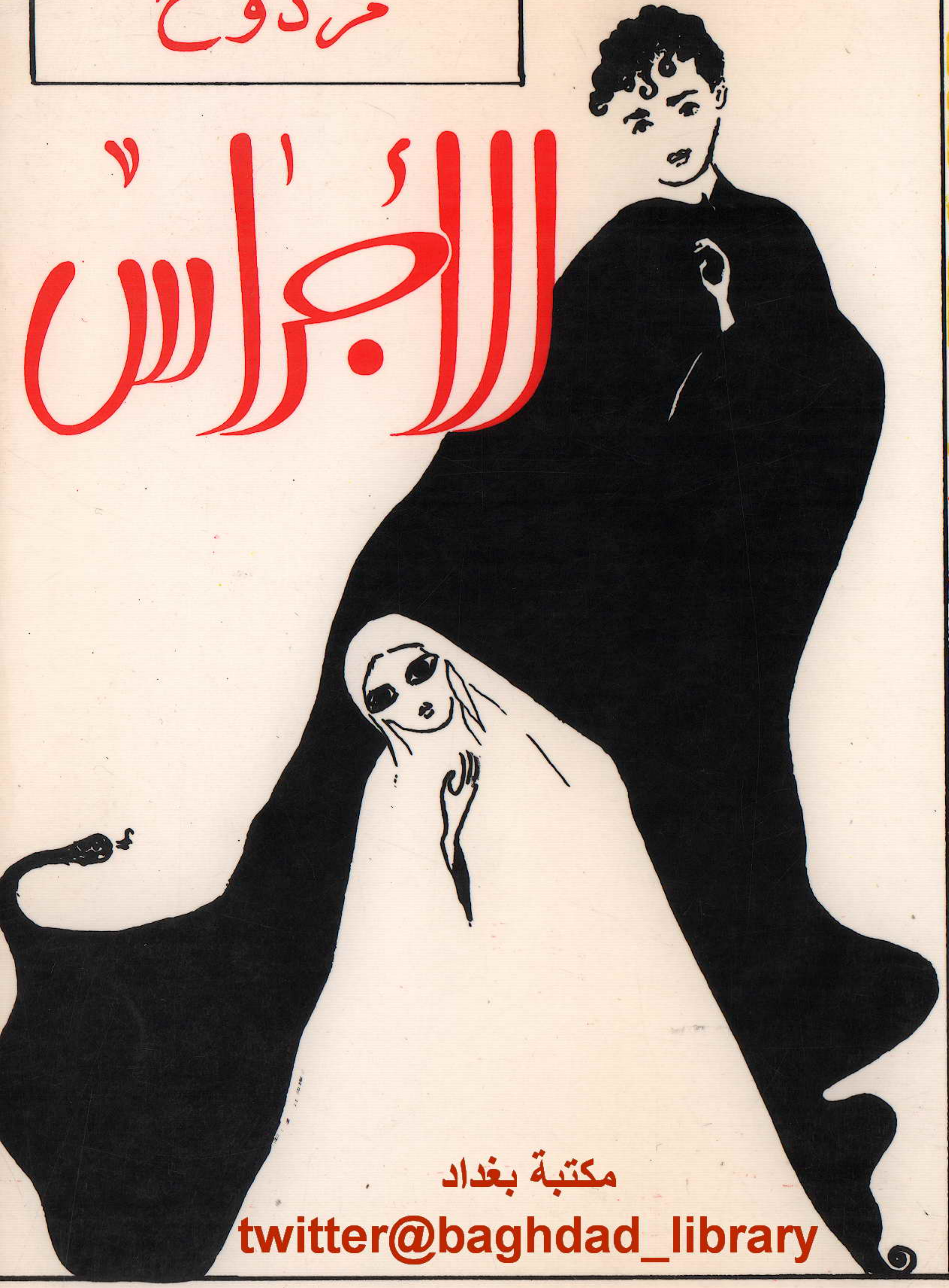

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ترجمة :

د. عفيف دمشقية

دار الآداب

آيريس مردوخ

الأجراس

ترجمة :

عفيف دمشقية

دار الآداب - بيروت

twitter @baghdad_library

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٠

الفصل الأول

تركت دورا غرينفلد زوجها لأنها كانت تخشاه. وبعد ستة أشهر قرَّرت أن تذهب للقائه للسبب عينه. فلم يكن پول ـ وقد حُرم وجودها ـ يكفّ عن التسلّط عليها بالرسائل والمكالمات الهاتفية، وأصبحت خطوته الوهمية وهي ترقى درجات السلّم أشدّ وساوسها حدّة. وإذ شعرت بأنها مذنبة فقد سيطر عليها الخوف، ولكثرة ما تمادت في الأمر انتهت إلى التقدير بأن وجوده أفضل على كل حال من القلق الذي يسبِّبه غيابه.

لقد ولدت في لندن وكانت ذات نسب متواضع. ولم تكن، وقد غدت يتيمة الأب وهي بعد طفلة، على وفاق أبداً مع أمها التي لم يطل أمد ترمّلها على كل حال. وإذ بلغت الثامنة عشرة من عمرها فقد دخلت «معهد سليد» لتدرس فيه الرسم بفضل منحة قُرِّرت لها. وكان دور الطالبة لائقاً بها تماماً، بل ربما كان الوحيد الذي كانت قادرة على القيام به بنجاح. وبعد أن كانت تلميذة هزيلة تستدرّ الشفقة ويصعب النظر إليها غدت شابة ممتلئة باهرة القوام. ومع أن ما كانت تملكه من مال لمصروفها اليومي كان أعجف فإنها كانت تكتفي به وتبذِّره يمنة ويسرة في عدة تفاهات. ولقد عاشت في ذلك العهد أياماً سعيدة، وأذهلها أنها لم تعد تستطيع من الآن فصاعداً أن تحسّ في قرب زوجها بملكة السعادة التي كانت قد اكتشفتها منذ أمد قريب.

twitter @baghdad_library

واتفق في أثناء سنتها الدراسية الثانية أن جاء پول غرينفلد، وهو من مؤرخي الفنون، يلقي في المعهد محاضرة عن نحت الخشب في فن القرون الوسطى. ومنذ لقائهما الأول وقع في غرام المستمعة الشابّة. كان يكبرها بثلاثة عشر عاماً ويتحدّر من عائلة عريقة من المصرفيين؛ وإذ كان قد ولد في المملكة المتحدة وترعرع في مدرسة ثانوية إنكليزية ومالكاً لعدد من السندات والأسهم ومستثمراً ثروة لا بأس بأهميتها فإنه لم يكن يُلْمِع قطّ إلى أصوله.

وقبلت الشابّة عرضه الزواج منها لأسباب كثيرة. كانت معجبة به؛ وكان ما يبديه من اهتمام بها يدغدغ كيانها إلى أقصى الدرجات؛ وكانت تأمل وهي تحقق ما كانت أمها تسمّيه - والحسد يتأكّلها - «زواجاً باهراً» أن تدخل «المجتمع» وتتعلّم كيف تتطوّر، ولكنْ من غير أن تدرك بوضوح ما كان يعنيه ذلك كله.

تزوَّجته لأنه بدا لها أكثر رجولة بما لا يقاس من رفاقها في المعهد؛ تزوَّجته لنزاهته التي لا تحتاج إلى دليل، ولنبل طبعه؛ تزوَّجته لذوقه الفطريّ، وللشقّة التي يملكها في «نايتسبردج»، وبعض الشيء لأجل ثروته؛ ولكنّها تزوَّجته على الأخصّ بدافع الرغبة الشيطانية الحادّة التي كان يوحي إليها بها. وإذ كان خطيباً ملتهب العواطف شاعرياً فقد كان يفيض من شخصه نوع من نكهة البلاد البعيدة يهيج خيال الشابّة التي لم يرتوِ ظمأها خلال طفولتها الكئيبة ولا في أثناء ملاهيها الصبيانية أيام التلمذة. وإذ كانت كثرة التناقض لتشعر بمركّب نقص حادّ فإنه لم يكن لديها مع ذلك فكرة سامية عن ذاتها، ودهشت لأنّها لفتت النظر من بين كل الأخريات. بيد أنها سرعان ما انتقلت من الدهشة إلى السرور بأنها أسرت لبّ هذا الشخص الذكّي المثقّف، ولم تشكّ قطّ في أنها مغرمة به.

ما إن استقر بها المُقام في الشقة اللندنية وسط مجموعة التماثيل العاجية

الشهيرة التي يعود عهدها إلى القرون الوسطى حتى جهدت في أن تكون سعيدة. وقد تمّ لها ذلك بنجاح بادىء الأمر. ومع ذلك فإنّه بتقدّم الوقت اكتشفت أن أمر التحرّر بقربه كان أصعب بكثير ممّا تصوّرت في البداية. وكان التفكير في أن تغدو كائناً مثقفاً قد استهواها أول الأمر، ولكنّها إذ كانت عاجزة عن المثابرة فإنها لم تلبث أن حكمت في أقلّ من سنة بأن ذلك المثل الأعلى أصعب من أن يُبلغ، بل أخذت تنظر إليه باشمئزاز. وكان پول قد قرّر أن تترك كل دراسة فنّية؛ وشعرت إزاء ذلك بحنين عابر على الرغم من أنها لم تكن قد أفصحت أبداً عن أية موهبة؛ ثم إن كسلها تغلّب ثانية فحلّ الارتياح محل الأسف - وكان غرينفلد الذي استغرق حبُّه كلّ وقته قد أهمل عمله. ولّما استقرت به الحياة الزوجية عاد إلى العمل بذلك النشاط الذي كانت قد أعجبت به بادىء بدء. وطوال الساعات التي كان يقضيها في «معهد كورتو» أو في «المتحف البريطاني» كانت تجهد في الاشتغال بيديها مرتّبة الشقة - من غير أن تجرؤ مع ذلك على إزاحة أتفه الأشياء - صارفة وقتاً طويلاً في الإعداد لحفلات الاستقبال التي كان زوجها يقيمها لأصدقائه، على الرغم من إصراره في مثل هذه المناسبات على تحضير ألوان الطعام بنفسه. وكان مثل هذا النمط من العيش اليومي يسليّها. ومع هذا فهل كان ذلك النوع من الوجود هو الذي كانت تحلم به؟ لقد بدأت الثقة الباعثة على الحميّة بفعل الهوى الذي كانت قد رعته تميل إلى الأفول.

وكان يُخيّل إليها أن پول على عجلة من أمر رؤيتها تبلغ بعض النضوج من غير أن يسمح لها مع ذلك بالتحرّر. كان يريد أن يعلّمها بنفسه، ولكنّ الصبر والوقت كثيراً ما كانا ينقصانه. وعلى الرغم من التهامها مجلّات الأزياء فإنها لم تكن تلبس قطّ خيراً ممّا كانت تفعل قبلاً، وبعد أن أزعجت زوجها بعدد من الاخطاء في الذوق اقتنت بعض الأثواب الباهظة الثمن.

وبدت لها تلك الأثواب عادية جدّاً، وسرعان ما عدلت عنها من غير أن تعرف ما تختار. وكانت تتّهم پول بأنه يراها سوقيّة بعض الشيء. وكان رفاقه

twitter @baghdad_library

يشعرونها بالخجل من نفسها إذ كانوا جميعاً أكبر منها سناً وذوي ذكاء وقّاد وأزواجاً لنساء مثقفات كنَّ يزدنها شعوراً بالشلل. لقد كنّ يعاملنها على كل حال بتسامح متعجرف يجمع بين الحماية والهزء، وقد أدركت من عدة تلميحات أن بعضهنّ كنّ يتصوّرنها راقصة باليه. وبدا لها هذا التصوّر المسبّق ذا معنى. فلقد كانت تُدعى بالتأكيد بوصفها زوجة شخصية مرموقة، ولكنّها لم ترتبط قطّ بعلاقة مع أيّ منهن. وكان پول شديد الغيرة، وقد حدث يوماً أن أبدى عازف كمان اهتماماً بشخصها وحلا له أن يسألها عن طفولتها فاستشاط زوجها غضباً ومنعها من لقاء الفنّان الشابّ بعد ذلك. وكان قد أنبأ خطيبته قبل ارتباطهما بالزواج باحتمال وقوع شجار بينهما وحرص على أن يضيف أن المشاجرات هي التوابل الضرورية في الزيجات التي تقوم على الحبّ. ومع ذلك لم تحمل المناقشات التي بدأت على عجل أيّ سرور إلى دورا، بل تركتها على العكس من ذلك مهينة خائرة.

أخذت تزيد من لقاءاتها بأصدقاء قدامى، وبصورة خاصّة فتاة تصغرها قليلاً لم تكن قد تركت «المعهد» بعد، وعندها أدركت أنها ظلّت طويلاً سادرة في طفوليّتها. ولقد أصبحت تشعر مذّاك بالانزعاج لدى سماعها الطلّاب يدعون زوجها «السيد» في حين كانت لاتزال قبل قليل تشعر بالفخر لذلك.

وذات يوم رجتها صديقتها أن تحضر أمسية تقام في مدرستها القديمة. وكان پول يمقت الرقص. وبعد أن تضرّعت إليه حصلت على الإذن بالذهاب إلى الحفلة وحدها، ولكنّها، وقد كانت عاجزة عن أدنى حدٍّ من الانضباط، لم تعد إلا في السادسة صباحاً. واستقبلها زوجها بتوبيخ رهيب العنف، ومنذ تلك اللحظة بدأت تخافه، ولكنْ من غير أن تحكم عليه بشيء. وعلاوة على ذلك فإن نوعاً من عدم القدرة على التحليل كان يحلّ في نفسها محل السلوك الخلقي. فلم تكن تعرف سوى تدليل زوجها أو

مقابلة قوّته بالسكون، ولكنّها، وقد تكوّن لديها عن «أنا» ها ذوق كان يزداد استعاراً يوماً عن يوم، ازداد وعيها بوجودها قبالة تلك الشخصية الطاغية.

كان پول راغباً في الأولاد، في ولد على الأقل، بالواقعية والإصرار اللذين كان يسعى بهما لبلوغ الأهداف التي كان قد رسمها لنفسه. وكانت غريزة الأسرة نامية جدّاً لديه. وكان قد حافظ على بعض التقاليد، وعلى تطلّع وراثي إلى الطبقة وانشداد إلى العادات الناشئة عن روابط الدم. وكان يأمل في ابن، في پول صغير يعلّمه ويوجّهه ويستطيع في المستقبل أن يناقشه مناقشة الندّ للندّ، وأن يستدرّ نصائحه وكأنها نصائح منافس ذكيّ. وأما امرأته فكانت على العكس من ذلك ترعبها هذه الفكرة. فلم تكن تحسّ على الإطلاق بأنها مهيّأة لمثل هذه المهّمة، مع أنها لم تبذل أي جهد لتوقّع حمل ممكن، وهو مسلك نموذجي للخمود الذي كان يُفسد علاقاتها. ولو أنها كانت قادرة على تفحص حالتها بلا تحيّز لأدركت أنّ هذا الدور الجديد سوف يجلب لها استقلالاً ووضعاً في محيط زوجها كانت بعيدة جدّاً عن أن تكون قد حصلت عليه. فقد كانت تتمتّع بديباجة أمّ لا تهاود ولا تقاسم، أمّ ينبغي مراعاتها. ولكانت الأمومة كفيلة بأن تؤمنّ لها كرامتها التقليدية. وبوصفها امرأة ـ طفلاً فقد كانت تثير في كل لحظة حفيظته بحيويّتها التي طالما فتنته قبلاً. ولكنّ «دورا» لم تكن تتذوّق مثل هذه الأعراف التي يرجع عهدها إلى الأسلاف. وَلأنْ ترضى بها بملء إرادتها فذلك لم يكن من طبعها. وعلى الرغم من كونها رازحة بعمق تحت نير الزوجية فقد كانت تفكّر، بوصفها كائناً سلبياً، وإن واضح التقلّب، في إيجاد طريقة للتملّص من ذلك. وَلأنْ تتخلّى عن حيويّتها الحيوانية وتقبل بأن تصبح مخلوقاً ذا وجهين فذلك احتمال ما كان بوسعها أن تواجهه. ولم يسبق لها قط أن واجهته على الرغم من أن عبارة «رؤية الأمور مواجهةً التي

twitter @baghdad_library

تعلمتها أثناء حياة الطلب كثيراً ما جرت بها شفتاها مثيرة أعمق الانزعاج لدى پول وأصدقائه. والحقّ أنها كانت عاجزة، في الوقت الحاضر على الأقل، عن تصوّر وضعها. فَلأنْ يكون زوجها شخصاً عنيفاً فذلك كان الحقيقة عينها منذ اللحظة الأولى، ولكنّه كان أيضاً من الأمور التي اجتذبتها. فقد كان يملك هذا النوع من الهيمنة الرجولية التي كان معظم رفاقها في المدرسة محرومين منها. لم يكن جميلاً تماماً، فقد كان أنفه حادّاً وشكل فمه رديئاً، ولكنّ شعره الفاحم وشاربيه المنسدلين كانت تجعله شبيهاً بسكان الجنوب، وكانت عيناه الصافيتان، وإن باردتين، قد جعلتا قلوباً غير قلب دورا تخفق في مقهى «سلاد». ولقد تمتّعت بسبب سطوته وغياب كل أثر للشفقة والحدب عنده بدورها كعشيقة جذّابة على الرغم من خضوعها، وخلبها أن تكتشف في ذاتها طاقة جنسية مرهفة وحدّة في الشهوة جعلت المغامرات التي خاضتها وهي طالبة شابّة تبدو خالية تماماً من كل مذاق. ومع ذلك فإنها بدأت من الآن تقدّر قوّته بشكل مختلف، أو تتقبّض على أي حال من جنون تصرّفاته التسلّطية التي كانت تحطّم تناغم سجيّتها. إن شيئاً عذباً وسعيداً كان قد توارى من وجودها.

وبمرّ الزمن انقطعت عن إعلامه بحركاتها وسكناتها اليومية مقابلةً أناساً كانت تعلم أنهم لا يروقون له. ومن بينهم كان على الأخص صحافي شابّ لم يكن پول يعرفه في الواقع إلا معرفة سطحية؛ وكانت دورا تستجيب دائماً للتهكّمات المحكمة التي كان يرمي بها زوجها، وكانت استجابتها ولاريب بسبب الرضي الخفيّ الذي كانت تستشعره من جراء ذلك. ولم تكن بالطبع فخورة أبداً بسلوكها، ومع ذلك فإنه إغراء الفرار من حبس الشقّة الفسيحة، وإن مقدسّة، والترويح عن النفس كان من العنف بحيث لا يقاوم. كانت تشرب من غير اعتدال وتلتذ بالشراب. وإذ كان طيشها يحول

دون نجاحها في الكتمان والتورية فإنّها سرعان ما أيقظت شكوك پول الذي أخذ ينصب الأشراك التي سقطت فيها. وتبادلا كلمات خشنة فظّة.

وأخذ زوجها وقد نال منه القلق والبلبال يترجّح بين القسوة والرقّة الزائفة بشكل كانت امرأته ترى أنه يُرعب بقدر ما يثير. وإذ شعرت مع ذلك ببعض الخجل من سلوكها النابي فقد آلت أن تغيّر ما بنفسها، ولكنّ طُعْم البيئة التي كان من الممكن أن تنجرف إليها كان قد غدا ضرورة لا غنى عنها. وإذ كانت عاجزة عن المنطق عجزها عن الحساب فقد كرّرت الخطأ وأخذت مقابلاتها لـ«نويل سپنس» وثلّة الشاربين المرحين المحيطة به تزداد يوماً بعد يوم. وبدأت تجاهر بطرق مختلفة جدّاً عن تلك التي اعتمدتها في بداية الأمر بنوع من الادّعاء؛ وكان زوجها يلسعها بسياط مآخذ كانت تعرف صوابيّتها وصحّتها. وكانت تحاول أن تشرح له الأسباب التي تدعوها إلى الشعوربالأسى، ولكنّها لم تكن متماسكة، وكان هو حانقاً مَغيظاً. وكان پول يعرف جيّداً الغاية التي يريد بلوغها. وذات يوم قال لها: «أرغب في متابعة عملي وأنا متزوج منك. أرغب في ملء وجودك كما تملأين وجودي». ولقد أحبطتها قوة إرادته وأذلّها رفضه أن يفهم شكاواها. وإذ كانت غير جديرة بالحكم حكماً دقيقاً على الآخرين بقدر ما كانت غير جديرة بتحليل نفسيّاتهم فإنها لم تكن قادرة على إرضاء زوجها ولا على الدفاع عن نفسها. وبمرّ الزمن تركته منقادة إلى شعور التسليم بالمصير الذي كان قد حلّ عندها محلّ الشعور بالواجب.

ذهبت بادىء الأمر إلى أمّها التي لم تستطع بالطبع التفاهم معها. وعندما اقتنع زوجها بأن قرارها لا رجوع عنه وجّه إليها رسالة كانت كلماتها واضحة الدلالة ومدروسة بعناية.

«أظن أنك توافقين على أنه ليس عليّ واجبات قانونية تجاهك. ومع ذلك فقد قرّرت أن أدفع لمصرفك أربعين ليرة في الشهر إلى اليوم الذي تثوبين

twitter @baghdad_library

فيـه إلى رشدك وتعـودين للعيش معي. فـلا أريـد وأنت تحملين اسمي أن تعيشي في فاقة. ومن جهة ثانيـة فإنـه لا يمكنك أن تنتـظري أن أُنفق عليك بسخـاء في حياتـك المنحرفـة وفجورك الـرخيص، وقريبـاً جدّاً، وبـلا أدنى ريب، في الـزنا. ومـع ذلك فـإن أمامـك فرصـة: أن تكوني قـادرة على أن تفهمي من هذه السطور أن حبّي لك باقٍ على حاله».

قـررت دورا أول الأمر رفض هـذه النفقـة، ثم أن تقبلهـا، وأقـامت في غـرفة في «تشلسي» بـدأت فيها عـلاقة بـ«نـويـل سپنس». وإذ تخلّصت من رتـابة الحيـاة اليوميـة، ومن المشاجـرات، ومن الخلافـات الـزوجيـة، فقـد شعرت براحـة كبرى، ولكنّهـا لم تلبث أن أدركت أنها لا تستطيـع على كـل حال أن تلوذ بأيّ نمط آخر من أنماط العيش. فقـد أصبحت نوعـاً ما مِلْكـاً لِـ«نويل» الذي بدا مفعماً بالعطف والرعـاية. وذات يـوم صارحهـا بقولـه: «تعالي واسكني معي يا حبيبتي، وسوف أحبك وأحيـطك بعنايتي، شرط ألاّ تنسيْ مع ذلك قطّ أني أكثر المخلوقات طيشاً على الإطلاق». وكانت تعـرف أنه مانطق بهذه الأقوال إلاّ لتهدئة أعصابها، ولكنّها امتنَّـت لذلك إذ كـانت تحيا في جوّ مصطنع معتبرة نفسها نوعاً من غجرية غير مسؤولة. وأمّا أنّها قد عذّبت پول عذاباً أليماً فإنها كانت تحاول ألاّ تذكر ذلـك، إذ كانت الـذاكرة شيئـاً لم تكن تقيم له كبـير وزن؛ ومع ذلـك فقد كـانت محـرومـة جـداً من الطرافة لتشعر بعدم لياقة وضعها. وكانت تنـاضل محـاولة استعـادة مرحهـا، ولكنّها كانت تشعر ببعض القلق لمجرَّد التفكـير في أنَّ زوجها قـد يظهـر في أيّة لحظة ويأخذها بالقوّة ويكون بينه وبين عشيقها توضيح عاصف للموقف. لم يكن يـلاحقهـا، ولكنـه كـان يبعث إليهـا بـانتـظام رسـائـل محمّلة بـاللوم والعتـاب. ولدى قـراءتها كـانت تشعـر في آن معـاً بضيق واضـح وبـوطـأة السلطان الشيـطاني الذي كـانت إرادته تُثقـل بها عليهـا: لن يعدل قطّ عن استعادتها. وأمضت الصيف كلّه في الشرب والرقص والمضاجعة وإنفاق

المصروف المخصّص لغذائها على شراء تنانير ملوّنة وصنادل وأسطوانات جازّ، كما كانت تفعل قبلاً بالضبط.

كان پول قد استقرّ منذ شهر تموز (يوليو) في الريف من أجل أن يعمل، كما كتب إليها في رسالة من تلك الرسائل الكثيرة التي لم تكن تردّ عليها قط، على مخطوطات من القرن الرابع عشر ذات أهمية كبرى يملكها دير أنغليكاني في «غلاوسسترشاير» مُحاذٍ لجماعة علمانية هو ضيفها. كان المكان رائعاً. ومع أن دورا كانت متأثّرة بإخلاصه فقد كانت تقرأ رسائله بشكل سريع ومختصر مكتفية بالتأكّد من خلوّها من التهديدات ثم تمزّقها كيلا تظلّ تحت سلطان ذلك الخطّ المعروف كثيراً جداً. ولم تكن تعرف عن الرهبانية التي كان منهمكاً فيها بأبحاثه إلا النزر اليسير، كما أنها لم تكن تعرف عن المسكن الذي اختاره لإقامته أكثر من اسمه. وعلى ذلك العنوان أرسلت كلمة حُرِّرت بصعوبة بعبارات مُستغفرة وعدوانية معاً عارضةً استئناف الحياة المشتركة. وبعودة البريد وصلتها ورقة باردة على غرار أوراق العمل تُعلن أنه سوف ينتظرها الثلاثاء الذي يلي، وأن عليها أن تتدبّر أمرها لتستقلّ في «پادنغتون» قطار الساعة الرابعة والدقيقة السادسة والخمسين فيُقلّها إلى «پندلكوت» حيث تكون مُنْتَظَرَة. وقد ضمّ إلى هذه التوجيهات مفاتيح الشقة لتستخدمها إذا كانت قد أضاعت مفاتيحها هي، وسألها بشيء من التلطّف أن تتكرّم بإحضار القبّعة الواقية من الشمس التي اشتراها من إيطاليا، ونظّارتيه السوداوين، والدفتر الخاص بتسجيل الملاحظات وهو موضوع في أعلى الخزانة الصغيرة التي يحتفظ فيها بأشيائه الخاصة التي يحرص عليها. ورأت دورا التي كان قد أزعجها نثره الشخصي أن شأن المرسَل إليه لم يكن كبيراً في مثل هذه الظروف الحافلة بالأبّهة. فلقد كانت تأمل في أن يُهرع إلى لندن، وما كانت قطّ لتنتظر دعوة مختصرة إلى مكان مجهول، وتميّزت من الغيظ إذ دارت في خلدها فكرة إعادة توثيق روابط كانت قد انفصمت، في محيط عجيب غريب للغاية.

twitter @baghdad_library

ما المقصود من جهة أخرى بالجماعة الدينية؟ إن جهلها بهذا الأمر ـ كما بمعظم الأمور ـ لا يُقاس. والحق أنها لم تكن قطّ قادرة على معرفة الفرق بين الدين والبِدعة، وقد اكتفت بكل بساطة بالتوقف عن العبادة عندما اكتشفت عجزها عن ترتيل دعاء «أبانا» بطريقة مغايرة لطريقة إنشاده بأقصى سرعة. وكانت قد فقدت إيمانها الفطري من غير أن تنزعج، ولم تسنح لها الفرصة لإعادة النظر في المسألة. وكانت تتساءل عما إذا كان پول يشارك في العبادة في «إمبر». لقد تمّ رباطهما بأبّهة في الكنيسة تحت أبصار أصدقاء الزوج الساخرة. وهكذا فإنه حقّق أمنية أجداده لأبيه بأن يتأكلزوا[1] جهد الطاقة، سواء على الصعيد الديني أو الصعيد الاجتماعي. وكانت دورا قد صرفت وقتاً طويلاً لفهم ذلك وزاد هذا الاكتشاف المتأخّر من طابع علاقاتها الوهميّ. وعلاوة على ذلك فإن احتمال حميّة زوجها مسيحياً كان أشدّ عليها من احتمال حميّته عالِماً، لأن هذا المظهر الأخير كان أكثر استِغلاقاً على الطفلة المسكينة. أكان يؤمن بالله؟ إنها تجهل ذلك.

ولّما كانت تفكّر في كائن من لحم ودم، ولّما كان خيالها يدور في نهاية المطاف حول كونه استمرّ حقاً في العيش طوال هذا الفاصل الزمني العجيب، وكونه احتفظ بعاداته، وكونه فكّر فيها وحكم عليها، فقد اضطربت إلى درجة قرّرت معها عدم الذهاب للقائه. وإذ كان «نويل» مشغولاً بهذه الحالة المعنوية فقد كان يبحث عن دواء لها من غير أن يجده، ولكنّ «سالي» الذي كان يكرهه، وكان ـ كما سبق لصديقته أن ارتابت على الدوام ـ على العكس من ذلك حَسنَ النيّة تجاه پول، تمكّن بعد نقاش قصير من جعلها تعود عن هذا القرار الأخير. وعليه فقد ذهبت إلى «نايتزبريدج» واهتزّت وهي تستعيد الصلة بهذا المكان المألوف الحافل بأصابع الاتهام وغير

---

(١) يصبحون انكليزيي الأهواء والمشارب (المترجم).

القابل للتّغيّر، لمجرّد الـرائحة النفّـاذة التي كانت تفـوح من غبار الغيـاب. وجمعت بعضاً من ثيابها لأن فرارها إن لم يكن مرتجلاً كل الارتجال فقد كـان على الأقل قليل التنظيم.

ولم تتوقّف في اليوم المقرَّر لرحيلها، وقد أرعبتها فكرة وجودها من جديد في حضرة زوجهـا، عن الانتحاب داخـل سيـارة «نـويـل» طـوال الـطريق إلى «پادنغتون».

كان الحرّ مضنياً، وعلى الرغم من وصولهما قبل المـوعد بكثـير فقد وجـدا القطار قابعاً في المحطّة وغاصّاً بالمسافرين.

ومع ذلك فقد تمكّن «نويل» من العثور على مقعد من جهة الممّر ووضـع الحقائب في الشبكة. ووضعت هي حقيبتهـا الصغيرة فـوق المقعد لاحتجـاز المكان ثم عادا إلى الرصيف.

أخذ كل منهما يتفرّس في الآخر.

قالت دورا:

ـ لا تبقَ.

ولاحظ نويل:

ـ أسنانك تصطك. هذا ما يخيّل إليّ على الأقل لأني أعترف بأنّه لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الظاهرة.

ـ أوه! دعني وشأني.

ـ هيه يا حبيبتي، أظهري بعض الجرأة. لكأنّك تمثال القنوط. وعـلى كل حال فإنّـه إن لم تعجبك هـذه التجربـة الجديـدة فليس هناك مـا يمنعك من العودة.

ـ تظن ذلك؟ حسناً. آه! لقد وجدت منديلي. إذهب الآن، أرجوك.

twitter @baghdad_library

كان كل منهما ممسكاً بيد الآخر. وكان نويل طويلاً جداً. وكان بوجهه الأملس وشعره الحائل اللون ودماثة تعبيره الأخرق بعض الشيء يذكّر بدبٍّ كبير مصنوع من الوبر. كان يبتسم لرفيقته جاهداً في التعبير عن استلطافه إيّاها، حريصاً على ألّا يعكّر من جديد مزاجها الشديد التقلّب.

- سوف تكتبين إلى العم نويل، على ما أرجو؟

- إذا قدرت.

- هيه، لا تكوني مأساوية إلى هذا الحدّ. وقبل كل شيء لا تدعي هؤلاء الأشخاص يلصقون بك عقدة شعور بالذنب. لا يمكن أن ينتج عن ذلك ما هو صحيّ.

وأمسك بها من تحت مرفقيها رافعاً إيّاها عن الأرض برهة طويلة. وقبّل كلٌّ منهما الآخر.

- بلّغي پول حبّي.

- لا تُخنِقني، أرجوك، إلى اللقاء.

صعدت إلى القطار الحافل على آخره. وقبل أن تجلس اختلست نظرة سريعة إلى المرآة. على الرغم من كل ما مرّت به من تجارب مأساوية فإن سحنتها جيدة، ووجهها جميل ممتلىء، وفمها حسن الخطوط مخلوق للابتسام، وعيناها كبيرتان لوزيتان، وقد أدكنت التطرية حاجبيها من غير أن تغلظهما؛ وكان شعرها الأسمر المذهب يتساقط خصلاً طويلة متصلّبة بعض الشيء على كتفيها وكأنها عروق نبات الخنشار فوق صخرة. كانت الصورة جذّابة والطّيف مختلفاً عمّا مضى.

وإذ كانت تتّجه صوب المقعد فقد زاحت سيدةٌ بدينة قليلاً لتؤمّن لها مجلساً. وتكوّرت على نفسها إذ كان الإحساس بجسد ملتصق بجسدها يثير اشمئزازها. كانت تنورتها تشدّ عليها، وحذاؤها يؤلمها، وكانت تتصبّب عرقاً، وبدأت تتنفّس رائحة عرق المسافرين الآخرين. وراحت تنظر إلى

الممّر المزدحم بشيء من الرضى. فيا لحسن الطالع أن تكون جالسة في مثل هذا اليوم القائظ! وتمكّنت سيدة مسنّة من بلوغ باب المقصورة بعد مدافعة شاقّة بمرفقيها وخاطبت جارة الشابّة قائلة:

ـ ما كنت أحسبك هنا يا عزيزتي. كنت أظنك في المقدمة.

وتبادلت الصديقتان نظرة مشوبة بالكآبة وبدأت المسافرة وقد مالت بشقّها إلى الباب واحتبست قدماها بكومة من الحقائب مناجاة عن ازدحام القطار غير المعتاد.

وتوقّفت دورا عن الإصغاء لأن فكرة مرعبة استحوذت على ذهنها: لسوف ترغمها اللياقة طبعاً على التخلّي عن زاويتها. وحاولت ألاّ تفكر في الأمر، ولكنّ تلك الخاطرة كانت تعود أشدّ دقة ووضوحاً؛ فمن غير الطبيعي أن يبقى شخص شابّ معافى جالساً بدعة في الوقت الذي تقطع فيه سيدة مسنّة بادية الهشاشة الرحلة واقفة لكي تبقى بقرب صديقتها. اجتاحت الحمرة وجهها. ولم تتحرّك وظلت تتأمّل. لم تكن هناك من حاجة أبداً إلى الاستعجال، وعلى الرغم من وعيها التام بضرورة تقديم مقعدها، فإنها بدافع الأنانية المحضة كانت ترفض إرغام نفسها على ذلك. وما كان أعذب ألاّ يراود هذا الحلّ خاطرها لحظة واحدة!

وبجانب جارتها كان سيد غارقاً في جريدته وغير مبال أبداً بواجبه. لعلّها إذا ماطلت أن تخطر على باله فجأة فكرة التنازل عن مقعده. لسوف يكون ذلك بالطبع أكثر ملاءمة للواقع، ولكنّه مشكوك فيه. وتفحّصت سائر الركاب؛ لم يكن أيّ منهم يبدي أقل انزعاج، وكانت وجوههم، إن لم تكن قد غاصت بعد في كتب، تعكس ذلك الرضى الذي كان ينبغي أن يكون رضاها عندما تأمّلت الحشد في الممرّ. لقد حرصت على أن تصل قبل الوقت بكثير؛ وكان منطقياً أن تُكافأ، ولكنّ السيدتين المسنّتين ينبغي أن تكونا أيضاً قد جاءتا مبكّرتين بقدر ما أمكنهما الأمر ولاريب. وعلى كل حال

twitter @baghdad_library

فإن أبسط قواعد العدل تقضي بأن يكون أولُ الواصلين أولَ الجالسين. ولا بدّ أن تكون السيدة المسنّة على ما يرام في الممرّ الحافل في الـواقع بكثـير من مجايليها ممّن لم يكن أحد منهم يبدو مشغول البال. وكانت دورا تكره العمل بـلا مقـابـل، ولقـد رأت، وقـد أنهكتهـا الانفعـالات الجـديـدة، أنّـه من الضروري أن تسترخي. فما جدوى أن تكون خائرة القوى عندمـا تصل إلى نهاية الرحلة؟ وإذ بدا لها أن اضطرابها يـلامس حالـة العُصاب فقـد قرّرت ألّا تتحرّك.

ومـا هي إلا لحظة حتى نهضت وقـالـت مـوجّهـة حـديثهـا إلى المسـافـرة المسكينة من فرجة الباب:

ـ خـذي مكاني أيتهـا السيدة، أرجـوك أن تفعلي. لست ذاهبـة بعيـداً، وعلى كل حال فإني أفضّل أن أبقى واقفة.

وأجابتها مخاطبتها:

ـ مـا ألطف مـا تُبـدين! لسـوف أتمّ الـرحلة بصحبـة صـديقتي بفضـل إحسانك. أملك مقعداً في مقصورة تبعد قليلاً. ربما كان في وسعنا المبادلة؟ دعيني أساعدك في نقل حقائبك.

أشرق وجه دورا بالرضى. فما الـذي يفوق بعـذوبته مكـافأة غـير منتظرة بعـد تصرّف لائق؟ بدأت تتقـدم بعسر في الممرّ رازحـة تحت ثقـل حقيبتهـا تتبعها المسافرة العارفة بالجميل وهي تحمل لها حقيبتها الصغيرة المصنوعة من القماش والقبعة المشتراة من إيطاليا. وتحرّك القطار.

عنـدما بلغتـا المقصـورة الأخـرى شعـرت دورا بـالـرضى إذ أدركت أنها ستحتلّ زاوية قرب النافذة. واستدارت مرافقتها التي كـانت تملك قليلاً من الطرود بسرعة؛ وكانت المرأة الشابّة على وشك القعود منهوكة القوى.

نهض شخص طويل القامة ملوّح الوجه بالشمس كان يجلس على المقعد

المقابل لمساعدتها: داسّاً الحقيبة الكبيرة بلا مشقّة في الشبكة. ورمت هي فوقها القبعة المعهودة. جلسا، وأغمضت عينيها تفكّر في كربها. إنها على وشك الانضواء مجدَّداً بإرادتها تحت جناح إنسان يفهم الوجود بشكل مغاير تماماً! لقد كان يستبعد أكثر حاجاتها إلحاحاً ويُسقطها من الحساب، وهو الآن يملك أسباباً جدّية للحكم عليها بالنشوز. ذلكم هو الزواج؛ هكذا كانت تفكّر. أن يتجرّد المرء من ذاته ويغرق في تصرّفات شخص آخر. وَلأنْ يكون لها أدنى سلطان على پول فذلك مالم يكن يخطر لها قطّ على بال. يبقى أن رباطها كان أمراً واقعاً، واحداً من تلك الأمور المسلّم بها جداً في حياتها المشوّشة. وإذ كانت على وشك البكاء فقد جهدت في التفكير بأمر آخر.

كان القطار يثب خلال «ميدنهيد». وإذ شعرت بالخجل من إزعاج جارها الشهم من جديد فقد أسفت لأنها لم تفكّر في إخراج الكتاب من حقيبتها قبل الانطلاق. ولما كان محشوراً تحت زجاجات الوسكي فقد كان من الأفضل أن تعمل من غير عون. أخذت تلاحظ رفاق سفرها. بعض السيدات اللواتي بدأ الشيب يوخّط شعورهن ويصعب تصنيفهن في فئة معينة، وسيّد هرم، وعلى المقعد المقابل شابان، أو بشكل أدقّ راشد ومراهق. كان يبدو أنهما يسافران مترافقين، وكانا يؤلّفان ثنائياً جميلاً. وكان أسنّهما عريض المنكبين ذا وجه بشوش هادىء أسمر قليل اللحم يعلوه جبين عالٍ ذو أخاديد منتظمة، وكان ذا شعر كثّ كستنائي اللون ملتفّ الخصلات وقد وخّطه الشيب في بعض الأماكن. وكانت يداه الغليظتان الباديتا العروق تشدّان شداً خفيفاً على إحدى ركبتيه، وكان يرمق بنظره واحداً بعد الآخر المسافرين المرصوصين قبالته. وكان يتمتّع بسيماطيفة هي تلك التي يتمتّع بها الذين يمكنهم النظر ببشاشة من غير ابتسام ويتركون أنظارهم تطالع غريباً من غير أن تبدو عدوانيةً ولا فاتنةً ولا حتى فاضحةً.

twitter @baghdad_library

وعلى الرغم من حرّ النهار فقد كان يلبس بدلة غير رسمية من التويد السميك ويجفّف جبينه بمنديل نظيف. وخلعت دورا معطفها وأدخلت يدها خلسة في فتحة بلوزتها لتتلمّس لزاجة العرق بين ثدييها، ثم وجّهت انتباهها إلى أصغر الشخصين سناً. كان جالساً قرب النافذة في وضع أنيق مصطنع بعض الشيء، وإحدى ساقيه الطويلتين ممدودة تكاد تلامس إحدى ساقيها. وكان يرتدي بدلة من الفانيلا المصنوعة في مارنغو وقد رمى بسترتها فوق الشبكة، وقميصاً أبيض مقوّراً شمّر ردنيه حتى المرفقين، وكان يرتفق بذراعيه العاريتين النافذة الغبراء. كان أقل سمرة من رفيقه، ولكنّ انعكاس الضوء كان يلوّن خديه حتى ليجعلهما أحمرين قانيين. وكان رأسه مدوّراً وعيناه بنّيتين، وكان شعره الكستنائي الذي احتفظ به طويلاً بعض الشيء ينتهي بخطّ واضح فوق رقبته. وكان ممشوقاً بشكل ملحوظ، وكان لعينيه الواسعتين نظرات الأشخاص السعداء الوقحة.

وإذ كانت تراقب هذا الصبي المطمئنّ النقيّ الناضح صحّة وكنوزه لم يُغرف منها شيء، فقد كانت تجد فيه ذاتها: أليس الصبا أجمل الزينات؟ إن فيض التسامح المُغدق على المراهقين لا تفسير له! وللشباب أكدارهم وهواجسهم، ولكن لهم دوراً محدَّداً عليهم تأديته: إنه دور اليافعين. وفيما بعد تبدأ الصعوبات، حينما يجد الإنسان مشقّة في التكيّف، حينما يكون النَرْدُ قد رُمي، حينما يتبدّد الرجاء، بل أكثر من ذلك إمكان التغيير، حينما تتوقف المخلوقة ولّما تبلغْ حكمة النضج والرشد عن أن تكون، كما هي حالها، صبيّة مجنونة بعض الشيء لتصبح امرأة: بل أسوأ الأسوأ، زوجة.

وعلى الرغم من تفكيرها في هذه الأشياء فقد كانت تصغي إلى أحاديث من هم قبالتها. كان الراشد يقول:

ـ أظنك أحضرت بالطبع كتبك. يجب العمل بجدّ ونشاط كبيرين: لا تدع نفسك تصدأ بالرياضيات قبل شهر تشرين الأول (أوكتوبر).

أجاب اليافع:

ـ سوف أبذل جهدي.

كان يتحلّى برباطة جأش خرقاء بعض الشيء أمام هذا الرفيق الذي ينتمي إلى جيل يختلف تماماً عن جيله. وأخذت دورا تتساءل: أيكونان أباً وابناً؟ الأرجح أنهما تلميذ وأستاذ، إذ كان هذا الأخير يخوض في أحاديث أقرب إلى أن تكون تربوية.

قال الراشد بصوت جهوري:

ـ أية مغامرة بالنسبة إليكم أنتم أيها الشباب! الذهاب إلى أوكسفورد! إنّك ثائر الأعصاب جدّاً، أراهن على ذلك!

لم يكن أحد يتكلّم في المقصورة.

ـ لا أشعر بأيّ خجل بأن أعترف لك يا توبي بأني أحسدك. لم يُتَحْ لي مثل هذا الحظّ، ولن أنقطع عن الأسف لذلك طوال حياتي. ففي مثل عمرك كانت كل معارفي تدور على الملاحة.

ردّ الصبي:

ـ نعم، إنه لحظّ كبير جدّاً.

كانت دورا تفكّر: «توبي! توبي! الرأس المدوّر. إنه يحاول أن يَسُرَّ معلّمه».

تناولت آخر سيكارة كانت في علبتها، وراحت تفتش فيها بعصبية للتأكد من أنها كانت فارغة حقّاً، وبعد لحظة تردُّدٍ قذفت بها من النافذة.

وظهرت على وجه السيد الجالس على المقعد المقابل نظرة معارضة سريعاً ما قمعها. وربّتت على ثنايا بلوزتها وأدخلتها تحت تنّورتها. وأخذ بعد الظهر يزداد خنقاً للأنفاس.

أستأنف الراشد:

twitter @baghdad_library

ـ ويـا للمهنـة الجميلة. إذا أصبحت مهنـدسـاً حصلت عـلى أداة ثمينـة تنفعك أينما حللت. إن مصيبـة العالم الحـديث هي في أن الناس لا يملكـون مهنـة حقيقية. مـع أنه لا حيـاة للإنسـان إلا بالعمـل. في أيّامي كنّـا جميعاً عمّالاً يدويين، أليس كذلك؟

ـ أجل.

كان توبي قد شعر منذ هنيهة بالاهتمام الذي تبديه المرأة الشـابّة الجـالسة قبالته. وخيلّ إلى دورا المُعْجَبَة أن ابتسـامة حـائرةكـانت تروح وتجيء فـوق شفتيه المكتنزين المُشْرَبتين بحمرة بديعة!

وإذ كان ثائر الأعصاب فقد حرّك ساقه ماسّاً قدمها؛ وعندها أرجعهـاإلى الوراء مقلّباً إياها تحت مقعده. وكانت دورا تلهو وتلهو.

استأنف الشخص قائلاً:

ـ إنّ مـا ينبغي أن نتمسّك بـه قبل كـل شيء هو أن نضفي عـلى الحيـاة معنـاها وكـرامتها بـالعمل. كثـير من النـاس في أيّـامنـا أخـذوا يمقتـون مـا يفعلون، ولذلك كـانت الفنون والمهن اليـدوية مهمّـة جدّاً. حتى الهـوايات المتقنة مهمّة. هل لك أنت ما تؤثر تزجية فراغك به؟

ظلّ توبي صامتاً.

لمحت دورا فوق كومـة من الردم أولاداً يـرسلون إشارات فـردّت تحيتهم بلطف محـاولة لفت انتبـاه توبي الـذي ابتسم، ولكنْ سرعان مـا أدار وجهه وقد بدأ يحمرّ.

لم تعد الدنيا تسعها من الفرح.

استأنف السيد حديثه قائلاً:

ـ تلك معضلة على مجتمعنا حلّها. ولكنْ بانتظار ذلك ينبغي أن يحيـا كلّ منا حياته الخاصة، أليس كذلك؟ وويل لليبرالية إذا اختفى يوماً حسّ الفرد

بأنّه مدعوّ للقيام بأمر من الأمور. ينبغي أن لا يشكّ أحد في أنه معتبر نسيج وحده. وبعدُ فإنه ينبغي تقديم القدوة، إيجاد طريقة رمزية، إذا صح القول، لمواجهة الناس بالمعضلة.

أخذ القطار يخفّف من سرعته.

- عجباً، بلغنا أوكسفورد! أنظر يا توبي؛ إليك مدينتك!

أشار إليها بإصبعه، ورمى كل من في المقصورة بأبصارهم بإتّجاهِ الأبراج التي فضّضها الحرّ في السماء الصافية. وعادت إلى ذاكرة دورا ذكرى رحلتها إلى إيطاليا. كانت قد صحبت زوجها إليها لا من أجل الترويح عن النفس وإنما للاطلاع على بعض المخطوطات. كان پول يستفظع الإقامة في الغربة، وقد شعرت هي شعوراً مماثلاً لدى خروجها ذاك لأول مرة من بلدها. لقد ابغضت تلك الأراضي الجافّة التي لا تُرى تحت الشمس العنيدة، وارتعدت لرؤية الهررة الجائعة يطردها رؤساء الخدم من أمام المطاعم الفخمة بضربات من فُوَطهم. ومع ذلك فقد كانت تفكّر في الأبراج الكثيرة التي يراها المرء هناك منذ أن يدخل محطات السكك الحديدية ذات الأسماء البرّاقة: «پيروز، پارم، پليزانس». واجتاحتها كآبة عجيبة لتلك الذكرى لأن أوكسفورد لم تبدُ لها أقلّ غُربة في هذا الصيف الحافل بالضباب. ولم تكن من جهة ثانية قد ذهبت إليها يوماً. فـ«پول» كان أحد رجال كمبردج.

كان القطار قد توقّف، ولكنّ المسافريْن لم يتحرّكا واستمرّ المربّي في الحديث عن أهمية الرموز وعن مظهرها المقدّس، في نظره على الأقلّ.

- لا يمكننا العيش بالخبز وحده. أتذكر ما قلته لك بشأن الجرس؟

أجاب توبي وهو يُبدي اهتماماً مفاجئاً:

- تماماً. هل يصل وأنا معك؟

- بلا أدنى ريب. سيصل بعد خمسة عشر يوماً. لقد هيّأنا لحُفيلة، لنوع

twitter @baghdad_library

من العمادة. سيكون ذلك مشهوداً ومنسجماً مع التقاليد. لقد رضي المطران أن يترأسها. وستكون من الضيوف الأوائل؛ أول كثيرين غيرك؛ على ما أرجو. أننا نأمل أن نستقبل في «إمبر» عدداً كبيراً من المراهقين.

نهضت دورا فجأة وقد شعرت بالاختناق وركضت إلى الممرّ حيث عثرت. وإذ أحسَّت بوجهها ملتهباً فقد أخفته بإحدى يديها وتركت من الأخرى سيكارتها التي سقطت على الأرضية. كان القطار يغادر أوكسفورد.

كان مستحيلاً أن تكون قد أخطأت السمع. لقد كان الاثنان ذاهبين إلى «إمبر»! لا بدّ أنهما عضوان في هذه «الجماعة» العجيبة التي حدّثها عنها پول. وظلّت في الممرّ مستندة إلى عارضة النافذة، باحثة عن سكاير في حقيبة يدها، وأدركت أنّ علبتها الثانية كانت في جيب معطفها الموضوع على مقعدها؛ لم يكن في وسعها تجديد الإزعاج.

كان يصلها من المقصورة صوتا توبي ومرشده اللذين كانا يتحدّثان ولاريب عنها. لقد سلّياها برهة، ولكنّهما سوف يصبحان من الآن فصاعداً قاضييها. إنه ليس للقاء في مقصورة بقطار كبير أهمية، وعلى كلٍ حال فهو غير مؤذٍ ـ كانت تجد سحراً لمثل هذه الاتصالات العابرة ـ ولكنّه يمهّد ويا للأسف لاجتماعات مضنية. وفجأة تساءلت عمّا إذا كان پول قد تكلّم في كثير من الأحيان عنها في «إمبر»، وما يمكن أن يكون قد قال. وأخذ خيالها يحوّم ويشرد من جديد حول المفهوم المباغت لوجود زوجها الحقيقي خلال أشهر انفصالهما، ولاسيّما حول فكرة أنه لم يكن قد عاش متوحّداً. لربّما كان قد أعلن عن قدومها اليوم، وربّما كان هذا الشخص الملّوح الوجه ـ الذي أضفت عليه الآن لقب رجل دين ـ قد أُرسل للإتيان بمن يُحتمل أن تكون زوجته أو لمراقبتها؛ لربّما كان قد لاحظ أنها كانت تجهد في استرعاء انتباه توبي. تُرى كيف صوّرها پول؟

كانت ذات خيال قويّ، على الأقل فيما يتعلّق بمشكلاتها الخاصّة، وإذ

كانت تعي هذا الخطر فقد اكتسبت فنّاً في طرد ما كان يزعجها من خاطرها، أو في إنامته على كل حال. ومع ذلك فإنّها لم تتمكن من أن تفعل في هذه المناسبة، فقد ترافقت البلبلة مع رؤية المشهد الذي سوف تشارك فيه وحقيقة مثوله أمامها. فقد كانت صفوفٌ من الضيوف محشودةً كما في معركة على أهبة الانتصاب لمحاكمتها ومساندة زوجها في الاتهامات التي كان عليها أن تتحمّلها. ولسوف يغدو جميع أعضاء «الجماعة»، هذه «الجماعة» التي أبغضتها قبل أن تتعرّف عليها، متّهميها. كيف لم تفكر في ذلك قبلاً؟ يا لحماقة أن يعجز الإنسان عن التفكير في غير أمر واحد في وقت معاً! لقد غدا يول في خاطرها حشداً من الناس لا يُحصى عددُه.

نظرت إلى ساعتها في هلع: لسوف يصل القطار إلى المحطة التي ينتظرونها فيها في أقل من عشرين دقيقة. ولا محيص عن العودة إلى المقصورة. طرّت أنفها وأصلحت من هيئتها بإدخال بلوزتها تحت تنّورتها وتسوية ياقتها، ثم اندسّت في زاويتها مطأطئة رأسها جاهدة في ألّا تسمع كلمات ضيفيْ «إمبر» اللذين كانا مستمرّين في الحديث. كان انقباض قلبها شديداً. ولاحظت بغتة فراشة حمراء تتنزّه في الغبار تحت المقعد المقابل. وللحال انبثقت فكرة مختلفة تماماً من خاطرها، وأخذت تحدّق في الفراشة لاهثة. رفَّت بجناحيها رفّاً رفيقاً واتّجهت إلى النافذة سالكة طريقاً خطراً قريباً من أقدام المسافرين. حبست هي أنفاسها. كان حتماً عليها أن تحميها، ولكنّها لم تكن تدري كيف تفعل وهي فريسة لتردّدها المعتاد. ولم يكن في حُسبانها أن تنحني أكثر أمام كل هؤلاء الناس وتستولي عليها؛ لسوف تكون النتيجةُ الحكمَ عليها بالحمق. وإذ أثّرت نظراتها الحادة في الشخص الذي قبالتها فقد انحنى متظاهراً بمعالجة رباط حذائه الذي كان معقوداً كأحسن ما يكون العقد، وإذ غيّر موطيء قدمه فقد لامس الحشرة التي كانت الآن تتنقّل بين المقاعد ووسط الأرضية.

twitter @baghdad_library

وجثت دورا وهي تعتذر والتقطت برفق ولطف المخلوق الصغير فى إحدى راحتيها وغطّته بحذر بالأخرى. كانت تحسّ باختلاجه. وأخذ جميع الركاب يتفرّسون في وجهها؛ وأما توبي وصديقه فباستلطاف ممزوج بالدهشة. ماذا يمكنها أن تفعل به الآن؟ تطلقه من النافذة؟ لسوف تمتصه العاصفة التي يحدثها القطار ويسقط صريعاً. ومع ذلك فإنه ليس في وسعها الإمساك به هكذا؛ لقد كانت تبدو في غاية البَلَه فرأت أنه من الأفضل أن تحني رأسها وتتظاهر بأنّها تتفحّص سجينها.

خفّف القطار من سرعته وتراءت المحطة. وأدركت مذعورة أنهم وصلوا. وجمع المسافران حقائبهما، واتّجه المسافرون الآخرون نحو الباب وقد سكن القطار في اختلاجة أخيرة. ونهضت دورا. كان ينبغي عليها طبعاً أن تنزل هي الأخرى. وأدخلت إحدى يديها في عروتي حقيبة الأشياء الضرورية والحقيبة القماشية وأطبقت الأخرى على الفراشة الساكنة. وإذ انتهت من العملية فقد اتجهت صوب باب المقصورة. كان عدد من الأشخاص قد بدأوا بالصعود. وشقّت لها طريقاً وهي تدافع بقوة محتفظة بالفراشة في أمان فوق صدرها، متيقّظة ألاّ تقع وهي تنزل على الرصيف لشدّة ما كان كعب حذائها العالي يزعجها. ظلّت ساكنة تنظر حواليها. وكان الرصيف مكشوفاً، وكانت الشمس تبهرها. وبقيت برهة لا ترى شيئاً. واستأنف القطار مسيرته.

نبض قلبها من جديد. كان زوجها يتّجه صوبها. لقد تغير قليلاً وضمر وأسمرّ وكشف هذا النهار الصيفي عن جماله الجنوبي في لباسه الأنيق الذي يذكّر قليلاً بلباس الملك «إدوارد السابع». كان ينظر إليها بصرامة، بحدّة، بشيء من الاحتراس القلق. بدت للحظة سعيدة: لقد فعلت على الأقل شيئاً لإدخال السرور على نفسه، لقد رجعت؛ ولكنّه ما إن اقترب حتى تحوّل كيانها كلّه إلى خوف وغمّ.

كان المجهولان يتبعان عن كثب، وقد وجداها طبعاً على الرصيف.

وابتسما للقاء من فوق كتف پول غرينفلد.

وقرّرت أن تستدير نحوه.

ـ نهارك سعيد يا دورا.

ـ نهارك سعيد يا پول.

قال رفيق توبي:

ـ سعيد بأن ألقاك يا سيدتي. كنت أوثر أن أعرف أنك السيدة غرينفلد لأني أخشى أن نكون قد أزعجناك بحديثنا. لقد سافرنا مع زوجتك يا غرينفلد من غير أن نكتشف هذه الصدفة السعيدة.

سأل پول:

ـ هل لي أن أقوم بالتعريف؟ جيمس تيپرپيس وتوبي غيش. أرجو أن أكون قد لفظت اسميكما بشكل صحيح؟ زوجتي.

ظلوا واقفين تحت الشمس الساطعة، وقد اختلطت ظلالهم. ولم يكن لدى مختلف المسافرين من سبب للتباطوء.

قال جيمس تيپرپيس من جديد:

ـ سعيد جداً بأن لقيتك.

أجابت دورا:

ـ وأنا كذلك سعيدة.

سأل پول:

ـ وأين حقائبك؟

صاحت دورا وفمها منفرج:

ـ يا للمساء!

كانت قد نسيت الحقيبة في شبكة المقصورة.

twitter @baghdad_library

ـ تركت الحقيبة في القطار؟

أحنت رأسها بصمت.

قال:

ـ واضح يا عزيزتي، ماعلينا إلا اللحاق بالعربة.

توقّف بغتة:

ـ أيكون دفتر ملاحظاتي فيها؟

ـ أجل، إني جدّ منزعجة.

قال جيمس محاولاً تهدئته:

ـ ولكنك ستجده. إني لا أعتقد بعدم الأمانة.

قال پول الذي عاودت القسوة وجهه:

ـ ليس هذا رأيي. تعالوا ماباليد حيلة الآن. ولكن لماذا تحتفظين بيديك مشبّكتين هكذا؟ هل تقرأين دعاء؟ ماذا يمكن أن يعني هذا؟

كانت دورا قد نسيت تماماً فريستها الصغيرة. فكّت أصابعها وضمّت معصميها الواحد إلى الآخر وفتحت راحتيها وكأنها زهرة تتفتّح. ظهرت الفراشة ذات الرقوش اللامعة. دارت حول الجمع وحوّمت فوق الرصيف المشمس وطارت بعيداً. ومرّت لحظة اندهاش.

قال پول:

ـ لا بدّ أنك مليئة بالمفاجآت.

ولحق الثلاثة به باتّجاه المخرج.

الفصل الثاني

كان پول يقود السيارة بأقصى سرعة خادشاً إياها على امتداد مروره بالأجمات الغبراء التي تكتنف جانبي الطريق.

وسأل جيمس تيپرپيس:

ـ أرجو ألّا تكوني منزعجة في مقعدك يا سيدة غرينفلد. أخشى أن تكون هذه أفضل سياراتنا على الإطلاق.

أجابت دورا وقد أدارت رأسها للردّ على مخاطبها الذي بدا عريضاً رغم كونه متربّعاً:

ـ إني على ما يرام.

لم يكن في مُكنتها أن ترى توبي الجالس وراءها بالضبط. وما كان ذلك ليهمّها على أيّ حال! فقد كانت حزينة لنسيانها حقيبتها في القطار. ولم تكن تجرؤ على رفع ناظريها إلى زوجها.

قال هذا:

ـ كنت أرجو الحصول على «الهِلمن منكس». ولكنّ «سيادته» لم يُصلحها بعد.

ساد صمت، ثم قال جيمس:

ـ لمرّةٍ كان القطار في موعده. لسوف نصل في الوقت المحدّد إلى «كومپليز».

twitter @baghdad_library

كانت الطريق ظليلة، وكانت أشعة الشمس الأخيرة تلامس أكتاف شجر الدردار الكبيرة الصفراء بلون الذهب تاركة سائر المنظر في ظلٍّ أخضر قاتم. وجهدت دورا في إيلاء الريف الذي كان يختال أمام ناظريها عنايتها. وكانت تنظر إليه بالدهشة المألوفة التي يبديها المدني الذي يبدو له هذا الزخرفَ غير المعتاد وكأنه كثير البذخ والاكتظاظ. وفكّرت بحنين في ضجيج لندن الذي لا سبيل للأسف عليه، وفي قذارة «كنغز رود» المحبّبة في مساء يوم من أيام الصيف عندما تفتح أبواب الملاهي على مصاريعها فوق الأرصفة. وجذبت رجلها إلى تحتها وهي ترتعش. ألن تواجه عمّا قريب كل أولئك الغرباء ثم تجد نفسها بعد ذلك وجهاً لوجه مع پول؟ كم كانت تتمنّى ألّا يحدث ذلك قطّ.

أوضح جيمس:

ـ إننا نقترب. هاكم سياج الملكية، لسوف نسير بمحاذاته حوالي الكيلومتر قبل بلوغ المدخل.

وبرز على يمين السيارة سور ضخم من الحجارة. وسرّحت دورا طرفها جهة اليسار في المكان الذي انتهت عنده الأجمة كاشفة عن حقل من القصب المذهَّب يتراءى عند نهايته ظلّ التلال البعيدة. وكانت تظنّ أن آخر صلة لها بالعالم الخارجي هي هنا ولاريب.

قال جيمس:

ـ سيكون منظر البيت رائعاً جدّاً حين ننعطف. هل ترى بسهولة من مكانك يا توبي؟

أجاب توبي وقد انحنى فوق رأس دورا:

ـ جيّد جدّاً. شكراً.

خفّفت السيارة من سيرها فقال پول:

ـ تبدو الأبواب مقفلة، وكنت مع ذلك قد تركتها مفتوحة، ولكنّ أحدهم اهتمَّ بإغلاقها بدافع من الشعور بالواجب.

أوقف المحرك وقد غاصت العجلات في العشب وضغط على المنبّه بضع مرات.

قال جيمس:

ـ لا تزمّر. سيذهب توبي ليفتح.

قال توبي الذي حرّك يديه ورجليه للإسراع في الخروج:

ـ عن طيب خاطر.

وإذ كان يرفع المزلاج العريض خارج الثقب المحفور في الإسمنت طارت ورقتان مطبوعتان فالتفّت إحداهما حول ساقه وحوّمت الأخرى فوق عرض الطريق.

ورفع پول المغموم جدّاً بصره إلى السماء كي يتجنب نظرات امرأته وقال:

ـ كنت أحب أن يقتنع «الأخ نقولا» بأن هذا المكان ينبغي أن يكون أقلّ قذارة.

لم يردّ جيمس. وعاد توبي فصعد إلى السيارة التي أعاد پول إدارة محركها للانعطاف بشكل زاوية مستقيمة. وبينما هم ينفذون إلى الملكية لمحت دورا على اليسار جناحاً سكنياً من الحجر، كان بابه مفتوحاً. وفي مكان ما بالداخل أخذ كلب ينبح، ولمحت طيف رجل قصير سمين ذي شعر طويل أبنوسي يبرز عند العتبة ويُتبِعهم نظراته.

التفت جيمس بينما كان پول ينظر في المرآة التي تعكس ما خلفه وقال بصوت خافت ونبرة تنمّ عن الضيق:

ـ حاضر، أجل.

twitter @baghdad_library

أجفلت دورا بفعل المفاجأة. فقد برز بيت مستطيل ذو لون رمادي فاتح من بعيد لنظراتها المعجبة عند أسفل ممرّ مزروع بأشجار جميلة. كان الوادي معتماً، ولكنّ البيت الذي كانت الشمس الغاربة تضيء واجهته كان بلون صورة فوتوغرافية أحال الاصفرار ألوانها الأصلية.

ـ هل في وسعك أن تحزر العهد الذي بني فيه القصر يا توبي؟

قال پول:

ـ من عهد «پلاديو»[1].

قالت دورا:

ـ آه!

كانت تلك أولى الكلمات التي تبودلت منذ انطلقوا من المحطة.

قال جيمس:

ـ ههنا نسكن. إننا نقيم في المقابل، ويقيم الآخرون أبعد قليلاً على اليسار. الطريق لا تؤدّي مباشرة إلى البيت بالطبع لأن البحيرة قائمة في الوسط. سوف ترونها بعد برهة كما سترون أسوار الرهبانية، ولكنّ هذه مختفية تماماً وراء الأشجار. يمكن رؤية البرج من جانب معيّن، لكن ليس من هنا، إلا في الشتاء.

نظرت دورا وتوبي إلى يسارهما فرأيا بين الأشجار سوراً عالياً شبيهاً بالذي على جانب الطريق. وانعطفت السيارة إلى اليمين فانكشفت حاشية من الماء أمام أبصارهم. قال توبي:

ـ لم أكن أدري أن الرهبانية قريبة بهذا القدر. أوه! انظروا، هاهي ذي البحيرة. هل بالإمكان السباحة فيها؟

---

(١) معماري إيطالي مشهور من عصر النهضة.

قال جيمس:

- من لا يخاف أن يوحل يستطيع ذلك، ولكن الأمر ليس مأموناً كثيراً في الوقت الحاضر في بعض الأماكن بسبب الأعشاب الحمقاء. الأفضل أن يرشدك ميخائيل فهو ضليع في هذا الشأن.

كانت السيارة تسير الآن بحذاء صفحة الماء الملساء اللامعة، وكانت طبقة القصب المستنقعي تحيل آخر ألوان النهار إلى طلاء خزفيّ شاحب. ولاحظت دورا ترامي أطراف البحيرة. كانت محصورة في هذا المكان، وكانت السيارة تجد عناء في شق ممرّ لها. خفف پول السرعة جداً ومرّ بحذر فوق جسر من الخشب أخذ يقعقع تحت العجلات.

قال جيمس:

- تغذّي البحيرةَ ثلاثةُ أنهار صغيرة، وهناك في الطرف الآخر مجرى ماء ينسرب داخل المستنقع.

اجتازت اللاند روڤر بالقعقعة نفسها جسراً آخر فوق مجرى ماء يميل لونه إلى الخضرة ويحفل بالأعشاب الضارّة المتلألئة خلال الألواح الخشبية المتباعدة.

أكمل جيمس قائلاً:

- حاولا أن تلمحا أبعد أطراف البحيرة لأنه ينعطف إلى الجهة الأخرى من الملكية. إن شكله بشكل حرف (L) رأسه إلى أسفل بالطبع إذا نظر إليه من هنا. ويقع البيت داخل مُنْحناه.

قطعوا جسراً ثالثاً وآنعطفوا مرة جديدة إلى اليسار، ولم يطل بدورا البحث عن المسكن الذي بدا للعيان مثل مستطيل من حجارة رمادية ذي ثلاثة صفوف من النوافذ. وأبعد من ذلك قام متراجعاً قليلاً عن الطريق فِناء بإصطبلات قديمة حوّلت إلى مرائب تعلوها ساعة كبيرة أنيقة.

twitter @baghdad_library

قال جيمس مشيراً ناحية اليمين إلى عدد من الخيام المعدّة ليزرع داخلها، وإلى عدد من أثلام الخُضَر:

ـ هذه هي المزرعة التي تمدّنا بما نحتاج إليه من خضر.

بعدها كانت تمتدّ حديقة واسعة مزروعة بأشجار كبيرة متفرّقة تحيط بها مروج مثقلة بآخر أنوار النهار الذي بدأ يشحب ويلفّه الضباب. وغدا الجوّ قاتماً تضيق به الأنفاس. لقد توقّفت اللاند روفر في الممرّ المفروش بالحصى أمام البيت وغدت دورا وقد اختنقت من الانفعال قرمزية اللون. قفز جيمس من مقعده الخلفي لمساعدتها على النزول وصرّ كعبا حذائها العاليان فوق الحصى. وتراجعت مسافة لرؤية القصر الذي بدا لها أقلّ جلالاً ممّا كان من بعيد. وكان هناك رواق مكشوف ذو أقواس معقودة فوق أعمدة كورنتية. ومن شرفة تفضي إلى غرف الطبقة الأولى انحدر سُلّمان متقابلان حلزونيا الشكل إلى خارج جناحي البيت وتعرّجا إلى الخلف وصولاً إلى الطبقة السفلى. وقد تُوِّج كل طرف من أطرافهما بأسد من حجر رابض بوداعة كالهررة، وبين تلك الأسود كان صف من النوافذ على الطريقة الفرنسية وضعتها يد جاحدة خلال القرن الماضي يضيء حجرة مترامية الأطراف. وعلى الحواجب فوق الأبواب نقش باللاتينية: «اجتزني بحبّ». وكان نقش مماثل يعلو الباب ـ النافذة المحاطة بشريط من الزخارف المنحوتة تقود البصر إلى أعلى حيث تبدو أزهار حجرية على الصدر الذي يستند إليه السقف وكأنها حيّة تقريباً؛ وقد بعثت فيها الروح آخر انعكاسات صفحة الماء. وأدركت دورا وهي تبتعد أن المكان الذي كانوا يقفون فيه كان سُطيحة تنتهي بدرابزين من الحجر تعلوه بعض الجرار وتتخلّله فرجات عشّشت فيها الأعشاب والطحالب. وكان منحدر خفيف معشب أمام البيت يقود إلى البحيرة، وعلى مسافة يسيرة درب وعر حدّدته بشكل تقريبي

بعض الأشجار ويقود كذلك إلى شاطىء البحيرة. وكانت قبّة مذهبّة تحدودب فوق السقف.

قالت دورا بدهشة:

ـ رائع!

أجاب پول:

ـ ليس مثالاً قليل الشأن في طرازه.

وكانت دورا تعرف بالتجربة أن لا شيء يمكن أن يجعله في حالة فُضلى كمثل فرصة مُتاحة لإطلاعها على أمور لا تعرفها. وأخذ ينظر إلى المسكن بانشراح كما لو كان هو الذي بناه بيديه وقال:

ـ تلميذ من تلاميذ «اينيغو جونز».

قاطعه جيمس بقوله:

ـ أظن أن علينا الإسراع إذا كنا نودّ الذهاب إلى «كومپلز». اعذروني وتركهم مندفعاً نحو السلّم. وما أسرع ما تبعه الآخرون.

وإذ وصل جيمس إلى فوق فقد توقف وسأل وهو يحدّق فيهم:

ـ أتخيّل أن القادمين الجديدين يحبّان الانضمام إلينا.

قال توبي:

ـ أجل، من فضلكم.

كان ذلك هو الجواب الملائم.

كانت دورا تفترض أن الـ«كومپلز» قد تكون نوعاً من قدّاس. ولسوف تؤجّل بذلك على الأقل لحظة لقاء جميع الساكنين، واللحظة الأخرى، وهي أسوأ من الأولى أيضاً، لحظة وجودها وجهاً لوجه مع زوجها. وهكذا وافقت.

ارتقت الدرجات تاركة يدها تهيم على الدرابزين الحجري العريض وقد

twitter @baghdad_library

تبعها بول صامتاً بادي الانشغال. كانت الشمس لاتزال غامرة، ولكنّها ارتعشت مع ذلك حينما وجدت نفسها على الشرفة الواسعة المبلّطة تحت الرواق. كان الباب المفتوح أمامها يفضي إلى قاعة كبيرة. وكان كل شيء معتماً تقريباً فيها إذ لم تُضأْ بعد. تبعت جيمس وتوبي ولمحت بيت درج كبير وأطيافاً كانت تجتاز القاعة وتخرج منها عند طرف قصيّ. وعبقت رائحة خبز عفن، رائحة دارٍ من دور التربية كانت تطفو فوق سطح هواء فاسد.

انفصلت امرأة عن الجماعة وأقبلت نحوهم قائلة:

ـ سعيدة جداً بأنكم وصلتم في الوقت المحدّد. أهلاً بكما في «إمبر» يا توبي ويا دورا. أخبركما بأننا متعوّدون هنا أن ينادي بعضنا بعضاً بأسماء العمادة. ومن جهة ثانية فإني أشعر بأني أعرفكما كليكما جيّداً، فطالما سمعتهم يتحدثون عنكما!

كانت هذه المرأة التي أصبح في وسع دورا الآن تمييز شخصها بفضل نور الداخل الكئيب تبدو متوسطة العمر مفرطة في البدانة. وكان وجه مستدير ساذج يغطّيه زغب غزير يضفي عليها صورة أسد لطيف. وكانت لها عينان زرقاوان محبّبتان وشعر طويل ذو شقرة باهتة ينتهي بضفيرة ملفوفة لفّاً محكماً حول رأسها.

قال لها جيمس:

إنها السيدة مارك.

وسألت هذه دورا:

ـ هل تودّين نيل قسط من الراحة؟

ـ لا، شكراً.

وإذ كانت تجيب فقد رأت من فوق كتف مخاطبتها شابّة أقرب إلى الجمال تندفع بإتجاه الباب. كانت ممشوقة جدّاً، وكان وجهها طويلاً صارماً، ولها

جفون كبيرة غليظة وشعر غزير فاحم كانت تعقده هي الأخرى فوق رأسها، ولكن خصلاً مجنونة من الشعر كانت تشكّل حاشية قصيرة مستدقّة. وقد التفتت باتجاه دورا التفاتة خفيفة وهي تبتسم لها قبل أن تغيب وراء الآخرين.

وشعرت هذه بالامتعاض، إذ كانت قد تخيّلت أنها إذ أُكرِهت على العيش في جوّ غير محبب إلى نفسها فستكون على الأقلّ أجمل الموجودين. وقد كان شخص بمظهر السيدة مارك في مكانه المناسب بالضبط في هذا المحيط، ولكنّ تلك الرؤية الأخيرة كانت مثيرة، بل شبه نذير بشؤم. وتذكّرت أنها كانت قد نسيت أن تردّ على ابتسامتها بمثلها، ولم ترتسم الابتسامة على شفتيها إلا بعد اختفاء الفتاة ببضع ثوانٍ.

سألت السيدة مارك:

ـ هل ندخل؟

وبدأت بالسير فتبعتها دورا برفقة پول. وجاء بعدهم جيمس وتوبي، ولكنّ جيمس اندفع بتهذيب يمسك بالباب مفتوحاً ودلفوا إلى ممرّ عريض. واستحوذ پول على يد امرأته يضغطها ضغطاً قوّياً سعى إلى أن يكون طويلاً. وكانت دورا تجهل ما إذا كان ذلك الضغط مُهدِّداً أو مُطْمئِناً فتركت يدها اللدنة وهي منزعجة أشدّ الانزعاج وقد أرهقها على الأخصّ فتور العزيمة إرهاقاً كبيراً.

دخلوا بعد هنيهة غرفة كبيرة مستطيلة مرتفعة السقف مزينّة الجدران بأخشاب معقّدة، وكانت مضاءة. وكان هناك ثلاث نوافذ عالية مقوّسة الأطراف عارية من الستائر تطلّ على الحديقة الواسعة التي كانت تبدو الآن معتمة بفعل غسق يلفّه الضباب. وارتسمت ظلال صور زيتية في شحوب مغبرّ زاد من كآبته فرجة في السماء أخذت الآن بالاتساع. ورمشت عيناها وخطر في بالها أن هذه الحجرة كانت فيما مضى ولاشكّ غرفة الاستقبال

twitter @baghdad_library

الرئيسية، أو ربّما غرفة المآدب التي كانت تقام في القصر، وقد حُوِّلت الآن إلى كنيسة داخلية. وكان طرف الجدار على يمينها مغطّى برمّته بستار من القنّب بلون أزرق ملكي ثبّت في وسط صليب بسيط جدّاً من خشب خفيف. وقام في الأسفل تحت ظُلّة مذبح مفروش بنسيج أبيض مقصّب يعلوه صليب من نحاس. وفي إحدى الزوايا قامت قطعة أثاث ثمينة تستخدم بلاريب مِقْرأ للترتيل. كانت الحجرة خالية بالإجمال إلاّ من بعض صفوف من الكراسي الخشبية ومجموعة من الطنافس. وكان فيها عدد ضئيل من الأشخاص قد جثوا، وبدا لها الصمت بفعل فرادة المشهد مأسوياً بعض الشيء. وحبست أنفاسها، ورسم جيمس تيبربيس علامة الصليب على وجهه وجثا قرب الباب، وسلك توبي السلوك نفسه.

وتمتمت السيدة مارك بعد أن دلّت السيد والسيدة غرينفيلد على مكانيهما: «سوف نضعكما في الصدارة»، ثم توارت لتجلس في كرسيها المعتاد.

توجّه بول ودورا إلى المقعدين المشار إليهما وهما يطآن الأرضية العارية بعناية فائقة. وبعد لحظة تردُّدٍ جثت دورا بجانب زوجها. وكانت تسمع وسط السكون التامّ نبضات قلبها الهائجة. وإذ تخلّصت من قبضة پول فقد شبكت يديها بلا تردد وهما يجتازان الباب، ولكنّها أدارت رأسها وأخذت تنظر إلى الغرفة مقاوِمةً بذلك جوّها الورع. ورأت كوّة مستديرة قائمة وسط السقف هي ولا بدّ الجزء الداخلي من القبّة الخضراء التي رمقتها من السيارة بإعجاب. ولكنّ القبة بدت من هذه الزاوية صغيرة جدّاً. وشرد بصرها لحظة في أفاريز بلون قشرة البيضة وزخارف وردية ونقوش من الجصّ المعرّش ثم رجع إلى المشهد الصارم الذي كان يتراءى أمامها.

كان في وسعها أن ترى في صفّ الكراسي الأول شخصاً جاثياً مشتملاً جبّة سوداء، راهباً ولاريب؛ وبقربه لمحت ـ ولم يكن ذلك من غير هزّة

كريهة ـ كومة لا شكل لها من الثياب الداكنة، وكان لا بد أن تكون لـراهبة. وكـان خلفهما في الصفّ الـذي ضمّ جيمس وتوبي ثـلاثة رجـال أو أربعة. وكانت السيدة مارك جاثية هي الأخرى وقد غطت رأسهـا بمنديـل مدعـوك كـانت قد أخـرجته عـلى عجل ولاريب وهي تجتـاز الباب. وكـانت الفتـاة السمراء التي سبق لها أن لمحتها في القاعة جالسة هي الأخرى في الصفـوف الأمامية منحنية جدّاً وقـد خبّأت وجههـا بيديهـا. وكانت قـد طرحت عـلى رأسها شالاً مبرقشاً بـدا من تحته شعـرها الفـاحم المربـوط وهو يلتمـع تحت الضوء الساطع. ولم يكن هناك أية امرأة أخرى.

أخذ أحدهم يتكلّم فأجفلت دورا مرتبكة. وجهدت في أن تفهم ولكنّهـا لم تتمكن من متابعة الخطبة. ويـدا لها أن الخـطيب كان الكـاهن. وبعد أن أصغت وقتاً طويلاً تبيّن لها أنه لابد أن يكون كلامه باللاتينية. كانت ذاهلة وقـد تكدّرت خـواطرهـا دون أدنى شـك. وارتفعت حـولهـا فجـأة همهمـة أصوات ونشأ حوار بين الخـطيب والحضور. وغـامرت بـإلقاء نـظرة سريعة على زوجها؛ كان جاثياً منبسط الكتفين ويداه خلف ظهره وعيناه مرفـوعتان قليلاً نحو الصليب القائم عند طرف الحجرة. وكـان يبدو في ذلـك المظهـر النبيل الشائع عنده كثيراً عندمـا يكون مشغـولاً بالتفكـير في عملـه، النادر جدّاً عندما يكون مشغـولاً بالتفكـير في زوجته. ومـع ذلك فقـد كانت دورا تتساءل عمّا إذا كـانت هذه الجلسـة الدينيـة قد أسهمت بـالصدفـة في تغيير مشاعره، إذ كان ذهنه متوجّهاً صوب أفكار سامية. إنها لا بدّ أن تسأله عن الأمر ذات يوم يكون فيه حسن المزاج.

ولاحظت بغتة أنّ الـراهبة الجـالسة في الصف الأول قد التفتت وأخذت تنظر إليها. كانت لاتزال شابّة ذات وجه عريض مشرب بـالحمرة ونـظرات واثقة جدّاً. وبـاللامبـالاة المغرقـة التي يملكها أولئـك الذين يعيشـون داخل حدود الورع تفـرّست لحظة في وجـه دورا بنظرة زاجـرة، ثم أدارت وجهها

twitter @baghdad_library

وتمتمت من فوق كتفها ببعض كلمات إلى السيدة مارك الجاثية خلفها. وقامت هذه الأخيرة بحركة مماثلة. وهال دورا أن تشعر بالحمرة تجتاح وجهها بإزاء برودة نظراتهما. وإذ كان من شأنها الاستسلام استسلام المخلوقات الذين لم يسبق لهم قطّ أن انتصروا فقد نظرت خلسة إلى السيدة مارك التي كانت قد نهضت على رؤوس أصابعها ودارت حول الكراسي وانحنت فوق كتف المرأة الشابّة. وجهدت هذه في سماع ما كانت تزجيه الآن إلى أذنها.

سألتها بنبرة أكثر حدّة مما شاءت أن تكون:

ـ ماذا؟

ـ ترجوك الأخت أورسول أن تتلطّفي بتغطية رأسك. هذه هي العادة هنا.

أجابت وهي على أهبة ذرف دموع الارتباك والانزعاج:

ـ لا أملك شيئاً!

غمغمت مخاطبتها وهي تبتسم بشكل مشجّع:

ـ إن منديلاً يفي بالحاجة.

فتّشت دورا في جيبها فوجدت الشيء المنشود، ولم يكن كبيراً جداً ولا نظيفاً جداً، فغطّت به رأسها. وابتعدت السيدة مارك على رؤوس أصابعها كما قدِمت، ونظرت الراهبة خلفها من جديد، ولكن برضى محبّب هذه المرة.

وعادت الحمرة إلى وجه دورا التي خُيّل إليها أنها رأت أن تعابير وجه پول كانت قد تغيرت، ولكنّها لم تجرؤ في الواقع على النظر إليه. وتشبّثت بمسند الكرسي الذي أمامها. واستمرّت الهمهمة باللاتينية. وأدركت أنّ تنوّرتها كانت ضيّقة بشكل مهول وأن نسلة بدأت تكرّ على مهل في أحد

جوربيها. وعلاوة على ذلك كانت قدماها تؤلمانها، وكان من غير المريح على الإطلاق أن تجد نفسها جاثية بحذاء ذي كعب عالٍ. وأخذت تنظر في الغرفة بشيء من الذهول. ولم تكن قادرة على اعتبارها كنيسة داخلية. فقد كان ذلك مكاناً خرِباً، غرفة استقبال قديمة وضيعة استُخدمت ملاذاً لاحتفال غير مرغوب فيه، احتفال نصفه عبوس ونصفه الآخر هزلي. وأطلقت زفرة حادّة وانتصبت واقفة وسحبت غطاء الرأس الأخرق هذا واتجهت بهدوء نحو الباب وخرجت.

وجدت نفسها في ممّر لايزال مجهولاً لديها؛ ولكنّها بعد أن جرّبت بعض الأبواب عادت فوجدت طريقها إلى القاعة المزدانة بالحجارة التي تؤدي إلى الشرفة. وأرهفت سمعها لتتأكّد أنّها غير ملاحقة فلم تسمع أيّ صوت مريب. كانت القاعة فسيحة ولكنّها خالية من كل زينة ومن الأزهار واللوحات. وكان فيها مدخنة مكسوّة برداء من الحجر المنحوت الذي أحسِنت صيانته، وكانت مملوءة بكومة من أكواز الصنوبر. وكانت هناك لوحة إعلانات من قماش أخضر أُشير فيها إلى ساعات الوجبات والخدمات وحملت إعلاناً عن إذاعة قريبة لأسطوانات من موسيقى باخ. ومرّت بسرعة فاجتازت الباب ـ النافذة إلى الشرفة وحاذت الدرابزين بين الأعمدة ونظرت إلى البحيرة من أعلى السُطيحة.

كانت الشمس قد اختفت، ولكنّ السماء كانت لاتزال جهة الغرب ملأى بوميض كوميض الجمر تزيّنه بعض السحب الشاحبة كان يبدو من تحتها صفّ من الاشجار الداكنة المضاءة الأفنان. وكان في وسعها كذلك أن تخمّن شكل البرج الذي لا بدّ أنّه جزء من الدير. وكانت البحيرة منوّرة نوراً خفيفاً في الوسط ومظلمة قرب الحواف، ولكنها كانت لا تزال محتفظة هنا وهناك فوق سطحها بطبقة من النور وكأنّه ضوء فوسفوري. وأخذت تهبط الدرجات واجتازت السُطيحة وسلكت خطّ الدرجات الأخرى الضيّقة

twitter @baghdad_library

الموصلة إلى الممشى القائم في الحديقة. وتوقّفت لأن قدميها كانتا تؤلمانها وخلعت فردة من حذائها لتدلّك إحداهما. وشعرت براحة كبيرة سرعان ما جعلتها تخلع فردة الحذاء الأخرى لتدلّك القدم الثانية فترمي بها بعيداً فوق الأرض العريضة المعشبة وتُتبِعها الأولى وتنطلق راكضة صوب البحيرة. وكانت الدرجات جافّة ولاتزال دافئة بشمس النهار، ولكنّ الممشى بين أشجار الطقسوس المشذّبة كان رطباً قليلاً بفعل الندى.

وعند طرف الماء المطرّز بنبتات القصب قام رصيف من الخشب رُبط إليه مركب صغير فاتن المظهر من تلك المراكب ذات المجاذيف. وكان مبسوطاً داخله مجذاف وحيد. وكانت دورا مولعة بالمراكب رغم شعورها بعقدة جهل السباحة. وصمدت للإغراء بدخول المركب وبالانزلاق فوق هذه المرآة الداكنة، ومشت بقصد التنزّه على طول الشاطىء خلل الأعشاب المرتفعة بعض الارتفاع فأخذت تعلق بطرف تنورتها. وكانت الأرض قد أصبحت رطبة مستنقعة تحت قدميها. وكانت البحيرة قد بدأت تنعطف انعطافاً شديداً تقريباً نحو اليمين، فخمنت أكثر مما رأت وجود منبسط آخر من الماء يفصل بين المسكن والدير. وظلّت هناك ناظرة إلى تلاعب الظلال، مهنئة نفسها على أنْ قد وجدت لحظة راحة من عناء النهار، وبقيت برهة وكأنّها كانت تصغي إلى السكون.

تعالى فجأة صوت جرس من الجهة الأخرى. ورنّ بسرعة وإلحاح حوالي الدقيقة. ثم عاد الهدوء الخيّر. واستدارت وأخذت تركض بسرعة نحو الممشى المنحدر. كان رنين الجرس يشغل بالها فجهدت في الإسراع فوق المنحدر، وإذ وضعت قدمها فوق الدرجة الأولى تذكّرت حذاءها. وبحثت عنه بين الأعشاب الطويلة في كل مكان، ولكنّ ذلك الحذاء اللعين لم يكن هناك. ورفعت عينيها إلى البيت المرتسم تحت الضوء الليلي، ثم عادت فتوقفت تفتّش بلا أمل في العشب. كانت العتمة من الشدّة بحيث لا يميّز

المرء شيئاً. وظهر نور في البيت، في مكانٍ ما باتجاه الشرفة، فتخلّت عن بحثها غير المجدي وبدأت تتّجه صوب السُطيحة. وكانت الحجارة ترضّ قدميها.

كان المكان الذي يأتي منه النور مطّلاً مباشرة على الجهة اليمنى من الشرفة بفضل باب مزدوج مزوّد بزجاج كان يبدو أنّه قد أُنشىء على يد الهمجي مخرّب الآثار الذي كان قد عمل في الطبقة السفلى. واستطاعت أن ترى عدّة أشخاص مجتمعين في الغرفة المضاءة، وإذ بدا لها مستحيلاً أن تتردّد فقد دخلت بسرعة وهي تتعثّر وتحمي عينيها بيديها.

تعلّق أحدهم بذراعها متقدّماً بها في الحجرة. كانت تلك السيدة مارك التي رفعت صوتها قائلة:

ـ يا لدورا المسكينة! لقد أخفناك، وأنا آسفة لذلك. أرجو ألا تكوني قد تهت في الحدائق؟

ـ لا، ولكني أضعت حذائي.

كانت قدماها باردتين كالثلج. وتراجعت بشكل لا إرادي لتجلس عند طرف الطاولة التي كان القوم قد اجتمعوا حولها.

قال پول بنبرة استهجان شديد، وقد انتصب بلاحراك أمام زوجته:

ـ فقدت حذاءك.

ـ لقد رميت بفردتيه في مكانٍ ما تحت الدرجات الحجرية؛ وقد سقطتا في الممشى ولم أتمكن من العثور عليهما.

وأدخل هذا التوضيح الذي لا اصطناع فيه راحة عجيبة على نفسها. وتقدّم جيمس تيپرپيس وأعلن:

ـ ينبغي تنظيم حملة نجدة! وسوف تتألّف من توبي ومني لاغير لأننا وحدنا سبق لنا شرف التعرف إلى السيدة غرينفلد. سوف نُزوّد كلانا

twitter @baghdad_library

بأضواء نفّاذة وسيتاح للسيدة مارك في هـذه الأثناء أن تقـدّم الحاضرين ليتمّ التعارف.

قال پول: «أرافقكما». وكانت دورا تعلم أنّـه يرى نفسـه الوحيـد القادر على العثور على ما أضاعت. وكانت ترجو بحرارة أن يكون الأمـر كذلـك؛ فلسوف يقرّب هذا بينهما.

رفعت عينيهـا إلى الوجـه الوحيـد المعـروف الـذي بقي، وجـه السيـدة مـارك، وهي تترجّـح على قـدميها المثلجتيـن المغطّاتيـن بجوربيهـا الممزّقيـن المبلّلين. وكـان أمامهـا عدّة أشخـاص يتفرّسـون فيها. ولم تكن تجـرؤ عـلى النظر إليهم، وكان كل شيء شديد الوطأة في الوقت الحـاضر. والحق أنها لم تكن تبالي بما لا بدّ أن يدور في خلد كل منهم أو بما سيقول.

قالت السيدة مارك:

ـ ينبغي أن تتعرفي إلى جمعنا الصغير. لقد سبق أن تعرّف توبي إليهم.

ولاحـظت دورا، وهي لاتـزال رانيـة إليهـا، وجههـا المـورّد الخـالي من المسـاحيق اللامـع المزغب في آن متخيّلة مـدى طول ضفـائرهـا الشقراء إذا انسدلت من فوق رأسهـا. كانت تلبس بلوزة زرقـاء مفتوحـة عند النحـر، وتنّورة من القطن البنّي اللون تنسدل فوق ساقين عـاريتين كسـاهما الشعـر، وتنتعل خُفّين من القماش.

ـ أقدّم لك پيتر توپغلاس.

ـ وحيّاهـا رجل طويل أصلع بنظّارتين ضخمتين وهو يتمايل.

ـ وهذا مايكل ميد، رئيسنا.

وابتسم رجل ذو أنف أقنى وشعر باهت أشعث وعينين زرقاوين شديدتي التقارب، ابتسم بشيء من التراخي والحَصر.

ـ وهذا مارك سترافورد بلحيته.

وتقدّم رجل قويّ البنية ذو شعر مشعّث ولحية بلون الزنجبيل وقسمات توحي بشيء من روح التهكّم فانحنى أمام السيدة غرينفلد. وكانت تفوح منه رائحة مطهِّر قويّة.

- إني السيد السيدة مارك؛ إذا كنت تدركين ما أقصد.

- أقدِّم لك بعده پاتشواي، وهو تمثال من تماثيل العناد في سبيل ازدهار قطعة الأرض التي تُزوِّدنا بالخضرة.

وحدج دورا بنظرة مقطّبة شخص قذر الثياب وقد علت جمجمته قبّعة قديمة رثّة فبدا غريباً عن الجمع.

- وهذا هو الأب بوب جويس، الكاهن الذي يتلقّى اعترافاتنا.

وكان الرجل قد دخل الحجرة في تلك اللحظة بالذات فسارع نحو دورا وصافحها. كان وجهه منتفخاً. وكانت عيناه الغائرتان تلتمعان بفعل اليقين وراحة البال. وابتسم مُبيناً عن صفّ من الأسنان المسودّة المتراكبة، ولكنّ النظرة النافذة التي رمقها بها بدت لها ماكرة.

- وهذه هي الأخت أورسول منسّقة علاقاتنا بالدير.

وأشرق وجه الراهبة. كان حاجباها أسودين مرسومين بدقة، وكانت ملامحها تنمّ عن سطوة. وشعرت دورا بأنّها لا يمكن قطّ أن تغفر لها حادثة المنديل.

قالت هذه الأخيرة:

- يسعدنا أن نراك بيننا. وقد ذكرناك في صلواتنا.

احمرَّ وجه دورا وهي نصف مستنكرة ونصف مرتبكة. ومع ذلك فقد تمكّنت من الابتسام.

twitter @baghdad_library

ـ أخيراً هذه كاترين فاولي، قدّيستنا الصغيرة التي سوف تحبّينها، وأنا على يقين من ذلك، كما نحبّها.

التفتت دورا ونظرت إلى الصبيّة وقالت:

ـ مرحباً.

ـ أجابت كاترين:

ـ مرحباً.

وخطر لدورا بشيء من الارتياح أنّها لم تكن بوجه الإجمال جميلة حقّاً. فالواقع أنّ قسمات خجولة ووجهاً نفوراً بعض الشيء كانت تمنعها من أن تكون باهرة. كانت ابتسامتها دافئة ولكنْ على شيء من الغموض. ولم تسترعِ عيناها اللتان بلون بحر رمادي بارد نظر دورا التي وجدتها بشكل إجماليّ كئيبة بعض الشيء من غير أن تجد لشعورها تفسيراً.

وسألتها السيدة مارك:

ـ هل ترغبين في بيضة مسلوقة أم في شيء آخر؟ من عادتنا أن نتناول الشاي في الساعة السادسة، وحليباً وبعض البسكويت ولا شيء غير ذلك بعد «كومبلز». وأشارت إلى مائدة بجانب الجدار عليها أقداح وعلبة بسكويت عريضة كان بيتر تويغلاس لا ينفكّ عن البحث بأصابعه داخلها.

كان الجمع الذي أحاط بدورا قد تشتّت. وكان مايكل ميد يتحدّث غير بعيد مع مارك سترافورد وعلى شفتيه ابتسامة عصبيّة ويداه الطويلتان تتحركان حركات إنسان شرقي. وكان بيتر تويغلاس يهمس لنفسه في آخر الغرفة شارد اللب:

ـ لا، لم يعد هناك بسكويت.

قالت دورا:

ـ لا، شكراً، لا أريد بيضة. لقد قضمت بعض الطعام في القطار.

ـ بعض الحليب إذن؟

ـ لا أريد بالفعل، إنك لطيفة جدّاً.

كانت تفكّر في زجاجات الويسكي التي جلبتها. لا بدّ أن تكون الآن في «غال الجنوبية».

دخل جيمس تيرپيس وكأنه إعصار وصاح «انتصرنا! توبي هو الفائز».

كـان هذا الأخـير يتبعه حـاملاً فـردة من الحذاء في كـل يد. وغض من بصره وهـو يقترب من دورا وغـدت وجنتاه المتـورّدتين أشـد تـورّداً. وأحنى رأسه المدوّر مُعيداً إليها حذاءها مُرْفَقاً بتحيّة مرتبكة.

قالت:

ـ أوه! ما أشدّ اعترافي لك بالجميل يا توبي!

وبرز پول مقبّض الوجه من الإنزعاج. وأعلن الأب بوب قائلاً:

ـ عمل متقن يا أصدقائي الأعزاء. ينبغي التمتّع بما ضاع ثم وُجدان أكثر من التمتّع بما لم يسبق قطّ أن ضاع.

قال جيمس:

ـ لّما كان قد عُثر بالاختصار على حذاء السيدة غرينفلد ففي إمكاننا جميعاً أن نأوي إلى فُرُشنا.

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث

أزفت الساعة المقدَّرة للّقاء وجهاً إلى وجه فهتف پول بانزعاج شديد:

ـ ذلك الدفتر لا يعوّض. إنه يمثّل عدّة سنوات من العمل. ما كان أغباني إذ طلبت منك إحضاره إليّ!

ـ إني آسفة للغاية، ولكنّي على يقين من العثور عليه. سوف أذهب غداً إلى المحطة.

ـ كان عليّ أن أتلفن من غير أن أنتظر، ولكنّ تهريجاتك طردت من ذهني هذه الفكرة الرئيسية. بالحق، لماذا أرسلت حذاءك يتنزّه؟
قالت بانكسار:

ـ لأن قدميّ تؤلمانني. سبق أن قلت لك ذلك.

كان كلّ منهما ينظر إلى الآخر تحت النور القوي الذي كان يرسله مصباح كهربائي لم يفلح أيّ ساتر في التخفيف من حدّته. ولا بدّ أن الغرفة القائمة في الطبقة الأولى وتضيئها نافذتان عريضتان قد كانت فيما مضى حجرة فسيحة، ولكنّه لم يبق من أثاثها القديم سوى مرآة كبيرة ملصقة إلى الجدار ومنضدة ثمينة من خشب الأكاجو ظلّتا هنا ولا ريب بوصفهما من ذخائر الماضي. وكانت بعض الحُصُر المصنوعة من الخيزران والسجاجيد الجديدة، وإن متواضعة، لا تغطّي سوى جزء ضئيل من الأرضية، وكان سريران

ضيّقان من الحديد وكرسيّان ومِنصبة كبيرة صفّف عليها پول الكتب والملفّات تمثّل مع حقيبته غير المغلقة تماماً كل الأثاث الراهن. وكان صدى صوتيهما يدوّي في الحجرة.

أخذ پول يتفرّس في وجه زوجته ويده على ردفه؛ وكانت تعلم أن هذا المسلك مظهر من مظاهر الحبّ الظامىء المشبوب الذي لا تزال توحي به إليه. وعلى الرغم من أنها كانت منزعجة بعض الشيء فإنّها تتأمّل بإعجاب رجولته والثقة التي كان يقود بها المعركة في سبيل هدفيه الأساسيين: عمله وهواه. ولشدّ ما كانت تشعر بأنها غثّة غير متماسكة إذا ما قيست إليه، شيء صغير جدّاً، حبّة من تراب..

ولكي تضع حدّاً لهذا التأمّل الحادّ فقد هزّته بلطف من كتفيه:

ـ أتوسّل إليك يا پول ألاّ تغضب مني.

ابتعد بخشونة وقال:

ـ ساذجة جدّاً في الحقيقة. فبعد أن خنتني ما خنتني تهدهدينني متمتمة: «لا تغضب».

وأخذ يحاكي موقفها في الرقّة والنسيان ثم غاص فجأة في حقيبته فأخرج منها كيس اسفنجة نظيفاً باللونين الأسود والأبيض.

هتفت قائلة:

ـ ماذا في وسعي أن أقول؟ إني على كل حال بقربك في الوقت الحاضر.

ـ كلا، لا أوافق على الرأي الذي قال به الأب بوب منذ قليل. المثل غير صحيح: لا ينبغي أن يغتبط المرء بعودة النعجة الضالّة. وعلى كل حال فإنّي أُعلِمك بأنّك إذا كنت قد رجوت ذلك فسوف يخيب رجاؤك خيبة قاسية. لقد حقّرتك أعمالك الطائشة في نظري إلى الأبد.

twitter @baghdad_library

وإذ قال هذه الكلمات فقد غادر الغرفة.

فتحت دورا حقيبتها القماشية وقد فترت همّتها، فلم تجد فيها ثياب نومها لأنها كانت قد بقيت في الحقيبة المنسيّة. ولكنّها نعمت على الأقلّ بأن وجدت فيها فرشاة أسنانها. لقد أضنتها أقوال زوجها أشدّ الضنى. فكيف أمكنه الحكم عليها بناء على أعمالها السابقة؟ لم يسبق للماضي أن كان له وجود عندها، وها قد خطر في بالها الآن لأول مرّة أنّه من الممكن أن يفكر زوجها في استخدامه لتعذيبها. وإذ خشيت أن تبكي فقد كفّت عن التفكير، وهو أمر طالما كان سهل المنال عندها، وذهبت تفتح النافذتين اللتين لا ستائر لهما على المدى الذي تستطيعه. كان الليل ثقيل الوطأة مزيّناً بالنجوم. وكانت البحيرة تبدو من هذه الناحية وكأنها في متناول اليد. وكانت دكناء رغم أن صفاء الأديم كان يفضّض بعض أماكن منها تفضيضاً خفيفاً، ومع أن القمر لم يكن قد ظهر بعد فإن أشكالاً مختلفة كانت تُلْمَح من بعيد.

رجع پول فقالت له زوجته:

ـ لا أملك ثوباً للنوم، فكلّها موضوعة في الحقيبة.

أجابها وهو يقرن القول بالإشارة:

ـ في وسعك أخذ أحد قمصاني. هاكِ واحداً بحاجة إلى غسل على كل حال.

ـ هل قلت للراهبات شيئاً عني؟

ـ لم أحدّثهن بشيء. غامرت ببعض التلميحات لأفراد «الجماعة»؛ وإن لم تكن تلك التلميحات داعية إلى الاعتزاز على الإطلاق فلست مسؤولاً عن ذلك.

ـ هل سيُخيّل إليهم أن صلواتهم البغيضة هي التي قادتني إلى هنا؟

ـ إني أحترم هذا المكان وأطلب منك أن تفعلي مثلي.

لقد رغبت في أن تسأله عمّا إذا كان يؤمن بالله، ولكنّها لم تستطع حزم أمرها. ومن جهة ثانية فقد كان ذلك أمراً مُسلَّماً به. ولذلك فضّلت أن تقول:

ـ من المتعذِّر عليّ تغيير أيّ شيء من الماضي.

نظر إليها بجفاء وقال:

ـ كان عليك الاستنكاف عن الكلام في الأمر بهذه الخفّة، ولكنّي أعلم جيِّداً ويا للأسف أنه لا يسعني في حالة كحالتك أن آمل في إظهار التوبة، لأنّي أحكم بأنَّك عاجزة عن أدنى تفكير.

أجفلت لسماع صوت جرس من الجهة الأخرى من الماء يصلصل عبر النافذتين.

ـ الجرس مرة أخرى! ماذا يعني ذلك؟

ـ إنه يعلن مختلف القداديس، وحالياً قدّاس السحر. وإذا استيقظت باكراً في الصباح استطعت سماع أجراس صلوات الفجر والساعة السادسة. ومن جهة أخرى فعمّا قليل يُسمع صوت ناقوس.

أخذا يخلعان ملابسهما، وأكمل پول حديثه قائلاً:

ـ هناك أسطورة في هذا الشأن. اكتشفتها في أحد المخطوطات. لا بدّ أن تعجبك.

ـ وما هي؟

ـ المؤسسة قديمة جداً، هل تعرفين ذلك؟ لقد آوت راهبات بندكتيّات بشكل متقطِّع منذ القرن الثاني عشر. والمذهب السائد فيها حالياً هو مذهب الكنيسة الانغليكانية طبعاً، ولكنْ من مصدر بندكتيّ. وتشير القصة إلى أنه في القرن الرابع عشر ـ قبل إلغاء الأديرة ـ كان لإحدى الراهبات عشيق.

twitter @baghdad_library

وليس المهمّ أن مثل هذا الأمر كان في ذلك الزمان غير مألوف البتة إن جاز القول، وإنما أنّ ذلك المذهب كان قد تمتّع حتى ذلك الحين بشهرة واسعة. وهوّية المذنبة مجهولة. وكان شابٌ قد شوهد يتسلّق الجدار مرة أو مرتين. وهذه التصوينة التي ما تزال قائمة ـ أقول هذا عرضاً ـ مرتفعة جدّاً. وذات يوم سقط هذا المولّه الملحاح سقطة غاشمة ودقّ عنقه. ودعت الرئيسة من كانت تعلم من الراهبات أنها مذنبة للذهاب إلى كرسي الاعتراف. ولم تستجب أيّ منهن للنداء.

وأصدر المطران ـ وهو شخصية تتمتع بروحانية سامية ـ الأمر نفسه. وإذ لم يحصل بدوره على امتثال فقد دعا بنزول غضب الله على الدير، وهكذا تنصّ الرواية على أن «ناقوساً طار من البرج كالعصفور وغاص في البحيرة».

هتفت المرأة الشابة:

ـ أوه! يا ربّ.

فاستطرد پول:

ـ لم تنته المغامرة بعد. فقد ثقل الأمر على الراهبة الجانية فاندفعت للتوّ خارج جدران الدير وهرعت تغرق نفسها في مياه البحيرة.

ـ أوه! يا للمخلوقة المنكودة!

ـ ها أنت ذي طبعاً تتماهين على الفور مع الخاطئة.

ـ لاريب أنها كانت قد أُجبرت على الدخول في الرهبنة. هناك غيرها وجدوا أنفسهم في مثل هذه الحالة.

ـ لقد حنثت بنذرها.

ـ هل القصة مطابقة للواقع؟

ـ مثل هذه الأساطير تستند في العادة إلى أساس من الصحة. الجميع

متّفقون على أنّ ناقوساً شهيراً كان هنا؛ ولكـنّ أحـداً لا يعرف بالواقـع ماذا حلّ به. وإذ كان حِرَفِيّ شهير من غلوسستر، هو هيوز بليتير الملقب بصاهـر الأجراس، قد صبّه فقد اشتهر برنينه المتناغم المزوّد بسلطان لتبديد الأرواح الشريرة. وكان بليتير قد نحت على جوانبه مشاهـد من حياة المسيـح، الأمر الـذي لم يكن مألـوفاً ولا شـائعاً في تلك الأيـام. ولو لم يختفِ ذلـك الشيء لكان ولا شكّ مـوضع اهتـمام وفائـدة عظيمـين. ومن جهة ثـانية فـإنه من الممكن في الواقع أن يكون الجرس قد رمي في البحيرة أيـام الفتن الدينيـة، وأن يكون من رَمَوْه إمّا أولئك الـذين نهبوا الـدير، وإمّـا ـ وهذا الافـتراض يبـدو أكثر مـطابقة للواقـع ـ الراهبـات أنفسهن اعتقاداً منهن بـأنّهن يضمنّ بـذلك الحفـاظ عليه. وقـد كان المعـدن الذي صنـع منه ذا قيمـة حقيقية. وأظن أن البحيرة قد جُرفت ولكنّ أحداً قطّ لم يعثر عليه. ولقـد أُطلق عليه اسم «جبريل».

ـ كان له اسم! يا للقصّة الرائعة! ولكنْ أيّ أسى يخـامرني عـلى الراهبـة المسكينة. هل رؤي شبحها هائماً من حين إلى آخر؟

ـ لا تـذكر القصـة ذلك، ولكنْ هنـاك أسطورة. يُقـال إن الجرس يـرنّ أحياناً في قعر البحيرة ويُزعم أن ذلك الرنين علامة مُؤْذِنة بالموت.

ارتعشت دورا. كانت قد إنتهت الآن من خلع ملابسها وأخذت ترتدي قميص پول. سألت:

ـ هل تحدّثت عن ذلك إلى أحد غيري؟

ـ لا، لست أذكر. بلى، يبدو لي مع ذلك أني ناقشت الأمر مع كـاترين.
توجّه بعد هذه الكلمات إلى السرير.

شعرت دورا بوخز مزعج فارتفقت النافذة ونظرت حواليهـا. كان القمـر قد برز والبحيرة واضحة للعيان مجعّدة الصفحة إمّا بفعل النسيم وإمّا بفعـل

twitter @baghdad_library

بعض المخلوقات الليلية. وكان هواء ثقيل معطّر قد انتشر في الحجرة. وكانت رؤيتها قد ازدادت وضوحاً في تمييز الفسحة الممتدّة أمامها، والواجهة الكئيبة لسور الدير المثلّم بالوميض والظلال، والأشجار ذات الرؤوس المحدّبة المحتفظة بضوء شاحب، وأشكال الأخياس الطويلة العجيبة الغائصة عند أقدام تلك الأشجار.

وإذ أدارت رأسها قليلاً نحو اليسار فقد اكتشفت ما بدا لها أنّه سدّ واطىء مُقام على سلسلة من الأقواس اخترقت أقرب أجزاء البحيرة إلى السور. وبغتة رأت وقد ملأ الفزع كيانها شكلاً داكناً ساكناً تمام السكون على الضفة. دقّ قلبها بعنف ووجدت مشقّة في كظم صيحة دهشة. ثم إن الطيف انتقل من مكانه فلم تلبث أن عرفت فيه توبي غيش الذي كان يهيم عند حافة الماء واطئاً العشب بخطى واسعة. ولكيلا يظنّ پول أنها كانت مستغرقة في بعض التأمّلات فقد ابتعدت قليلاً عن النافذة وهي حريصة على إبقاء المتنزّه المتوحّد على مرمى بصرها.

سألت:

ـ هل سيكون لهنّ جرس جديد؟

أجاب:

ـ أجل، لقد صُبّت نسخة طبق الأصل تماماً بناء على طلبهن وسوف تعلّق في البرج. ويبدو أنها ستصل قبل رحيلنا. سوف يستبقيني عملي خمسة عشر يوماً أخرى.

لمحت دورا توبي الذي كان قد استدار ونظر إلى الخلف. ثم إنه مدّ يديه بغتة ورفعهما فوق رأسه. وبدا لها أنه يجسّد في هذه اللحظة صورة الحرية الحقيقية.

وإذ شعرت بالعجز عن أن تحتمل زمناً أطول تلك الرؤية فقد ابتعدت

عن إطار النافذة. وكان زوجها يراقبها وهو جالس على السرير وفي يده كتاب.

نظرت إليه بضغينة وقالت:

ـ إنه لأمر فظيع. فأنت شغوف بأن تقصّ عليّ قصصاً مؤلمة. مازلت أذكر حكاية موپاسان البغيضة عن بعض الكلاب وقد قرأتَها لي بصوت مرتفع.

استمر پول في التفرّس بوجهها، وأدركت بشيء من الغموض أن القصة التي حلا له أن يسردها لها قد أيقظت رغبته التي كان يكبح جماحها قبلاً. وكان عنف الحادثة قد أثاره: إنه يرغب فيها. وكانت هي أيضاً تنظر إليه بمزيج من التقزّز وهياج الأعصاب.

قال:

ـ تعالي يا دورا.

ـ بعد لحظة.

واستدارات فلمحت صورتها في المرآة الكبيرة. وإذ كانت حافية القدمين لا تلبس سوى قميص زوجها الكابي المقوّر جداً الذي لا يعدو فخذيها ويكشف عن ساقيها الجميلتين الملساوين فقد نظرت بدهشة إلى المرأة التي كانت تقف في مواجهتها وأعجبت بعنقها الملوّح بالشمس وبتناغم شعرها الطويل الذي يداعب رقبتها. ورمت برأسها إلى خلف واستمرت تحملق بعينين واثقتين في تلك المخلوقة التي كان پول يجهلها حتى هذه الساعة. وكان مشهداً مُطَمْئِناً مشجّعاً جداً.

twitter @baghdad_library

وحاصل الكـلام أنّها كانت مـوجودة، هي دورا، ولن يتمكن أحـد، لا لن يتمكّن من ملاشاتها.

كرّر پول:

ـ تعالي يا دورا.

ـ أجل.

واتجهت صوب سرير زوجها وأطفأت النور.

الفصل الرابع

كان القمر قد بدأ يظهر. وكان توبي غيش ينظر وهو منحنٍ وقدماه في الماء تقريباً خلل البحيرة العجيبة. وكانت الأضواء خلفه قد أطفئت في المسكن الكبير. وكان أمله قد خاب عندما علم أنه لن يقيم في القصر وإنما في الجناح التابع له برفقة عضو من أعضاء «الجماعة» لم يتسنّ له بعد أن يتعرّف إليه. فلطالما أحبّ أن يسكن في المنزل الجميل بصحبة الآخرين، وكان منزعجاً لمجرّد التفكير في أنه سيُحبس مع مجهول.

لقد وضعه أبواه اللذان يعيشان شمال لندن تلميذاً في القسم الخارجي من ثانوية، الأمر الذي أدخل على نفسه شعوراً خفيفاً بالدونية وفهماً رومنطيقياً للحياة المشتركة في آن معاً. وعندما حضر لزيارة الثانوية جيمس تيبر پيس الذي تربطه صداقة بأحد المعلمين وحدَّثه في كنيسة المدرسة الداخلية عن تجربة «إمبر» ساورته رغبة عارمة في الذهاب إليها. وكان من جهة ثانية قد أصبح منذ موافقته الواعية مسيحيّاً مواظباً إلى أقصى الحدود على العبادة، وأخذ يشعر برغبة مضطربة في تكريس حياته للمسيحيّة. وكانت فكرة العيش والعمل بعض الوقت على الأقلّ في ندوة تضمّ أناساً ورعين سبق أن ضحّوا بحياتهم الدنيوية يستهويه بعمق. وكانت «جماعة إمبر» التي تأسّست منذ وقت قريب لاتزال في المراحل التمهيدية من تجربتها. وكان أفرادها يزاولون كل الأعمال، ولاسيّما أعمال الأرض،

twitter @baghdad_library

منهمكين في حديقة الخُضَر لتأمين حاجات الدير وحاجاتهم، محتفظين ببعض النتاج للتسويق. وكان شيء نوراني، بسيط وقويّ معاً، في هذا النمط من العيش يهزّ بعمق مشاعر المراهق. وكانت تجربته الدينية لاتزال محدودة، ولكنّه كان ملتهباً بالفكرة المسرحية بعض الشيء التي لاحت حديثاً في أفقه مترافقة مع تأثّره بشخصية جيمس وبذلك المزيج من الصلابة والإخلاص الديني.

وإذ تقدّم بطلب للسماح له بزيارة «إمبر» فقد أجيب ـ ويا لفرحته العظمى ـ بأنّ في إمكانه الذهاب إليها والعمل فيها مدّة شهر خلال نهاية عطلة الصيف قبل الإقامة في أوكسفورد لتعلّم مهنة الهندسة. وكان خياله قد صنع قبل ذلك صورة دقيقة عن هذه التجربة في الأخوّة الإنسانية التي سوف يلتحق بها، وعن تلك «الجماعة» المتواضعة العاملة الباعثة على التقوى التي ستشدّ أزره لمقبل الأيام بفضل الاحتكاك بأشخاص زاهدين بهذا العالم والاقتداء بهم. وبالتالي فقد أحزنه أن يعلم أنّه سوف يعيش على حدة، ولكنّه سرعان ما وطّد النفس على قهر خيبة أمله بالدّعة المنشودة، وهي من جهة ثانية أمر ميسور في حقبة من الزمان تطفح فيها نفسه بالرجاء والطاقة.

سوف يعود بعد بضع دقائق إلى البيت الذي طلب إليه مايكل ميد الانتظار فيه ريثما يجد الفرصة المناسبة ليقوده إلى الجناح. وقد أخذ ينظر حواليه في ضوء القمر مرتقباً شبح مرافقه. كان توبي من سكان المدن، وكان كل ما في الريف يعني له معنى عميقاً، معنى روحانياً تقريباً. وكان يشعر بأنّه لن يشبع أبداً من الشمس والهواء والأعمال البدنية الشاقّة والرفقة! فلو أعطي مسحاة لعزق حقل بأكمله لظنّ أنه في علّيين! ومدّ ذراعيه فوق رأسه وأرخى جسده ليتحقّق من ليونته. وتذكّر أنه سمع بعضهم يقول إن المرء لا يدرك قطّ في الوقت المناسب الكنز الذي يمثّله

الشباب. فلم يكن ذلك صحيحاً في حالته هو. لقد كان مزوّداً بامتياز معرفة ثمن ذلك الكنز، وبشكل حادّ جداً في لحظات مثل هذه اللحظة.

أدار عينيه في الاتجاه الآخر صوب البحيرة متابعاً سور الدير نحو اليمين حيث قد ينتهي إلا إذا كان يستدير في الخلف بين الأشجار. ورأى سدّاً مبنياً من قرميدات عتيقة على الضفة الأخرى والفتحة المظلمة لمدخل الدير تحت قبّته الكبيرة. وزاد الليل الموشوم بالنجوم من حدّة المشهد المثير لمكان أقفر ليلاً من الناس. ولم يكن هذا اللندني متعوّداً رؤية أضواء القمر فابتهج لهذا النور الذي كان يبعث رؤى تشبه الأشباح، والذي لم يكن سطوعه يتبدّى إلا بحدّة الظلال المبعثرة. وحدّق في أسوار الدير. كان كل شيء فيه يبدو هادئاً، ولكنّه كان يعلم أنّ هذا المكان السرّي ما كان قط ليستريح. وتساءل عمّا يمكن أن يقوم من علاقات بين الدير والقصر. فقد تهيّأ له أنّه فهم أنّ الراهبات ينتمين إلى مذهب بندكتيّ منغلق جداً، وأنّه ليس لهنّ إلاّ علاقات محدودة كثيراً بالعالم الخارجي. وعلى الرغم من شدّة رغبته في الاستعلام عن ذلك فإنّه لم يشأ أن يطرح كثيراً من الأسئلة خشية إظهار جهله.

كان عليه الآن أن يذهب فساوره من جديد لهذه الخاطرة خجل طفيف. وعاد يعيش يومه الأول. كان قد شعر أول الأمر ببعض الخوف من وجوده وحيداً مع جيمس تيبر پيس، ولكنّ السفر انقضى أخيراً على ما يرام. فقد كان جيمس بسيطاً جداً وهادئاً جداً وكان من السهل التحدّث إليه. ولقد تعاظم الإعجاب الذي أكنّه له أكثر فأكثر. ففي سنّه تكون الحاجة إلى الإعجاب قويّة، وحين كان يُعجب فإنه لم يكن لإعجابه حدود. وإذ فكّر بعد ذلك في مايكل ميد الذي كان يتوقّع بسرور أن يراه من جديد فقد ظلّ متردّداً بعض الشيء. فلقد خيّب ظنّه قليلاً مظهره البدني. كان هزيل البنية يشي كيانه بالإعياء، وكانت تعوزه ثقة جيمس الصارخة. وكان يبدو عليه

twitter @baghdad_library

أنه محروم من رجولية الزعماء. ومما زاد بعض الشيء من خيبة أمله ملاحظته وجود أعضاءٍ إناثٍ داخل الجماعة. ولم يكن ذلك ليبدو له شديد الانتظام، ولكنّ المجموعة تبدو بوجه الإجمال محبّبة، ويُستثنى مع ذلك الدكتور غرينفلد الذي كان مُنفِّراً بعض الشيء. (كانت تلك عبارة تعلّمها حديثاً في المدرسة وأخذ يستعملها الآن في كل حديث). إنه لأمر فريد أن يجد نفسه جالساً في القطار قبالة زوجته! ولم تكن هذه بالطبع في جمال كاترين فاولي، ولكنّها كانت خارقة الجاذبية ولا بدّ أنها منحرفة نوعاً ما. ولم يبدُ أن زوجها كان مغتبطاً لرؤيتها، ولكنْ كيف السبيل لكشف سلوك الأزواج؟ وخلافاً للرأي الذي يبدو أن تولستوي يتبنّاه في الصفحات الأولى من «أنّا كارينينا» فإنّ هناك عدداً كبيراً من السبل المختلفة للوصول إلى رباط سعيد. ولقد أدرك توبي الأمر مؤخراً، وقدّم له هذا الكشف قليلاً من الاقتناع. ورجع صوب البيت.

كان قد غادر حافة البحيرة سالكاً الطريق الواقع أسفل الدرجات وعاد إلى المكان الذي يفصل فيه مجرى الماء الثاني بين البيت والدير. وقد أصبح الآن قبالة أحد جوانب البيت فرأى نافذة كبيرة مضاءة في الطبقة الأرضية، وكان جدار حجريٌّ صغيرٌ بارزٌ قليلاً وراءها يفصلها عن الواجهة. واقترب فوجد نفسه بمحاذاة مستطيل مبلّط يطلّ عليه باب. ودار في خلده أنه لا بدّ أن يكون مسكن الخدم القديم، وأن الحجرة المضاءة هي المطبخ ولاريب. ومع أنه من المتحمّسين للكشفية وللمسيرات الطويلة على الأقدام شبه قافز على الدوام فإن حدساً دفعه إلى السير باعتدال وتؤدة على الحجارة غير المتساوية، وبقي في الظلّ إلى أن وصل إلى قرب النافذة. لم يكن قد أخطأ: كان ذلك المطبخَ، مطبخاً فسيحاً ذا جدران خشنة مسودّة مزوّداً بمدفأة ضخمة يملأها وجاق من طراز قديم. ولا بدّ أن الفرن كان يعمل لأن هبّة

هواء ساخن كانت تتسلّل من النافذة المفتوحة فيشعر المرء بها حتى في حرّ الليل الشديد.

لمح أحدهم. كان مايكل ميد مرتدياً مريلة مقلّمة زرقاء وبيضاء. وقد أدهش هذا الزي المضحك توبي واعتراه ندم ممضّ وهو يراه يصفّف الفناجين والصحون التي توضع تحتها فوق رفّ كبير من الخشب، لأنه كان قد نسي تماماً أن يتبرّع بغسلها. وفُتح في تلك اللحظة باب داخلي ودخل جيمس تيربيس. سأله مايكل:

ـ أين الشابّ في هذا الوقت؟

أجاب جيمس:

ـ على الشرفة.

حبس توبي أنفاسه. سأل مايكل:

ـ أتقوده إلى تحت؟

ـ أفضّل أن تفعل أنت ذلك، فأنت تعرف رأيي في هذه الفكرة.

ـ إني آسف يا جيمس. كان عليّ أن أستشيرك، ولكنّي كنت منهمكاً جدّاً طوال الأسبوع الماضي، وقد نسيت تماماً. ومع ذلك فمازلت أظنّ أنّ الأمر يستحق المحاولة. لسنا في حاجة إلى أن نقلق. فإذا كره الصبي أن يبقى هنا، أو كان «نيك» غير لطيف معه، أعدناه إلى البيت الرئيسي. ولكني مقتنع أن كل شيء سيمضي على خير ما يرام. لسوف أستريح لمجرد التفكير بأن «نيك» لن يكون وحيداً.

سأل جيمس:

ـ ولماذا لا نرسل أحدنا لمراقبته؟

ـ لهذا السبب بالضبط. فلا ينبغي أن يعلم أنّ هناك عيناً مفتوحة عليه. فإذا أسكنا «نيك» مع توبي انتهى به الأمر إلى اعتبار نفسه مسؤولاً «عنه».

twitter @baghdad_library

ـ إن لك لرأياً حسناً جدّاً في هذا الصبي أخشى ألا يتوافق مع الحقيقة الناصعة. ولو كنت قد عرفت مثلي عدداً كبيراً من الأشخاص من هذا النوع لكنت بالتأكيد أكثر حذراً.

ـ لست أظنّ فيه الخير، لا أظنّ ذلك أبداً، ولكنّي أعرفه على ما أعتقد خيراً ممّا تعرفه. وأعتبر بكل بساطة أنّه شخص مسكين ووسواسه المرضيّ يفزعني.

أجاب جيمس:

ـ ليس وسواسه هو الذي يخيفني، وإنما تلك الملكة على إحداث الفوضى. وكلّما فكّرت في ذلك ازددت اقتناعاً بأنّنا ارتكبنا خطأ حين تركناه يأتي إلينا. وإني لأعلم بالطبع ما يمكن أن يشعر به كل واحد في مثل هذه الحالة، ولهذا السبب أظن أني متفق معك في الوقت الحاضر. لقد تركتك على الأقلّ تخدعني. ولكنّ المسلّم به أن القضية معقّدة، وأنها قصّة مكدّرة لجماعتنا. وإني لأتساءل عمّا إذا كنّا سنتوصّل إلى الإحسان إليه قليلاً بينما يمكن أن يسيء إلينا هو كثيراً في أثناء ذلك.

قال مايكل:

ـ إنه هنا على كل حال في السرّاء والضرّاء، ومن المستحيل طرده في الحال بسبب أخته.

قال جيمس:

ـ أعرف ذلك، أعرف ذلك. وهذا هو أشد ما يؤسف له. ولكنّي أرجو مع ذلك أن أشاطرك تفاؤلك. أنا أعلم أنّ الثقة بالناس ـ أو ربّما كان الأصحّ القول ـ الإيمان «من أجل» الناس يخلق المعجزات. وربّما كانت معجزةٌ ما ضرورية جدّاً في هذه الحالة. ومع ذلك، ومن أجل التنازل إلى مستوى سلامة الحسّ، فقد كنت أفضل الاحتفاظ بتوبي في البيت. إننا مسؤولون تماماً عنه، لا تنس هذا.

قال مايكل:

ـ لن يحدث له شيء. إنّ رأسه فوق كتفيه. وَلْأَقُلْ في معرض الحديث إني أحبّه كثيراً. اطمئن تمام الإطمئنان. إنّ هذا النوع من الشباب النزيه محصّن ضد العدوى. لسوف يعمل توبي بجدّ كبير، ولن يعيش أبداً في الجناح، وسيكون بالضبط صلة الوصل مع «نيك» الذي لم نتوصّل للعثور عليه حتى الآن.

بدأ توبي يعود أدراجه على مهل جدّاً. وحينما ترك الأرض المبلّطة عاد راكضاً إلى ما وراء واجهة البيت. كان العشب عالياً جدّاً فقفز خلاله راجياً ألّا يحدث كبير ضجّة. وإذ وصل إلى السُطيحة فقد أبطأ ومشى على مهل فوق الحصى حابساً أنفاسه وهو يصعد الدرجات المؤدية إلى الشرفة. كانت الأضواء ماتزال مشبوبة في القاعة والحجرة المشتركة، وقد بقيت الأبواب مفتوحة، ولكنْ بدا أنه لم يكن هناك من أحد. توقّف قلقاً متردّداً. لقد كان متأثّراً جداً بالحديث الذي إسترقه. كانت بساطة المشهد وسحره العجيب قد تبدّدا تماماً، وها هوذا الآن يستشعر انزعاجاً حادّاً لفكرة الذهاب للإقامة في الجناح. ومع ذلك فقد دغدغت كبرياءه من جهة ثانية الثقة التي أوليت له وأهاجه ما ينتظره من مغامرة. كانت أفكاره مشوّشة.

وقبل أن يتمكّن من الإغراق في التفكير برز ظلّ من الحجرة في إطار النافذة وظهر مايكل ميد. تقدّم توبي في الضوء. قال مايكل:

ـ آه! ها أنت ذا! آسف لأنّا جعلناك تنتظر. سننزل الآن إلى الجناح إذا كنت مستعدّاً. هل معك حقيبتك؟

أجاب توبي: «إنها هنا». وحملها من قرب الباب.

ـ هل تستطيع نقلها؟ دعني أحمل جانباً منها.

اجتازا السُطيحة وهبطا الدرجات للوصول إلى الممشى المحاط بأشجار

twitter @baghdad_library

الطقسوس. وكان مايكل يسير بخطى خفيفة رامقاً رفيقه بنظرة بعد نظرة قال:

- سوف نجتاز بالمعدّية. إننا لا نستعمل السدّ إلا للذهاب إلى الدير.

تقدّما فوق الجسر الخشبي العائم، وكانت أقدامهما ترنّ في الفضاء الأجوف القائم بين الألواح والماء المتلاطم. ووضع مايكل الحقيبة في الزورق.

سأل توبي بعد الفراغ من الاجتياز:

- كيف يعود المركب إلى مرساه؟

وأدرك أنه يتكلم بصوت منخفض.

أوضح مايكل قائلاً:

- هناك حبل معلّق في كل طرف من طرفيه ومربوط بكلّ واحدة من الضفتين بشكل يسمح بسحبه من الجهتين. أنظر أني أمسك به بصلابة ويمكنك النزول إليه والجلوس فيه.

دخل توبي في مؤخرة المركب المتأرجحة وجلس على الفور. وكان يأمل بكل قواه أن يسمح له بالتجذيف، ولكنّه لم يطلب شيئاً. وكانت السماء الليلية المزروعة بالنجوم وانعكاسات القمر والمسكن الفسيح المغلّف بالظلمة وراءهما ورشاش الماء تحت الزورق تبعث كلها في نفسه هياجاً عارماً كان يجهد في الاحتفاظ به صامتاً.

هبط مايكل بدوره إلى المركب ودفعه إلى الأمام بقوة. وأمسك بالمجذاف الوحيد الملقى تحت المقعدين وأدخله في حلقة التجذيف القائمة في المؤخّرة وجذف بمهارة طولاً وعرضاً. وانعطف الزورق بهدوء وأخذ بالتحرّك متهادياً على مهل فوق صفحة الماء التي كانت لاتزال ملساء لم يكد يجعّدها تقدّمها، وكانت مظلمة وإن لامعة بشكل متألق. وترك توبي يده تزلق في الماء الذي كان دافئاً.

سأل مايكل:
- هل كل شيء على ما يرام يا توبي؟

ردّ توبي مجيباً عن هذا السؤال الغامض بحماسة مفاجئة:
- أوه، أجل!

ورأى مايكل يُسبل عينيه عليه ولمح إشراقة إبتسامته. وعندها ترك هذا الأخير المجذاف ووضعه بلا ضجيج على أحد جانبي المركب. واحتكّ الجانب الآخر ببراعة بالمرسى فحمل توبي حقيبته وقفز إلى اليابسة يتبعه دليله. وانحرفت المعدّية قليلاً على الماء.

كان الدرب المعشب ينبسط أمامهما، ولكنّ توبي لم يكن يستطيع أن يرى بوضوح صفّ الأشجار القائمة بعيداً. وكان طائر يغرّد بصوت مرتفع قليلاً بالقرب من البحيرة. لم يكن ذلك الطائر عندليباً.
قال مايكل:

- أرجو ألا يهمّك العيش في الجناح. ستكون معنا بالطبع لوجبات الطعام والأشغال وكل ما يمثّل الحياة اليومية. أفترض أنّ جيمس حدّد لك بالضبط أنّ هذا للّيل فقط؟

أجاب الشاب بلطف:
- لا أرى في هذا أدنى ضير.

وأخذ يتساءل بارتباك عما إذا لم يكن عليه أن يعترف لرفيقه بأنه سمع حديثهما. قد يكون من الخساسة التستّر على ذلك... ومع هذا لم يكن قادراً على اتخاذ القرار...

استطرد مايكل قائلاً:

- إني مقتنع بأنك ستتّفق جيداً مع «نيك فاولي». ستجده سوداوياً

twitter @baghdad_library

أحياناً. حياته صعبة. ولسوف يشدّ أزره أن يجد عشيراً ما، ويزوّده بالتعرّف على الحقائق.

قال توبي دهشاً:

ـ نيك فاولي؟

ـ أجل، إنه شقيق كاترين، شقيقها التوأم، في الواقع. ألم يقل لك جيمس ذلك؟ إني متضايق جداً لأني أشعر بأنّنا كنّا بشكل فاضح أدنى من مستوى مهمتنا. لسوف تتصوّر أنّ هؤلاء الأشخاص الزاهدين في الدنيا ليسوا في الحقيقة إلا مجموعة من الحمقى.

شعر توبي من غير أن يعرف السبب بالتحديد بأنّه مبلبل الخاطر إذ علم أن ساكن الجناح كان أخا كاترين. وإذ اختلس النظر إلى مايكل فإنّه لم يتمكّن من رؤية وجهه، ولكنّ مسلكه كان ينمّ عن بعض الحرج. لقد كان بلاريب أخرق قليلاً، ولم يكن طيّب النفس تماماً على الدوام كما كان جيمس مثلاً. ومع ذلك فقد ظلّ الشابّ مشغول البال؛ كان الإحساس المثير بالمغامرة قد تلاشى ولم يبق سوى الكرب. وعثر فوق الأعشاب فوقع على حجارة الممشى. أوضح مايكل:

ـ إننا هنا في المتنزّه. كان عليك أن تتذكّر ذلك منذ بعد ظهر اليوم. إن الجادّة المغروسة بالأشجار التي تبدأ عند مدخل الملكية تنتهي هنا. وهي تحيط بمنظر القصر ابتداء من الطريق، ولكنّها تنحسر عند طرف البحيرة. إنها متنزّه طويل يقود إلى البيت، وليس طوله أكثر من كيلومترين.

استمرّا في السير صامتين نحو الجناح. ولمح توبي نوراً ملتمعاً في إحدى النوافذ. وأخذ كلب بالنباح. قال مايكل ببعض العصبية في نبرة الصوت:

ـ هذا مورفي كلب «نيك». إنه حيوان عجيب جداً.

قال توبي ببلادة وهو يشعر بأنه ثائر الأعصاب هو الآخر:

ـ أحبّ الكلاب حبّاً شديداً.

استأنف مايكل قائلاً:

ـ كان «نيك» يعمل في ميكانيك الطائرات. إنه ماهر جداً في كل ما يتعلق بالمحرّكات. وبسبب كفاياته فإنه سيكون الرجل الذي نمحضه ثقتنا في أمر النقليات. في وسعك مساعدته.

وأضاف قائلاً وهو يلتفت نحو الشابّ:

ـ أحبّ أن أرجو لك مُقاماً طيّباً هنا. وإننا سعداء جداً بأنك قدِمْت.

كانا قد وصلا إلى أمام المدخل. لم يكن للباب مطرقة. وقرع مايكل على خشب الباب بيده بشيء من العنف. وصدر عنه رجع صوت مُلحّ. وفي الداخل تضاعف نباح الكلب. ودفع الباب برفق ودخل يتبعه رفيقه الذي حمى عينيه. كانت الإضاءة ساطعة جداً في كل «إمبر»! كان الباب ينفتح مباشرة على ما كان ينبغي أن يكون غرفة الجلوس. وبطرفة عين سريعة رأى توبي موقداً كبيراً مسنداً إلى الحائط وأريكتين باليتين من الخيزران وطاولة واسعة صالحة لجميع الاستعمالات وجهاز راديو موصولاً بمأخذ الكهرباء وعدداً كبيراً من الصحف المبعثرة. وكان رجل لايزال فتيّاً جالساً خلف الطاولة التي كان الكلب يتنطّط حولها وينبح. وكانت رائحة كريهة من طعام متعفّن تتصاعد إلى الخياشيم. ونهض وهو ينظر إلى مايكل.

هتف «نيك فاولي» قائلاً:

ـ يا لله، إنه الرجل الكبير بنفسه. لم أكن أتوقّع حضورك. لا يحدث كثيراً أن يأتي أحد لرؤيتي. ومع ذلك فإنّ زيارةً من وقت إلى آخر لَتُفْرِحُ النفس.

قال مايكل وسط الصخب المُصِمّ:

ـ أحضرت لك توبي.

ـ إخرس يا مورفي. سدّ بوزك.

twitter @baghdad_library

كـان مورفي كلبـاً بلون صدأ الحـديد يشبـه قليلاً الكـلاب التي تصـطاد الحيوانات من جحورها. وكانت لحيته بيضـاء بعض الشيء ومظهـره الشبيه بمـظهر القـرد يوحي بـالذكـاء. وكان ذنب ملطّخ بـالوحـل يتـدلّى بلين من مؤخرته التي بـدا أنها رُكِّبت بعد الانتهـاء من الجسم. وإذ عاد إلى الصمت فقد أخذ يتـأمّل القـادم الجديـد بعداوة لايمكن سـبر أغوارهـا. وكانت سن كبـيرة معقوفـة لامعة تجعّـد جلد فكه الأسفـل الناعم الأسـود. ونظر إليـه بانزعـاج. قال «نيك»:

ـ لطف منك أن تحضر لي رفيقاً يسلّيني.

رمقه توبي بنظرة مُخْتَلَسة. وقد أثاره شبهه بكاترين. كان له نفس الوجـه المستـطيل الثقيـل قليلاً ونفس تـزجيجة الحـاجبين ونفس النـظرة التي تخفي وراءها الألغاز ونفس الغرّة المتموّجة فوق أعلى الجبين. باستثناء أن غضوناً قد انحفرت حول عينيه المغبونتـين بالحمـرة، المترقرقتين بـالماء، وكـأنه كـان قد استغرق في الضحك. وكان أنفه ضخماً مغطّى بعُرَيْقات دقيقة جداً، ووجهه مُدْهِناً، وشعره غزيراً جداً وطويلاً جداً. ومع ذلـك فإنّـه لم يكن يخلو تمامـاً من بعض الأنـاقة، ولا حتى من النكهـة المميّزة التي كـان ينضح بهـا جمـال أخته البارد وإن كان عذباً.

كان يبدو أصغر مما تصوّر توبي، ولكنّه كان خالياً تماماً من الـرونق. وقاد الشابَّ خيالُه الذي كان على أهبة الجموح بشأن رفيقه المقبـل إلى الافتراض بأنه مدمن على شرب الخمـر. وهذا يـوضح الحـديث الخارق الـذي استرق السمع إليه. وكان ذلك أيضـاً أحد أشكـال تظرّفـه الحديث المنشـأ القاضي بمعـرفة أن هنـاك عدّة طـرق تقود إلى الإدمـان على الخمـر. ولمّا كـان هناك سكّيرون معروفون فلماذا لا يكون «نيك» أحدهم؟ انتهى به الأمر إلى الجواب بالإيجاب وقـرّر أن يمحضه صـداقته. وفيـما هو يتفكّـر لاحظ وجود زجـاجة وسكي على الطاولة، الأمر الذي أكّد له وجهة نظره.

كان كل من «نيك» ومايكل يتفرّس في وجه الآخر. وكان الأخير لايـزال يبدو منزعجاً. قال:

- أرجـو أن يكون ما تتناوله من طعام كافياً؟ لأودّ أن تـأتي من وقت إلى آخر إلى البيت لتناول وجبة معنا.

وحدج الطاولة بنظرة. كان على طـرفها صحن لحم تثير رؤيته التقـزّز. أوضح «نيك» قائلاً:

- هذا عشاء مورفي. كنت على وشك تقديمه إليه. هيّا يا ولد، لقد حـان الوقت.

وإذ نقل اللحم من الصحن فقد أرفق ذلك بإشارة صائتـة تذكّـر بالقفـز إلى الماء نحو إحدى الصحف الكثيرة المخصّصة على مـا يبدو لتلك الغـاية. وتوقّف مورفي عن تأمّل الشاب وارتمى بصخب فوق عشائه. قال مايكل:

- لكان أُغمي على السيدة مارك أمام هذا المشد.

- لقد انتَقَدَتْ، مثل سائر النساء.

واستمرّ كلٌّ منهما في النظر إلى الآخر وهما لا يزالان متضايقين.

- هل غرفة توبي جاهزة؟

أجاب «نيك»:

- سمعتهـا تذهب وتجيء فـوق، وأعتقد أن ذهـابهـا ومجيئهـا كـان لهـذا الغرض. خذ قدحاً.

أجاب مايكل:

- لا، شكـراً. أظنّ أنّ من الأفضـل أن أذهب. جئت فقط لإيصـال توبي.

قال «نيك»:

twitter @baghdad_library

ـ لا تأخذ إذن، واذهب.

أخذ مايكل يجرّر قدميه ناظراً في كل زاوية من زوايا الحجرة وكأنّه أدرك أنّه لم يحسن إجراء المقابلة.

سأل «نيك» الذي بدا هو الآخر راغباً في إطالة الحوار:

ـ كيف حال أختي القديسة؟

ـ على خير ما يرام، إنها سعيدة جداً.

قال نيك!

ـ عندما أسمع عن شخص أنه سعيد أعلم أنها ليست الحقيقة. فإذا كان أحدهم سعيداً حقاً لم يعلن ذلك على الإطلاق. أليس هذا رأيك يا توبي؟

أجفل توبي بعصبيّة، فقد كان يرغب في أن يظلّ مستمعاً ولا يغدو ممثلاً.

قال نيك:

ـ توبي يجهل ذلك. هل وصلت المرأة الغريبة الأطوار؟

أجاب مايكل:

ـ السيدة غرينفيلد هنا. هيّا، آمل أن نراكما أكثر في البيت. عليّ الآن أن أذهب.

قال نيك:

ـ هذا يُعفيك من الكلام.

ـ أعتنِ بتوبي.

انفجر ضاحكاً، الأمر الذي جعله يبدو فجأة أشدّ جاذبية. وفتح الباب بشكل احتفاليّ فاختفى مايكل بحركة خرقاء جدّاً للتدليل على التوديع.

قال نيك وهو يتابعه ببصره في الظلمة:
ـ يا له عاجزاً! يالله! يا له عاجزاً!

ـ أظنّ أنك ترغب في النوم أيها الشابّ. لا بدّ أنهم قالوا لك أن تستيقظ في ساعة غير ملائمة. لا شكّ أن العيش في سنّك طوال النهار مع عُصبة من المخبّلين أمر منهك.

أجاب توبي:
ـ إني تعِب. أظنّ أني سأصعد.
ونظر إلى نيك بعزيمة صادقة على ألاّ يُريه أنه ثائر الأعصاب.

وقال له نيك:
ـ أجل، أجل، اصعد.

واستدار نحو مورفي الذي كان قد أنهى عشاءه ولبث متأمّلاً.
وصرخ في الكلب:
ـ قف!

وانتصب مورفي على قوائمه في الحال واثباً في الهواء وأمسك به وضمّه إلى صدره. ووجّه إليه الحيوان ضربات بقائمته، ولاح فكّاه المبتسمان من فوق كتفه. قال:

ـ أكبر متعة يقدّمها الكلب هي أنّه في الإمكان «تمرينه» على محبّتك.

وانحنى فوق الطاولة للقبض على زجاجة الويسكي من عنقها وغادر الغرفة من غير استعجال يتبعه ضيفه. وصعد السلم بتثاقل حتى بلغ مصطبة صغيرة تنفتح عليها ثلاثة أبواب وهو لايزال ضامّاً الكلب إليه. قال:

ـ ذاك هو الحمّام، ثم غرفتي، ثم غرفتك.

وفتح الباب بركلة من قدمه واستعان بمرفقه لإضاءة النور الكهربائي.

twitter @baghdad_library

ودخل توبي حجرة بسيطة وإن نمّت عن ذوق حسن، وكان أثاثها سرير حديد مفروش بقماش شفّاف وحُصرٌ خشنة فوق الأرضية الخشبية وخزانة صغيرة بجانب السرير مدهونة باللون الأبيض. وكان هواء الليل الفاتر المعطّر بالروائح الثقيلة يتسرّب إليها من النافذة المفتوحة على مصراعيها.
قال نيك داسّاً وجهه في فروة كلبه:

ـ لطيف، أليس كذلك؟

كان توبي مرتبكاً. وأجاب:

ـ ممتازة، الآن أشعر بارتياح تامّ.

ـ هل لك في قدح؟ آخر جرعة للّيل. مزيج قليل دافيء من الويسكي والماء؟

ـ لا، شكراً. أنا لا أشرب الخمر.

قال نيك:

ـ حسناً جداً، ولكنّي أحبّ مع ذلك أن يكون في وسعي القول إنّنا سنكون قد علّمناك الشرب حقاً قبل رحيلك فيما إذا تخلّيت عن المشروبات الروحية.

وأنزل مورفي الذي أخذ ينطّ ويتوثّب متشبثاً ببنطلونه معبّراً عن رغبته في أن يُحمل من جديد.

قال نيك:

ـ أظنّ أني سأتركه لك، فالأغطية تنقصنا، وسوف يدفّيء قدميك عند الفجر. ليس ما يُماثل كلباً إذا أضيف إلى فراش.

وقال للكلب وهو يشير بإصبعه إلى أرض الغرفة: «إبقَ هنا».

قال توبي:

ـ شكراً. ربّما فضّل الاستغناء عن هذا الحضور الذي يبدو له مستهجناً. إني على خير ما يُرام.

وارتمى على سريره وهو يشعر بالخَوَر وبرغبة شديدة في البقاء وحيداً.

لبث نيك عند الباب وعيناه مسلّطتان على الشابّ، وقال:

ـ أودّ أن أقول لك شيئاً مضحكاً قبل أن أذهب. لقد أحضروك إلى هنا لحراستي.

وابتسم وقد بدا على الفور أكثر لطفاً وفتوّة.

وبادله توبي ابتسامته حائراً في أمر الإجابة، ثم مالبث أن قال:

ـ أجل، علينا أن يحرس كلّ منا الآخر، أليس كذلك؟ لا تقفل الباب فربما رغب مورفي في الخروج أثناء الليل. تصبح على خير.

وتوارى تاركاً الباب مواربأ.

كان توبي يشعر بتعب شديد منعه من الغرق في الافتراضات. وتوجّه على الفور إلى الحمّام، ولدى رجوعه وجد مورفي مُقعِياً عند قائمة سريره. وكانت هيأته الدالّة على ذكاء محيّرة. وكان يحدج توبي بسكون وتصلّب بَدَوَا وكأنهما توطئة لهجوم. وفكّر هذا في أنّه من الأفضل إقامة علاقاتٍ طبقاً للأصول الواجبة فهتف وهو يمدّ يداً مشجّعة:

ـ هيه أيها الكلب الطيّب!

وقبِل مورفي اعتبار الشيء الممدود ولحسه متفكّراً ناظراً إليه من تحت أجفانه الطويلة التي بدت لتوبي بطول غير مألوف في كلب.

ونظر من خلال باب غرفته الموارب. كان الممرّ مظلماً ولم يكن يُسمع أيّ صوت في البيت. وإذ اطمأنّ في النهاية فقد قرّر قراءة أدعيته. وجثا على ركبتيه وعينُه ترمق الممرّ بقلق، بيد أنّه لم يتمكّن من جمع شتات أفكاره. ونهض ومشى من غير جلبة إلى الباب فأقفله بالمزلاج، ثم عاد صامتاً إلى قرب سريره فجثا من جديد مغمضاً عينيه. وعلى الفور سمع حفيفاً. كان مورفي خلفه وكان يحكّ الخشب بقائمتيه الخشنتين. وأجفل وذهب يفتح

twitter @baghdad_library

الباب مجدّداً، ولكنّ الكلب رفض هذه المرّة الدخول مثبتاً عليه عينيه بشكل ودّي مُغيظ. وعندما أراد الجثوّ للمرّة الثالثة اندفع الكلب وأقـام إلى جانبـه في مجاملة خرقاء وهو يزفر في عنقه. وإذ كان توبي متعباً إلى حـدّ العجز عن القيام بأدنى حركة فقد كفّ عمّا كان فيه وانزلق إلى الفراش وشعـر بصدمـة عندما وثب مورفي دفعة واحدة وأناخ بثقله الفـادح على قـدميه. وإجتـاحت الحجرة من الباب الموارب نسمة لطيفة عَبِقة. وما هي إلاّ دقائق حتى كان المنزل برمّته يغطّ في النوم.

الفصل الخامس

عندما استيقظت دورا مُجفلةً في صباح اليوم التالي بعد السادسة بقليل على قرع جرس مالبثت نفسها أن هدأت إذ علمت أن هذا النداء لم يكن يعني غير المؤمنين الراغبين في حضور القدّاس. وكان پول قد نهض باكراً لأجل عمله لا لأجل الفرائض الدينية. وإذ تظاهرت زوجته بالنوم فقد أخذت تراقبه وهو مُكِبّ على طاولته أمام النافذة. وكان نور الصباح في الصيف الجميل يملأ الحجرة. وكانت تفكّر في ضيق وهي مستلقية في سريرها تنظر إلى السماء التي تكاد تكون بلا لون نذيراً بنهار مرهق آخر في ثيابها الخفيفة التي بقيت بلا فائدة في الحقيبة المنسيّة، وفي الثوب السميك الذي كان عليها ارتداؤه من جديد.

وإذ حثّها زوجها فقد نهضت بالتمام بما يكفي من الوقت لتناول الفطور الذي يُقدَّم في السابعة والنصف. وكان مقصف الجماعة يقوم في الحجرة الكبيرة بالطبقة الأرضية بين السلّمين الحجريّين وتنفتح أبوابها ـ النوافذ على السُطيحة. وكانت العادة أن تُتناوَل الوجبات في صمت، وأن يقرأ أحد الأعضاء بصوت عال طوال مدّة الوجبة عند الغداء وساعةَ الشاي في المساء. ومع هذا فإن العادة لم تكن سارية على وجبة الفطور، وكانت دورا آسفة لذلك لأن هذا الموجب كان يتيح لها ألاّ تبذل أيّ جهد. وجرعت كميّة كبيرة من الشاي وازدردت عدة قطع من الخبز المحّمص وهي تنظر إلى البحيرة المتلألئة تحت الشمس..

twitter @baghdad_library

وإذ انتهى الفطور فقد أبلغتهـا السيدة مـارك برغبتهـا في تعريفهـا بملكية الجـماعة، وأنّ في وسعهـا التمتّع بـوقتها في الصبيحـة وتمرّ هي لأخـذها من غرفتها في حوالي الساعـة العاشرة. وعـاد پول الـذي كان قـد ذهب ليتلفن حاملاً نبأ سعيداً: وُجدت الحقيبة وسوف تُرسل إلى المحطّة بـطريق العودة. وكـان أحدهم في المقصـورة قد لاحظ نسيـان الحقيبة، ولكنْ لم يكن هنـاك وياللأسف من أثر للقبّعة الإيـطالية. وتعهّـدت دورا بالـذهاب لإحضـارها قبل الغداء، وهي فكرة بدت سارّة لزوجها. وانتهز الفرصة للاختفاء باتّجاه الدير والعودة إلى عمله بانتظار الزيـارة التي وعدت بهـا السيدة مـارك بشأن القيام بدورة استطلاعية. وكـان منشرحاً، وبـدأت دورا تقتنع بـأن عودتهـا هي السبب في ذلك. وجعلها الرضى الذي استشعـرته والشمس المُسكِـرة، مضمومين إلى حيويّتها التي لاسبيل إلى كبحها، شبه جذلى. وذهبت تجمـع بعض الأزهـار البرّيـة من خلل العشب بقرب البحـيرة وعادت إلى غـرفتهـا لانتظار مرافقتها.

وبينما كانت تجيل ناظريها في الحجرة كانت تفكّـر في مدى حـلاوة العش على كل حال في مكان مختصر سهل الترتيب بوسائـل ضئيلة. وأعادتهـا هذه الحجرة الخاوية إلى ذكريات مفعمة بالحنين، إلى مختلف الأماكن التي أقامت فيهـا قبـل أن تلتقي زوجهـا، إلى تلك الغـرف التي يُرثـى لهـا في رَيْـزوُتَـر وپمليكو ونوتنغ هِل، والتي يسهل ويسرّ تغيير أشكـالها بـواسطة الإعـلانات الجدارية والزخارف شبه الخارقة التي كان أصدقاؤهـا يصنعونها لهـا أو كانت تصنعها بنفسها بقليل من النفقات. وكان التضادّ غير معقول عنـدما دخلت للمرة الأولى الشقّة ـ المتحف التي أصبحت شقّتهـا وكانت قـد بهرتهـا ولكنْ سرعان ما أضجرتها. فپول لم يكن قد طبع هذه الغرفة في «إمـبر» بطابعـه. وكان قد أخطرها بأن تنظيف المكان ينبغي أن يتمّ كلّ يوم وألقى عبئه عـلى عـاتقها. وسرعـان ما اكتشفت مكـان المكانس عـلى سفـرة السلّم ونفّـذت

العمل بدقّة مرتِّبةً السريرين، منظِّمةً الحاجات، ثم وضعت باقتها الصغيرة في كوب لتنظيف الأسنان مخبأً في غرفة الحمّام. وكان المشهد بمجمله رائعاً. وقد تساءلت عما أمكنها فعلهُ لتحويل الزخرف على هذا النحو.

قُرع الباب ودخلت السيدة مارك فأجفلت دورا وكانت قد نسيت الموعد المضروب.

- آسفة لأني جعلتك تنتظرين نزهتنا الصغيرة. هل أنت حاضرة أيتها السيدة العزيزة؟

وأجابت وهي تلتقط سُترتها وتلقيها على عجل فوق كتفيها:

- أجل، أجل بالطبع.

قالت السيدة مارك وهي تتفحّص الباقة بنظرة عدوانية:

- أرجو ألاّ تستائي إذا قلت لك إنه ليس لدينا قطّ في البيت أية زهرة. لقد فرضنا على أنفسنا قاعدة... ينبغي أن يكون كل شيء متواضعاً قدر الإمكان. إنه تقشّف صغير نمارسه جميعاً.

قالت دورا وقد تورّد خدّاها:

- آه! أجل، فهمت! سأرميها، لم أكن أعرف.

صاحت السيدة مارك بنبرة رحيمة:

- لا، لا، أرجوك. احتفظي بها. ما أقوله لك يتعلّق بالمستقبل. فأنا أشعر بأنك راغبة في أن تُعاملي معاملتنا، أليس كذلك؟ وفي أن تتقيدّي بأنظمة البيت. فليس هذا فندقاً، ونحبّ أن يفهم ضيوفنا ذلك، وأفترض أنهم يتمنّوْن ذلك هم أيضاً.

قالت دورا وهي لاتزال مرتبكة:

- بالطبع. إني آسفة.

- تعرفين، إننا لا نسمح في العادة بأي زخرف شخصي في الغرف.

twitter @baghdad_library

ونحاول استلهام حياة الدير في كل ما تقع عليه أيدينا. ونقدّر أن الاستنكاف عن مثل هذا التعبير عن الذات انضباط سليم إذا جاز لي القول. وعلى كل حال فإنها لتضحية خفيفة، ألا تجدينها كذلك؟
- بالتأكيد، جدّاً.

- سوف تألفين قريباً أعْرافنا الصغيرة، وآمل أن يروق لك العيش هنا. لقد تكيّف پول جيداً، ونحن جميعاً نحبّه حبّاً جمّاً. ينبغي أن ننطلق الآن، فأنا أخشى أن يدهمنا الوقت.

اتجهت صوب الباب وقالت وهي تلتفت وراءها:

- أعتقد أنك أصبحت تعرفين اتّجاه البيت. هناك ينام أفراد الجماعة في الغرف التي كان يشغلها الموظفون سابقاً في مخزن الغلال عرضة لكل ريح. والغرف الرئيسية في الطبقة التي أنت فيها مخصّصة للمدعوين. إننا نعتبر أنفسنا وكأننا ندير مؤسسة فندقية شبه رسمية تابعة للدير ونأمل أن نطوّر في المستقبل هذا النشاط بشكل واسع عندما يصبح في وسعنا الحصول على أثاث. وبسبب هذا النقص المؤقت - أرجو ذلك على الأقلّ - فإنّ الجناح الآخر خالٍ تماماً. وتحت تماماً يقوم المطبخ في الطبقة الأرضية، وفي آخر البيت عند واجهته مكتب مدير الإدارة. وفي الوسط كما تعلمين المقصف الذي يطلّ على الشرفة وفوقه غرفتان صغيرتان يستعملهما جيمس ومايكل مكتبيْن. وأخيراً في الخلف الحجرة التاريخية الكبيرة - ميّزة هذا المسكن - البالغ ارتفاعها مقدار طبقتين وقد أقمنا فيها كنيستنا الصغيرة الخاصة.

وقادت السيدة مارك دورا وهي تقدّم لها هذه الإيضاحات إلى دهليز ومرّت بحذاء سلّم شديد الظلمة ثم فتحت باباً واسعاً يُفضي إلى الكنيسة من الطرف المقابل للمذبح في هذه المرّة. وبدت الحجرة لدورا في ضوء النهار المشعّ أكثر خواء مما كانت قد وجدتها في الليلة الفائتة وكأنها قاعة

مسرح تُركت بعد أحد العروض، وعلى الرغم من أنها كانت قد نظّفت بعناية فائقة فقد بدت مغبرّة وكأنّ جدرانها قد تفتّتت. وذكّرتها الثياب المعلّقة المصنوعة من قماش القنّب بالمدرسة.

وشرحت لها السيدة مارك من غير أن تحرص على خفض صوتها:

ـ ليست هذه كنيسة خاصّة بالمعنى الكامل، وبالحري فإنها لم تكرّس لتكون كذلك، ولكن في وسعنا أن نقيم فيها بانتظام حفلاتنا الصغيرة. ولإقامة القدّاس نذهب إلى كنيسة الدير في مختلف الساعات التي تناسبنا. ولنا صباح الأحد اجتماع خاص هنا وخطبة يلقيها أحد أعضاء الجماعة.

وخرجتا من الباب المقابل للذي دخلتا منه وأصبحتا رأساً في القاعة الكبرى المبنيّة بالحجارة المنحوتة، وأدخلت السيدة مارك دورا القاعة المشتركة. وكانت الأرائك العصرية المغطّاة بالقماش وذات الأذرع الملمّعة تلميعاً خفيفاً والمصفّفة بشكل دائري تبدو نشازاً بجانب ألواح الجدران الخشبية الداكنة.

وشرحت:

ـ إنها الحجرة الوحيدة التي أقمناها حقّاً. وإننا نأتي إليها خلال لحظات الراحة التي نملكها ونسرّ بما نجد فيها من رفاهية. وألواح الجدران المصنوعة من خشب السنديان أصليّة؛ فقد وضعت في نهاية القرن التاسع عشر عندما كانت هذه الحجرة مخصّصة للتدخين.

وانتقلنا بعدئذٍ إلى الشرفة ومنها هبطتا السلّم الحجري القائم إلى يمينهما. وقالت السيدة مارك مشيرة إلى نوافذ حجرة شاسعة ناتئة؛

ـ هنا المكتب المركزي. يمكنك مشاهدة زوجي منهمكاً في العمل.

واقتربتا لتتأمّلا الحجرة المزدانة برفوف لم تُدهن بعد وعليها عدد كبير من

twitter @baghdad_library

الملفّات المكدّسة بعناية، والمزوّدة بعدّة طاولات كبيرة. وخلف إحداها كان مارك سترافورد جالساً حاني الرأس.

وأوضحت زوجته التي تفحّصته بُرهةً بفضول خالٍ من الحنان إلى درجة أثارت دهشة دورا:

ـ يقوم بإجراء حسابات.

وابتعدنا، وأعلنت السيدة مارك أنهما ستذهبان إلى قرب پول.

وإذ رغبت دورا في أن تبدو ودودة، مع أنها قلّما تميل إلى طرح الأسئلة، فقد سألت:

ـ ماذا كنت تعملين يا سيدتي، وماذا كان يعمل زوجك، قبل أن تأتيا للإقامة هنا؟

وأجابت السيدة مارك:

ـ سوف تعتبرينني منكّدة مريعة، ولكنّنا لا نتذكّر أبداً حياتنا السابقة، وهذا أيضاً انضباط صغير نجهد في اتّباعه. «لا ثرثرة». ألا تعتقدين من جهة أخرى أنه نادراً ما يكون الاهتمام بحياة الآخرين بعيداً عن المصلحة، وأن الدوافع إليه نادراً ما تكون نقيّة من الشوائب؟ وفي زعمي أن الفضول سريعاً ما ينقلب إلى سوء نيّة. أرجو أن تكوني مدركة لما أقول. ولكن، إنتبهي، إن بعض هذه الدرجات خطرة نظراً لما يكسوها من عشب. وهبطتاها بحيطة إلى الدرب المفضي إلى السدّ.

كانت البحيرة بلون أزرق باهت جدّاً، متلألئة في الوسط، مبقّعة على الضفاف بانعكاسات الشمس الساطعة. وإذ كانت دورا مزعوجة جدّاً فقد لاذت بصمت مُطبِق؛ وأدارت رأسها ناظرة إلى الجدار الحجري الكبير المتستّر على سرّه المحميّ عند أسفله بستار من شجر الدردار. وفوق الأشجار كان يرتفع البرج النورمنديّ. وكان مربّعاً، مبنيّاً بحجارة رمادية وصفراء،

بسيطاً جدّاً، بلا قمم ولا تحزيزات، مزيّناً فقط في كل سطح من سطوحه بزوجين من النوافذ المقنطرة عند أعلاها موضوعين الواحد فوق الآخر ومنتهيين بنحوت متعرّجة تبدو عن بعد وكأنها لآلِيء مطرّزة مقسّمة بخطّ من القناطر المتشابكة.

قالت السيدة مارك وهي تتابع نظرات دورا:

ـ مثال جميل على العمل النورمنديّ.

ونزلنا إلى السدّ الذي كان يخترق البحيرة بسلسلة من الأقواس الواطئة، وكانت مبنيّة بقرميدات عتيقة غدت حمراء داكنة بفعل عاديات الزمن وشكّلت حفرة سوداء منعكسة في الماء. ولاحظت دورا أن لا وجود لوسط السدّ وأنه استعيض عنه بلويحات خشبيّة موضوعية فوق دعائم.

ـ حدث هنا شيء من الفوضى في أيام التصفية، تصفية الأديرة، فلتعلمي، وقد أُلغي الممرّ بأمر من الراهبات أنفسهن. ولم يستخدم هذا بعدها أبداً. ولقد هُدم الجزء الأكبر من الدير. وبعد الإصلاح هُجر المكان. وعندما بُني قصر «إمبر» كان الدير قد أصبح طللاً دارساً، حادثةً أرضية رومنطيقية. ثم إنه بعد حركة «أوكسفورد» في القرن التاسع عشر استولت عليه الراهبات البندكتيات الأنغليكانيات ـ كان قبلُ ديراً بندكتياً ـ وأعيد بناؤه حوالي عام ١٩٢٠ وفي هذه الحقبة استحوذت الراهبات على المخطوطات التي هي مدار اهتمام زوجك. وبقاء قسم من السدّ والمقصف والبرج طبعاً بقي جزء صغير فقط من المبنى القديم.

ونزلنا إلى السدّ، وكانت دورا ترتعش من الإثارة. وسألت:

ـ هل بإمكاننا الصعود إلى قمة البرج؟

وأجابت السيدة مارك وقد هالها السؤال قليلاً:

ـ أوه، الحق أننا لن ندخل إلى «الداخل». إنها رهبانية «مغلقة». ليس من حقّ أحد أن يدخل ولا أن يخرج.

twitter @baghdad_library

وتوقفت دورا وقد ذهلت. وسألت:
- تريدين أن تقولي إنهن سجينات تماماً في هذا المكان؟
وضحكت السيدة مارك وقالت:

- لسن سجينات على الإطلاق يا عزيزتي. إنهن يقمن فيه بملء إرادتهن. ومن جهة أخرى فليس هذا سجناً، بل هو على العكس مكان من الشاقّ دخوله؛ ولا تتمكّن من دخوله إلا أشدّهن تحمّلاً وتجلّداً. ولقد اخترن النصيب الأحسن على مثال مريم العذراء في الجنّة.

واستمرّتا في السير فوق السدّ.

- ألا يخرجن «أبداً»؟

أجابت السيدة مارك:

- لا فإذ كنّ بندكتيات فقد نذرن الإقامة طوال حياتهن في المنزل الذي لفظن فيه أيمانهن الأولى. إنهن يمتْنَ فيه ويدفن في مقبرة الراهبات.
وهتفت دورا:
- إنه لأمر هائل تماماً.
قالت السيدة مارك بصوت خافت:
- اصمتي الآن، أرجوك.

وكانتا قد وصلتا إلى نهاية السدّ وأخذت دورا تتأمّل الحائط المرتفع جداً الذي كان يبدو وكأنه انبثق مباشرة من الماء على الرغم من بعده عنه ببضعة أمتار. وكان يتعرّج من ضفّة البحيرة دربان مُحصِبان فِطريان يؤدّي أحدهما إلى بوّابة الدخول الكبيرة التي كان بابها العريض مغلقاً بإحكام، ويحاذي الآخر منعطِفاً نحو اليسار سور الدير الذي لا ينتهي.
قالت السيدة مارك وهي تشير بإصبعها إلى البوّابة الكبيرة:

- لا يُفتح هذا الباب إلا لدخول مُريدة. وهو احتفال مؤثّر بعض الشيء

يتمّ دائماً في ساعات الصبيحة الأولى. ولسوف يجري مثل هذا الاحتفال على كل حال بعد أسبوع أو أسبوعين. فعندما يصل الجرس الجديد سوف يُدخل وكأنه مريدة رهبنة.

وانعطفتا إلى يسارهما في الدرب الذي يمتدّ بين السور والبحيرة. ورأت دورا مستطيلاً كبيراً من القرميد مسطّح ثُبّت وكأنه إضافة من الخارج إلى السور.

قالت السيدة مارك:

ـ ليس جميلاً كثيراً بالطبع، وأنا أرثي لحاله. إنها أمكنة الحديث التي تأتي الراهبات إليها للتحدّث إلى الناس الموجودين في الخارج. وعند طرفها تقوم كنيسة الزائرين التي نملك فيها امتياز المشاركة في إقامة الشعائر. وأما الكنيسة المخصّصة حصراً للراهبات فبناءٌ فسيح قائم عند طرف الجدار الآخر. وفي وسعك رؤية جزء من سقفها القرميدي من خلال الأشجار.

ووصلتا إلى باب أخضر عند طرف البناء. وكان يمتدّ خلفه رواق. وهمست السيدة مارك:

ـ سأريك أحد أمكنة التحدّث. ولن نزعج بعدُ زوجك، فإنه يعمل هناك في الآخر تماماً.

فتحت الباب الأول فأصبحتا في حجرة صغيرة مربّعة خاوية باستثناء بساط من اللينوليوم اللمّاع فوق الأرضية الخشبية وكرسيّين. وقد أُلصق هذان في الجانب الآخر من الغرفة إلى شاشة عريضة بيضاء غطّت الجزء الأعلى من الجدار المقابل. وتقدمت السيدة مارك وأوضحت قائلة:

ـ الجزء الآخر من الحجرة داخلٌ ضمن السياج.

وشدّت طرف الشاشة فانفرجت كاشفة عن سياج من قضبان حديدية

twitter @baghdad_library

مثبّت على بضعة سنتيمترات فوق الضلع. وكانت تقوم خلف السياج مباشرة لوحة خشبية أخرى.

وقالت السيدة مارك وهي ترفق القول بإشارات من يديها:

- انظري، إن الراهبات يفتحن الحاجز بهذه الطريقة فيصبح بوسعك التحدّث إليهن من خلال السياج.

وأغلفته، ولم تصدّق دورا عينيها.

- هل ترغبين في الحديث إلى إحدى هؤلاء الراهبات؟ أخشى أن تكون الرئيسة منهمكة جداً في العمل. إن مايكل وجيمس أنفسهما لا يتمكّنان من رؤيتها إلا من وقت إلى آخر، ولكنّي مقتنعة أنّ «الأم كلير» ستكون سعيدة بالتعرّف إليك ومحادثتك.

وتوتّرت دورا من الخوف والغيظ وأجابت جاهدة في منع نبرتها من أن تغدو عدوانية:

- أظن أنْ ليس لدي ما أقول لهنّ.

- لندعِ الكلام في هذا. كنت أظنّ أن الأمر يمكن أن يروقك. الراهبات شديدات الفِطنة وكان من الممكن أن تدهشي من رؤيتهن على اطّلاع بكل ما يجري، وليس ما يثير حفائظهنّ. وما أكثر من يأتون إلى هنا للادلاء باعترافات كاملة والعودة وقد تخفّفوا ممّا كان يضطرب في نفوسهم.

واستأنفت دورا بنبرة عدائية وهي ترتعد لسماع كلماتها:

- لا أملك وساوس أتمنّى لو أتحدّث بها.

آه! إن في إمكانها ولاريب أن تعرف الجحيم قبل أن تسمح لراهبة بالتّدخل في شؤون روحها وقلبها!

وانكفأتا في الرواق، وقالت السيدة مارك:

- فكّري في الأمر على كل حال. فربّما كان نوعاً من الأفكار يجب التعوّد

عليه. والآن سوف ننادي پول. إنه يعمل في الداخل، في آخر مكان من أمكنة الحديث.

وقرعت الباب وفتحته فبدت حجرة مماثلة أثاثها الأوحد طاولة فسيحة كان پول يعمل عليها. وكان ستار الشاش منفرجاً.

سرّ الزوجان باللقاء، وأبدى پول سروره بإلقاء نظرة متألّقة على زوجته. فقد طالما فرح إذ كانت تفاجئه وهو مستغرق في أبحاثه، وكانت هي نفسها تستشعر لذلك فرحة طفولية ومؤثّرة. وإذ رأته منعزلاً في هذا المكان الذي يندر الوصول إليه فقد خامرها شعور بالزهو وهي تتأكّد من التفوّق الجليّ الذي كان يملكه على مارك سترافورد وكلّ الآخرين. وكانت المَلَكة التي تتمّتع بها إلى أسمى الدرجات بنسيان اللحظة الفائتة نسياناً كاملاً والتلذّذ باللحظة الحاضرة - على الرغم من أن ذلك كثيراً ما قادها إلى مشكلات خطيرة - تجعلها قادرة دونما حساب على دفق من الحنان، وكان عدم امتلاكها ذاكرة يجعلها كريمة النفس سخيّة. وإذ كانت بلا ضغينة ولا شعور بالتشاؤم وهي تجتاز الحجرة فقد جرى الأمر وكأنّه لم يسبق أن حدث بينهما أي سوء تفاهم.

قال پول موضحاً بصوت عذب:

- ترين بعض المخطوطات التي أعمل عليها، وهي ثمينة للغاية وليس مسموحاً لي إخراجها من هنا.

وانحنى فوق الطاولة فاتحاً عدّة مجلّدات مزيَّنة بزخارف لمّاعة وقال لها شارحاً:

- إنها تأريخات الدير الأولى، وهي فريدة في نوعها. إليك «كتاب من عُرفوا باسم تشارلز» وهو يضمّ نسخاً عن امتيازات ووثائق حقوقية. وهذا هو «زبور إمبر» الشهير. انظري إلى هذه الحروف الرائعة التي كان يُكتب

twitter @baghdad_library

بها في ماضي الزمان وهذه الحيوانات المصوّرة على جوانب الصفحات. وإليك رسماً زيتياً للدير كما كان في عام ١٤٠٠

ونظرت دورا إلى مجموعة من المباني البيضاء ذات السطوح المزوّدة بمرامي السهام على خلفيّة من أشجار خضراء مورقة جداً تحت سماء زرقاء، وقالت:

ـ أظنّ أنها لم تكن حقّاً بمثل هذا البياض الناصع. فهذا يذكّر أكثر ما يذكّر بإيطاليا. كيف اتّفق ألاّ تتقشّر هذه المادة المذهَّبة؟ أوه! إني أتعرّف إلى البرج القديم!

قال پول:

ـ أجل، أجل. الحقّ أن البرج البدائي هو الذي لا يزال قائماً. إنه رسم زيتي متوافق جداً بالطبع. وهنا ترين الأسقف الذي بنى المكان، وهو يحمل نموذجاً عن الدير في يده. وسوف تكوّنين فكرة أفضل عن الترتيب وأنت تتابعين التصميم الذي سأطلعك عليه. فقد أعيد بناء الدير الحديث على المساحة التي كان يشغلها القديم وإن لم يَسْعَ المهندسون المعماريون بالطبع إلى نسخ المباني العائدة إلى العصور الوسطى. وهذا الجزء لايزال قائماً شأنه شأن البرج. وهذا كتاب البيّنات القديم، يمكنك أن تري...

وقاطعته السيدة مارك قائلة:

ـ علينا ألاّ نتأخّر. أريد أن أُري دورا الكنيسة وحديقة الخُضر، ثم إنه ينبغي ألاّ أترك طويلاً مشاغلي الكثيرة.

وبدا پول شديد الخيبة، وقال لامرأته وهو يضغط بحنان على ذراعها:

ـ سأريك المزيد غداً.

وارتسمت على وجهها هي أيضاً ابتسامة خيبة من وراء ظهر حارستها الشرسة. وقد عزمت على البحث عن طريقة تقلّد بها هذه السيدة عندما

تخلو إلى زوجها، وإذ كانت قليلة الموهبة للدعابات فقد كان عليها أن تتصوّرها مسبّقاً، ولكنْ حتى بهذا الشكل لم تكن تحصل في الغالب إلا على سفاسف متكلّفة.

وتبعت دليلتها مفعمة بالنشاط والراحة من جرّاء تواطئها مع زوجها.

صعدت السيدة مارك بضع الدرجات المفضية إلى الممرّ ودخلتا ردهة صغيرة يخترقها بابان يؤدّي أحدهما إلى الحديقة والآخر إلى الكنيسة. وإذ دفعت الباب الداخلي فقد ألفتا أنفسهما في الظلمة. ولّما كانت دورا تبذل جهداً كبيراً لرؤية شيء ما فقد أدركت أن مرافقتها كانت جاثية على ركبتيها إلى جانبها. وإذ أَلِفَتْ عيناها العتمة فقد لاحظت أنها كانت في حجرة صغيرة شبيهة بعلبة قد شمَّعت أرضيتها الخشبية بعناية وزُيّنت جدرانها بتصاوير دينية. وكان فيها كذلك عدد من الكراسي والطنافس، وكان جوّها عابقاً برائحة بخور نفّاذة. وفي الطرف المقابل كان سياج فسيح يشغل مأطورة كاملة، وقد قطعت بعض قضبانه واستبدل بها باب مغلق بإحكام. وكان درابزين مرتفع قليلاً قد ثُبِّت على بضعة أمتار من الخلف على الجانب فاسحاً في المجال عند مستوى أعلى فوق منصّة لرؤية مذبح مُقام على جانب الحجرة. وكان ستاران كبيران مفروجان معلّقان بقضيب من النحاس يخترق السياج يتيحان رؤية الزينة. وبقرب المذبح كان لهب صغير أحمر يتصاعد. وكان الصمت يُشعِر بالتلاشي. وهمست السيدة مارك:

ـ هذه كنيسة الزائرين. وهذا خلال القضبان المذبح الكبير. وأما جسم الكنيسة الرئيسي فلا يُرى من هنا. وبفضل هذا التنسيق يمكننا المشاركة في إقامة الصلوات من غير أن نرى الأخوات الراهبات لأن رؤيتهنّ ممنوعة منعاً باتّاً. ويُقام قدّاس كل صباح في الساعة السابعة. ويحقّ للغرباء حضوره. والباب الذي ترينه يدخل منه الكاهن لمناولة من يرغب في ذلك. ولكنْ حين تتلقى الراهبات القربان المقدّس تُسدل الستائر لفصل الكنيسة عن

twitter @baghdad_library

الجزء الرئيسي. وهذا المكان هو الوحيد الذي يستطيع فيه الدنيويّون أمثالنا مقاربة حياة جارتنا الدينية.

وحدث حفيف يكاد لا يسمع خلف القضبان، ثم صوت خطى فتمتمت دورا:

ـ هناك شخص ما؟

ـ لا ينبغي أن تترك الكنيسة مقفرة أبداً. وهناك إحدى الراهبات للقيام بالنوبة باستمرار. إنه مكان صلوات لا تنقطع.

وخنقت دورا صيحةً وأخذت تتقهقر مذعورةً نحو الباب. فقد أيقظ عَبَق البخور الكثيف فجأة بعض الفزع الموروث في دمها البروتستنتي.

ورسمت السيدة مارك على وجهها علامة الصليب، وجثت جثوة قصيرة وتبعتها، وسرعان ما كانتا تحت نور الشمس الساطعة. وكانت الأعشاب الطويلة تموج قليلاً مختلطة بنبتات القصب عند طرف البحيرة المتلألئة. وقد بدا لدورا غير قابل للتصوّر ذلك الأفق الرحب الذي ارتسم فيه القصر بشكل موارب محاطاً بفِنائه المزروع بشجر الدردار، المنبسط تحت سماء خالية من كل غيمة بحذاء هذا الثقب الداكن وذاك الصمت. وهزّت رأسها بعنف. وقالت السيدة مارك:

ـ شيء مثير بالطبع. إن هذه الحياة الديرية من الغرابة بحيث لا يَسَعُ المرءَ الامتناع عن التأثّر بها.

وعادتا أدراجهما فقالت:

ـ سوف نسلك هذا الدرب على اليسار ونقطع خلف المنزل إلى حديقة الخُضر.

وقادهما الدرب بعد وقت يسير إلى طريق صغيرة حاذت الشطّ ثم تباعدت على اليمين محاذية الغابة الكثيفة. وكانت بيوت خضراء تتلألأ تحت

أشعة الشمس. وإذ كانتا تدوران عبر الغابة فقد لاحقهما من الجهة الأخرى للماء صليل جرس خافت.

وانفجرت دورا قائلة:

- إنه لمريع التفكير بأنهن سجينات على هذا النحو!

- صحيح أن هؤلاء النسوة قد أسلمن أنفسهنّ بمحض إرادتهن إلى تقشّف قد يملأنا أنا وأنت رعباً؛ ولكنْ إذا نحن اعتبرنا الخاطىء الذي يسمو به العذاب فإنه لا يمكننا في الوقت نفسه تقدير القديس إذا اعتقدنا بأن تضحياته تبتليه بالطريقة التي قد تبتلينا. على كل إنسان أن يعرف حدوده.

وقادت دورا إلى الثلم الضيّق الذي كانت فيه الأعشاب المصفرّة بصفوف طويلة من القصب الذي جفّفته الحرارة تميل من كل صوب ملامسة أكتاف المرأتين. وإذ كانت دورا لاتزال مضطربة ثائرة الأعصاب فقد عثرت. وقد رأت أمامها من خلال الأعشاب وهي تنظر إلى المكان الذي زلّت فيه ما أثار انبساطها، رأت ربلتي رفيقتها البدينتين مصطبغتين بلون بنّي متوهّج. وبدت واجهة القصر الطويلة الخلفية إلى اليمين متناسقة مع أعمدته المتلصقة بالجدار والمؤطّرة للنوافذ المدبّبة الأعلى في الحجرة الكبيرة. ووصلتا إلى فضاء قُطعت أعشابه وكُدّست. وكان الدرب قد تلاشى في هذا المكان وأخذ كعبا حذاء دورا يغوصان في أصل العشب المقطوع. قالت السيدة مارك:

- هنا تبدأ حديقة الخُضر، وهي لاتزال صغيرة جداً كما ترين. والجزء الأدنى منها كان يُستخدم قديماً جنينة أزهار للقصر. ولقد فلحناه واستنبتنا فيه بشكل رئيسي الخسّ والجزر والبصل والكرّاث. ووراءه يقوم بستان الأشجار المثمرة. وهو مسيّج بجدران مرتفعة ترينها أمامك، ونحن نجهد في إبقائه على الحال التي كان عليها أوّلاً إنه مزوّد بكثرة بالكمثرى والتفاح

twitter @baghdad_library

وعدد كبير من الأثمار المختلفة الشهيّة. وقد كان فيه بعض الخيم المخصّصة للاستنبات، ولكننا أضفنا إليها أخرى أحدث منها إلى الجهة اليسرى. وهي ملأى بالبندورة في الوقت الحاضر. والبناء المعدني الصغير الذي ترينه إلى جانبها هو الخمّ، ولكننا لا نربي سوى عدد قليل من الدواجن. وقد بدأنا بزراعة مرعى قديم خلف الحفرة الواسعة، ومنه نحصل على ملفوف طيّب كبير وصغير وعلى كثير من البطاطا. ونسعى فقط إلى استنبات الخضروات التي تسهل زراعتها إلى اليوم الذي نكون قد اكتسبنا فيه بعض الخبرة. وسوف نفلح مساحة أكبر من المرعى هذا الخريف.

ووصلتا إلى طريق مفروش بالإسمنت يفضي بين الكوى الزجاجيّة إلى جهة الحديقة. ولمحتا بعض الأشخاص. وعلى مسافة قصيرة كان جيمس تيبر پيس يعلّم توبي العَزْق بين صفّين من الخُضَر. وكان شخص آخر، پيتر توپغلاس، يروح ويجيء داخل إحدى الخيم. قالت السيدة مارك بشيء من الرضى:

ـ العَزْق نشاط مبتذل، ولكنّه خبزنا اليومي.

واقترب پاتشواي دافعاً عربة يدٍ على امتداد الدرب. وبدت قبّعته وقد التصقت بجمجمته منذ الليلة البارحة. وقالت السيدة مارك:

ـ لاتزال الدلائل على هطول المطر غائبة، وأنا خائفة يا پاتشواي.

أجاب:

ـ إن لم يسقِ هذه الكرّاثات بسخاء وسرعة فلن تشاهديها تنبت قبل الخريف.

وتنحّتا لتركه يمرّ. وقالت السيدة مارك:

ـ إنه ذاهب لاقتلاع بعض الخسّ. ياله فتى طيّباً رائعاً. إن ما ترينه إلى يمينك هو مؤخّرة الإصطبل التي ربما كان قد رسمها «كُنْت» كما يقال. ولقد تضرّر جزء منه بالنار قبل خمسين سنة، ولكن مجموعه كما تلاحظين ما يزال

جميلاً. وهو منسوخ في عدّة صور قديمة. وقد حوّلنا بعض الإصطبلات غير المشغولة إلى مرائب وأخرى إلى ورش توضيب نزِن فيها ونغلّف الخُضر التي تذهب إلى «پندلسكوت» و«سيرنسستر». وأنا أشرف على هذا الجزء من العمل كما على جميع أمور المنزل والتموين. ونعتبر أن على النساء أن يكتفين بهذه المهمّات التقليدية. وليس من سبب لإجراء تغيير لمجرّد الرغبة في إجرائه. وسنكون سعداء جداً إذا شعرت برغبة في الانضمام إلينا من وقت إلى آخر. وأرجو أن تكون يداك ماهرتين، وأن تكوني تطيبين نفساً بأشغال الخياطة؟

لم تكن دورا ماهرة، ولكنّها كانت في المقابل حسّاسة جدّاً بإزاء انعكاس الشمس على الطريق الخالي من التظليل، وكذلك بإزاء خطّ الكوى الزجاجية المتلألئة، وقد شعرت بصداع شديد. وحاولت تهدئته بوضع يدها على جبينها. قالت السيدة مارك:

ـ يا للصغيرة المسكينة! لقد أتعبتك بهذه المسيرة الطويلة. سوف نكتفي بإلقاء نظرة على الأشجار المثمرة ثم أعيدك إلى المنزل. وبينما تنالين قسطاً من الراحة أذهب أنا للعمل.

ودفعت باباً ثقيلاً من الخشب ودخلتا بستان الثمار.

كانت حجارة الجدران الجافّة المفتّتة بفعل الصيف الطويل المليئة بالأخاديد تحيط بأرض فسيحة غاصّة بلا نظام بالأعشاب والثمار. وكان قفص معدني يخالطه بعض الزجاج يغطّي مساحة ما في أبعد زاوية. وكانت الأشجار المثمرة معلّقة على امتداد كل جدار بشكل تعريشات، وأوراقها مائلة بفعل الحرارة. وشرعت المتنزهتان تسيران بحذاء أثلام صغيرة، وكانت تعلق بثوبيهما أصابع نبتات العلّيق الجافّة الشائكة. قالت السيدة مارك:

ـ أرى طفلتنا العزيزة. إنها مشغولة بجمع أثمار المشمش.

twitter @baghdad_library

وتوجّهتا صوب كاترين. وكانت شبكة كبيرة قد شدّت بعرض الحائط لحماية الأثمار من هجمات الطيور. وإذ كانت الأوراق تواري الفتاة بعض الشيء فقد كانت تُسقط الثمرات المذهّبة في سلّة واسعة قائمة عند قدميها. وكانت قبعة شمس بالية تغطي شعرها الأسود المبعثر في انشوطة طويلة كابية تنفلت منها خصلات متطايرة. وإذ كانت مستغرقة في مهمتها فإنها لم تتنبّه لقدومهما حتى اقتربتا منها جدّاً. وبدا رأسها الأسمر الشبيه برؤوس الإسبانيين، المنكفيء إلى خلف، جميلاً من جديد لعيني دورا تحت الضياء الحامل لذرور أثمار المشمش. وكان وجهها الملتفت قليلاً يبدو من غير الصرامة التي يكتسيها في المجتمع أكثر نضارة ووقاراً، ولكنْ أشدّ حزناً أيضاً. ومرّة أخرى ساور دورا إحساس غريب.

هتفت السيدة مارك:

ـ صباح الخير يا كاترين. لقد جئت بدورا لرؤيتك.

وأجفلت كاترين والتفتت مذعورة.

يالها من إنسان غريب، هكذا فكرت دورا، وابتسمت لها فردّت الفتاة بابتسامة كأنها رصاصة من خلال الشبكة.

ـ لا بدّ أن القيام بهذا العمل في هذا الحرّ أمرٌ شاقّ؟

كانت كاترين ترتدي ثوباً كاشفاً مطبّعاً بأزهار شاحبة. وكان نحرها مائلاً إلى اللون البنّي، وأما وجهها الذي صمد لهجمات الشمس فقد كان يبدو عليه ذلك التشنج الذي لاحظته المرأة الشابة لدى لقائهما الأول. ونزعت قبعتها فانزلقت على كتفيها تمسك بها فقط شرائطها، وأزاحت عن جبينها خصلة سوداء غير منضبطة ومسحت فوق ثوبها يدها السمراء التي رطّبها العرق وهي تتبادل بعض الملاحظات العادية عن الطقس والحرارة مع زائرتيها اللتين استأنفتا طريقهما بعد قليل.

قالت السيدة مارك:

ـ كاترين في حالة توتّر قصوى طبيعية مع فكرة الدخول في الحياة الدينية، بارك الله فيها، إنها برهة مهمّة جداً بالنسبة إليها.

سألت دورا إذ لم تدرك الأمر:

ـ الدخول؟

أجابت السيدة مارك وهي ترافقها إلى مخرج البستان:

ـ كيف؟ ألا تعرفين؟ كيف، ألا تعرفين؟ سوف تصبح راهبة؛ ستُقبَل في الدير في غضون شهر تشرين الأول (أوكتوبر).

كانتا قد وصلتا إلى الباب فاستدارت دورا لتلقي نظرة أخيرة على الطيف المتحرّك. وشعرت أمام النبأ الذي كانت قد تلقّته قبل هنيهة بدهشة ممزوجة بالرعب على الرغم من إحساسها في الوقت نفسه بارتياح غريب. ومع ذلك فإن ما كان يستحوذ عليها هو شعور مُبهم مؤلَّف من تعاطف وشبه ارتياع وكأنّ شيئاً من ذاتها كان مهدّداً بالتدمير.

* * *

قال الرجل الجالس خلف الحاجز الخشبي:

ـ من فضلك، إنه وقت الإقفال.

قفزت دورا خجلة بعض الشيء من على أريكتها ووضعت قَدَحها. لقد كانت آخر زبونة في بار «الأسد الأبيض» المعتم المطلي بدهان لمّاع. وخرجت إلى الشمس وسمعت خلفها صوتاً حزيناً صادراً عن مزلاج الباب. وكانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

لقد ذهبت إذ تركت السيدة مارك عند باب البستان لتستريح مدّة عشرين دقيقة، واتّجهت بعد ذلك خلال درب عيّنته لها مرشدتها إلى القرية للسؤال عن الحقيبة المنسيّة. وتبيّن لها أن الرحلة كانت أطول مما افترضت ووصلت سابحة بالعرق منهوكة القوى لتعلم أن الحقيبة مرسلة في قطار لن

twitter @baghdad_library

يصل أبداً قبل نصف ساعة. وإذ أخذت تتسكّع في القريـة لتمضية الـوقت فقد طارت من الفرح وهي تكتشف أن الحانات مفتوحـة، وجعلت «الأسد الأبيض» و«المتطوّع» يستفيدان بالتناوب من إدراجهـا في عداد زبـائنهما وهي تجلس حالمة في ضـوء الصالتـين الخافت وقـد سحرهـا جوّ الحـانتين المُشعِـر بالراحـة. وعادت إلى المحـطة، ولكنّ القطار كـان قد أعلن أنـه سيتأخّـر. وبعد لأي ظهر وسُلّمت الحقيبة إلى صاحبتها. وكانت أول حـركة أتتهـا أن انسحبت إلى المغـاسل لارتـداء ثوب خفيف وانتعـال صندل. وإذ شعـرت بـراحة فقـد سارت في طـريقها مقـدّرة، كما كـان پول نفسـه قد قـدّر، أن الطريق لن يكون شاقّاً. ونظرت إلى الساعة فألْفَتْها قد تجاوزت الواحـدة. وفكّرت في أن ساعة الغداء في «إمبر» تدقّ في الثانية عشرة والنصف تمـاماً، وهكذا كان أن دخلت «الأسد الأبيض» للمّرة الثانية.

ويعد أن طُردت جـرّرت قدميهـا إلى خارج القـرية وانتهى الأمـر بها أن وجدت درباً ضيّقاً يحاذي حقول الحنطة مُغضيـاً إلى حافـة الطريق البلدي. وكانت الحبوب الشقر التي ذهّبها النضـج قد قُـطعت وكُدّست تحت أغـطية واقيـة حسب العادة السنـوية شبيهـةً بأشبـاح متوقّفـة عند طـرف الـدرب. وبلغت الطريق الكبرى وحاذت سور القصر فوصلت إلى باب صغـير. وفي ذلـك المكـان كـان درب يخـترق مجـريي المـاء الصغـيرين اللذين يصبّـان في البحيرة باتّجاه الجسر الأخير. وكان هذا الجزء من النزهـة جميلاً وظليـلاً على الأخصّ بشكل يبعث على الرضى، ومع أنها كانت جائعة ومضطربـة بعض الشيء لتأخّرها فقد كانت حالّياً تشعر بالانتعاش بفعـل الهواء النـاعم ورؤية الأقواس المخضرّة. وإذ كان الظلّ قد أنعشهـا فقد زوّدتها معدتهـا الخاويـة بنوع من الطاقة.

كانت الأرض مكسوّة بالأحراج في هذا المكان الذي يجري فيه الماء تحت قبّة عتيقة من الأوراق المتشـابكة وأشجـار السرو الغبراء. وكـانت الأعشاب

تنحني نحو الساقية في صفوف طويلة من الخيوط الشديدة الخضرة ولكن الوسط كان مضيئاً مُفضياً إلى فراش من الرمل والحصباء. وتوقّفت هنيهة ناظرة إلى الماء المكدر ببعض البقع وفكّرت على التوّ في كاترين. وتخيّلتها لابسة لبس عروس وهي تجتاز إلى غير رجعة بوّابة الدير الكبرى في شهر تشرين الأول (أوكتوبر). وكان كما لو أنها هي، دورا غرينفلد، التي تجتاز السدّ وعيناها مسمّرتان بعزم إلى الباب المفتوح. وأفاقت بغتة من حلمها مرتعدة لتلك الرؤيا وسقطت بصندلها في مجرى النهر الذي كان لحسن الحظّ قليل العمق. شكراً لله فإنها لم تكن كاترين!

وإذ أصيبت ببعض الخدوش وبالبلل فقد تسلّقت أسهل جُرُف وتابعت طريقها. وما هي إلا بضع خطوات حتى خامرتها فكرتان منذرتان بالخطر على التوالي. وكانت الأولى أنها ضلّت ولا شكّ الطريق لأنها بلغت مجرى الماء الثاني الذي كان عريضاً جدّاً ومجتاحاً بالأعشاب، ولكنّه لم يكن يكشف عن جسر. والثانية، وهي الموئسة، أنها كانت قد تركت الحقيبة في «الأسد الأبيض». وأطلقت أنّة؛ لقد كان يكفيها كدراً أنها لم تصل في الوقت المحدّد للغداء! وكان هذا العمل الأخرق الثاني كفيلاً، بحقّ، بأن يجعل مزاج پول لا يُطاق خلال عدّة أيام حتى وإن لم يكن الطرد الثمين قد سُرق، فوق ذلك، في الحانة. وعادت أدراجها، الأمر الذي كان يعني في ذهنها أنها راغبة في الجري إلى القرية من دون إبطاء، ولكنّها شعرت بالانزعاج من الحرارة، وبالجوع، وبالتعب الشديد. وخانتها شجاعتها لمجرّد التفكير في أن تسلك مجدّداً تلك الطريق الطويلة المحفوفة بعدد لا يحصى من نبات القرّاص عاجزةً فوق ذلك عن الاهتداء إلى الدرب الموصل إلى القرية. وفكّرت: «ما أغباني».

وسمعت في تلك اللحظة حفيف أوراق في أسفل الدرب بالاتجاه الذي

twitter @baghdad_library

قـدمت منه، وبـرز شخص من الحـرج مفـرّقـاً بيـديـه الأعشـاب الـطويلة المخضوضرة المتشابكة. وكان ذلك الشخص مايكل ميد.

ويـدا دهشاً جـداً للقائهـا في هذا المكـان واقترب وعـلى شفتيه ابتسـامـة متسائلة.

- آه يا سيد ميد، أظنّ أني قد ضللت.

وشعرت بالخجل إذ وجدت نفسها وحيدة مع رئيس الجماعة. قال:

- لقـد لمحت صباغ ثـوبك خـلال الأشجـار، ولكني لم أستـطع أن أميّـز جيداً ما كان. وقد فكّرت بادىء الأمر في أحد طيـور «پيتر» الشهـيرة. وإذا كنت تريدين العودة إلى المنزل فقد سلكت بالطبع اتجاهاً سيّئاً. لقد كنت في هذا الوقت أتفحّص أحواض الحُرْف، فنحن نستنبت بعضها فوق جـزء من مجرى الماء الآخـر. ليس هـذا مـوسمهـا، ولكن يجب أن ينـظّف المكـان. جميل، ألا ترين ذلك؟

- أوه! رائع.

وإذ كانت منهارة فقـد أحسّت بأنها سـوف تبكي. وقد أصـابتها الحـرارة المـرتفعة الضـاغطة أشـد ما يكـون الضغط تحت قُبّة الأشجـار مضـافـة إلى جوعها الطويل بتوعّك خفيف. وقال مايكل بلطف:

- إنها الحـرارة التي تزعجـك. اجلسي قليلاً فـوق جذع هـذه الشجـرة. أميلي رأسـك جيـداً إلى خلف وسـوف تشعـرين بتحسّن في وقت قصـير. وجسّ عنقها بيده.

قالت دورا باكية مثل بنت صغيرة:

- لا، لا، ليس السبب هذا.

ولما لم تجد منديلاً فقد مسحت عينيها بطرف ثوبها ثم فركت وجهها بيد ملؤها العرق والوحل وقالت:

ـ كنت قد ذهبت لإحضار الحقيبة، تعرف، الحقيبة التي كنت قد تركتها في القطار ثم وجدتها. ومن جهة ثانية فقد نسيتها أيضاً، وهذه المرّة في «الأسد الأبيض».

واختنق صوتها في أنّة.

وتأمّلها مايكل برهة وأخذ يضحك ضحكاً متواصلاً جعلها تتفرّس فيه وتضحك بدورها ولو أن ضحكها كان من نمط أَمْيَلَ إلى الكآبة. قال مايكل:

ـ إني آسف للغاية، ولكن الطريقة التي أخبرتني بها حادثتك المزعجة كانت فكاهية للغاية! تشجعي يا سيدتي العزيزة. ليس في الأمر مأساة. عليّ أن أذهب هذا المساء إلى القرية بالسيارة وسوف أعيدها معي. إنها في مأمن في «الأسد الأبيض». هل تناولت بعض الطعام هناك؟ لقد كنا نتساءل عما جرى لك.

قالت دورا:

ـ كلا تناولت كأساً، ولكنّي لم أستطع الحصول على سندويش.

قال:

ـ لنعد رأساً إلى المنزل. ستجد لك السيدة مارك ما تأكلينه؛ وعليك بعد ذلك أن تستريحي فقد أمضيت صبيحة مُنهِكة. سوف نسلك هذا الدرب إلى التلّة ثم نهبط السلّم الحجري. إنه أقرب طريق وأكثرها ظلّاً. انهضي واتبعيني. لن أسير بخطى سريعة.

وساعد دورا على النهوض. وشعرت بأنها أحسن حالاً قليلاً. وابتسمت له وهي ترفع شعرها المبلّل عن جبهتها، وتبعته وهو يسلك الدرب. ولم تعد

twitter @baghdad_library

تشعر بالكآبة من جرّاء طيشها لأنه خفّ لمساعدتها وأحسّت بعرفان الجميل نحوه. ففي أول لقاءلهما بدا لها كامداً بعيداً عن القلب شارد اللب خائر القوى. وها هي ذي اليوم تحكم عليه حكمها على شخص حازم ومحبّب؛ وبدا لها وجهه الضيّق أشدّ سُمرة وشعره أكثر تذهيباً. وكان شكل عينيه يضفي عليه حتماً تعبيراً ثابت الكدر، ولكن ما كان أشدّ زرقتهما!

وتبعته بعض الوقت وقد عاد إليها هدوؤها وهي تنظر إلى هذا الدليل ذي العنق الضامر الملوّح البارز من الياقة المجعّدة لقميصه الأبيض المتّسخ قليلاً. وإذ رأته يتوقّف بغتة فقد اقتربت ونظرت من فوق كتفه.

كان في الحرج فرجة حفرت فيها الساقية بركة صغيرة محاطة من أطرافها بالحجارة المطحلبة والأعشاب. وكانت تبدو عميقة في الوسط لأن ماءه كان داكن السُمرة، وعندما نظرت بدورها لم تر شيئاً أول الأمر غير دائرة الماء وبرقشة الأوراق المتحرّكة التي نفذت إليها أشعة الشمس بمقادير مختلفة، ثم لمحت طيفاً ساكناً تماماً على أبعد جانب من جوانبها. كان ذاك توبي غيش حاملاً عصا طويلة كان يلقي بها لتحريك الطين في القعر. والذي رأته بعد ذلك، حتى قبل أن تتعرّف إليه، هو أنه كان بإستثناء القبعة ـ عارياً تماماً. وكان جسده الناحل جداً والأبيض عرضة لدغدغة الشمس والظلّ معاً، في حين كانت الصفصافات التي يقف تحتها تميل قليلاً تحت وطأة النسيم. وكان ينحني، من غير أن يعلم أنه مراقب، وكأنه شخص تعوّد العري منقّلاً أطرافه الطويلة الناتئة العِظام بتؤدة خرقاء. وملأها منظره فرحاً عارماً ورأت فيه بذهنها صورة من إيطاليا، صورة داود الشاب للمثّال دوناتيللو، الشابّ الموحي القويّ الشديد السحر في عُريه الفتيّ.

لو كانت وحدها لنادته على الفور غير منزعجة البتّة، بل لكانت على العكس تسلّت وأُخذت بهذا المشهد. وجعلها القرب من مايكل الذي كانت قد نسيت وجوده للحظة تغرق في التفكير، وإذا استدارت نحوه فقد

شعرت بإضطراب ليس سببه وجوده بقدر ما هو ظنّها أنه لا بدّ أن يكون قد تخيّل أنها ربما كانت جدّ مرتبكة. ولقد كان وجه رفيقها مضطرباً بالفعل إذ كان يتفرّس هو أيضاً بالمراهق الجميل. ثم استدار على مهل ولمس ذراع دورا وهو يشير من غير أن يتكلم إلى الدرب الذي كانا قد جاءا منه. وهكذا لم تُقلَق راحة توبي، وبدا هذا السلوك للمرأة الشابة على قدر غير معقول من الإرهاف. وتبعته بلا إسراع.

وعندما توغّلا في الدرب الصغير قال لها مايكل:

ـ لقد سمحنا له بالتصرّف بوقته بعد الظهر. وأني لأتساءل عمّا كان سيفعل. وقد رأيت من الأفضل تركه يستحمّ في هدوء. سوف ندور من الجهة الأخرى.

قالت دورا:

ـ أجل، طبعاً.

أخذت الآن تنظر إليه بجرأة على أثر التواطؤ الذي خلقه بينهما هذا المنظر الريفي. وأما هو فقد بدا على العكس خجِلاً. وتذكّرت وضع يده على عنقها. وفكّرت في أن هذه المغامرة العجيبة قد ولّدت رغبة بدنية لم تكن قبلُ قد استيقظت. وأثار هذا التقدير السرّي عواطفها وسَحَرها، وإذ كانا يهبطان جنباً إلى جنب فقد ابتسمت للتفكير في أن رفيقها أخذ يجسّدها الآن في شكل امرأة مرغوب فيها ويعرّيها في خياله، وأنها كانت قريبة جدّاً منه في عصر يوم جميل ملتهب من أيام الصيف.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

استيقظ مايكل ميد على صوت غريب خافت بدا أنه صادر عن ناحية البحيرة. وبقي ساكناً تماماً برهةً وأصغى بقلق خلال الصمت الذي تلا، ثم قفز من فراشه واتّجه إلى النافذة المفتوحة. وكانت غرفته قائمة قبالة الدير.

وأخذ ينظر متنبّهاً ثائر الأعصاب إلى سطح الماء الفسيح وأسوار الدير السهلِ تبيُّنُها تحت ضوء القمر الساطع المرتفع فوق حديقة الخُضَر. وكان كل شيء مألوفاً، ومع ذلك كان شبه خارق. وانتقل بصره إلى أبعد حيث لم تكن أراضي الدير مسيّجة وكانت تمتدّ لتهبط إلى جُرُف مُحصِب. وانتابته الدهشة وهو يتبينّ بوضوح عدداً من الأشخاص مجتمعين. لقد كانت هناك عدّة راهبات عند ضفّة البحيرة. وكان يرى ثيابهنّ الداكنة التي لا شكل لها تتمازج حين كنّ يتحركن وطيف الظلال الزرقاء التي كان القمر يعكسها خلفهنّ؛ وبفضل هذه الحيلة الضوئية بَدَوْنَ قريبات بشكل غريب، وكنّ الآن منحنيات فوق شيء يسحبنه خارج الماء على مهل، شيء كبير وازن كانت كثيرات منهنّ يقبضنَ عليه بطريقة خرقاء. وسمع صرير الحصباء وتحقّق برعب أنّ الشيء الطويل الذي كنّ يجررنه ظالعاتٍ فوق الشطّ كان جثماناً بشريّاً. أجل، لقد انتشلت الأخوات جسداً من البحيرة! وأحسّ مايكل أنه تجمّد وشلّ ولم يعد يدري ما يفعل وهو يتساءل عن مجرى هذه المأساة العجيبة التي يحضر آخر فصل من فصولها. من كان ذلك الشخص

الذي غدا بلا حراك ممدّداً على الشطّ البعيد؟ وراودته فجأة فكرة غريبة عن جريمة قتل ارتكبتها الراهبات. وكان المشهد من الفجيعة والغرابة إلى درجة جعلته يختنق من الأسى شادّاً في قنوط ياقة بيجامته محاولاً خنق صيحة إنذار.

استدار وفهم أنه كان لايزال مستلقياً. وهجم الفجر على غرفته فانتصب واقفاً وهو لايزال يشدّ على عنقه، وقلبه ينبض بعنف. لقد حلم، ولكنّ المحنة كانت من القسوة بحيث بقي ذاهلاً مدّة دقيقة مرتاباً في أنه صحا من نومه متلاشياً بفعل فظاعة ما رأى. وكان ذلك مجدّداً نذير شؤم. فهي المرة الثالثة يرى فيها تقريباً في المنام المشهد الليلي عينه، مشهد الراهبات وهنّ يُخرجن غريقاً من البحيرة كان على يقين من أنه ضحيتهنّ الممدّدة عند أقدامهنّ فوق الحصباء. وكان يرافق هذا الكابوس في كل مرّة إحساس جارف بوقوع مصيبة كبيرة؛ وكان يحسّ في كل مرّة أنّ الصوت الخافت الذي كان يسبق حلمه لم يكن صوتاً وهمياً، وإنما كان صوتاً يسمعه حقّاً وهو نائم ويوقظه من نومه.

كانت ساعته تشير إلى السادسة إلاّ عشرين دقيقة. ونهض واتّجه إلى النافذة متوقّعاً مشهداًغريباً ما. وكان كل شيء طبيعاً وكما يمكن أن يكون عند الفجر. وكان فوق مرجة العشب المقصوص سرب من الشحارير يروح ويجيء ملتزماً بالنشاطات العجيبة التي تمارسها الطيور وقد استيقظت لتوّها. ولم يكن شيء غيرها يتحرّك. وكانت البحيرة رائقة ملساء وقد أضاءها نور شاحب ترسله شمس أخذت تبزغ في ضباب كثيف. ولسوف يُعقب يومٌ حارٌّ جديدٌ اليومَ المنصرم. ونظر إلى المكان الذي يتعرّج فيه الماء خلال الشوك عند حافّة الضفّة. ولم يكن هناك حصى، ولا كان فيه أي إنسان. وحاول تفسير كابوسه والشيء الكامن في قرارة ذهنه وقد أتاح له أن ينسب مثل هذه الجريمة إلى مخلوقات بريئة طاهرة الذيل. لقد كان تحت وطأة

twitter @baghdad_library

توجّس، ولم يكن ذلك بسبب ضغط القوى الظلامية التي كانت تعتمل في نفسه بقدر ما كان يداخله اقتناع بأن ينبوعاً نشِطاً من الشرّ يسيل في كيانه. وهزّ رأسه وجثا أمام النافذة المفتوحة وهو لايزال يحدّق في المكان المشؤوم ثم أخذ يصلي في سرّه. ولم يلبث أن تراخت أعصابه. ولم تكن صلاته صراعاً، وإنما كانت تسليماً منه لكلّ المرض المكبوت في أعماق كيانه. وشيئاً فشيئاً عادت إليه وداعته ومعها فرح هادىء وتجدُّدٌ لليقين بأن الموجود حقاً هو الله الحيّ وحده الذي تندمل بفضله جراح كل عذاب وتتبدّد إلى الأبد كل مصيبة.

كان الوقت قد تقدّم جداً للإخلاد إلى النوم من جديد فجلس على الأرض برهة والكتاب المقدّس في يده، ثم تذكّر بشيء من الكرب أن اليوم هو السبت يوم الاجتماع الأسبوعي. وكان برنامج هذا الأسبوع حافلاً بعض الشيء. وكان من عادته أن يُعِدَّ سلفاً لائحة الموضوعات التي ينبغي طرحها للنقاش تاركاً الخِيار مع ذلك للمشاركين بأن يطالبوا بالتأجيل أو بأن يطرحوا بدورهم أسئلة يرون ضرورة طرحها. وسجّل على ورقة موضوعات اليوم: جرّار، نداء مالي، سناجيب، التدابير الواجب إقرارها للاحتفال. ووضع قلمه وأخذ يتفكّر في هذه القضايا. ونظر إلى ساعته: ما زالت هناك عشرون دقيقة على موعد القدّاس.

لقد كان تكوين الجماعة التي انتسب إليها بشكل جازم متعباً، وكانت بداياتها غير متماسكة ومستقبلها باديء الأمر غير أكيد. وكان هذا القصر، مهد عائلته، قد أصبح عبئاً باهظاً. مع أنه لم ينفكّ قطّ عن تأجيره. وفي أثناء الحرب كان المسكن قد قدّم ملاذاً لجسم وزاري. وإذ أخلي بعد أن وضعت الحرب أوزارها فقد طُرحت مسألة بيعه. ولّما كان مايكل متعلّقاً جداً بالمكان فقد تمكّن من تجنّب البيع. ففي مطلع شبابه كان ميّالاً إلى الكهنوت ولكنّه اضطر إلى العدول عنه والتوجّه إلى التعليم الذي قضى فيه

سنوات كثيرة. وعلى الرغم من احتفاظه بالميل إلى نزعته التي لم تتحقّق فإنه لم يُرِدْ قطّ أن يزور «الرئيسة» إلا إذا أجبر على النفي من مسكنه، إذ إن الخَطَر المفروض على القصر يتضمّن في رأيه الدير أيضاً. ولمّا كان قد عاد بالذاكرة الآن إلى الوراء متسائلاً فقد بدا له أن أرضه قد كان ينبغي أن تبقى في ذهنه ولا شكّ غير قابلة للانتهاك إن لم تطرأ تغييرات عميقة على وجودها. وإذ كان مضطراً إلى أن يرى «إمبر» مجدّداً لتسوية مصيرها فقد رأى من الصواب الطلب إلى «الرئيسة» أن يقدّم إليها احتراماته لأن مصير القصر لا بدّ أن يكون بالنسبة إليها مهمّاً جداً بالطبع. وعلاوة على ذلك فإنه كان مدفوعاً بالفضول إلى التعرّف حين يصبح مقيماً في المكان ألى هذه «الجماعة» البنديكتية التي اشتهرت بتقشّفها الديني.

وغيّر اللقاء مع رئيسة الدير مفهومه للوجود تغييراً تاماً، كما غيّر خططه. وبسهولة أدهشته باديء الأمر، وإن بدا له فيما بعد أنها كانت جزءاً من خطّة لا تتبدّل، قدّمت له الأم الرئيسة نصيحة: أن يجعل من القصر مجتمعاً علمانياً إلى الأبد، مجتمعاً متّصلاً بالدير، نوعاً من «دولة عازلة» ـ وقد شدّدت على هذه العبارة ـ بين الدير والعالم، انعكاساً، طُفيليّاً رحيماً وضرورياً، صورة نافعة ومسخّرة عن صيغة الحياة التي يَحْيَوْنَها. ولقد قالت إن هناك أشخاصاً كثيرين (وقد اقتنع بما قالت لأن تلك كانت حاله) يجدون أنفسهم عاجزين عن العيش في الدنيا من غير أن يستطيعوا مع ذلك الاستغناء عنها تماماً؛ وأن هناك فئة من المواطنين غير راضين عن نمط عيشهم اليومي ومع ذلك يمنعهم مزاجهم وطبعهم من الاستغناء عنه. ومن جهة أخرى فإن العصر الحاضر بوتيرته المضطربة واكتشافاته الميكانيكية والتقنية التي لا تفتر لا توفّر أي ملاذ لهذه النفوس المنكودة. وأوضحت في واقعية أذهلت مُخاطَبها أن العمل بحالته الحاضرة ما كان ليجلب السلوى لأشخاص أشباه متفكّرين. وأن عدداً محدوداً جدّاً من المهن كالتعليم

twitter @baghdad_library

والمساعدة الاجتماعية والزراعة يمكن أن يكون لها بعض مغزى روحي، وأنها مع كونها ممكنة ومتمنّاة بالطبع فإن إضفاءها على كل نشاط من نشاطاتنا معنى قُدسيّاً قد أصبح بالنسبة إلى معظمهم عقبة كأداء. وعلى هذا فإن من يفهمون ذلك هم إلى حدٍّ ما «ملاحَقون من الله ومسكونون به» ويعتبرون أن العالم الحاضر عاجز عن إرضائهم. وهكذا كان من الأمور الأساسية إيجاد صيغة وجوده منعزل جداً لهذه الأقلية، وفي الوقت نفسه تأمين عمل يسهُل القيام به بفضل الفكرة السامية التي توجّهه. وأضافت أن واجبنا ليس حتماً البحث عن أرفع النتائج بمعزل عن حقائق حياتنا الروحية كما هي موجودة بالفعل، وإنما البحث عن ذلك المكان وتلك المهمّة وأولئك الأشخاص الذين تتطوّر بفضلهم حياتنا وتزدهر بأكثر الأشكال تناغماً وانسجاماً. وختمت قائلة إن علينا في هذا البحث والالتماس أن نبرهن عن دهاء ربّاني، «حذرين كالأفاعي، مسالمين كالحمائم».

لقد استمع مايكل الذي كان يعترف بسلطان الروح أينما وجده إلى هذه الأقوال بشراهة عائداً يوماً بعد يوم للجلوس في المكان المخصص للحديث وكرسيّه مائل إلى أمام ويداه متشبّثتان بقضبان السياج متأمّلاً بشدّة هذا الوجه العجوز الشاحب العاجيّ تحت غطاء الرأس الأبيض، الوجه الذي يحمل آثار تضحيات منسيّة من عهد طويل ومشرقة ببهجة لم يكن يملك لها مفهوماً واضحاً كل الوضوح. وكان انتظاره تدخّلَ نماذج وآيات في وجوده شكلاً من أشكال إيمانه على الرغم من اعترافه بالخطر الناجم عن ذلك. ولطالما اعتبر نفسه كائناً محتوم القَدَر، كائناً في انتظار نداء. ولم يكن جرحه الناتج عن استنكافه عن الكهنوت ليندمل. وعليه فإنه عندما حدّثته «الرئيسة» بعبارات بدت له قريبة جداً من تشخيصه هو، لم يلبث أن تلقّف عروضها وكأنها أمر. وقد أدرك بصفاء ذهن سخف ظروف عيشه خلال السنوات الماضية التي افترسها فوق ذلك سأم طالما جهد في تصويره على أنه

عطش لا يرتوي إلى الحكمة. وها قد برز المثال أخيراً وجاء النداء.

ومع ذلك فقد خاب أمله بعض الشيء، إذ توقّفت «الرئيسة» عن استدعائه ما إن قام المشروع واتّخذت التدابير. ولم تكن قطّ قد طرحت عليه أدنى سؤال عن ماضيه، وكان في حمأة الجيشان الذي يعتريه بإزاء المستقبل الجديد ينتظر اللحظة التي يتمكّن فيها من أن يقدّم لها توضيحاً كاملاً لم يسبق أن قدّمه لأحد عن حياته المضطربة التي لا جدوى منها. وكان له أن يعتقد من جهة أخرى أنها كانت قد أطّلعت على أبرز وقائعها من مصادر أخرى، ولكنّ قلبه كان يستريح لو اعترف لها! ومع ذلك فإن «الأم» التي كانت مدفوعة ولاريب بحكمة لا يُسبر غورها لم تسأله الاعتراف الذي كان يحرّقه. وقد اضطّر بعد زمن إلى أن يقبل رغماً عنه بهذا الصمت على أنه هديّة، تضحية تفرضها إرادة هذه المرأة المميَّزة التي كانت تعرف ولاريب رغبته في أن يقول لها ما كانت تعرفه ولا شكّ، بل أكثر مما كانت تعرفه أيضاً...

ولم يكن قد استدعي منذ أن ظهرت «الجماعة» إلى الوجود بالفعل إلا ثلاث مرّات بهدف مناقشة القاعدة الواجب اتّباعها وحسب. وقد نُظّمت جميع التفاصيل الخاصّة بعلاقات «الأخوية» المقبلة بالدير إما بمحادثات مع «الأم كلير»، وإما بوساطة «الأخت أورسول».

وقد وُلدت فكرة إنشاء حديقة الخُضَر بشكل عفوي تقريباً. فقد كانت تحيط بالقصر أراضٍ طيّبة أشير بزراعتها لاستخدام نشاط سكّانها. وكان من الممكن البدء على نطاق صغير ثم توسيعه بنسبة عدد أفراد المُنْشأة، وإيجاد مهمّات أخرى فيما بعد. وأما عند نشأة مشروع مماثل فقد كان من غير المجدي إقامة خطّة واسعة النطاق. وكان طبيعياً أن يكون هو نواة المُنشَأة يساعده بيتر تويغلاس صديقه القديم منذ أيام الثانوية، وهو رجل صاحب تقوى وديعة ومحتشمة يعمل في ميدان علم الطيور. وكان يأتي بين

twitter @baghdad_library

عملين لمساعدة صديقه في مشروعه، وسرعان ما تكيّف معه وأخذ يقوم بأكثر من حصّته في الأعمال الشاقّة. وإذ حصل على إذن بإقامة عتاده من الطيور وآلات الدراسة في الحديقة فقد قبِل وسط فرحة صديقه الكبرى بالبقاء لبعض الوقت على الأقلّ في «إمبر». وكان القادمان التاليان الزوجين سترافورد اللذين كانا على وشك الانفصال. وإذ كانا قد أُرسلا من قِبل «الرئيسة» فقد شرعا يحرثان هما أيضاً بجَلَد وتصميم. ووصلت بعد ذلك كاترين فاولي وتبعها أخوها بعد مدّة. وكانت قد عقدت منذ زمن طويل صلات مع الدير، ولم تكن مسألة دخولها فيه مبتدئة لتطول أكثر من بضعة أشهر. وعليه فقد رأت «الرئيسة» من الخير بالنسبة إلى «الجماعة» كما إلى الشابّة أن يكون دخولها الدير عن طريق القصر.

ولم يكن وصول رجل يدعى پاتشواي متوقّعاً، ولكنّه بدا مثمراً. ولقد أفصح هذا الفلاح من أهل المنطقة، وقد ظهر بعد وقت يسير على انطلاق «الجماعة» عن نيّته في «تعهّد الحديقة» وظنّ مايكل بادىء الأمر أنه يكوّن فكرة خاطئة عن عودته إلى الأمكنة التي كان يعمل فيها أبوه بستانياً في الأيام الخوالي. ومع ذلك فإنه لم يخب أمله ولا دهش للتوضيحات التي قُدّمت إليه، وقرّر البقاء للمعاونة في مسيرة المشروع مُبدياً رغبته أن يكون بتصرّفه عدّة فلّاحات من القرية. وكان حضوره القدّاس متقطّعاً. وقد صرّحت «الأم كلير» في النهاية - وكانت في البدء قد أبدت لمايكل استغرابها تصرّفه - أنه ينبغي الترخيص له بالبقاء رغم كل شيء لأنه ربما كان «مُرسلاً من الله» بالمعنى الدقيق للكلام. وأما أحدث كسب وأكثره أهمية فكان كسب جيمس تيپرپيس.

وإذ كان الولد الأصغر في أسرة عريقة من أُسَر العسكريين فقد قادته تربيته الرياضية الناجزة إلى أمكنة الصيد على ظهر اليخوت في أيام مراهقته؛ وقد خدم بلاده في أثناء الحرب خدمة باهرة في عداد «فرقة

الحرس». ولقد احتفظ من طفولته بإيمان ساذج وقوي بفضل الاعتقاد الباقي في بعض الأسر المالكة للأرض التي ارتبط الدين عندها بطقوس طبقتها. وكان هذا المفهوم حافلاً بالمغزى بالنسبة إليه ونتيجة حياة روحية خصبة ووادعة قادته في رشده إلى نذر نفسه بكلّيته لهذا النداء. وإذ كان في البداية قد أُعِدّ ليكون مبشّراً فقد قرّر على أثر تجارب ولقاءات عدّة ألّا يبتعد عن بلده. ولقد أقام في لندن، في «إيست أند»، حيث صادف نجاحات حسنة في مجال الأعمال وأنشأ عدّة نوادٍ اجتماعية خاصّة بالذكور. ولقد وصلت تلك الصدف المثمرة إلى نهايتها على أثر خَوَر خطير ناتج عن الإرهاق. وبناء على نصائح طبيبه التي ثنّى عليها كاهنه فقد فكّر في البحث عن شاغل في الريف يتيح له العيش في الهواء الطلق. وقد مرّ بعض الوقت قبل أن تستدعيه «الرئيسة» التي علمت بذلك الوضع بفضل جهاز الاستخبارات اليقظ الذي تملكه لكي يأتي لمشاركة الجماعة عيشها.

ولم يلبث أن استحوذ على مايكل استلطاف عارم للقادم الجديد. والحقّ أنه كان ينبغي على المرء أن يبذل قصارى جهده كيلا يقدّر خُلُقاً في مثل هذا اللطف الظاهر. وقد تولّد فوق ذلك شعور بنوع من قربى طبقية بينهما، نوع من حنين على مستوى طبيعي أدنى بما لا يقبل الغموض من الغاية التي كان يريد الآن أن يصرف لها حياته.

وكان لقاؤهما مقتضباً وإن يسير المنال، وبذل مايكل ما في وسعه كيلا يشعر برضى في غير محلّه كان من الممكن أن يندم عليه. وأما جيمس فإنه لم يتأثّر من جهته بذكريات سلفيّة وراثية، وإنما بفعل سلوكه الودي الصريح الذي سرعان ما حلّ مشكلة علاقاتهما. وأجبر هذا القدوم مايكل على إيجاد حلّ لمأزق لم يسبق أن أوجد موجِباً له وصول الأعضاء السابقين. فقد أضفى هذا الحضور فوراً على «الجماعة» بنيةً ما، في حين لم تكن من قبل سوى تجمّع لأشخاص طريفين كان يمارس عليهم سلطاناً عريضاً بسبب

twitter @baghdad_library

وضعه وأفضليّته على الممتلكات. ولم يلبث أن اعترف لشخص جيمس بالتفوّق عليه في جميع الصفات الأساسية وتمنّى أن يسعد بأن يكون الرجل الثاني لمثل هذا الرجل الأول. وقد احتجّ هذا، وكان مدعوماً بقوّة من «الرئيسة»، بسوء صحّته فرفض رفضاً قاطعاً السماح له بالتخلّي عن دور الزعيم شبه الرسمي، واضطر مايكل بشيء من الكرب إلى الإذعان.

يُخفق في العادة من يأملون وهم يعتزلون الدنيا في التخلّص من كل ضعف تجاه الآخرين وتجاه أنفسهم. والحق أن مثل هذا الأمل لم يداعب بشكل خاص مايكل، بيد أنه كان يزعجه أن يجد نفسه بمثل هذه السرعة في وضع من يجب عليه نظراً لقوّة شخصيته أن يمسك كيفما اتّفق بمركبة صعبة يجرّها جوادان الواحد وراء الآخر. فقد طالما تصوّر أن لا تأثير لرجل الخير، وكان يتشبّث بقوّة عارمة بهذه النظرة على الرغم من أنه تمكّن بمشقّة من تدبّر مغزاها وربطها كثيراً أو قليلاً بأعماله اليومية. وبهذا المعنى كان قد أدرك ـ عندما أدرك ـ نداء الكهنوت. وكان لا بدّ أن تعني خدمة الربّ في نظر شخص مثله فقدانَ شخصيةٍ شبيهاً بتخلّي خادم عن إسمه أو تخلّي شخص عن إرادته في طاعة عمياء. ومع دلك فقد كان هذا المثل الأعلى لا يزال بعيداً وصعباً على التحقيق، على الرغم من تأثّره بقوّة بقانونه, وكان قد لاحظ بشيء من المفارقة أن أقوى الموجودين حواليه، أي «الرئيسة»، تتخلّى بهذه الخصلة العظيمة، ولكنّه كان مفتقداً لنفاذ البصيرة ليخمّن بأي طريقة بالذات كان ذلك السلوك يختلفْ عن سلوكه. ولقد كان يحسّ بأنه مُكْرَه على البقاء في مُناخ يُنظر فيه نظرةً سيّئة إلى القوّة، ولا يستطيع فيه هو أن يجد بشكل مشرّف الأسباب الداعية إلى التخلّص منها بالكلّية. وكان نصيبه بالحري العراك الداخلي، والمحاولة اليومية لأن يكون محايداً ومتجرّداً، وأن يرتكب أخطاء، وأن يتفحّص ضميره باستمرار. وبعدُ فربما كان هذا دربه. ولقد كان «درباً» على كل حال، ولكنّه كان يزعجه الشعور بطبيعة دوره غير الكاملة والغامضة، وكانت رغبته في الكهنوت تعاوده بوتيرة أكبر وأقوى.

وما كان السبب أن «جماعة إمبر» كانت مهـدّدة منذ نشـأتها؛ فقـد كانت الظاهرة وادعة وأهلاً لبعض الكفاية، وعـلى الرغم من وجـود بعض التوتّـر الذي كان على وعي متّصل به فإنه كان يـرجو ويـأمل من غـير نفاد صـبر. وكـان جيمس ومارغـريت سـترافـورد يعمـلان فـوق الـطاقـة، وأمـا مـارك سترافورد فما كان يعمل بما فيه الكفاية، وظلّ الاختلاف قائـماً بين الـزوجين على الرغم من خفّـة حدّتـه. وإذ لم يكن مايكـل يشارك الكثـيرين في وجهة النظر القائلة بأن مشاعر الودّ لا يمكن فرضها عـلى الناس، فقـد كان يبـذل قصارى جهده للتعاطف مع سترافورد، ومع ذلك فـإن جهوده لم تكلّل حتى ذلك الحين بنجاح بارز؛ فقد كان مـظهر مسـاعده الملتحي الـرجوليّ المتفـاخر مبعثـاً دائماً عـلى الضيق. وكـان جيمس تيپـر پيس قـد أضحى من غـير أن يسعى إلى ذلـك مركـز سلطة ثانيـاً، وقد لاحظ مـايكل ميـلاً من الزوجـين سـترافورد إلى استقـاء توجّهـاتهما منـه من غير أن يستشـيراه هـو. وإذ كـان جيمس مقتنعاً بأن الإمرة يمكن أن تذوب في حبّ أخوي ـ وكان من الممكن أن تكون الحالة هذه في «جماعة» مؤلّفة من أشخاص يمـاثلونه ـ فـإنه لم يكن يحترس من مثل هذه الاحتمالات. ولم يكن ذلك ليجرّ غـير البلبلة، ولاسيّما أن پيـتر لم يكن ليحسّن الوضـع بسبب غفلته وإخـلاصـه العـاتي لصـديقـه الكبير. وكان يسود بعض سوء التفاهم بين المعسكرين.

كـان مايكـل أحيانـاً يجد جيمس أخـرق بإزاء المسـائل الـدقيقة المتعلّقـة بالتنظيم، ولكنّه كان مقتنعاً مع ذلك بالفرق الاخلاقي الخـطير بينهما. فقـد كان إيمان هذا أشدّ اطمئناناً ومفاهيمه أكثر صلابة. وكان أبعد ما يكون عن اليقين بأن هذه الخصال مجتمعة له هو، وكان يظنّ أن جيمس الذي لم يكن مغفّـلاً قادرٌ عـلى الحكم على من حـواليه ومحبّتهم في الـوقت نفسـه، وعـلى إعتبار مرشده رجلًا ذا «مُثُل، بيد أنه ليس صاحب مبـادىء». وكان وجـود كاترين في زمرتهم مكلّلة بهالتها الروحية ورحيلها القريب محرِّضـاً للجميع،

twitter @baghdad_library

كما كان ولاريب قُطبَ ضيق لايمكن جلاؤه، وكان مايكل يرجو أن يكون رحيماً تماماً في رغبته بأن يعلم قريباً أنها قائمة في الملاذ «بالداخل». ثم كانت تعترضه هو بالذات مشكلة التوأم المذهلة.

وانتزعه جرس القدّاس من تأمّلاته. وقد ذهب بعد الفطور كعادته إلى مكتبه لإلقاء نظرة على بريد اليوم. وكان يستغلّ إلى أقصى الحدود هذه اللحظة اليومية التي كان يستطيع أن يرى خلالها دوران عجلات مشروعه الصغير ـ كما كانت تدور ـ وأن يتّخذ القرارات المتعدّدة المخصّصة لرفع دَخْل حديقة الخُضر يوماً عن يوم. وعلى الرغم من رجائه تخلية مكانه لجيمس لأسباب أخرى قد تكون أكثر جدّية فإنه كان سعيداً بأن يلاحظ أنه كان فعّالاً بشكل استثنائي في تدبير العمل البسيط. وكان يضع خططاً أوسع بشغف وكأنه يقوم بعمليّة عسكرية، ويدهش أن يرى نفسه موهوباً مثل هذه الموهبة لمثل هذا النوع من المشاغل بعد حياته التعليمية الهزيلة. وكان توقيت دقيق وترتيبات محدّدة للعمل وتغييرات سريعة في المواقع ضروريةً إذا أُريد للحديقة التي لم تزل ضيّقة وحافلة بعدد من العاملين ذوي الإرادة الحسنة، وإن عديمي الخبرة، أن تقدّم الحدّ الأعلى من الإنتاج. وكان يجد في هذه التجارب الرضى الغريب الذي كان بعض منها من النوع ذاته قد أحدثه في أثناء الحرب. فإذ كان في البداية آمر قطاع ثم آمر حملة في كتيبة من الفيلق المحلّي فقد أدّى مهمّته بدقّة، حتى إنه أبدى لفرط دهشته حماسةً وحصل على بعض النجاحات العارمة. وقد أسف أسفاً شديداً على أنه لم يُرسَل قطّ إلى ما وراء البحر. وكانت «مهنة» السلاح بمتطلّباتها غير المحدودة وروح الدقة والتضحية فيها قد راودت مخيّلته، وكان خلال التمرينات التدريبية قد ذاق حلاوات صبيانية بإرسال رجاله إلى مساكن مريحة في أقرب قرية بينما كان هو يمضي ليلته ملتفاً بمعطفه في كيس النوم المخصّص له تحت الشاحنة على حافة إحدى الطرق وهو مُكبّ على خريطته مستضيئاً بمصباح جيبه الكهربائي.

وانتهى بـه الأمر إلى أن استعـرض بريـده وتلفن إلى بعض الـزبـائن في «بندلكوت» وقال كلمة لمـارك سترافـورد الذي كـان يقوم في المكتب بـأعمال السكرتارية والمحاسبة. وكانت الساعة حينذاك حوالي العاشرة، وعمّا قـريب يحلّ موعد الاجتماع الأسبوعي. ولم يكن يملك الوقت لمزيد من التفكـير في ملاحظاته المكتوبة وأخذ يفتّش في جيبه عن قطعة الورق التي كان قد سجّل عليها التحديدات اللازمة متسائلاً عمّن عساهم يحضرون الاجتـماع. وكان يقدّر منذ البداية أنه لمّا كانت هذه الجلسـات ضرورة تستدعي الأسف فـإنه ينبغي أن تكون مقتضبة محدّدة وأن يقتصر حضورها على أعضـاء «الجماعـة» الـدائمين. وأمـا جيمس فكان يـرى على العكس ضرورة إتـاحة حضـورها للجميـع، وأنّ كل مـدعوّ يملك حقّ رؤيـة «الجماعـة» في إبّان عملهـا. وقد صرّح مـايكل أنـه لا يروق لـه ـ حتى في مُناخ من المحبّـة مثل هـذا المُناخ ـ غسل ثيابه الوسخة أمام الملأ. وردّ مساعـده يومهـا بأنـه لا ينبغي أن يملك تنظيمهم ثياباً وسخة، بيد أنه إن حدث لأمر ما أن كان لديها شيء منها فإن «عليها» غسله أمام المـلأ. وكان يبـدو أحيانـاً لمايكـل أن صديقـه يعتقد بـأن الإيمان الصالح يتمثّل في أن يقال كل شيء لكل إنسان من غـير التفات إلى ما إذا كان يعنيـه أو لا، ومن غير انشغـال بما إذا كـان مهتّماً لـه. وإذ وجد نفسـه يشكّل أقلّيـة فإنـه لم يهتمّ لمزيـد من النقاش وتـرك الأمور تسـير عـلى هواها. وعيل الصبر فـاعتُمدت تسـوية تنصّ عـلى أنه لمّـا كان عـدد الزوّار قليـلاً حتى ذلـك الحـين فسـوف يُخبَرون بـأنهم يملكـون حـريـة حضـور الاجتـماعات من غـير أن يقدّمـوا آراء أو نصـائـح، وأنهم سـوف يُستقبلون بالترحاب.

وإذ كـان يغادر مكتبـه فقد تسـاءل عـما إذا كـان في بـال پـول غـرينفلد وزوجته الحضور. فقد كانت بعض الموضوعـات الواردة عـلى جدول أعـمال اليـوم تجنح إلى الحَـرَج وكان يـرى من الأفضل منـاقشتها في جـو «اللجنـة»

twitter @baghdad_library

الحميم. لقد كان يحب بعض الحبّ پول غرينفلد الذي يصغره قليلاً في العمر. وكانا قد تعارفا تعارفاً عابراً في كامبردج ووجد مايكل في ذلك العهد أنّه تُعميه تطلّعات فنيّة، وأنه متكلِّف إلى حدّ التنفير. وعندما قادته مصادفة غريبة إلى «إمبر» باحثاً عن مخطوطات كان أبعد ما يكون عن الرضى وودّ لو اختار هذا الذي يعرفه من زمن وقتاً أقلّ حرجاً لإجراء أبحاثه. ومع ذلك فقد وجد أنه تحسَّن تحسّناً ملحوظاً، أو لعلّه هو قد أصبح أقلّ تزمّتاً، إن لم يكن كلا الأمرين معاً. وقد أبدى پول ولاريب دهشة مماثلة وحاول أن يكاشفه بهمومه الزوجية، ولكنْ لمّا كان مايكل كثير الانشغال ليحظى بخلوة معه قابلة للتكرار فإنه لم يكوِّن عن الوضع سوى شعور مبلبل. وإذ أسعده بصدق أن يتلقّى الخبر غير المتوقّع عن وصول السيدة غرينفلد الوشيك فقد دهش لظهورها لأن اعترافات پول التي لم يسبق له أن أعارها اهتماماً كانت قد أفسدت من استعداده للأمر. ولم يدرك، على الرغم من حرصه على ذلك، كيف أنّ غرينفلد تزوّج امرأة مختلفة عن النساء العاديات بشكل واضح.

وعندما دخل صالة الاجتماع أراحه أن يسمع مارغريت تقول لپيتر إن الزوجين غرينفلد قد ذهبا للتّنزه. وقد أوضحت أنها دلّتهما على طريق يسهل سلوكه على المرأة الشابّة التي لم تكن قد فكّرت في إحضار حذاء صالح للسير الطويل فلن يلبث صندلها الجميل أن يغدو غير صالح للاستعمال.

جلس مايكل على أريكة قرب المدخنة ـ مكان الرئيس المألوف ـ وألقى نظرة سريعة على الأعضاء الآخرين الذين جلسوا بعيداً عنه قليلاً. ولم يكن «نيك» حاضراً، وكان يرجو كل أسبوع حضوره، ولكنّه كان يخيّب أمله على الدوام. وكان الآخرون جميعاً حاضرين. وكان توبي واقفاً قرب الباب وهو يبحث بخجل عن مقعد. وابتسم له مايكل وهو يشير إلى أحد

الكراسي. وكان يشعر بأنه كان من الممكن أن يستغني عن حضوره، ومع ذلك فقد سأل نفسه وهو ينظر إلى عينيه المفعمتين باهتمام حارّ برفاقه، وإلى وجهه البشوش، أين يمكن أن يكون السوء والحرج بإزاء مثل هذا الشاهد؟ وبعد فهل تكون نظرية جيمس عن النزعة إلى الفساد بفعل الحميمية صحيحة أحياناً؟ وإذ رأى الشاب متكوّراً فوق كرسيه وساقاه الطويلتان مطويّتان تحته فقد تحقّق من لطافته...

قال جيمس بمرح:

ـ الجميع حاضرون على ما أظن باستثناء الغائب التقليدي؟

كان الحضور يشكّلون نصف دائرة في مواجهة مايكل، وكان جيمس في الصف الأمامي وبجانبه الزوجان سترافورد، وبيتر وباتشواي في الصف الثاني ومعهما توبي. وكانت كاترين قد جلست مواربة بجانب النافذة وهي تنظر إلى الخارج، وقد ارتدت تنّورة خفيفة من القطن تنسحب إلى عقبيها ويداها تحيطان بركبتيها. وقد جلست الأخت أورسول التي كانت حاضرة بصفة ضابط ارتباط قرب الباب وظهرت قدماها المنتعلتان حذاء ضخماً من تحت ثوبها. وعيناها المتفرّستان اللامعتان بالحيوية مثبتتان على مايكل. وإذ شعر هذا بالارتياح والرضى عن فريقه فقد ابتسم له وقال:

ـ لقد ألّفت القائمة المعتادة، فلنعمل تماماً حسب الأنظمة. دعوني أرَ المسألة التي سنعالجها أوّلاً.

قال جيمس:

ـ ليكن شيئاً سارّاً وسهلاً.

أجاب:

ـ ليس من شيء هين هذا الأسبوع، وأخشى أن يكون عليّ أن أعيد إلى بساط البحث موضوعاً أو اثنين من الموضوعات القديمة المحبّبة إلينا، وفي الدرجة الأولى موضوع الجرّار.

twitter @baghdad_library

حدث تنهّد عام، وقال بيتر:

ـ أظنّ ألّا حاجة بنا بعد لمناقشته، فنحن نعلم رأي كل واحد فيه. ولهذا أقترح أن نعمد إلى اقتراع.

وأعلن مايكل:

ـ إني ضدّ ذلك في الأحوال العامّة، وأمّا في هذه الحالة الخاصّة فباستطاعتنا التصرّف على هذا النحو. هل يودّ أحد الكلام قبل بدء الاقتراع؟

لقد كان يرى منذ مدّة أن من الضروري شراء جرّار بسبب الفائدة المتحصّلة من محرّك صغير يمكن أن يستعمل في الفِلاحات السطحية وأن يُستفاد من ضبطه بأشكال مختلفة للعزْق والرشّ. وكان اقتناء هذه الآلة الخفيفة السهلة التشغيل حتى بالنسبة إلى عامل غير خبير يبدو له تقدّماً جديداً لتوسيع حديقة الخُضَر. ولقد دهش أن يلاحظ معارضة جيمس والزوجين سترافورد بسبب نقطة مبدئيّة عجيبة. فقد رأى هؤلاء أنه لما كانت «الجماعة» تقيم في عزلة عن العالم فإن عليها أن تقوم بما كان يقوم به آدم، وأن الحراثة ونقب التربة ينبغي أن يتمّا بآلات بدائية يعوّض عن بساطتها الجهد الشريف الذي يبذله أولئك الذين نذروا أن يعملوا من غير الاستعانة بأية آلات ميكانيكية. وكان مايكل قد اعتبر أن هذا التفكير جزء من رومنطيقية خالية تماماً من كل معنى وصرّح بذلك. وبعدُ فإن نوع العمل الخاصّ الذي التزموا به يجب أن يتمّ لتمجيد الله بالشكل الذي تتيحه مُكتشَفات العصر الحديث المثمرة. وقد أُجيب بأنّهم اجتمعوا بعيداً عن العالم للبحث عن طريقة عيش تحُول الوسائل الدارجة على كل حال دون تمشّيها مع الطبيعة، وأن عليهم أن يحدّدوا مفهومهم الشخصي لـ«الطبيعي». وهم لا يفكّرون في الاستفادة الشخصية فلماذا تكون الفعالية إذن هدفهم الأول؟ إن نوع العمل وحده هو المهمّ لا نتائجه. وإذ كانت

عزلتهم رمزية بمعنىً ما، مقدّسة في الواقع، فإن وسائل عملهم هي التي ينبغي أن تُعتمد. فمن الممكن السماح باستعمال معازق صلبة، ولا بأس بسكّة فلاحة، وأما هذه المخترعات الجديدة التي تتيح توفير الجهد اليدوي فلا. وصاح مايكل متعجباً: «يا رحمة الله!»، لسوف نحوك عمّا قريب ثيابنا.

وكان بهذه الأقوال قد جرح شعور مارغريت سترافورد التي كانت تعدّ لإيجاد مركز حرفي في «إمبر» يتضمّن فيما يتضمّن الحياكة. وكان ذلك بالتأكيد مشروعاً كفيلاً بالتنمية.

وفكّر مايكل أن مثل هذه الحجّة القليلة الإقناع لا بد أن تكون قد انبثقت عن ذهن مارك سترافورد الذي اكتشف بلا استثناء أن مهمّة مستعجلة بانتظاره في المكتب لو انبغى إتمام عمل شاغل. لقد كانوا يعيشون بالطبع خارج حدود الأعراف الطبيعية من غير أن يتبنّوا مع ذلك أي نمط من أنماط العيش التقليدية. وكان عليهم أن يخترعوا قواعدهم الخاصّة. وكان مقتنعاً بأن رأيه الشخصي هو الصحيح: اللجوء إلى مبدأ التخيرّ في تقدير طرق العمل نوعٌ من مذهب جمالي غير معقول. ولهذا فإنه قدّر أنه من الصعب عرض وجهة نظره بكثير من البداهة، وذُعر لمدى تعلّقه بالقضيّة. وبدا أن كل واحد من الآخرين منزعج كذلك، وكانت الحماسة الراهنة قد دامت بما فيه الكفاية. وكان مايكل يعرف أنه بعرضه المسألة على الاقتراع بدلاً من مجرّد تركها كان يحاول فرض مفهومه الشخصي على الطريقة التي على «الجماعة» أن تتطوّر بها. وكان يُخيّل إليه مع ذلك أن من المهمّ استبعاد مثل هذا العبث منذ البداية مُقدّراً أن دوره كان مُنفّراً جدّاً.

وتبع الدعوة التي أطلقها بعض الصمت. فهنا موضوع كانت الأطراف المعنيّة به قد انكبّت عليه طويلاً. وهزّ جيمس رأسه وثبّت نظره على

twitter @baghdad_library

الأرضية الخشبية دالاً بذلك على عزمه بألاّ يناقش الأمر بعد الآن.

وصرّح پاتشواي بنبرة كانت سؤالاً وتقريراً لواقع في آن:

ـ لن يكون هناك فارق في الحراثة.

كان پاتشواي أحد الذين كانوا ينظرون بحذر إلى امتلاك جرّار، ولكن لسبب مختلف جوهرياً عن أسباب الآخرين: كان ينظر إليه على أنه دُمية لائقة بهاوٍ.

قال مايكل:

ـ بديهي، فلن تحلّ هذه الآلة محلّ سكّة الفلاحة. وليس لنا بها حاجة على أيّ حال من أجل أعمال شاقة كما لقلب قطعة المرعى خلال فصل الخريف لأن في وسعنا وقد رتّبنا الأمر مع المزرعة المجاورة أن نستعير سكّة للفلاحة إذا اقتضت الضرورة.

وتبع ذلك صمت جديد وبدأ الرئيس بنداء الأعضاء. وكان في عداد المصوّتين على شراء الجهاز الميكانيكي هو نفسه طبعاً، ولكن كان إلى جانبه كذلك پيتر وپاتشواي وكاترين والأخت أورسول. واقترع ضد المشروع جيمس ومارغريت وحدهما، وامتنع سترافورد عن التصويت.

قال مايكل وهو يجهد في إخفاء رضاه:

ـ أظن أن الأكثرية كافية للتقرير. هل يؤذن لي بشراء الجرّار؟

ووافقوا على الأمر بتمتمة عامّة.

وكان يعرف أن عليه أن يقول بضع كلمات ليبرهن على أنه الرئيس على كل حال، بيد أنه لم يقل شيئاً. وتكلّمت مارغريت سترافورد بصوت مرتفع وشيء من العصبية بسبب خجلها فقالت:

ـ أظن أن الوقت غير مناسب لإثارة مسألة صنع الفخّاريات، وأريد فقط أن أطلب الاحتفاظ بها في الذاكرة. وسوف أثيرها فيما بعد.

وكانت راغبة أمام انتصار المكننة على الجبهة الزراعية أن يُقبَل بالحياة البسيطة على الأقلّ في الميادين الأخرى.

وأجاب مايكل:

- أشكرك يا مارغريت. لقد أدركتِ أن هذه الفنون المفيدة يمكن أن تنتظر حتى يصبح عددنا أكثر قليلاً وتسير ماليّتنا بخطوة أثبت، ولكنّنا سوف نعود إلى المسألة. وعلى كل حال فإنّ هذه المسألة ستثير سؤالي التالي: التنظيم المالي. ربما استطعتَ تولّي الأمر يا مارك؟

استطرد مارك قائلاً:

- أعتقد أن كلاً منا يعرف المسألة. وهي نقطة جوهرية كما نعلم. لقد عشنا يوماً بيوم ولمدة طويلة بفضل سخاء متكرّم أو اثنين. ويبدو لي معقولاً جداً وطبيعياً أن نطلق نداء لإيجاد أشخاص يمكن أن يهتمّوا للأمر في محيط محدّد من الناس الذين نعرفهم. والأمور الوحيدة تتمثّل في إيجاد العبارات الموافقة ولائحة الزبائن، أو الضحايا بالحري كما ينبغي أن أقول، وتخيّر الوقت الملائم.

قال جيمس:

- الجرس!

قال مارك:

- بالفعل. إنها لفكرة موفّقة أن نوقّت النداء مع وصول الجرس الجديد، وأن نطلق بفضل ذلك حملة إعلانية صغيرة.

قال مايكل:

- أقترح أن نسمي لجنة مصغّرة لمناقشة التفاصيل. لجنة تضمني وجيمس ومارك.

وسأل جيمس:

- هل أستطيع طرح القضية الآن؟ أظنّ الوقت قد حان. لقد عاش

twitter @baghdad_library

الدير كما تعلمون يا أصدقائي الأعزاء منذ تأسيسه الثاني من غير جرس. والآن سيكون هناك واحد على الأقل «بفضل الله». وقد صُهر وسيؤتى به في بحر هذا الشهر، بعد أسبوعين مبدئياً. وقد أبدت «الرئيسة» رغبة - سوف تصحّح الأخت العزيزة أورسول ما قد ارتكبه من خطأ - في أن يتمّ الأمر بمجمله بهدوء ومن غير احتفالات طنّانة. ومع ذلك فإني أظن أن مظاهرة فرح صغيرة نقوم بها، وقد أصبحنا نملك امتياز الدوران في فلك معسكر الدير، للاحتفال بدخوله السياج قد تكون عقلانية. وكما اقترحت قبل قليل بالضبط فإن بعض الدعاية قد تكون مرجوّة لأسباب مختلفة.

وأوضح مايكل قائلاً:

- أخشى ذلك. فبالإمكان أن يُسخر بسهولة بهذه «الجماعة» في الصحافة. وأقترح أن نتقيّد بما قالته «الرئيسة» حرفيّاً. ما قولك يا أخت أورسول؟

أجابت وهي تبتسم لجيمس:

- أظن أن في الوسع تنظيم تسليات «صغيرة جداً». سوف يحضر الكاهن كما تعلمون، ولا أظنه راغباً في أن يجد جوّاً من أجواء الصوم الكبير.

وأوضح بيتر قائلاً:

- لقد حدّثني جيلبرت وايت أنهم عندما تلقّوا مجموعة أجراس جديدة في سلبورن نصبت الأجراس الثلاثة مقلوبة في المرج البلدي وملئت بشراب «البنش» الذي عبّ منه السكان أياماً وأياماً.

قال جيمس:

- لا أظنّنا نملك إمكان منافسة سلبورن، ولكن ليست لنا حاجة كذلك في منافسة عجوز «ترموفيل» الذي لم يكن يفعل قطّ ما يفيد. علينا أن ننظّم احتفالاً صغيراً وأن نرى نوع الدعاية التي نعلن بها عنه. أظنّ أنّ الكاهن يتمنّى أن تُحيا ذكرى حفلة التعميد القديمة؟ وبالإمكان توقيت هذا الحديث

مساء وصوله، وفي اليوم التالي يسير موكب برفقة بعض سكان القرية في استعراض. وتبدو البلدة متحمّسة جداً للحدث. ولكن، وأظنّ أن معظمكم يعرف ذلك، دارت في خلد «الرئيسة» فكرة شاعرية جدّاً مُفادها أن يدخل الجرس في ساعة مبكّرة من الصباح مجتازاً البوّابة الكبيرة وكأنه مريدة رهبنة.

ورمق كاترين بنظرة.

قال مايكل:

- موافقون. لجنة أخرى من فضلكم. ربما كان بالإمكان أن يُرفع إلينا مشروع نهائي في الأسبوع القادم. وينبغي بالطبع استشارة الأب بوب بشأن الموسيقى.

قال جيمس:

- إن لديه بعض المشاريع الجاهزة. وقد قال لي أن بوسعه أن يعزف أي شيء باستثناء «أرفعوه على مهل إلى القبّة».

وأُلّفت لجنة مصغّرة للاهتمام بهذه المسألة قوامها جيمس ومارغريت وكاترين والأخت أورسول على أن ينضمّ إليها الأب بوب.

واستشار مايكل مذكّراته. سناجيب، الخ...

وخارت قواه وراودته شبه رغبة في عدم التطرّق إلى المسألة. ومع ذلك فقد استأنف قائلاً:

- الموضوع المقبل، وأخشى ألّا نتمكن من تأجيل هذا النقاش مدة أطول، سوف يكون مسألة إطلاق النار على الحيوانات.

وتجهّم كلّ منهم متجنّباً نظرة الآخر. فلم يكن قد سبق قطّ حلّ هذه المسألة التي أثيرت منذ البدايات. فقد كان جيمس قد عرض بندقيته وقام

twitter @baghdad_library

بخرجات منتظمة لقنص اليمام والشحارير والسناجيب في الجوار. وكان يعتبر هذا التمرين شاغلاً ريفياً طبيعياً وعنصرًا عقلانياً من وظيفة كل مزارع في الوقت نفسه. ولم يكن من شكّ في أن اليمام بشكل خاص كان يخلق تهديداً خطيراً للمحاصيل. وإذ شجع پاتشواي أن يحذو حذوه فقد انطلق بدوره يجوس في الممتلكات وأظهر مهارة في قتل الأرانب البريّة التي كان كثير منها يزيّن ـ على ما يظنّ ـ موائد القرية. وعندما وصل نيك فاولي وهو يحمل بندقيته عيار ٢٢ ذات الماسورة الطويلة فقد انضمّ إلى اللعبة، الأمر الذي كان الخدمة الوحيدة التي أدّاها على مايبدو بحماسة لـ«الجماعة».

وإذ شعر مايكل بحرج لرؤية جيمس مسلّحاً ببندقية فقد شعر على المدى الطويل بواجب وضع حدّ لهذه الممارسة. ومع ذلك فقد أحسّ بضيق هائل وعجز عن التعبير عن حججه بوضوح. وانتهى به الأمر إلى التصريح بأنه من غير اللائق أن يمارس تنظيم كتنظيمهم هذه الرياضة. وكان ثلاثة من أعضائه ـ الزوجان سترافورد وكاترين ـ نباتيين عن قناعة دينية، ولذا فإنه ألحّ على العرض المؤسف ـ لكي لايقول أكثر ـ الذي كان يقدّمه أمامهم منظر هذه المجازر. وكان يعلم أن كاترين تتأثر بصورة خاصة لتلك المشاهد، حتى إنه وجدها ذات يوم تنتحب وهي منحنية على جثة سنجاب، وأن استفظاعها الأسلحة النارية يجلّ عن الوصف. وقد انتهى به الأمر فوق ذلك، وكان فى ذاك العهد قليل النزعة إلى الديمقراطية بشكل خاص، إلى العزم على منع حمل البنادق فوق الممتلكات، إلى أن يناقش الأمر بحرية كاملة على الأقلّ. ومع ذلك فإنّه كان يدرك جيّداً اللامنطق الذي كان يبدو أنه يعتري سلوكه: لقد نصّب نفسه محامياً متحمّساً عن المكننة مقدّراً أنه من الطبيعي زيادة المردود على قدر الإمكان، وكان خصماً لدوداً للصيد رغم علمه مع ذلك بفعاليته. ومع هذا فقد كان مقتنعاً بصدق في هذه الحالة الخاصة بأنه كان في الطريق القويم.

وصرّح جيمس بقوله:

- وجهة نظري هي التالية: لايسعنا السماح لأنفسنا بإبداء العواطف. فالحيوانات التي تحدث أضراراً حقيقية ينبغي أن تُقتل. لماذا تُقتل، ومتى وكيف؟ يجب أن تُناقش المسألة بجديّة كبيرة. ولكن ها قد مرَّ بالإجمال وقت قصير ونحن منصرفون حقّاً، كما لاحظ رئيسنا، إلى مهنة المزارعين.

وكان في ذلك إيماء إلى موضوع حارّ. ورمق مايكل بنظرة وديّة وإن كانت تنمّ عن قليل موافقة وكأنّما لتلطيف حدّة أقواله.

وأعلن پاتشواي:

- إن حمامة ورشان تأكل كل يوم ثقل وزنها.

وأضاف پيتر توپغلاس:

- أقدّر أن المسألة ليست مسألة فعالية فنحن متفّقون عليها. فالواقع قائم: الصيد يمثّل لبعضنا إساءة خطيرة.

والتفت مارك سترافورد قائلاً:

- إذا كانت مشاعر الحيوانات هي التي يجب أخذها بالاعتبار فمن الضروري الإشارة إلى أن طائراً يقع في شَرَك وتوضع حلقتان في قائمتيه يتألّم أكثر ممّا يتألم طائر تطلق عليه النار.

كان ذلك قطعة من مناظرة مجّانية لأن سترافورد كان في الواقع هو الآخر ضدّ الصيد.

وقال مايكل الذي بات يعاني بعض الضيق:

- المشاعر الإنسانية هي التي ينبغي علينا أخذها بالاعتبار.

قال مارك:

- لا أفهم لماذا على أحد المعسكرين احتكار استدعاء المشاعر. فأنا وجيمس نبدي مشاعر عنيفة حيال مسألة الجرّار.

twitter @baghdad_library

وساد صمت يوحي بعدم الموافقة. وقال جيمس وكأنه يريد التنصّل من هذه الملاحظة:

ـ هيه، هيه!

وأعلن مايكل الذي استشاط بغتة غضباً وخشي العجز عن السيطرة على نفسه:

ـ لعل من الخير لنا بعدُ تأجيل هذا الموضوع إلى وقت لاحق؟ لقد عرض جيمس وجهة نظره. ومن جهتي أرى أنه لما كان هناك عدد من الاشخاص يقدّرون تبعاً لقناعاتهم الدينية أنه ينبغي احترام وجود الحيوانات ـ يجب ألاّ ننسى أننا نؤلف «جماعة» دينية ـ فإنه من الطبيعي السماح لوجهات نظرهم بالتغلّب على مجرّد مسألة فعالية، حتى وإن كان بعض الأعضاء الآخرين لا يشاركونهم إيّاها. ويمكنني أن أضيف من جهة أخرى أني أقدّر شخصياً أنه ينبغي ألاّ يمتلك أعضاء في «الجماعة» أسلحة نارية، وأنني لو اتّبعت هواي لصادرتها كلّها.

قالت كاترين بصوت شفّاف وقد انبرت للكلام لأول مرة:

ـ اسمعوا، اسمعوا.

وبعد صمت تسنّى له خلاله تقدير هذه المشاركة النسوية والندم على استخدامه كلمة «صادَرَ»، سمع جيمس يقول:

ـ حسناً. قد تكون على حقّ ومتّبعاً السُنّة الصحيحة، ومع ذلك فإني من الذين يحبّون التأمّل في هذه المسألة. وعليه فربّما أمكننا مناقشتها من جديد بعد أسبوع أو اثنين، ونتوقّف خلال هذه المدّة عن الصيد.

وسأل مايكل:

ـ هل من مسألة أخرى؟

كان يشعر بالفتور وعدم الرضى عن نفسه. ولقد بحث عن نظرات توبي

في أثناء بريق عينيه الأخير متسائلاً عن رأي الفتى في هذه الجلسة. لشدّ ما كان سوء إقتراح جيمس بدعوة غرباء إلى هذه الاجتماعات!

وقالت مارغريت:

ـ أودّ التذكير قبل أن نفترق بأنّ حفل باخ الموسيقي سوف يُنقل يوم الجمعة مساء. وقد أودعت مذكّرة بهذا الشأن ولكني أخشى ألّا يكون جميع الضيوف قد فكّروا في النظر إلى اللوح.

وانتهى الاجتماع بعد بضعة إعلانات أخرى متفاوتة الأهمية. وإذ لم يكن جيمس ولا شكّ راضياً عمّا بدر منه فقد اقترب من مايكل قاصداً بالتأكيد أن يسترضيه ببعض العبارات. ولمّا كان هذا منهوك القوى فقد ربّت على كتفيه جاهداً أن يطمئنه بهذه الحركة الودّية. ورأى أنّ پيتر تويغلاس كان بانتظاره منغّصاً دون أدنى ريب باستفاضة سترافورد في الحديث عن تطويق الطيور. وإذ كان مايكل متعطّشاً إلى الانفراد بنفسه فقد اعتذر من الجميع بعد أن قال لسترافورد بضع كلمات وخرج للتنفس على الشرفة.

ظلّ الطقس محتفظاً بجماله. وكانت السماء الزرقاء الداكنة الحائل لونها قليلاً عند الأفق بصفّ من السحب المحدّبة تنبسط على امتداد البصر فوق الأشجار. وكانت البحيرة بلون عذب لاسبيل إلى تحديده، وقد هبّت نسمة خفيفة دافئة. ولمح عند حافّة الدرب على اليسار الزوجين غرينفلد عائدين من نزهتهما. وكان ثوب دورا الأحمر اللافت جدّاً للنظر يلتمع فوق العشب. وأشارا إشارات ودّية وذهبت للقائهما مارغريت سترافورد التي كانت قد نزلت إلى تحت بصحبة زوجها، في حين توجّه هذا إلى مكتبه من الجهة المقابلة من غير أن يكلّف نفسه النظر إليهما. وظهر توبي فجأة من خلف ظهر مايكل ومرّ من غير انتباه متخطياً درجات السلّم في ثلاث قفزات وتوجّه على التوّ إلى أمام راكضاً نحو البحيرة تمنعه من التوقّف ولاريب شدّة الحياء.

twitter @baghdad_library

ولما كان مايكل راغباً في تجنّب ملاقاة الزوجين غرينفلد اللذين استوقفتهما السيدة سترافورد فقد انطلق على أثره في درب الجسر العائم. وكان توبي يقفز قفزات طويلة مرجّحاً ذراعيه. وكان يرتدي فانيلّلة مارنغو فاتحاً ياقة قميصه ذي الردنين المنتفخين عند معصميه لأنهما لم يكونا مزّررين. وبدا لملاحِقه وكأنه حيوان مفعم بالسحر واللامبالاة، خالٍ من التعقيدات والخطايا. وحثّ خطاه آملاً في الوصول إليه قبل أن يضع قدمه في الزورق، ولكنّه لم يكن قد قطع بعدُ نصف المسافة حتى كان الفتى المزوِّد بسبق كبير عليه في عُرض الماء. وتمهّل مايكل راجياً ألاّ يتمكّن من الاعتقاد بأنه يريد الانضمام إليه. والحقّ أنه لم يكن مُصرّاً على ذلك بالفعل، وكان قد لحق به بشكل شبه غريزي. وكان توبي الآن يدور قبالة البيت محرّكاً المجذاف بقوّة مانحاً مركبه الاندفاع اللازم وهو يومىء إلى مايكل الذي أجابه وهو ينزل إلى العبَّارة. وكان حبل المركب المتدلّي من حلقته الحديدية ينسحب على مهل في الماء تحت قدميه. ولامس المركب الشاطىء الآخر بشدّة وقفز منه قائده معيداً إياه متأرجحاً بركلة من قدمه. ورفع مايكل المرساة وجذبه برفق إليه.

ولمح على العشب طيفاً متوجّهاً نحو القادم. وعلى الرغم من بعد المسافة فقد كان الشكّ مستحيلاً: كان ذلك طيف نيك فاولي سائراً بخطوته المميّزة ورأسُه الأسود مائلٌ إلى أمام وبندقيته في كتفه. وكان مورفي يتبعه وقد قفز أمام توبي. وانحنى هذا الأخير لمداعبته. واندفع الحيوان مسروراً يتبع آثار سيّده. وإذ وصل نيك إلى قرب الفتى فقد التفت ولمح مايكل الذي كان يراقبهما من الشاطىء الآخر. وكان بعيداً جدّاً لكي يتكلم: فحتى الصرخة لم تكن لتُسمع.

ومرت بضع ثوانٍ وكل منهما ينظر إلى الآخر عبر البحيرة، ثم رفع نيك

يده في سلام بطيء احتفالي أو تهكمي. وترك مايكل الحبل وتهيّأ لردّ تحيّته بأحسن منها بيد أنه كان قد استدار جارّاً توبي. وسكن المركب على مهل وسط البحيرة.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

كـان كلّ من مـايكل ميـد ونيك فـاولي يعرف الآخـر منذ مـدّة طويلة. وكانت علاقاتهما غريبة، وقد ظلّت تفاصيلها مجهولة من أعضاء «الجماعة». ولم يكن مـايكل يشـاطر صـديقه جيمس وجهـة نظره، الأمـر الـذي جعـل «إلغاء ما هو صحيح» معـادلاً «للإيحـاء بما هـو مزيّف». وفي لقـائهما الأول كان نيك في حوالي الرابعة عشرة في حين كـان مايكـل الأستاذ الشـابّ ابن الخامسة والعشرين يرجو أن يُرسم كاهناً في المستقبل القريب على الرغم من أنّه كان متهماً في ذلك العهد بالشذوذ. وإذ كان قـد أُغوي في الثـانويـة وهو لايزال صبيّاً تقريباً فقد صادفته فيها بعـد علاقتـان ذكوريّتـان ظلّت ذكراهمـا من أشدّ تجارب حياته وقعـاً. ولّما وصـل إلى سنّ النضج اكتسب نـظرة أكثر تطابقاً مـع الأعراف بشـأن تلك الضَياعـات وحاول مـا إن بلغ الجامعـة أن ينتهز فرص اللقاء مع أشخاص من الجنس اللطيف كانت رفقتهنّ لا تثـير فيه مع الأسف أيّ إحساس. وهكذا فإنّه عاد خلال سنته الجـامعية الثـانية إلى معاشرة الذين كانت انحرافاتهم شبيهة بانحرافاته حاكماً من جديد على تلك العادات بأنّها مقبولة بأيّ حال.

ومهما يكن فإنه ظلّ في تلك الحقبة، كما كان منذ تناوله، فـرداً مضطربـاً وغير منتظم من أفراد الكنيسة الأنغليكـانية عـلى الرغم من عجـزه عن فهم السبب في استحالة تـوافق دينه مـع عاداتـه الجنسية. والحقّ أنـه كان يـظنّ بشيء من الغـرابة أن الانجـذاب إلى هذين القـطبين المتعـارضين نـابع من

أصل واحد، وقد تحفّظ مدفوعاً بحدس غامض من إجراء دراسة أكثر تعّمقاً في الأمر. وعلى كل حال فإنّه عندما شارف نهاية سنواته الدراسية اتّخذت رغبته في احتمال أن يصبح رجل دين شكلاً أكثر واقعية في ذهنه، وانتهى به الأمر إلى إدراك لامنطقية حاله. وقد خُيّل إليه أنّ اقترابه، ولو بشكل متقطّع، من المائدة المقدّسة أمر لا يُصدَّق! ومع ذلك فإن ما غيّره حينذاك لم يكن علاقاته وإنما ممارساته الدينية: لقد استمرّ في ارتكاب ماكان يحسّ مذّاك بأنه أفظع الإساءات إلى الربّ. وحتّى تأثير الجاذب الدينيّ فيه وإيمانه الصادق حقّاً كانا يبدوان فاسدين من مبدأهما. وقرّر أن يعهد بأمره إلى كاهن أفلحت نصائحه في جعله يتخلّى عن العادة التي وافق في النهاية على أنها رذيلة ليعود إلى واجبه.

لم يحمل له هذا التغيير، لدهشته وفرحته، إلا ألماً عابراً، فترك كامبردج أكثر حكمة، ظانّاً أنه شُفي. وانحفرت في ذهنه أيام خطاياه وتراخيه تجاه دينه، وخُيّل إليه أن مغامراته الغرامية لم تكن سوى نزوات شباب. وواجه حياته الجديدة مقتنعاً بأن ميوله غير قابلة ولاريب للشفاء، ولكنّه رفض أن تكون قادرة على الدخول من جديد في صراع مع حسّ أكثر دقّة بالواجب الأخلاقي. وظنَّ أنه في حرز من إغراء الإقبال عليها وخرج منتصراً على الأزمة التي كان قد خاضها. وعندما كان يجثو بعد ذلك للصلاة لم يكن يساوره ذلك الشعور بالذنب الذي كان يفرض عليه من قبل الصمت ويجعل من صلواته لحظات شديدة الوطء. وأخذ يحكم على نفسه بنظرة أكثر هدوءاً لاتذأ برحمة يمكن أن يتوصّل بفضلها على المدى الطويل إلى أن يلقي الضوء على غرور خطيئته، وأن يعمل بصبر على التخلّص منها. لقد كان ينزع إلى المستقبل.

وبعد تخرّجه من كامبردج ذهب للتعليم مدّة سنة في سويسرا، ولدى عودته إلى إنكلترا علّم في مدرسة ثانوية كبيرة. وعلى الرغم من قلّة

twitter @baghdad_library

استساغته التعليم فإنه مارس مهنته بيقظة ضمير، بيد أنّه تكوّن لديه في نهاية العام اقتناع تامّ برغبته في أن يُكرِّس راهباً. وإذ استشار كاهن الأبرشية التي كان فيها حينئذٍ فقد اتّخذ قراراه. يدرس اللاهوت في أوقات فراغه مواصلاً أعماله بصورة مؤقّتة. ولسوف يكون بإمكانه بعدها الالتحاق بندوات الدراسات الدينية. ولقد بلغت سعادته الذروة.

وما إن تسلّم منصبه حتى جاءه تحذير من وجود الفتى نيك فاولي الذي كان في الرابعة عشرة من العمر. وكان حينئذٍ صبيّاً رائع الجمال ذكيّاً شديد الوقاحة يستقطب بُغض رفاقه وتعاطفهم ويشعل الاضطرابات، كان نجماً بنوع من الأنواع. وكان شعره الملتفّ في حلقات، المقصوص بعناية بشكل أهداب، وهو بلون أسود شبه بنفسجي، يظلّل وجهه الطويل. وكان أنفه منتصباً بشكل لايكاد يلحظ، ولون بشرته شاحباً. وكان يحتفظ بعينيه ذواتي اللون الرمادي الغامق المؤطّرتين بأهداب طويلة تحت أجفان ذابلة نصف مغمضتين، إما لزيادة طولها الواضح، وإما لإغناء نفاذهما، وكلا الأمرين خطيران على كل حال. وكان فمه حسن الرسم ملتوياً غالباً في تكشيرة ساخرة تجعله جائراً؛ لقد كان ماهراً في فنّ الالتواء، قادراً على تقنيع وجهه بالكرب والسخرية والإغواء، وحتى بالمكر في أثناء الدرس حانياً يديه الطويلتين فوق درجه في فخفخة. وكان أساتذته يراقبونه، وكان مايكل البعيد عن الانبهار يذهب في البدايات إلى اعتباره صغيراً أبله.

وعرف في السنة التالية، عقب تغييرات في ساعات الدوام، كيف يتعرّف إليه بشكل أفضل، ولاحظ الاهتمام الشديد الذي كان يثيره في تلميذه. فقد كان نيك يتفرّس فيه في أثناء الدرس بجرأة كانت من الوضوح بحيث تبدو شبه استفزازية، ثمّ كان يتّضح عندما يُسأل عن شيء أنه يتابع درسه بانتباه شديد. وقد كان معلمه يثور لما كان يعتبره سخرية وقحة. وغيّر الفتى سلوكه على المدى البعيد خافضاً عينيه، متّخذاً هيئة مضطربة خجلى، مقلّلا

من الحدّة والنزق في الإجابة. وبدا تعبيره أصدق، وبالتالي أكثر جاذبية، واتّهمه مايكل الذي ثار اهتمامه للأمر بغتة بأنّه كان قد تظاهر من قبل بهذا الإحساس الذي ربما كان يعتريه الآن من أجل تسلية رفاقه. وكان يشعر بالضيق من أجل الفتى، بيد أنّه إذ وجده أقل ادّعاء وأكثر ودّاً فقد اِلتقاه وجهاً لوجه مرّة أو مرّتين.

وكان قد أدرك تماماً أن سحر المراهق بدأ يؤثّر فيه، ولكنّه ما كان يرى أنّه قمين بإبداء شعور من هذا النوع لشدّة ما أصبح واثقاً من نفسه، يشدّد من عزيمته منظور مشاريعه اللاحقة. وكانت سكينته حقيقية. وعلاوة على ذلك فإنّه لّما كان لم يسبق له حتى الآن أن جذبه شخص بمثل هذا الصبا فإن شعوره الخاصّ بعض الشيء ماكان ليعرّضه على ما يظن للانزلاق في طريق خطَر. ولم يكن يشعر بالقلق ولا بالضيق من الافتتان الذي يحدثه قربه من هذا الكائن الفتيّ، ولا ذُعر عندما اكتشف بعض الأعراض البدنية الناتجة عن ميله، وظلّ يراه بدعة في كل مرّة كانت واجباته تدعوه فيها إلى ذلك مهنّئاً نفسه على متانة حياته الروحية ووداعتها. وإذا صلّى كان هذا الاسم يخطر مع غيره من الأسماء على شفتيه بالطبع، وكان يشعر بفرحة شاقّة قليلاً، وإن تكن حقيقية، وهو يرى نفسه مزوّداً بمثل هذه الإرادة الحسنة وغير مطالب بأيّة مكافأة.

كانت غرفته تقع بمحض مصادفة عجيبة في مبنى معزول بعد المبنى الذي يضمّ غرف الدرس؛ وكان الباب المتروك مفتوحاً في العادة يطلّ على أرض مسوّرة يملأها الهشيم، وكان التلاميذ كثيراً ما يأتون إلى هذه الغرفة التي كان يستخدمها مكتباً في الوقت نفسه لإكمال مناقشة أو للرجوع إلى كتاب. وكان نيك يرافقه إليها أحياناً مُبدياً رأيه في بعض الموضوعات، طارحاً عليه بعض الأسئلة، وكان يجلس على الأرض في الداخل، أو عند فرجة الباب، ثم يعود أدراجه على عجل وبشكل مباغت منصرفاً إلى عمله. وإذ كان

twitter @baghdad_library

يتمتّع بوضع أقلّ صرامة من وضع الكبار فقد كان في وسعه أن يتسكّع على هواه خارج ساعات الدراسة. وقد كان مايكل يشتغل قرابة الساعة السابعة من مساء يوم من أيام الخريف حين سمع طرقاً على الباب ووجد المراهق وقد أتى بشكل استثنائي من غير أن يُدعى متذرعاً بالحاجة إلى استعارة كتاب، ثم لم يلبث أن ذهب وقد تمّ له الأمر. ولقد أدرك مايكل بعد زمن طويل وهو يراجع ماضيه أنهما قد فهما كلاهما في ذلك اليوم وهما يلجمان اضطرابهما ماكان مكتوباً. وما هي إلا أيام حتى عاد ـ بعد العَشاء هذه المرّة ـ لإرجاع الكتاب. وقد تحدّثا لحظات عاد بعدها نيك على عجل ثانيةً ومعه كتاب آخر. ولقد سمح لنفسه بأن يأتي من وقت إلى آخر في مثل هذه الساعات؛ وكانت المدفأة التي تعمل بالغاز تهرّ في الغرفة بينما المصباح مضاء، وفي الخارج كانت الأمسيات المظلمة تبدأ.

كان مايكل الآن يعلم أنّه يلعب بالنار مقتنعاً مع ذلك بالخروج سليماً من الحريق: كان الأمر بريئاً في الظاهر، وكان طابعه المؤقّت يبدو له ملطّفاً خَطَرُه. فابتداء من نهاية الفصل سوف تكون ساعات الدوام مختلفة، وسيكون عليه أن يغيّر الغرفة، ولن يكون أي شيء مماثلاً لما هو عليه الآن. ولقد كان كل لقاء نوعاً من وداع على الرغم من أن شيئاً لم يكن قد حدث. فالفتى كان يدلف إلى الغرفة؛ وكانا يتناقشان في موضوعاتهما المألوفة، وفي العمل والمطالعات، ثم كان ينصرف محمّلاً بالكتب المستعارة.

ومع ذلك فقد ترك مايكل الغسق يتأخر بعد وصوله فتحدّثا في العتمة، ولكنّ السحر كان من العنف بحيث لم يتجرّأ على مدّ يده لتطول المصباح. وكان جالساً فوق أريكته الوطيئة والفتى متمدّد على الأرضية الخشبية عند قدميه، وقد بقي أطول من المعتاد. ولقد تمطّى متثائباً معلناً أنه حان وقت الانصراف، بيد أنه اعتدل جالساً وبدأ يُبدي بعض الملاحظات بشأن مناقشة جرت في الصفّ. وبينما هو يتكلّم وضع يده على ركبة مايكل الذي لم يتحرّك وأجابه بهدوء على ما قدّمه من

حجّة في موضوع المناقشة. وبعد برهة سحب يده ونهض مودِّعاً.

وظلّ مايكل طويلاً جالساً في الظلمة عالماً علم اليقين أنه قُضي عليه. فأيّ فرحة لا متناهية جلبها إليه هذا الاتّصال! لودّ لو استطاع وصفه بالنقيّ! ولقد كان مثل هذا التذكار لايزال يُرعِشه بسعادة كاملة سنوات طويلة فيما بعد. وإذ كان في حينها متهالكاً في غرفته مُغمض العينين رخو الجسد فقد كان يعلم جيّداً أن مزاجه ماكان ليسمح له بمقاومة إحساسٍ بمثل هذه الفتنة. وأمّا ماكان سيفعله، وأمّا ما قد يستوجب اللوم، فلم يكن يسمح لنفسه بالتفكير فيه؛ لقد كان حجاب من الانفعال يستر عنه من جهة ثانية قراره الذي كان قد اتُّخذ، القرار الذي بدا له على الأقلّ أنّه اتّخذه. فمن غير أن يؤنِّب نيك تركه يضع يده على ركبته. واكتشف أنه لم يكن قابلاً للخلاص، لا اليومَ فحسب وإنما منذ زمن بعيد بوجه الإجمال؛ وإذ كان يفكّر مثل كل شخص عاجز عن مقاومة الإغراء فقد انتقل في ثانية من اللحظة التي كان الكفاح لايزال فيها غير مُجْدٍ إلى اللحظة التي غدا فيها مستحيلاً.

وعاد الصبيّ في اليوم التالي. وكان الاثنان في أثناء ذلك قد أرخيا العنان لمخيّلتيهما. وظلّ مايكل جالساً وجثا نيك أمامه. وحدّق كل منهما بصرامة في وجه الآخر، ثم إن التلميذ قرّب يديه فأمسك بهما مايكل وشدّ عليهما بعنف تقريباً جاذباً إيّاه قدر المستطاع من القُرب وقد جمد بفعل الجهد الذي بذله كيلا يرتجف. وكان نيك نفسه شاحباً وقد شخصت عيناه إلى أستاذه تلتمعان بالرغبة في التماس الصفح كما بالرغبة في الهيمنة. وحرّره مايكل ورمى برأسه إلى خلف. ومضى وقت طويل. وتمدّد نيك على الأرض وعلى وجهه طيف ابتسامة تعذرت السيطرة عليها. لقد سقط القناع الآن بعد أن أتلفته القوى الداخلية. وابتسم مايكل أيضاً وهو وادع بشكل مدهش وكأنه بلغ غاياته، ثم عادا يتحدّثان.

twitter @baghdad_library

أليست أحاديثُ خطيبين باحا لتوّهما بحنانهما من أمتع لحظات الوجود في نظر من ذاق ذلك؟ فعندها ينافس كلّ منهما الآخر في التـواضع دهِشـين من أن يكـونا مقـدَّرين إلى هذا الحـدّ. ويُستحضر المـاضي لاستعـادة مـظاهـره الأولى، ويكون كلّ منهما على عجلة من التصريح بكل شيء كيلا يُفلت أي جزء من كيانه من هذا التماسّ المطهِّـر. ولقد كـان ذلك حـال الاثنين، ولم يزل مايكل يُبدي عجبـه من الذكـاء والرقّـة اللذين يتحلّى بهـما هذا الصبيّ وهـو يتفنّن في الاحتفاظ بـزمام المبـادرة على الـرغم من تكيّفـه مـع وضعـه كتلميذ ومريد بكل ماكان يتضمنه تبدّل علاقاتهـما من عذوبـة. وتحدّثـا عن مطامحهما وخيبات أملهما ومسكنيهـما وصباهمـا. وباح نيـك لمايكـل بالشهـوة المحرّمة التي كان يشعر بها على طريقة الشاعر بايرون بـإزاء شقيقته التـوأم؛ وتحـدّث مايكـل إلى نيك عن والـديه المتـوفَيَيْن منـذ زمن، عن أبيه المختـلّ عصبيّاً، وعن أمّه المثقّفة الأنيقة، وعن إقامته في كامبريدج، وفي غياب كـل وازع، وبعفوية شُـدِه لها فيـما بعد، عن آمـاله البعيـدة جدّاً عن التحقيق ـ كان يدرك ذلك ـ في أن يصبح كاهناً.

ومرّ أسبوع وكأنهما غارقان في هوى أبديّ فيما لم يكـونا يتعـدّيان تشبيـك الأيدي وتبادل بعض الدغدغـات العذبـة. وكان ذلـك بالنسبـة إلى مايكـل لحظة لامبلاة تامّة وسعادة كاملة. وكان مرتاحاً بشكـل عجيب في خطيئتـه لمجـرّد أن الفصل شـارف على نهايتـه، فمادام هـذا الأمر الـرائع لايمكن أن يـدوم فما الفـائدة من التقليـل من سحره؟ وكـانه يـودّ لـو يحظى بنيـك في سريره، ولكنّه حَرَم نفسه ذلك مدفـوعاً جـزئياً بـوازع غامض من ضميـر، وجزئياً بكمال علاقاتهما الحاضرة. وزاد من ذلك الكمال فكرة مُفـادها أنـه لم يُكشف له بعدُ كل شيء. وقد ركّـز اهتمامـه على مضض منـه على المغـزى العميق لتصرّفاته الفريدة، وانقطع من جديد عن تناول القـربان المقدّس. والعجيب أنه لم يكن يجد نفسه مذنبـاً، بل مصمّـماً على الاحتفـاظ بمحبوبـه

والمحافظة عليه أمام الربّ راضياً بالثمن المطلوب مهما يكن، آملاً في أن يُسوَّغ على المدى الطويل هذا الحبّ. ولم تكن فكرة دفعه وهجره لتراود ذهنه.

وكان يفكّر في الكيفيّة التي شعر بها بانبثاق دينه وميوله من المعين نفسه، وفي الكيفيّة التي بدا له بها أنه إنما تدنّس بفساده. . . وكان يعتقد أنه قادر بعد اليوم على قلب هذه الحجة في الاتجاه المعاكس. لِمَ لا يحدث يا تُرى أن تتطهّر نزعاته على العكس من ذلك بهذا التقارب؟ ولأنْ يمكن صدور الحبّ الكبير الذي كان يربطه بنيك عن رذيلة فاحشة فذاك مالم يكن له قِبَلٌ باعتقاده. وكان أحياناً يفكِّر في أن يغدو ملاك الصبي الحارس راجياً أن تتحوَّل شهوته على مهل إلى عاطفة أكثر إيثاراً. وعندها يراقب تطوّر رجوليّته ويتعلّق بأدنى خطوة من خطاه، ويكون حاضراً دائماً وإن توارى في إنكارٍ للذّات هو أجلى تعبير عن حبّه. وهكذا يغدو نيك الذي كان عشيقه ابناً له. والحقّ أنه سبق للصبيّ أن كان يؤديّ الدورَيْن بحذق وخيال كانا يُبعدان كلّ فكرة سيّئة الوقع عن علاقاتها. وعندما كان مايكل يفكّر في ذلك كان يشعر حياله حتى بشيء من الرغد، وكأنّ هذه الأفكار الجريئة كانت قد أصلحت بشكلٍ ما براءته. ومن جديد ترك أفكاره تهيم، وإن بحذر، في مشروع دخول الكهنوت. لماذا هو يا تُرى غير قابل بوجه الإجمال للتحقيق؟ أليست الأمور سائرة إلى أحسن؟ لقد كان في تلك الأوقات لا ينقطع عن الصلاة شاعراً من خلال تناقضات وجوده الحقيقية بأن إيمانه كان يزداد. وكان سعيداً سعادة طافحة لم يسبق له أن شعر بمثلها.

كيف كانت ستنتهي قصة هذا الحبّ البريء لو تُرك له أمر قِياده؟ لم يتيسّر له شرف معرفة ذلك، فقد انتزعت منه سعادته على حين غِرّة. ففي بضعة أسابيع نمت علاقاته بنيك نمّواً خارقاً وكأنها شجرة في حكاية من حكايات الجنّيات. ولقد ذاقا في بضعة أيام هذه الأحداث التي يمكن أن

twitter @baghdad_library

تمتدّ سنوات في قصّة غرام كلاسيكية. وربّما كان ذلك من سوء طالعهما، وكان هو يحسّ بأنه يعرف الأمر منذ الأزل. ولكنْ هل سبق لنيك أن ساوره هذا الشعور؟ أيكون مايكل قد أتعبه لهذا السبب؟ أتكون حدّة حبّة العارمة قد أثارته؟ لم يتسنَّ له قطّ أن يعرف.

لقد جاء في نهاية الفصل إلى الثانوية مبشّر بالإنجيل، مبشّر غير متقيّد بأعراف الديانة الأنغليكانية، وشارك في حملة لإحياء الدين، حملة قامت بأعبائها جميع الكنائس. وكان الرجل مرهفاً وخطيباً مُفوَّهاً. وقد حضر مايكل اثنتين من مواعظه من غير أن يصغي إليهما؛ كان يفكّر في مواقف العناق مع صديقه.

بديهي أن خواطر أخرى كانت تمرّ في بال نيك. فبدلاً من أن يأتي في اليوم التالي للقاء مايكل في الساعة المقرّرة ذهب يقصّ على المدير الحكاية بحذافيرها.

وجنّ مايكل لإخلاله بالموعد؛ وبعد انتظارٍ كئيب قَلِقٍ كتب له كلمة وذهب يبحث عنه. وانتابته فجأة خشية منذرة بشرّ مستطير، واستُدعي على عجل في أثناء بحثه المحموم إلى مكتب المدير حيث تلقّى أمراً بعدم الاجتماع بالتلميذ وجهاً لوجه بعد اليوم. ومسَّت هذه الخيانة التي شعر بها على الفور شيئاً نقيّاً داخل نفسه، شيئاً مقدّساً. ولم يجد للأمر من علاقة بسقطته هو إلاّ بعد مدّة طويلة، ولم يخطر له إلا بعد مدة طويلة جدّاً، وكان لايزال يستذكر الوقائع كما صوّرها له رئيسه، أن يتّهم نيك بأنّه قدّم رواية مغلوطة عمّا كان قد جرى، وأوحى بأنّه جُرّ - غصباً عن إرادته - إلى مغامرة لم يكن قد فهم فحواها وتحيّر كيف يُفلت منها. ولقد كانت مثل هذه اللوحة تمثّل حقّاً مشهد إغواء معيب.

واتُّفق على أن يترك مايكل الثانوية من دون فضيحة ظاهرة عند نهاية الفصل الوشيكة. ووجّه المدير إلى الأسقف رسالة دبّجها بعناية وحذر،

الأمر الذي قضى على كل رجاء في دخول سلك الكهنوت.

ووجد في لندن عملاً مؤقّتاً في إحدى دكاكين العلم التي تحضر التلاميذ لنيل شهادة البكالوريا. فما أكثر ما أصبح لديه من الوقت للتأمّل بعد اليوم. وبينما كان النجاح والسعادة يدرآن عنه الشعور بالذنب وُلد هذا الشعور تلقائياً تقريباً مع نكبته مسوّغاً في نظره الطريقة التي استقبله بها رئيسه. فقد ارتكب أسوأ الخطايا - خطيئة إفساد الشبيبة - الخطيئة التي بلغ من خطورتها أن أعلن المسيح نفسه أنه «من الأفضل لمن ارتكبها أن تُربط في عنقه رحى طاحون ويُرمى في عُرض البحر».

وكان يرفض أن يُشرك نيك في مسؤوليته ويريد إلقاء عبئها على كاهله وحده. ولو حدث أن كانت أضخم ممّا هي لما تردّد في الإمعان بتحمّلها.

وعندما وجد نفسه بعد زمن طويل في حالة تسمح بعيش تلك الحقبة من جديد بشكل أكثر دعة تساءل عن الدافع الذي حدا بتلميذه وصديقه إلى الإدلاء باعتراف بمثل هذا الزيف. أكان ذلك محض وازع ديني؟ ربما كان غِلاًّ صادراً عن نصف وعي. أهي رغبة في إبرازه في جوّ سيّء للغاية؟ لم يكن ليغيب عن بال مايكل أن ذلك نابع من غريزة الناس الذين يمارسون الاعتراف، وقد تخيّل بالعودة بالزمن إلى الوراء أن نيك قد شوّه الأمر من غير أن يصدر مع ذلك عن نيّة طوعية بالإيذاء. والحقّ أنّه لم يتمكّن قطّ من حيازة هذا اليقين.

ومرّت السنين. وحصل على وظيفة في وزارة التربية بلندن ثم عاد إلى التعليم بحماسة كبرى. وتجنّب المغامرات من دون صعوبات كبيرة وإن ظلّ مع ذلك - ويا للأسف - منزعجاً ومضطرباً دائماً بفعل ميوله. وبعد أن تبدّد الاضطراب والضيق اللذان تركته فيهما تلك الحادثة العابرة - وقد استلزم ذلك وقتاً - جهد في تقويم وضعه والانصراف إلى المهمّة التي كان قد انسحب منها، المهمة التي خلقه الله لها. وظلّت آماله الكهنوتية التي لا

twitter @baghdad_library

رجاء تقريباً في بلوغها تلوح في الأفق مع ذلك، بيد أنه كان يجهد في تحويل أفكاره عنها. ومرّ بخاطره أن إخفاق تطلّعاته المأسوي كانت غايته امتحانه؛ وأنه مازال بالإمكان أن تسنح فرصته الحقيقية.. وكان يعمل بهدوء، وإن بغير شغف، في مهامّ مختلفة عندما وصلته الدعوة إلى «إمبر»، وتمّ له لقاء «الرئيسة»، وراوده شعور عارم ببدء حياة جديدة بفضل النموذج الذي أبرزه له القَدَر.

وبعد زيارته الأولى بقليل، وكانت الخُطط لإنشاء «الجماعة» لاتزال في بداياتها، وجد نفسه ـ وهو يدخل بيتاً كانت تجتمع فيه بعض مريدات «الرئيسة» ـ أمام رأس نيك على جسد شقيقته. وكان اللقاءُ من المباغتة والشَبَهُ من الشدّة بحيث فقد القدرة على الكلام مُجبراً على الجلوس متظاهراً بانزعاج عارض. وكان صديقه قد غاب عن ناظريه طوال السنوات التي تلت قطيعتهما وسمع أنه كان قد درس الرياضيات، في «أوكسفورد»، وأخفق في امتحان التخرّج مع أنه كان من الطلاب الجيّدين إلى حدٍّ ما. وقد وجد بعدها وظيفة في مصلحة الأبحاث الخاصة بالطيران، بيد أنه مالبث أن تركها عقب إرث واشترى منصباً في نقابة شركة «لويدز». وكثيراً ما كان يُشاهد ـ حسبما سمع من فم أحد الذين تربطه بهم علاقة عمل ـ بصحبة بعض السماسرة المشبوهين. وكان اسمه يُذكر في أوقات متباعدة في بعض الصحف الرائجة مقروناً بأسماء النساء. وكان يُحكى أنه أخذ يعاقر الخمرة، وكانت تسري شائعات بأنه لوطيّ.

ولقد استمع مايكل باهتمام إلى ما يُقال، ولكنّه امتنع عن طلب المزيد من الأقوال. وكان قد أخفى ذكرياته في أعماق ذاته حيث استمرّ في السهر على الشخص الذي كان قد عرفه وفي إعزازه طالباً بلا انقطاع من إله الحبّ أن يفهم ويُحوّل شغفه القديم العارم الذي كان قد أراد الاعتقاد بأنه نقيّ تماماً. ولكنْ لم يكن لذلك الغفران من وجود إلا عند مستوى عميق جداً،

المستوى الذي كـان الضباب يلفّ فيـه أفكاره بعض الشيء. ولقـد بدأ في الواقع على العكس من ذلك يغذّي ضغينة عـلى نيك لأنّـه تمكّن من تحطيم حياته بشكل فعّال. ولم يكن يرى أنه مسؤول إلا جزئياً فقط عـن سـوء مآل الصبي بمجمله. وكان قد نظر إليه قبـل أن يُعميه شغفـه تمامـاً على أنـه صغير غير متّزن؛ ومع أنه رفض رفضاً قاطعاً التقليل من ذنبـه هو فقـد كان يميـل إلى التساهل مع نفسه مصمّماً في أقصى الحالات على اعتبار أنّ تلك الحـادثة المثيرة قد انتهت إلى الأبد.

ومع ذلك فما أشدّ ما حَزَبَـهُ لقاء كـاترين! فلم يكن من الـضروري أن يُقال له إن المرأة الجميلة الرماديّة العينين ذات الشعر الأبنـوسي الغزيـر التي كانت يدها الطويلة تضغط يـده برفق هي «الآنسـة فاولي». وَلَكَمْ كـان يودّ أن يطّلع على أفكارها ويعـرف ما إذا كـانت تحكم عليه بعِـداء سبق تَصَوُّرُه مقروناً بمسحة من ازدراء بوصفه إستاذاً غامضاً طُرد لأنه أغـوى أخاهـا. وأمّا الازدراء فقد كان مستحيلاً اكتشافه في هـاتين العينـين المتهرّبتـين، بيد أنـه فكّر في أنـه إذا كانت عـلاقات التـوأمـين بـالحميميـة التي وصفهـا لـه صديقه ـ وقد بدا أن تلك التصريحات مطابقة للواقع ـ فلا بدّ أنه ساق إليها رواية مشوّهة حتماً عمّا كان. وربما كانت قـد نسيت اسمه، ومـع ذلك فقـد جعله يتشبّث بفكـرته الأسـاسية ودٌّ ظـاهر تجلّى خلال لقـائهما الأول. لقـد كانت على بيّنة ممّا جرى.

تُرى هل يُعقل أن تمنحه الطبيعة الآن كاترين بعدما حرمته من «نيـك»؟ لقد بدا هذا الحلّ لمؤلّفـه مجرّداً من كـلّ معنى وكأنّ شخصـاً آخر فقط قـادر على فهمه. وعلم منذ لقائهما أنها منذورة للرهبنة، وخُيّل إليـه أنها منجذبـة إليه قليلاً. ولقد فتنه بعض السحر في هيئتها، غير أن حاجبيها العريضيـين وعينيها الخاليتين من كل تعبير، الملقاتين بلا خطأ في طيف وجهها الأنثوي، لم تحرّك فيه ساكناً. وممّا يدعو إلى الغرابـة حقّاً أن يكـون الربّ الـذي خلق

twitter @baghdad_library

كـائنين بـالطريقـة عينها ولاريب قـد ركّبهما بصـورتين متبـاينتين مثـل هـذا التباين. فرأس كاترين في حـالة السكـون كان يشبـه رأس أخيها وإن كـان أصغر قليلاً وأرقّ، ولكنّ قسماتها وابتسامتها كانت تضفي على الشكل نفسه أسلوباً مختلفاً جدّاً. وعندمـا كانت تُحني رأسهـا على صـدرها ـ لأنها كـانت تنزع إلى الغض من بصرها بتواضع ـ كـان يشعر أنـه ضحيّة عمـل مؤذٍ من أعمال السحر. وكان يرى أنها مثـل سائـر النساء خِلوٌ من كـل جاذب، بـل فيها بعض البشاعة، وكان ذلك يعيده بشكل خفيّ إلى التوأم.

ومضى الأشخـاص الـذين جمعـوا بينهـما ـ وكـان واضحـاً أنهم يجهلون وضعهما ـ يشرحون له بمساعدة الفتاة المعنيّة أنها تنوي دخـول الديـر وترجـو أن تُمضي بعض الـوقت قبـل ذلـك في كنف «الجـماعـة» التي هي في طـريق التكـوّن. وكانت تلك فكـرة صادرة عن «الـرئيسة». ولا بـدّ أنها كـانت قـد كتبت بذلك إلى مايكل، وكان عدم تسلّمه الرسـالة أمـراً مفاجئـاً. وإذ لمح دهشة ضيوفه فقد شرح لهم أنه لا بدّ أن يكون البريد بانتظـاره في مسكنه، وأنه ورد في أثناء غيـابه في لنـدن. وأجاب بـأنه مقتنـع من جهة ثـانية بـأن مشروعاً من هذا النوع ينبغي أن ينجح كلّ النجاح، وأن رغبة «الرئيسـة» هي عنده بمثابة القانون على كل حال.

ونهضت الآنسـة فاولي لتنصرف. وإذ كـان يتأمّلهـا واقفـة قـرب البـاب مودّعة ومظلّتها التي تشبه المغزل تمسّ الأرضية الخشبية، وهي مرتدية معطفاً وتنّورة بسيطين، وإن كانا حَسَنَي الخياطة، وشعرها الغزير الأبنـوسي ملفوف في كتلة متماسكة تحت قبّعة صغيرة أنيقة بلا مـراء، فقد أخـذ يفكّر في هـذا القـدر العجيب الذي جمـع بين طـريقيهـا، والـذي سيلتقي بفضله ـ لم يكن يشكّ في ذلك لحظة ـ بـ«نيك» من جديد.

والحقّ أن الحدث حصل أبكر مما كان قد توقّع. فـما إن عاد إلى مسكنـه حتى وجد رسالة «الرئيسة». وكانت توصيه بحـرارة بكاتـرين متحدّثـة عنها

وكأنها تتحدث عن طفلة «محظوظة بشكل خاص» واعدة بمواهب روحية بديهيّة. وكانت تأمل في أن يتلطّف بقبولها عضواً مؤقتاً في «الجماعة»، وكان شيء في لهجة الرسالة لا سبيل إلى اكتناهه قد حمل المرسَل إليه على الاعتقاد بأن كاتبتها لا بدّ أن تكون على علم بشيء من علاقاته بـ «نيك». ولا ريب أن كاترين قد حدّثتها بالأمر. وما كان في وسعه أن يعقل فوق ذلك أن يستطيع شخص بمثل هذا اللطف والاحتشام أن يُخفي شيئاً عن تلك الشخصية حين يواجهها. ثم إن الاعتراف عادة متّبعة في العائلات.

وصلت كاترين إلى «إمبر» كما هو متّفق منذ بداية عمل التنظيم، وكان المالك وبيتر والزوجان سترافورد وحدهم يقيمون في البيت الكبير. وانصرفت خلال الأسابيع الأولى ـ وكانت لا تكاد تتكلّم ـ إلى المهامّ الكثيرة التي كانت تنتظر الزمرة وهي بمثل هذه القلّة في العدد. وكانت تعمل إلى درجة الخَوَر، وكان على مايكل أن يكبح جماحها. وأما خارج المدينة فكانت تبدو مختلفة، فقد اختفى كل أثر للأناقة، وكانت ترتدي ملابس قديمة حائلة تقريباً، وكان شعرها الأسود المعقّص يُعقد على عجل أو يُفرد على ظهرها، وكانت تبدو وكأنها تتأكّلها رغبة في التواري وفي أن تكون صغيرة ومهملة قدر المستطاع في الوقت الذي تشغل فيه نفسها في كل مكان يكون في وسعها الانهماك فيه. وقد خُيّل إلى مايكل أنها شخص فتيّ غريب إلى حدٍّ ما، وأنّها مختلّة التوازن، وأنّه من المحتمل جداً أن تكون حَرِيَّةً بالإفراط، بيد أنّه سرعان مانسي أحكامه الأولى، كما حدث له بالنسبة إلى أخيها، وغدت محبّبة أكثر فأكثر إلى نفسه. وكان يحترم ما تبذل من جهود سامحاً لنفسه بالنظر إليها أحياناً بحثاً عن وجه آخر، مُلفياً عينيها الباردتين مثبتتين عليه من حين إلى آخر.

ووصل پاتشواي، ووصل جيمس؛ وكانت «الجماعة» تبذل محاولات حقيقية للتّشكّل. وعُزقت الحديقة وبُذرت البذارات الأولى بشكل احتفالي،

twitter @baghdad_library

وذات يوم حدّثته كاترين عن أخيها. ولم تلمّح أي تلميح في حينه أو فيما بعد عن ماضيهما إلا بالإيماء الضمني بأن كلّاً منهما كان يعرف الآخر. وقد أوضحت له اهتماماته، وظنّ أنه فهم أنّ «نيك» كان قد عاش حياة مشتّتة لم تكن كاترين راغبة في تقديم أيّ تفصيل عنها، حياة بدا أنه لا يملك القوة اللازمة للهرب منها، وأنه كان حزيناً جداً، وأنه كان قد هدّد بالانتحار. وكان من المفيد محاولة شيءٍ ما، وقد رأت أخته أن بالإمكان استدعاءه إلى «إمبر» حيث يمكن ولاريب إيجاد ما يشغله. وحتى وإن كانت إقامته قصيرة الأمد فسوف تكون خيّرة فيما يتعلّق بصحّته على الأقل. وفوق ذلك فمن ذا يستطيع التأكيد بأنه قد لا يُرجى أكثر من ذلك أيضاً بفضل بعض الصلوات والقدوة الحسنة القائمة في الجانب الآخر من البحيرة؟ وكانت كاترين تتشفَّع بكلام يشبه كلام من يخشى رفضاً، وكان وجهها الشاحب النشِط بقوة تطلّعها يذكِّر بوجه آخر.

لقد أذهل ذلك الطلب مايكل. وكان قد شعر منذ لقائهما الأول، وماكان شعوره ليخلو على كل حال من لذّة ممزوجة بالأسى، بأنّه سيكون عليه بعد اليوم أن يعود لرؤية «نيك» بشكل مقتضب، وربما تمّ ذلك في أحد البيوت اللندنية. ولسوف يتبادلان حينئذٍ ابتسامة مُحْرَجة ثم ينقطعان سنوات عدّة عن اللقاء. وأما أن يحظى بالشاب هنا! لقد كان يفكِّر فيه دائماً تفكيره بالمراهق الذي كان قد أحبّه، وأمّا أن يحظى بوجوده في «إمبر»، في هذا المكان الذي لايمكن انتهاكه، فما كان ليتّفق قطّ مع مشاريعه ولا مع رغباته. وكان سير خططه قد شغله وأقلقه إلى درجة نسي معها من كانت كاترين. أفلا يكون ذلك نجاحاً لوداعته؟ وعليه فقد بدا له طلبها وكأنّه عائق في غير محلّه على الإطلاق وكان ردّه للوهلة الأولى شبه وقح. وكان تصوّر «نيك» بمحاذاة مصدر القوّة الروحية يعادل بالتمام معارضة النتيجة المرجوّة من هذا الاستشفاء بإصابة جديدة. ويتيح السلطان الروحي بعض

الشبه بالكهرباء من حيث أنه خَطِر. ففي مُكنته أن يجترح العجائب؛ وفي وسعه كذلك أن يدمّر كل شيء من حوله، وكان يخشى أن يكون ذلك القدوم عنصر همّ للآخرين من غير أن يكون له تأثير شافٍ بالنسبة إليه هو. وعليه فقد كان يرغب بكل بساطة في ألاّ يحضر «نيك»!

ومع ذلك فإنه لم يفتح قلبه للفتاة واكتفى بالقول إنّه يريد التفكير في الأمر واستشارة رئيسة الراهبات وأعضاء «الجماعة». وعندها أخبرته كاترين أنها سبق لها أن كلّمت «الرئيسة» بالموضوع فأبدت كل موافقة وتشجيع. وإذ اعترته دهشة عارمة فقد خفّ إلى الدير. ولم يتمّ استقباله لأن السيدة العظيمة رفضت لأسباب شخصية بالطبع مقابلته وأعلمته بأن يعرض كتابة دوافع زيارته فيحصل توّاً على الجواب. ولّما كان قد أصيب بالبلبال فقد كتب عدّة رسائل ومزّقها، ثم قرّر أن يوجّه إليها كلمة مقتضبة راجياً إياها إبداء رأيها في القضية نظراً لعلمها بوقائعها. وأجابت ـ بكل ما تعمّدته من عدم الإيضاح، الأمر الذي أقنطه بعنف ـ أنها موافقة على المشروع بمجمله، ولكنّه سيكون هو ولاريب أفضل حكم في طريقة تنفيذه، وأنها تترك لحكمته اتخاذ القرار النهائي وتمحضه في الموضوع ثقة خالصة. وأرعد مايكل في أرجاء البيت، ثم قرّر أن يتحدّث في الأمر إلى جيمس.

وقال لهذا الذي كان خِلواً من الفضول خُلُوَه من الحذر، وكأنّما كان يظنّ دوماً أنه يسمع الحقيقة كل الحقيقة، أنه تعرّف بشكل مبهم إلى فاولي الشاب عندما لم يكن بعد سوى مراهق، ولكنّه لم يره مذّاك. ووصف ما يعرف من طبعه وتوجّهه سائلاً مساعده عن رأيه في الأمر.

وأجابه جيمس في حدّة كانت بلسماً لقلبه أنه يعتبر تلك الفكرة في منتهى البَلَه. فهم لا يملكون في الوقت الحاضر غرفة يقدّمونها لعابر من هذا النوع، ولا أحد يملك الوقت الكافي لأداء دور مُربّيات الأطفال. ومع ذلك فإن عليهم على الأقل أن يقدّموا المعونة لكاترين التعسة تلك بإيواء أخيها

twitter @baghdad_library

الداعي إلى الرثاء ـ وكان قد سمع بحقّه بعض الشائعات المؤلمة ـ في مكان يستحيل فيه عليه الإيذاء، ولكن ـ لتحفظهم السماء من ذلك ـ في غير القصر. وعلى الرغم من أنه أزعجه بعض الإزعاج أن يسمع من فم مايكل أن «الرئيسة» حبّذت المشروع، وإنْ مع بعض التحفظات، فقد ناشد صديقه الصمود بشكل جادّ. وبعدُ فإن هذا كان يعرف أكثر من أيّ شخص آخر وضع «الجماعة» الحقيقي، وكانت هي تجهله، وقد اعترفت بالأمر على أيّ حال. وكان ذلك علامة من علامات إيمان جيمس القويّ الذي لا يتزحزح بأنْ ليس عليه حتماً أن يرى أنّ أقوال رئيسة الدير ينبغي أن تتّخذ بالضرورة حكم القانون. وقد وعده مايكل بالصمود ثم ذهب للنوم وهو يشعر بأنّه في حال أفضل: وحلم بـ«نيك».

وبدا له كل شيء مختلفاً في اليوم التالي. فما إن استيقظ حتى عَلِم عِلْمَ اليقين أنْ ليس في مقدوره الذهاب إلى كاترين لإبلاغها أنّه يرفض استقبال أخيها. ولو افترضنا أن قام «نيك» خلال بضعة أشهر بعمل فاضح حقّاً، وأنّه غارق في متاعب حقيقية طبقاً للتفاصيل النابعة ممّا باحت به كاترين من أسرار، ولو افترضنا أنّه انتحر، فما الذي سيقاسيه عندئذٍ؟ لقد كان مستحيلاً عليه دفع ذلك التضرّع، ولاسيّما بسبب الماضي. وأطال من الدعاء بحرارة حيال تلك الفكرة وغدا مقتنعاً كل الاقتناع ـ في فجر فرحة غريبة ـ بأنه يلمح في الطريقة التي جرت بها الأمور بارقة خيرٍ ما. فلم تكن الصدفة بالتأكيد هي التي تعيد إليه «نيك». ولم يكن يجرؤ على استيعاب الفكرة القائلة بأنه سيكون شخصياً وسيلة خلاص الشاب، بيد أنّه كان يرى من الممكن أن يكون أحد سبل الرشاد المتواضعة قد نذره للتأهّب تأهّب من يُسنَد إليه دورٌ صغير في حفلة كبيرة في الوقت الذي تجري فيه. وبعد فقد كان يملك فرصة ثانية بشأن «نيك»، ولم يكن باستطاعته التخلّي عنها. ومن جهة أخرى فإن الأمر سيتوافق مع انسحاب كاترين من العالم.

وفي وسع شخص بمثل هذا النقاء ـ هكـذا كان يـراها الآن في حماسته ـ أن يكون بالطبع صانع مثل هذا العمل الإنقاذي. وعليـه فسيُكفِّر عن المـاضي بشكل مُعْجِز.

لم تدم هذه الأحوال الرفيعة طويلاً على الرغم من بقاء الـرجاء بـالرؤيـة التي أثارتها تلك الأحوال فيه. ولقد أصبح الآن مصمِّماً تصميماً جـازماً عـلى استقبال «نيك» بمثل ماكان مصمِّماً من قبل على عدم مجيئه. وسرعان ما حمل الآخرين على تقبّـل هذا الـرأي متذرِّعـاً بسلطان «الرئيسـة» بشيء من سوء النيّة؛ وأما جيمس فقد بقي وحده مرتاباً تمام الارتياب. ولقد رجـا مايكـل كاترين أن تكتب إلى أخيها التوأم لأنّـه لم يكن قادراً عـلى إرغام نفسـه على الكتابة بنفسه. وكان أن تلقّت عند رجوع البريد جواباً يعلن فيه قدومه.

وفي صباح يوم من شهر آب نزل مـايكل وركبتـاه تصطكّـان إلى المحطة لاستقبـال «نيك فـاولي». وكان قـد ترك مـراهقـاً، وهـو ذاهب الآن للقـاء رجل. ومع ذلك فإنّ المدى كان، كما هو غالب في مثل هـذه الأحوال، قـد حُذف من ذهنه، وكان الذي طفا بوضوح في كيانه هو المشهد الأخير ـ بـدا وكـأنّه يعـود إلى أمس ـ للصبي الناصـع البياض في مـدرسة «الإِخْـوة» وهو يتحاشى نظراته.

كـانت كاتـرين التي ذهبت إلى لندن في نهايـة الأسبوع المـاضي لمحادثـة أخيها قد شرحت له بلطف أنّ مشاغلها تمنعها من الـذهاب لاستقبـاله. ولم يكن أحد آخر مهتّماً بذلك القدوم، بل كان الاهتـمام منصبّاً كـما يظهـر على حديقة الخُضر التي آتت أُكُلها الأولى. وإذ فوجيء مايكل بأنّ أمر اضطرابه لم يُكتَشَف فقد انسلّ باكراً جداً وأخذ يـذرع الرصيف وهـو يسوّي يـاقته. وكان قد بذل جهداً مشكوراً كيلا يتفرّس في وجهه في مرآة غرفـة الانتظار، وشغله أمر العناية الغريبة التي صرفها إلى شخصه.

وعندما أُعلن عن وصول القطار كاد يعجز عن البقاء واقفاً على قدميـه.

twitter @baghdad_library

ورأى عدّة مسافرين يتّجهون إلى المخرج ورجلاً عند نهاية الرصيف يحمل بندقية صيد وبندقية أخرى صغيرة ويصطحب كلباً. كان ذلك «نيك». وبدا له، على الرغم من وضوح صورته، وكأنّه طيف رُؤي في حلم، وقرّر أن يتّجه صوبه. وكان قد نسي تماماً وصول الحيوان الذي كانت كاترين مع ذلك قد عنيت عناية كبرى بذكره. وشعر بسخط حقيقي لوجوده. ولم يكن يبدو على «نيك» أنّه تنبّه لاقترابه لشدّة حدبه على بهيمته. ولم يشدّ من قامته إلاّ في الدقيقة الأخيرة، وقلّصت ابتسامة عصبية وجهيهما. وتصافحا، وتبادلا بعض الكلمات التي لا معنى لها على الرغم من عجزهما الحقيقي عن إخفاء اضطرابهما المتبادل. وكان من حسن الحظ أن يتيح لهما الكلب تحوّلاً مفيداً. وأخذ مايكل الحقيبة من يد المسافر بينما كان هذا ينظر إلى المكان نظرة مذعورة ومشيا إلى السيارة. وساق مايكل السيارة بشكل يقرب من حالة السُكْر، وقد عجز فيما بعد عن تذكّر الطريق الذي قطعه تذكّراً واعياً. ولم يكن الحديث صعباً جداً، ولكنّه كان غير مترابط. فلم ينفكّا يتكلّمان كيفما اتّفق منطلقيْن أحياناً معاً بالعبارة نفسها. وساق مايكل ملاحظات بلهاء عن الحيوانات، وطرح «نيك» أسئلة عادية عن المنطقة. وقد كرّر الطلب نفسه في مناسبتين. وانعطفت السيارة انعاطفة عريضة لتتوقّف أمام المنزل.

كانت كاترين بانتظار أخيها. وتعانق الاثنان بشكل رقيع مفرط في الحيوية. وانهمكت مارغريت سترافورد بالاحتفاء بالقادم الجديد الذي اقتيد إلى الداخل. وعاد مايكل إلى مكتبه، وما إن أصبح وحده حتى أراح رأسه على الطاولة وهو يرتجف. وساءل نفسه عمّا إذا كان يشعر بالسرور أو بالتبرّم. فقد بدا له للوهلة الأولى أن صديقه تغيّر تغيراً هائلاً. فوجهه الذي كان فيما مضى شاحباً أصبح محمرّاً مُدهِناً، وكان شعره المعقّص لايزال ينسدل على جبهته العريضة، ولكنّه بدا مزيّتاً أكثر ممّا بدا برّاقاً، وكانت أجفانه لاتزال سميكة، وأما عيناه فكانتا أقلّ تعبيراً وامتلاء بالنفوذ. وكان جميلاً ولكنْ ثقيلاً وطافحاً بالألوان ومبتذلاً بعض الشيء.

وسرعان ما انتزع نفسه من تأمّلاته ورجع إلى عمله. فقد كان اللقاء أقلّ إثارة ممّا كان يخشى، وكان أقرب إلى الارتياح بأن يجد «نيك» خُلْواً من ذلك الشحوب الذي كان يُضفي عليه كثيراً من السحر عندما كان صبيّاً، والذي لم يزل باقياً بشيء من الغموض في أخته. وإذ كان قد عزم على الإقلال من رؤيته قدر المستطاع في أثناء إقامته فقد ظنّ، بعد أن زال مفعول الصدمة الأولى، بأنه سيجد القدرة على ذلك بسهولة. وبناء على التماسه الحارّ فقد تقرّر أن يُسْكَنَ هذا الضيف خارج البيت الرئيسي. وكان يرغب في ألّا يكون وحده، ولكنْ كان من المتعذّر حتى ذلك الوقت إيجاد من يؤنسه. فلم تعرض كاترين أن تكون معه، وكان باتشواي قد رفض الأمر، ولم يكن في وسع الزوجين سترافورد الإقامة معاً في غرفة صغيرة جدّاً كانت الوحيدة الخالية؛ وكان شعور أناني قد منعه من أن يطلب إلى بيتر (الذي لم يكن يعرف شيئاً من الحكاية) أن ينتقل إلى الجناح. وأما جيمس فإن القضية لم تكن مطروحة بالنسبة إليه لأن عدم استلطافه القادم الجديد كان قد سبق بروزه. وهكذا اضطرّ إلى الاكتفاء بصحبة كلبه إلى أن وصل الشاب توبي غيش بعد ذلك بثلاثة أسابيع.

وكان مايكل قد تخيّل في حدود الأمل الجادّ الذي عقده على أن يساعد «نيك» في «إمبر» شخص غير أخته أن يكون ذلك الشخص جيمس تيبر يس. ولقد خاب فأله كثيراً إذ أظهر هذا تصلّباً تامّاً بصدد القادم الجديد.

ولقد قال لمايكل بعد وقت قصير من وصوله: «إنه يثير في نفسي ما يثيره لواطي سلبي. وما كنت أرغب في قول ذلك قبلاً، ولكني سمعت كلاماً عنه في لندن. صدّقني أن هؤلاء يسبّبون الاضطرابات. ولقد عرفت أشخاصاً من هذا النوع. إن فيهم شيئاً مدمّراً، نوعاً من العِداء للمجتمع. إسباغ اسم خبيث على كلب وكلّ ما تبقّى... كيف يصدق أن هذا السّقط أخو العزيزة كاترين التوأم...».

twitter @baghdad_library

وظلّ مايكل متحفّظاً، متسائلاً عمّا يمكن أن يعتقد جيمس لوكان يعرف أكثر من ذلك عن محدِّثه، متهلّلاً من جديد للسذاجة العجيبة التي يتحلّى بها هذا الذي يعرف الدنيا معرفة حسنة بوجه الإجمال. فهو يجهل مع ذلك الرذيلة نتيجةً لطهارة قلبه المتناهية ولاريب. وتساءل عما إذا كان في إمكان المرء اكتشاف دقائق الخير إذا كان عاجزاً عن اكتشاف دقائق الشرّ، واستنتج مؤقّتاً أن ما يُطالب به كلُّ أحدٍ هوأن يكون طيِّباً، وهي مهمة تمثّل بشكل عام وجهاً قاسياً وإن كان مع ذلك بسيطاً، لا أن يسعى إلى الإفراط في التهذيب. ثم ترك الموضوع إذ لم يكن لديه وقت للتنظرات الفلسفية.

وأخذ تأثير وجود «نيك» فيه يخفّ في الأيام التي تلت. وأُسند إلى هذا منصب المهندس شكلياً، وكان يقضي في الواقع بالعناية بالسيارات كلما دعت الحاجة وبإلقاء نظرة أحياناً على المحطة الكهربائية ومضخّة الماء. وكان يبدو أنه مؤهّل بما فيه الكفاية للمسائل التقنيّة؛ ومع ذلك فإنّه كان يقضي معظم وقته في التجوال بالجوار يتبعه مورفي، ويطلق النار بدقّة مدهشة على الشحارير والسناجيب واليمام تاركاً جثثها حيث تسقط، ولم يكن يمتنع عن ذلك إلا إذا رجاه أحد أن يفعل. ولم يكن مايكل وهو يراقبه من بعيد يشعر بحاجة ملحّة إلى لقائه. حتى إنّه كان خجلاً بعض الشيء وبدأ ينظر إليه بعيون جيمس والزوجين سترافورد، ولم يستطع ذات مرة أن يمسك لسانه عن الكلام عليه «بوصفه إنساناً بائساً». وكان «نيك» يبدو من ناحيته ساكناً، بل فاتر الهمّة أحياناً. وظهرت رغبته في التحدّث إلى مايكل في مناسبتين أُتيحتا له، لكنّ هذا لم يشجّعه ولا نتج شيء عن هذه الحركات الواضحة نصف وضوح. وكان مايكل يستشعر بعض الفضول في مسألة العلاقات بين الأخ والأخت، بيد أنّه لم يتسنَّ لهذا الفضول أن يُشبع. وبدا أنهما قلّما كانا يتقابلان، ولم تكن كاترين الغارقة في عملها تبدو على الإطلاق مشغولة بجوار أخيها الغريب الأطوار. وأما فيما يتعلّق بهيمنة البيت القويّ القائم

فوق الماء، البيت الذي استقت منه كاترين هذا الإيمان، فالواضح أنه اصطدم بالقوقعة الغليظة التي تغلّف كيان أخيها من غير أن يحدث فيها أثراً.

ولم يكن مايكل قد فَقَدَ مع ذلك كل أمل في معجزة قد تحقّقها «إمبر». ولم يستطع أن يمتنع عن الملاحظة بعد وقت قصير بشيء من الحزن، ولكنْ بشيء من الارتياح أيضاً، بأن «نيك» لم يكن مُلهَماً ولا خطِراً وإنما كان ببساطة خالياً من الحيوية، وكان من الصعب رؤية الطريقة التي قد يتمكّن بها من تجنّب الملل في مكان اختار أن تكون مشاركته فيه ضئيلة إلى هذا الحدّ. ولمّا كان مشغولاً بألف موضوع آخر فإنه لم يهتمّ قطّ بمعرفة الكيفية التي يمكن بها أن يغرق في مزيد من الالتزام في الوقت الذي كان فيه يتجنّب الاختلاء بتلميذه القديم معتزّاً لذلك بحسّه السليم. وقد أطال هذا التلميذ إقامته في الريف، وبدا أن صحّته تحسّنت واسمّر قليلاً ونحل بعض الشيء، وقد خفّ ولاريب تعاطيه الشراب منذ انزوائه في الجناح الذي ربما اختير بهذا الهدف، ولكنْ كان من الصعب التكّهن بذلك. وكان مايكل قد حزر أنه سيبقى في مأواه ويقوم فيه بعملية استجمام زهيدة التكاليف إلى أن تدخل أخته الدير، وبعدها يعود إلى لندن ويستأنف فيها حياته السابقة. وكان كما لو أنّ هذه المغامرة الغريبة المؤلمة ينبغي أن تنتهي بوجه الإجمال نهاية أقرب إلى الكدر.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

لم يكن يبدو أن الحرّ الثقيل الضبابي سوف يَلْطُف في أصيل يوم السبت هذا. وكانت السماء بلا غيوم وفي أوج زرقة حادّة. وكان كلّ أحد يجرّر نفسه شاكياً من أنّه يختنق.

وكان العمل يتوقّف مبدئياً في نهاية كل أسبوع احتراماً للهدنة المعمول بها، مع التحسّب لعاصفة ممكنة الحدوث على الدوام مستلزمة القيام بجولة تفقدّية للحديقة. والواقع أن المشاغل كثيراً ماكانت تقتنص من ساعات الدوام هذه، بيد أنّه كان يسيطر في تلك الأيام شعور متعمّد بالاسترخاء، نوع من جهد طوعيّ بالفضفضة كان يراه مايكل فيما يتعلق به مضجّراً. وكان قد سعى إلى إمكان البقاء في مكتبه لجلاء برنامج الأيام المقبلة، ولكنّه كان يضطرّ على الدوام إلى تحمّل وهم هذه الإجازات المقتضبة بشكل جزئي. وكان الزوجان سترافورد بخاصّة سعيدين بذلك العُرْف، وكان يظنّ أنهما يصرفان الإجازة في إحدى تزجيات الفراغ المحبّبة إليهما. وأمّا هو فلم يكن ويالأسف يعرف شيئاً من ذلك لعجزه عن تسلية نفسه. فحتى الكتب لم تكن تجذبه على الرغم من عزمه على التوصّل ذات يوم إلى الاستغراق في برنامج مطالعات دينية متواضع. ولقد كان في العادة يصبو بنفاد صبر إلى العودة رسمياً إلى عمله.

وكان دماغه يطنّ كذلك بالأفكار المشوّشة في أثناء ساعات الفراغ تلك

فيعذّب نفسه بشأن صديقه ويضع مختلف الخطط لتحسين حياته مُفعَماً بالرغبة التي كان يدفع إغراءها في أن يذهب للقائه في خلوة طويلة. وما كان لينتج عن ذلك ما يجلب السلام لأحدهما أو للآخر. وكان يحمد لنفسه أن يكون قد تخلّص على الأقل من بعض الأوهام، ويشعر بفضل ذلك التقشّف بتزايد قوّته الروحية. وقد قرّر مع ذلك أن يتحدَّث بشكل جدّي عن «نيك» إلى أخته. وكان من حقّه بالتأكيد أن ينتظر قبلَ بذل الجهود الجادّة. وكان راغباً في معرفة ما إذا كان «نيك» قادراً على أن يجد لنفسه مكاناً في مؤسّستهم، ورافضاً فوق ذلك أن يبدو لناظري تلميذه السابق إما رقيباً وإما مُحِسناً. ولم يكن أكثر استعداداً لخوض أدنى موضوع حميم مع كاترين التي كان الانفعال والترقّب يزيدان من إرهاف حسّها. ومع ذلك فإن الأمور كانت قد طالت بما فيه الكافية.

وعندما كان يُتاح له التفكير فإنه كان يضطّرب أشدّ الاضطّراب أمام الخاطرة الشاقّة والآسرة معاً في أن يضيف مرّة جديدة إلى المرات الكثيرة التي كان يتطرّق فيها إلى إمكان رسامته كاهناً. فلقد دُفِعْت مقاربتُه المتعجِّلة دفعاً طبيعياً ومفيداً، ولم يكن يستطيع الامتناع عن الاقتناع بأن الربّ قد تدبّر مليّاً خططه للتخفيف من غروره. وإذ كان قد غرق طويلاً في الظلمات فقد أضحى كل شيء بعدُ واضحاً ممكنَ المنال. وكان قد اجترّ تجاربه القديمة وظنّ أنّه حظي بالحق في أن يرضى عن نفسه. ولم يعد يحسّ كثيراً بالشعور المبالَغ فيه بمسؤوليته وحده، وكان قد أثبت لنفسه منذ زمن طويل أنّ ميوله المريبة كانت قد رُوِّضت بصلابة وبلا عناء. وقد كان ما كان، بيد أنّه ينبغي مع ذلك أن يصبح كاهناً.

لم تكن تراود خاطره في ذلك اليوم مع هذا أفكار بمثل هذه الخطورة، وعندما هدأ الاضطراب الذي أحدثه الاجتماع شعر بالارتياح وبسعادة خارقة إزاء ذلك الإسترخاء.

twitter @baghdad_library

كـان من عادة الـزمرة الصغـيرة أن تصحب بيتر تـوبغـلاس بعـد شـاي السبت في زيارته لتفقّـد الأشراك التي كان ينصبهـا في مختلف أنحاء الملكيـة بهدف تطويقها كما بهدف دراستها وكان يتولّـد دائماً نـوع من إثارة في لحـظة الذهاب إلى الأشراك لمجرّد التفكير في مـاسوف يُكتشف فيهـا من حيوانـات صغيرة. وكان يسرّ مـايكل أن يصـطحب صديقـه، وكان أن استلذّ عُضْـوَا «الجماعة» الأنثويان ذلك الأمر أيضاً ولم يسمح «نيك» لأخته بقيادته إلى تلك النزهة سوى مرة واحدة، ولانبس فيها ببنت شفة، وبدا عبـوساً غـائباً عـمّا حوله.

كانت كاتـرين قد وعـدت بالمنـاسبة في ذلـك اليوم، كـما وعد الـزوجان سـترافورد، بغنـاء بعض المقطّعـات الغزليـة بمصاحبـة جيمس والأب بـوب جويس. وكان لهذا الأخير صوت جميل من طبقة منخفضة، وكـان موسيقيـاً بالفطرة. وكـان يرجـو، ماإن تسنـحُ الفرصـة، أن ينهمك في إعـداد جوقـة «الجماعة» للترتيل، ويأمل في أن تؤدّي التراتيل الكنسية بنجـاح، على غـرار مـايجري في الـدير. ولم تكنِ تلك اللحـظة ـ ويـا لـرضى مـايكـل! ـ لتبـدو بعيدة. فقد كان جيمس يغنّي على منوال صادح ممتـلىء حماسـة، «مثل مغنٍ من نابولي» كما كان يُقال لمداعبته. وكان مارك سترافورد يملك صوتاً عريضاً قـويّاً، وكـاترين صـوتاً عـالي الطبقـة قليلاً، ولكنّـه نقي بشكلٍ مميّـز. وأما مـارغريت فكـان صوتهـا رنّانـاً لا نشاز فيـه. وكانت فـرقة المغنّين المتحفّزة للانطلاق تروّح بأوراق النوتة الموسيقية البيضاء عنـدمـا ظهر بيـتر ومايكـل. ولّما كان توبي قد سمـع منذ وصـوله بـالأشراك فقد سبـق لـه أن ألقى نظرة ورغب رغبـة عارمـة في أن يكون في عـداد الزمـرة شأن پـول ودورا اللذين رشّحا أنفسهما كذلك للمشاركة. وأعلن توبي أن «نيك» قد ذهب في جولـة إلى القرية. وبعد أن تبادلوا بعض الدعـابات مـع الموسيقيـين توجّهـوا نحو رصيف الركوب في زُمَر صغيرة.

كانت دورا غرينفلد ترتدي ثوباً غـريباً من القـطن الأسود مصـدره جزر الانتيل، وقد حملت مـظلّة من الورق اشـترتها ولاريب من القـرية، ولسبب مجهـول، سلّةً إسبانيـة كبيرة. وقـد انتعلت الصندل الـذي كانت مارغريت سترافورد قد أبدت نفـورها منه، وتضمّخت، بناء عـلى نصيحة من مـارك، بزيت الأترجّ لحماية نفسها من البعوض. وقـد أضفى هذا العـطر السُكّري عـلى شخصها المتـأهّب بزيّ صـارخ إلـى هـذا الحـدّ هيئة مخـالفة لأصـول الاحتشام وغريبة جدّاً في آن. وكان مايكل يراقبها بانزعاج وهم يـطوّفون، وكان قد سبق له أن رآها بُعيد الظهر في مثل هذا الزيّ المضحك في حديقة الخُضر فبدا وجودها لعيون العاملين تسلية ريفيّة خرقاء. ومع ذلك فقد كان في حيويّتها الساذجة مـايدعـو إلى الرفق بهـا. فقد اصـطبغ ذراعـاها اللذان لوّحتهما الشمس بلون قرمزي صارخ، وكانت قد رفعت خصلات شعـرها فبدا وكأنّه عُرف حصـان من الخيل الصغـيرة الحجم، وأدرك، وإن بشكل غامض، إلى أيّ حدّ ينبغي أن يكون پول متدلّهاً بحبّهـا. وقد كـان هذا في حالة ثورة دائمة لا ينفكّ يدور حـولها عـاجزاً عن صرف عينيـه ويديـه عن شخصها. وكانت تثير حفيظته بسماحة فيها بعض التشنّج.

بلغوا رصيف الركوب وأخذوا يتكدّسون في الزورق المُثْقَل الـذي آواهم جميعاً بصعوبـة. وجلست دورا يعاونها زوجهـا وهي تطلق صرخـة صغيرة، وأوضحت وهي تسوّي تنورتها أنها لا تُحسن السباحة فأثـار إيضاحهـا دهشة الجميع. ودفع مـايكل بمهـارة الزورق الثقيـل فوق المـاء الدافىء الـذي بدا كالزيت لشدّة ما أركدته الحرارة. وإذ كانوا يقتربون من الضفة المقابلة صاح توبي متعجّباً لافتاً الانتباه. فقد لاحظ شيئاً في الماء قريبـاً جدّاً منهم. وكـان ذاك مورفي. ونظر إليـه الجميع وقـد أمالـوا الزورق بشكـل خطِر من جهـة واحدة. وكان منظراً مثيراً جدّاً منظر ذلك الحيوان وقد احتفظ بوبـر خطمـه جافّاً فوق صفحة الماء في هيئة بهيمة سابحـة بشكل قلِق، وهـو يضرب الماء

twitter @baghdad_library

بقوائمه بصورة جنوبية على مايبدو.

وسألت دورا منزعجة:

ـ أمتأكد أنت أنّه على مايُرام.

ـ وأجاب توبي بلهجة الواثق:

ـ بالطبع.

ولاحظ مايكل أنه يبدو وكأنّه يعتبر نفسه سيّده ويملك الأهلية اللازمة للإجابة عن خصائصه وراحته. فقد أضاف:

ـ كثيراً ما يسبح هنا، وهو يحبّ ذلك كثيراً. هيه يا مورفي! أيها الولد الطيّب!

ورمقه الكلب بنظرة سريعة مواربة ثم عاد إلى تخبّطه في الماء. وبلغ الشاطىء قبلهم وهو ينتفض بقوّة من البلل وانسلّ باتّجاه الجناح.

وإذ نزلوا من الزورق فقد انعطفوا يمنةً للاتّجاه صوب الغابة التي كانت تمتدّ بين البحيرة والطريق البلدية التي يكتنف نهايتها القصوى سور الدير العالي. وأخذت دوا في احتكار پيتر توپغلاس، بقصد إغاظة زوجها بعض الإغاظة ولاريب، طارحة عليه كثيراً من الأسئلة عن الطيور. وعبّرت له عن استغرابها تنوّع المخلوقات التي كانت تصادفها في نزهاتها اليومية على أرض الملكية، وعن دهشتها التي تقرب من الاستنكار بوصفها من سكان المدينة من أن يكون في وسع هذه البهائم أن تمرح بحرية، وتتصرّف بوجودها غير آبهة أبداً بالسيادة البشرية لحمايتها. وقد هالها في الصبيحة أن ترى عقعقاً يطير فوق البحيرة وفي منقاره ضفدع.

ـ أتعتقد أن الضفدع كانت تشعر بما يحدث لها؟ أتظنّ أن الحيوانات تتألّم كما نتألّم؟

وردّ پيتر قائلاً:

ـ من يستطيع القول؟ ومن جهتي فإني أعتقد مع شكسبير بأن الحشرة الحقيرة التي نسحقها تستشعر في أحشائها ألماً بحدّة الألم الذي يستشعره عملاق يموت.

وسألته وهي تدير مظلّتها:

ـ لماذا ليس في مقدور الحيوانات أن يكون بعضها طيّباً تجاه بعض، وأن تعيش بسلام؟

وقال مايكل لتوبي الذي كان يسير إلى جانبه:

ـ ولماذا لايقدر البشر على ذلك؟

كان الثلاثة الآخرون في المقدّمة. وكان بيتر يسير يمرح والشمس تتمرّى فوق نظّارتيه، ومنظاره وآلة التصوير يهتزّان فوق ظهره، وكانت خطوته قويّة. وكانت جمجته القرعاء تلتمع بحمرة متوهّجة. وكان رفيقه ينظر إليه بحنان معجباً بتطلّعه وتفانيه في دراساته المحبّبة كثيراً إليه، وبغياب كل أثر للغرور فيه. وقد كان ينقصه قليل من سعة الأفق التي كانت تجعل من جيمس كائناً خارقاً للغاية، بيد أنّه كان يمتاز، مثل فارس «شوسر» الدمث، بخلوّ نفسه خلوّاً تامّاً من الإيذاء.

ونفذوا إلى الغابة، وكانت دورا تسير بحذاء بيتر في الدرب الضيّق. وإذ كان پول قد ألحّ على أن يمسك بذراعها فقد عوقب بالتعثّر في الأشواك.

وانصرف توبي الذي كان يشعر الآن براحة تامة ويبدو سعيداً بشكل واضح إلى ثرثرة مفكّكة الأوصال قليلاً، في الوقت الذي كان يتوقّف فيه هنا وهناك منحنياً للتدقيق في الأزهار البرّية، ساعياً إلى اقتناص الأصوات العابرة، محدِّقاً في الأحجار التي تكتنفها الأسرار. وكان مايكل يسير بخطى مسترخية منتظمة وهو مندهش دهشة ناعمة لإحساسه بأنّه أكثر نضجاً وأوسع حماية، وبأنّه وادع بشكل غير مألوف. وكان يتساءل عمّا إذا كان سيكون لتساكن توبي و«نيك» بعض الذيول. وكانت الفكرة قد بدت له،

twitter @baghdad_library

ولم يكن قد تعرّف إليه بعدُ، مشرقة للوهلة الأولى. فقد كان في الواقع الوحيد الحرّ، وكان «نيك» قد انفرد بنفسه مدّة طويلة. ومع ذلك، وبغض النظر عن هذا الاعتبار، ألم يكن وجود شخص أصغر سنّاً يبدو له نوعاً من تحدٍّ منذور لجرّه إلى بعض المشاركة؟ وفي وسع توبي على كل حال إلقاء نظرة على النعجة الجرباء، وقد يساعده جواره على التخفيف من استهلاكه للكحول. وقد تقبّل مايكل بالطبع أن يكون جيمس نافذ البصيرة، فلم تكن منظّمة «إمبر» الحالية تملك أي مكان لشخص بمثل هذه الحالة المَرضيّة، شخص لم يكن في وسع أحد الاهتمام بمراقبته حقّاً. وكان يشعر بأن اجتراراته بصدد «نيك» تعادل ضُعفاً نحو ذاته لم يكن من الممكن تحاشيه نهائياً بأي ثمن. ومرّة أخرى فكّر في عزم «الرئيسة» على رفض كل بَوْح. أليس عليه أن يثق بكاترين وتوبي؟ ولم يكن ليعتقد في الواقع بأن «نيك» قادر على إيذاء الفتى لأنّه لم يكن ينظر إليه بعدُ على أنه، كما وصفه جيمس بشكل مأسوي، قوّة مدمّرة. وكان تعبير «الشخص البائس» أقرب في نظره الآن إلى الحقيقة. فما كانت هيئته المتداعية، ولاعيناه النديّتان، ولا تصرّفه الفاتر مميّزات نَمِر متحفّز للانقضاض على فريسته. ولم يكن قطّ قد نشط بفعل مناخ «إمبر»، ولكنّه كان يبدي نحو هذا المحيط احتراماً مشروعاً. وعلى هذا فإنه لم يكن في مقدور مايكل بلوغ حدّ الاعتقاد بأنه يجرؤ حقّاً على إساءة التصرّف مع توبي أو إزعاجه بشيء من عدم الحشمة في الحديث أو السلوك. وقد كان لايزال بعيداً جدّاً عن القدرة على أسر الآخرين ليسمح لنفسه بمثل هذه الحماقات.

لقد سعى مايكل منذ تعرّفه على القادم الجديد إلى تحليل عواطفه. وكان هناك أمر مؤكّد: الفتى هو الغواية بعينها. وكان ينظر إليه في هذه اللحظة قافزاً عند حافة الدرب، ثم منطلقاً من جديد بخطى واسعة وكأنّه كلب فتيّ شديد الحيويّة. وكان لايزال يملك نزق الشباب المتلوّن، بيد أنّ وقاره

كان جليّاً شفّافاً! وإذ كان يُبدي إعجابه لبياض قميصه الصافي وينظر بشيء من الكآبة إلى لون قميصه هو الحائل، فقد تأكّد له أنّه ما إن يصبحُ طالباً في أوكسفورد حتى يميل إلى بعض التأنّق في المظهر. وكان شعره الكستنائي الداكن المسترسل فوق بشرة عنقه الصلبة التي اسمرّت حالياً ينتهي بشكل فروة مقصوصة بعناية. وكانت غرّة فوق أعلى جبينه تُبرِز لطف رأسه المدوّر. وكان خدّاه وشفتاه الملحمتان تنضح بحمرة العافية. وكانت عيناه لاتزالان تحتفظان بالنظرة الخجولة المستعلمة التي يتمتّع بها طفل؛ فلم يكن قد اكتسب بعدُ الثقة بالنفس ولا زهو الشبّان - وبدا أنه يملك طاقة قلّ نظيرها وكثيراً من الرجاء! وما أقلّ ماكان تعقيداً وهو في الثامنة عشرة ممّا كان «نيك» يبدو وهو في الخامسة عشرة! وكان يتأمل بلا كلل سحره الفاتن، ويترك لذهنه أن يتباطأ عند ذكرى الجسد الأبيض العاري تماماً وهو منحنٍ فوق حافة بركة السباحة. لكم كان قد انتشى وحار لتلك الرؤية.
وهاهوذا الآن قد طرح تلك الصورة بشكل أكثر هدوءاً. وربما كان من هنا إلحاحه على أن يقيم الفَتَيان كلاهما في القصر. وكان من الصعب إيجاد ذريعة لاستقدام توبي وحده، وإذ كان من غير المقبول مساكنة «نيك» فقد رأى من الأفضل تأجيل المشكلة والعودة إلى التسليات المنتظرة في المساء.

كانت الزمرة التي في المقدّمة تثرثر كثيراً، وكان يصغي بشكل مبهم إلى أحاديث لا يدرك منها شيئاً. وكان پيتر قد سأل دورا عمّا إذا كانت تنوي رسم بعض الصور بالألوان المائية خلال إقامتها. وقد شدهت لهذا السؤال، إذ لم تكن الفكرة قد راودتها ولا راودت زوجها.

وبعد تبادل بعض وجهات النظر عن الحياة الريفية وبعض الملاحظات عن الطبيعة اكتُشف أنها لم يسبق لها أن سمعت طائر كوكو يغرّد.

وصُعق پيتر وقال مؤكّداً:

- إيه، لابدّ أنك سمعته في الريف وأنت طفلة؟

twitter @baghdad_library

وبدا أنه كان يتصوّر أن جميع الأطفال قد تمتّعوا بامتياز العيش فيه.
وأجابت ضاحكة:

ـ لم أكن يوماً في الريف خلال طفولتي. فقد كنا نُمضي إجازاتنا دائماً في «بوغنور ريجس»، ولست أملك ذكرى واضحة عن سني صباي، بيد أني واثقة كلّ الثقة بأنّي لم أسمع قطّ طائر الكوكو، إلاّ في ساعات الحائط بالطبع.

ووصل توبي ومايكل قريباً منهما وهما لايزالان يتناقشان. وكان المكان الذي نُصبت فيه الأشراك قد أضحى الآن قريباً جداً، وقد أشار إليهم پيتر أن اسكتوا. ومشوا بحذر تامّ حتى وصلوا إلى المكان الذي غدا فيه الدرب أعرض. وعندها سار في الطليعة قاصداً مراقبة صيده. وكان قد وضع ثلاثة أشراك خاصة بعصافير الدوريّ محدّبة قديمة الشكل وبنيتها المقفّصة منتصبة على العشب. وكان كل واحد منها مقسوماً إلى خانتين وأحد طرفي الجوانب منحدراً انحداراً خفيفاً إلى فتحة تنتهي بأهداب من الأسلاك المعدنية وتقوم مقام رفّاص وتُفضي إلى الخانة الأولى القائمة عند مستوى الأرض. وكانت فتحة عريضة مماثلة عند أقرب طرف وفتحة أخرى ضيّقة عند أقصى طرف تؤدّيان فوق مستوى الأرض بقليل إلى الخانة الثانية التي عُمِل على جانبها في أبعد جزء عن جدار الشَرَك باب صغير يسمح بمرور اليد إلى الداخل. وقد أتيح لپيتر أن يدرك منذ النظرة الأولى وهو يسمع عدداً من أصوات حفيف الأجنحة أن الصيد كان مهمّاً.

وكثيراً ماكان مايكل قد شارك في هذه العملية التي لم تخلُ حتى الآن من أن تملأ نفسه اضطراباً شاقّاً. وقد اجتاحه مرة أو مرتين وهو يمسك بالحيوانات الصغيرة بإشراف صديقه شعور بالضيق والشفقة إذ كان يحسّ بين يديه بتلك الأجساد الهشّة المتناهية في الخفّة ويسمع سرعة نبض قلوبها الرهيبة. وكان يخشى أن يشدّد قبضته عليها أو أن يخنقها، وكان رفيقه قد أبدى بعض الهمّة لتلقينه دروساً إضافية.

عاد پيتر وأشار إلى صحبه أن تقدّموا قائلاً:

- اقتربوا وأنظروا، لكنْ لا تتقدّموا منها كثيراً. هناك صيد رائع. انظروا تلك الصعوة المقنبرة في قصفها، والرفيق الصغير بالخطوط الحمراء والصفراء فوق رأسه. وأما الأخرى فدواريّ وقراقف على ماأظن. ولابـدّ أن يكون في الجزء الأبعد أبو زريق.

وجرى تفحّص الطيور عن كثب فيما كان پيتر يصـوّر الصعوة من خـلال القضبان. وسألت دورا:

- لماذا هي تدخل؟

- وأجاب پيتر:

- لتأكل، فأنا أضع قليلاً من الخبز وبعض الجوز طُعمـاً. وعندئـذٍ تحاول الخروج بالطيران إلى الخانة الثانية، الأمر الذي تظنّه أسهل. ولكنها تنخدع، فصعب عليها جداً الإفلات. وقد تدخل الطيور شرَكـاً مدفـوعة بـالفضول البحت.

قال مايكل:

- كذلك! مثل البشر!

قال پيتر:

- لا أودّ إزعاج القرقفة ولا الدواريّ في الوقت الحاضر.

ورفع أحد الأقفاص، وارتفعت الطيور في قفزة سريعة فوق السلك المعدني موغلة برفّات جناح عريضة. وأضاف قائلاً:

- سأطوّق أبو زريق والصعوة المقنبرة. قد تقبل يا مايكل أن تصوّرها بينما أمسك بها؟

تناول مايكل آلة التصوير وجثا پيتر وفتح الباب عنـد نهاية القفص مـادّاً ذراعه خلاله. وأخذت العصافير تتطاير مذعورة داخل الخانة، وبدت ذراع

twitter @baghdad_library

بيتر السمراء ضخمة بالمقارنة إليها. وإذ كانت أصابعه ممدودة على مداها فقد أمسك بالشيء الصغير ثم ثناها برفق تاركاً الرأس المنمنم المخطّط بالأصفر بارزاً. وأطلقت دورا صرخة فزع واضطراب وضيق. وأدرك مايكل ماكانت تشعر به. وكان يمسك بالآلة متأهّباً. وأخرج بيتر من جيبه شريطاً معدنياً خفيفاً كان من الصغر بحيث يُحتاج إلى عدسة مكبّرة لقراءة الكتابة المسجّلة عليه، ثم تحايل بحذر على العصفور في يده إلى أن ظهر طَرَف زريٍّ بمخلب بين بنصره وخنصره. وحينئذٍ ثنى بيده اليسرى الشريط المرن حول القائمة رافعاً إياه إلى فمه لإنهاء العمل بحذق بوساطة أسنانه. ولم تستطع دورا لدى رؤيتها هذه الكلاّبات القوّية تقترب إلى هذا الحدّ من البهيمة الطريّة جداً تَحَمُّل المزيد من المشهد فأشاحت بوجهها في حين كان مايكل يلتقط صورتين. وأطلق بيتر العصفور في الفضاء فغاب في الأحراج حاملاً معه إلى جميع الذين قد يهمّهم الأمر معلومات مفيدة عن العمل الذي جرى في «إمبر» في تلك الأمسية الفريدة من يوم السبت. ثم إنه طوّق أبو زريق وأطلق سائر العصافير. وكانت دورا مفعمة بالدهشة والأسى، وكان پول يسخر منها بشكل مفضوح. ونظر مايكل إلى توبي. كانت عيناه واسعتين وشفتاه رطبتين وحمراوين حيث كان قد عضّ عليهما. وكان مايكل الآن يبتسم له. وما أشدّ ماكان ذلك كلّه إثارةً للحنان والرقّة!

وبينما كانوا يتفحّصون الأشراك عن كثب كان بيتر يتسكّع في الأحراج. وكان النور سريعاً ما يستحيل تحت الأشجار، وكانت سحب كبيرة من البعوض تتكدس حول المضاءة. وكانت دورا تحتمي منها تحت مظلّتها، وتشكو من لدغها على الرغم من عصارة الأترجّ.

وبعد هنيهة صعق المتنزّهون إذ سمعوا على غير توقّع تغريد كوكو! وانتصبوا وكل منهم يحدّق في الآخر ثم انفجروا ضاحكين ونادوا بيتر. وصاحت دورا قائلة:

ـ أوه أيها العزيز! ظننت أنه كوكو حقيقي. يا للدجل!

قال پيتر:

ـ أخشى أن يكون الكوكو الحقيقي الآن في إفريقيا، فهذا العصفور حَذِر.

وأرى دورا الآلة الصغيرة التي كان يستخدمها لمحاكاة الصوت، ثم أخرج من جيبه دُمى أخرى من خشب ومعدن تحكي إحداها صوت القبرّة وثانية صوت البلبل وثالثة صوت الترغلّة ورابعة صوت أمّ فصادة. وطلبت دورا أن ترى عن قرب واستحوذت على الأشياء مُرفِقةً ذلك بصيحات خفيفة وبالإيماءات النسوية الخفيفة المعتادة. وكان مايكل يقدّر وهو يراقبها أنها تختصر كل ما يمنعه من الاهتمام بالأشخاص من الجنس اللطيف، ولكنّه ظلّ هادئاً مستشعراً نحوها مع ذلك شيئاً من الاستلطاف، مدركاً أنّ مزاجه الحالي الرائق لايسمح له بأيّ نفور من أيّ كان.

صاحت دورا:

ـ إنّها لا تقلّ كمالاً عن الشيء الحقيقي.

أجاب پيتر:

ـ لا ليس هناك مايمكن أن يكون بمثل كمال الشيء الحقيقي. والغريب أن أنجح محاكاة تجلب لك لذّةً ملطّفةً ما إن تعرفين بأمرها. وأذكر أن «كانط» قد وصف خيبة الضيوف حين اكتشفوا بعد العَشاء أن البلبل الذي كان يغرّد لم يكن سوى صبي صغير مختبىء في الأجمة.

قال مايكل:

ـ إنها حالة انشداد طبيعي إلى الحقيقة.

قال پيتر:

ـ لا تنفكّ تبدي اليوم الملاحظات الدينية، أليس كذلك؟ أظنّ أنّ عليك أن تتمرّن لأجل عظتك غداً.

twitter @baghdad_library

ـ دور جيمس غداً، حمداً لله. عظتي ستكون الأسبوع المقبل.

قال بيتر ضاحكاً.

ـ افترض أن الخُلُق يقضي بأن يكون المرء هو المبادر، ألا تظنّ ذلك يا توبي؟

أخذوا يعودون أدراجهم وطلب پول من بيتر أن يتكّرم بتصوير دورا. ولم يكن هذا يرغب في أفضل من ذلك، وإذ وجد فرجة في الغابة فقد بدأ بدراسة الوضعية. وأجلس المرأة الشابة فوق حجر مغطّى بالطحلب وبين إصبعيها زهرة.

وقال مايكل لتوبي:

ـ لا يدري پول بالتأكيد ما الذي زجّ نفسه فيه. فعندما يتناول بيتر موضوعاً بشرياً ينصرف إليه عدّة ساعات؛ إنه ثأره من الحرمان الذي تذيقه إياه الطيور على الدوام.

وكانا يسمعان خلفهما ضحك الآخرين وصوت دورا محتجّة. وبدا أنّ مزاج پول كان قد عاد إلى الصفاء. وأحسّ مايكل فجأة بسعادة عارمة وكأنّه جمع حوله كل أولئك الأشخاص بمحض إرادته، وأنه هو المسؤول عمّا كان يسود الأمسية الجميلة من مرح وسذاجة. وكانت كلمة «سذاجة» قد خطرت له بشكل طبيعي، بيد أنّه لم يفتأ يتأمّل فيها. وكان نادراً جدّاً ما يساوره الشعور بالارتياح والاستجمام وهو برفقة الآخرين؛ وإذ حوّل أفكاره بغتة صوب «نيك» فقد بدا له الأسى الذي استتبع ذلك مطهّراً من الشوائب ولطيفاً وعاجزاً عن حطم ما يستحوذ على كيانه من سحر في الوقت الحاضر. ولّما كان يسير إلى جنب توبي متحدّثاً عن كل شيء وعن لاشيء فقد شعر أنّه في إجازة.

قال:

ـ هناك ممّر في هذه الغابة أبعد قليلاً من المكان الذي كنّا فيه منذ برهة،

ويمكن أن تُرى فيه طيور السُبد؛ هل سبق لك أن رأيت شيئاً منها؟

ـ لا! ما أشدّ ما أحبّ رؤيتها! هل لك أن تُرِيَنيها؟

ـ بالطبع. سنذهب للتعرّف عليها ذات مساء من أيام الأسبوع المقبل. إنها طيور غريبة للغاية تجعلك تفكّر بالحري في الساحرات.

وانتهيا بغتة عند خروجهما من الغابة إلى مرج فسيح عند ضفة النهر. ومن جديد انبسط أمامهما المشهد المألوف تضيئه آخر أشعّة الشمس شبه الغائبة بلون أصفر مذهّب وقد اكتست السماء زرقة مخضرّة. وأسفل من ذلك المكان قليلاً نظرا إلى البحيرة ورأيا انعكاسها الملّون بحدّة على المنحدر البعيد والبيت المصطبغْ بلون اللؤلؤ الرمادي في الضياء الكاشف. وفي الخلف كانت الأشجار في مقابل خط شاحب من الأفق تتلقّى الشمس الغاربة، وكانت سنديانة قد مالت أوراقها إلى لون قرمزي تبدو وكأنها تشتعل.

وتوقّفا يستنشقان الهواء بعمق ناعمينْ في صمت بالفضاء العريض وبفسحة الهواء واللون الكبيرة. وعندها ترامت من ناحية البحيرة الأخرى أصوات المغنّين الدقيقة الحادّة مجيباً بعضها بعضاً في دقّة المقطوعة الغزلية الساحرة والعبثيّة قليلاً. وكان صوت كاترين الرنّان الشفّاف يثبّت اللحن ويقوّيه. ولكنهما كانا بعيدين جدّاً ليدركا كلمات الأغنية، بيد أنّ مايكل كان يعرفها جيّداً.

«لّما كانت البجعة البيضاء خرساء طوال حياتها\
فإنها تمدّ حين تحاذي الموت حنجرتها الخرساء\
مسندةً صدرها إلى حافة الشاطيء\
وتغنّي بلا رجعة مرّة أولى وأخيرة»

كانت الأغنية قد إنتهت فبدأ الرجلان بالاتّجاه على مهل نحو رصيف

twitter @baghdad_library

الركوب وهما يتبادلان الابتسام. وكان الجوّ من السحر بحيث يمتنع الإسراع. وإذ أصبحا قرب البحيرة فقد سمعا صوتاً من نوع آخر. ولم يدرك مايكل على الفور مصدر الصوت ثم عرف أنه صوت محرّك نفّاث. وتحوّل الصوت في لحظة من همس إلى رعد مصمّ مزّق الحُجُب. ونظرا فظهرت لهما في سمت السماء فوق «إمبر» أربع طائرات مشعشعة كالملائكة ولا يُدرى من أين جاءت.

وكانت تطير في تشكيل ثم انقلبت فجأة وهي لاتزال متصافّة بشكل متقن وصعدت في خط شاقولي نحو السماء، ثم انقلبت من جديد في حركة شبه بليدة على ظهورها. ثم إنها هوت وهي ترعد مختتمة الدائرة بطريقة كانت من الدقّة بحيث يُخيَّل أنها مربوطة بعضها إلى بعض بخيوط غير مرئية. وبعدها أخذت في الصعود منتصبة على أذيالها في خط مستقيم فوق رؤوس الناظرِيْن. وبلغت عندئذٍ وهي تهدر ذروة بعيدة، وتفتّح التشكيل كالزهرة وتوجّهت كلّ منها في إحدى الجهات الأربع. وفي ثانية كانت قد اختفت تاركة وراءها أربع سحابات من البخار الفضيّ وهديراً متلاشياً. ثم كان الصمت التام. وكان كل شيء قد حدث بسرعة قصوى.

ووجد مايكل نفسه فاغر الفم مائل الرأس إلى خلف وقلبه ينبض نبضات سريعة مسموعة. فقد تركته الضجّة والسرعة وجمال الآلات شبه غائب عن الوعي للحظة. وكان توبي ينظر إليه ثائر الأعصاب هو الآخر ومسحوراً.

وإذ خفض مايكل عينيه فقد أدرك أنه كان قد تشبّث بكلتا يديه بذراع الفتى العارية.

وافترقا ضاحكيْن:

الفصل التاسع

قال جيمس تيپر پيس: «أول شرط مطلوب لحياة نقيّة هو العيش بمعزل عن اعتبار الذات. أتحدّث أيها الأخوة والأخوات الأعزاء مثل شخص مقتنع كل الاقتناع بأنه لا يؤدي هذه المهمّة».

كان اليوم يوم أحد، اليوم التالي للنزهة، وكان جيمس يقف على منصة القاعة الكبيرة مسنداً ذراعه إسناداً خفيفاً إلى قمطر الموسيقى، وكان يلقي خطبته الأسبوعية مقطّباً حاجبيه في ثورة أعصاب، مترجّحاً هنا وهناك، جارّاً معه القمطر.

وأضاف مستطرداً:

«إن دراسة الشخصية، أو بالحري مفهوم الشخصية بالكامل، خطِرةٌ، كما أرى، على النقاء. ولقد قالوا لنا في المدرسة، قالوا لي أنا على الأقل في المدرسة، إنه من الضروري حيازة مَثَلٍ أعلى. وإنها في نظري لبلاهة. فالمُثُلُ العليا أحلام تنزلق بيننا وبين الحقيقة، بينما نحن نحتاج بالضبط أشدّ الاحتياج إلى الحقيقة. وذاك هو الشيء الذي ليس في حوزتنا. فحيثما كان الكمال كانت الحقيقة. فأين علينا إذن أن نبحث عن الكمال؟ ليس في بعض الإعداد الخياليّ المستمدّ من الفكرة التي نكوّنها عن الطبع الخاص بنا؛ وإنما في شيء خارجي جدّاً وبعيد جدّاً لايمكننا حيازته من وقت إلى آخر، ولايمكننا أن نحوز منه سوى إشارة شبه خفيّة.

twitter @baghdad_library

«ستقولون لي بالطبع: رويدك يا جيمس العزيز! إنك تنصحنا بالبحث عن الكمال، ولكنّك تؤكّد لنا أنّ الوصول إليه من الاستحالة بحيث علينا تخمينه لا بلوغه. وبمَ يعود علينا ذلك؟ هناك أمر واقع: لم يشأ الربّ تركنا من غير توجيه. وإلا فكيف فرض علينا الأمر الأعظم: «كونوا كاملين كما هو كاملٌ أبوكم السماوي». (انجيل متّى، الآية ٤٨).

«إننا نعرف بطرق بسيطة جداً، طرقٍ من البساطة بحيث تبدو كامدة في نظر علمائنا النفسانيين الأذكياء المولعين بالأخلاق، ماعلينا فعلهُ وما علينا تحاشيه. إننا نعلم بالتأكيد وبما يكفي، بل بأكثر ممّا يكفي، قواعد الحياة، ولكنّني أعترف بأني أملك قليلاً من الوقت أخصّصه للإنسان الذي يرى أنّ حياته معقّدة جدّاً وخاصّة جدّاً للقبول بالتكيّف مع القواعد الطبيعية للّياقات. فما الذي تدبّره إذن يا صديقي المتستّر؟ هذا ما سوف أقوله لذلك الشخص. إن اعتقادنا بالخطيئة الأصليّة يجب ألّا يقودنا إلى النفاذ إلى عمق أذهاننا الفاسد، ولا إلى اعتبار أنفسنا بالذات خطاة مهمّين وفريدين من نوعنا. فلسنا متباينين أبداً بوصفنا خطاة، وخطيئتنا هي الشيء الذي ينبغي علينا تحاشيه قبل أي شيء آخر، وليست الشيء الذي علينا دراسته. وعلينا تقريباً العمل وكأنّ ذلك قادم من الخارج إلينا، وعلينا أن نكون جديرين بالمبادرة، وأن ننظر إلى الربّ وشريعته. ولا ينبغي لنا أن نأخذ بعين الاعتبار ما يفتننا وما ينفّرنا على السواء من الناحية الأخلاقية، وإنما ما هو مباح وما هو محظور؛ وهذا نعرفه ولكنّنا نتقبّله بصعوبة. ومع ذلك فنحن نعرفه عن طريق كلام الله وكلام كنيسته أيضاً بيقين يعادل في حجمه إيماننا. إن صحّة الأمور ضروريّة ومعالجة الآلام ضروريّة؛ الزنا محظور واللواط محظور. وأرى أنّه علينا أن نفكّر في هذه الموضوعات ببساطة تامّة، على الشكل التالي مثلاً: ليس مشرّفاً أن يكون المرء صادقاً، بل هو أمر مفروض، وليس اللواط معيباً، وإنما هو محرّم. وهذه هي القواعد

الخطيرة التي علينا أن نحكم بها طوعاً على الآخرين وعلى أنفسنا. وأما ماتبقّى فغرور ووَهْم وتملّق للشهوة. والذين يترددون في الحكم على الآخرين هم عادة أولئك الذين يحذرون أن يُحكَم عليهم.

ونذكّر هنا بأقوال القديس بولس - سوف ألفظها باللاتينية ويصحّح مايكل ما يمكن أن أخطىء في لفظه - «بالإيمان سيعيش العادل» (رسائل إلى الغالاتيين، ٣و٢).

«أرى أنه مفروض فينا أن نتقبّل هذه الملاحظة بحرفيّتها. فلسوف يفعل الإنسان الخالص من الشوائب مايبدو له حسناً، ما ترسمه له القاعدة، من غير تفكير في العواقب، وبلا حساب ولا تردّد، عالماً بأن الربّ يجزيه بأعماله الخيّرة. ولن يسعى إلى تغيير القواعد تبعاً لعادات هذا العالم، حتى وإن تعذّر عليه توقّع كيفيّة سير الأمور. وسيكون عليه مع ذلك أن يعمل واثقاً بالله مؤدّياً ماهو الأفضل، مقتحماً تعقيدات الأوضاع، عارفاً بأن الربّ يجزي بخير الثمرات. وأمّا الانسان المجرّد من الإيمان فحيسوب. فهو يرى أن العالم كثير التعقيد فلا يستحقّ أن تؤدّى فيه أشرف الأعمال، وعندئذٍ يبذل فقط مافي وسعه ظانّاً أن ذلك يُنتِج أفضل النتائج في اللحظة المرجوّة. آه! ما أقلّ مَنْ يملكون منّا الإيمان الذي يتحدّث عنه القديس بولس».

بدأت دورا تتعب من هذا القدر من التجريد. وكانت قد أتت إلى العظة لمجرّد الفضول وجلست في آخر القاعة ليتسنّى لها بذلك رؤية جميع الحضور دفعة واحدة. وكان پول جالساً إلى جانبها، الأمر الذي كانت تراه مؤسفاً لأنها كانت ترغب في تفحّصه هو الآخر. وما كانت لتغيب عن ناظريه، وفي لحظة من اللحظات وضع قدمه على قدميها، حتى إنها أحسّت بضغط حذائه الملمّع بعناية من خلال صندلها. ورأت من زاوية عينها تموّج شاربيه اللطيف وحركة رأسه. واحتفظت ببصرها مثبتاً بعزم أمامها وقد بدت مضطربة مهيضة.

twitter @baghdad_library

وعلى الرغم من بعض اللحظات المُرْضية، أي حين كـان دفء النهارات وجمال المشهد يرتفعان بها فوق كآباتها، فإنها كانت عاجـزة عن الاندمـاج في «إمبر». فقد كانت تشعر فيها بأنها ثائرة الأعصاب خجولة، وكأنها تضـطلع بدورٍ ما. ولم يكن ذلك لأنها كانت تبـدي نفوراً من أحـد، بل لأنها كـانت تحسّ بـأن مايكـل وجيمس ـ ولاسيما جيمس ـ مثيران بعض الشيء. فقـد كان الجميع لطفاء نحوها، وماكانت حيـاتها بـالمزعجـة، ولا كان عليهـا أن تنهض حتى لتلبيـة ماكـان يسميه جيمس «النـداءات العاجلة» وهي صيغـة اكتشفت أنّه لا بدّ أنّها تعني «شقشقات الفجر». ولقـد كانت تنـزل بخطوة مطمئنة قبيل دقيقة من موعد الفطور، بل كانت تتأخّـر عنه أحيـاناً فتـذهب عندئذٍ لاختلاس ما تتبلّغ به في الصبيحة من خزانة الطعام. ولم تكن تفعـل شيئـاً طوال النهـار، ومع ذلـك لم يكن أحد ينـظر إليها شـزراً، بـل كـانـوا يتركونها على هواها؛ وكانت السيدة مارك تبدو وكأنها لاتفكّـر فيها، وكـانت تبدي دهشتها حينما تعرض المساعدة في عمـل من الأعمال. وكـان شاغلهـا الوحيد المنتظم خارج تنـظيف غرفتهـا ساعـة اتّخاذهـا زينتها؛ فقـد كان في وسعهـا القيام بهـا في دعة وهي تحلم؛ ولكنّ مـاكـان يضـايقهـا مـع ذلـك إحســاس جديـد أخذ يسـاورها: إحساسها بدونيّتها. وكانت تلك الفكـرة مضافة إلى انتظار الرحيل إلى البيت مع پول عندما ينهي أبحاثه تفكّك أوصالها تماماً. ولم تكن تلك المرّة الوحيدة التي تشعر فيها بمثل هـذه العقدة عـلى كل حـال. فقد كـان شعور مُبهم بمستـواها الاجتـماعي ونقص ممضّ في إحسان العمل مألوفينْ تقريباً لديها. ومع ذلك فإن ماكانت تحسّ به في «إمبر» كان يصدمها صدمة أعمق. وكان قد بدا لها في كثير من الأحيان أن «الجماعة» لم تكن تنزعج، وإن بلا جدوى، وأنها كانت تختلق مناسبـات للحكم عليها، لتحديد مكانتها، وكان الواقع المتمثّل في أنه لم يكن يُنتظر منهـا كبير أمـر ذا مغزى بحدّ ذاته، بل مؤلماً ألماً بالغاً. وكان الإحساس بذلك الحكم الذي لم يكونوا قد تنبّهوا إليه، والذي حدث بشكل شبه عفوي، أكثر إقناطاً أيضاً.

ومن ناحية أخرى فإن توقّعات الهرب لم تكن أسعد. فقد كانت مشتاقة إلى لندن، بيدأنها دهشت لاكتشافها أنها لم تكن بحاجة إلى التدخين ولا إلى الشراب في «إمبر». ولقد توارت في الأيام الأولى للذهاب مرّة أو مرّتين إلى «الأسد الأبيض»، ولكنّ الطريق كانت طويلة والطقس ممضّاً؛ وكانت قد فضّلت أحياناً تذوّق قليل من الويسكي الذي معها في الكوب المخصّص لها لغسل أسنانها. ومالبثت اختلاسات الخمر تلك أن ثبّطت بسرّيتها من عزيمتها. ولم تكن تحبّ من جهة ثانية أن تشرب وحدها. وقد لاحظت بسرور ـ وكان ذلك عزاء حقيقياً ـ أنّها على أثر استنكافها، وبسبب صرامة النظام الغذائي الذي اتّبعته، قد نحلت قليلاً. ولكنّ العودة إلى لندن كانت بعبدة عن أن تكون بهيجة! وكان پول قد بلغ نهاية عمله وأخذ يتحدّث عن الرحيل مدفوعاً بالعزم الواضح على إعادة زوجه معه وإقامتها إقامة عملٍ من أعمال الفن، مُنظّفاً المسرح، مُرتجاً الباب، مُسبلاً عليها إرادته وكأنها قبّة من القباب. ولم يكن أن خطر لها ببال أن تتخلّى عنه من جديد. وبعدُ فقد عادت إليه، وعلى الرغم من أن لقاءهما كان أبعد مايكون عن النجاح فإن الدوافع التي أدّت إليه كانت لاتزال سارية المفعول. وببساطة تامة فإنها لم تكن قادرة على تخيّل رجوعها معه إلى الشقّة المُحْكمة المتلألئة بأوراق الجدران المخطّطة الجميلة وبلوحات «جُوي»، وبالأثاث القديم المصنوع من خشب الأكاجو، وبالتحف الفنية الغريبة تماماً، الكئيبة تماماً. ولم تكن لتستطيع رؤية نفسها فيها، لا لأنها كانت تحضر من جديد لمشاريع أخرى، وإنما لأنها لم تكن ببساطة تؤمن بذلك المستقبل.

ومع ذلك فإنّ مثل هذه الأفكار ماكانت هي التي تشغل بالها في أثناء عظة جيمس. لقد كانت مشغولة بدراسة الأفراد الذكور من الحضور كي تتوصّل إلى معرفة أيّهم الأجمل. وكان ذلكم بالتأكيد الخطيب الحالي الذي كان شبهه بممثّل سينمائي لافتاً جداً بشعره الكثير التعقيص ووجهه الشديد

twitter @baghdad_library

الصراحة، العظيم الوقار! وكان توبي ذلك الذي قسماته أكثر انتظاماً، وسحره أشدّ وضوحاً. وكان مارك سترافورد غريباً بعض الشيء، بيد أن الرجال الملتحين يتمتّعون بامتياز غير عادل، وكان وجه مايكل عذباً إلى حدّ، وكانت ملامحه ملامح كلب حزين، بيد أنّه لم يكن يملك هيئة كافية لأن يكون رجلاً جميلاً حقّاً. وخلاصة الأمر أنها انتهت إلى أن پول كان خيرهم جميعاً، وأنه كان مميّزاً رائعاً على الرغم من خلوّ وجهه من الدعة والإشراق، وأنه كان كثيراً ما يُبدي مزاجه الصعب المراس؛ ولا شكّ في أن السبب هو أنه لم يكن رجلاً سعيداً، ولا شكَّ في أن ذلك سببه ـ ويا للأسف! ـ خطأها.

وتحوّل انتباهها بعد ذلك إلى النساء، وكان عددهن أقلّ بمالايُقاس. ونظرت أول الأمر إلى كاترين الجالسة جانباً في الأمام، وكان من السهل مراقبتها. كانت ترتدي ثوباً رمادياً شديد الصفاء، وقد رأت أنه أنيق إلى حدّ ما، أي ذلك النوع من الثياب التي يمكن لبسها مع قبّعة غالية الثمن لتناول الغداء في لندن، وأمّا هنا فقد بدا على الرغم من كل شيء على قسط من التواضع. وقد اعتنت بتصفيف شعرها فعقصت مقدّمه في خصلة متدنّية معقودة عقداً متيناً؛ وكان شعرها المشدود بحكمة وراء أذنيها لامعاً متموّجاً في إهمال ينمّ عن معرفة. وكانت عيناها مُسبلتين بطريقتها المعتادة المتواضعة والغامضة معاً. وكانت دورا ترى تقوّس حاجبيها، وقوس خدّها المرتفعة، وشموخ أنفها الساحر، وإن محيِّراً، والشحوب الطبيعي الذي يكسو جلدها وقد بدا في هذا اليوم أشدّ شبهاً بلون العاج من أي يوم مضى. ونظرت إليها بإعجاب وبلذّة لم تقلّل منها معرفتها بأن هذه القطعة الرائعة بوجه الإجمال لن تلبث أن تُسحب من التداول إلى الأبد.

واندرها لاوعيها الذي يُصغي على الدوام إلى جيمس بأن المقطع الحالي قد أصبح مهمّاً، فأصاخت السمع. وأوضح قائلاً:

«لايمكنني أن أوافق «ميلتون» عندما يرفض أن يمتدح فضيلة عابرة وسجينة. فالفضيلة والبراءة ينبغي أن تقدّرا مهما كانت حكايتهما. ففيهما إشعاع يضيء ويطهِّر، ولاينبغي أن نخمد نورهما بأحاديث لامعنى لها عن قيمة التجربة. وإنها لفكرة خاطئة أن نعلّم شبابنا البحث عن التجربة. إنه ينبغي علينا بالحري أن نعلّمهم براءتهم والحفاظ عليها: وكفى بها مهمّة، وكفى بها مغامرة! وإذا كنا قادرين على حفظ براءتنا زمناً غير محدّد فإن موهبة المعرفة سوف تنضاف إليها معرفة أعمق وأدق من المُكْتَسبة بطرق تدلّ على ذوق سقيم. ويجب أن تكافأ البراءة في أنفسنا وفي الآخرين، و«الويل لمن يدمِّرها»، كما قال ربّنا نفسه (إنجيل متّى، ١٨، ٧) فما هي إذن علامات البراءة؟ إنها السذاجة ـ كلمة جميلة ـ والإخلاص، والبساطة، وإشعاع لا إرادي تماماً. والصورة المنبثقة في داخلي مثال نموذجي، إنها صورة جرس. فقد صنع الجرس ليُسمَع. فماذا يمكن أن تكون قيمته إن لم يكن ليرنّ قطّ؟ إن رنينه يجلجل بوضوح، وإنه ليحمل شهادة. وهو لايستطيع أن يتكلّم من غير أن يُصدِر نداء، دعوة. فلاينبغي خنق جرس كبير. انظروا أيضاً إلى بساطته. ليس فيه من آلة مخفيّة. كل شيء فيه واضح ظاهر، وإذا تحرّك وجب أن يرنّ.

«وإذا كنا نفكّر هنا طبعاً في جرسنا الخاصّ، في جرس «إمبر» الكبير الذي لن يلبث أن يتمّ دخوله المظفَّر الدير، فلأنّ أفكارنا متّجهة إلى واحدة منّا ستجتاز هي الأخرى بعد مدّة وجيزة البحيرة وتمرّ تحت قبّة المدخل ـ إنها واحدة من أولئك ـ على الرغم من احمرار وجهها، فأنا أعلم أنها ستسامحني ـ اللواتي يجسّدن بكثير من الإشراق الصفات الحميدة التي حدّثتكم عنها، وقيمة البراءة التي يُحتفظ بها إلى أن تتحوّل إلى معرفة وحكمة. ولسوف ترجو ولاريب أن تؤنّبني قائلة إنّي أتحدّث عن البداية كمالو كانت النهاية، ولكنّ الحقّ أن حياة التأمّل طريق بلا حدود، وهي من

twitter @baghdad_library

القابلية للتبديل بحيث يكاد يتيسّر للغريب الكلام عليها لأنّ من يطالب بهذه الحياة التأمّلية لا يرتاب فيما طلب. بيد أننا، نحن الذين لسنا - إذا جاز لي هذا التعبير - إلا من غير المقاتلين، أو إذا كنتم تفضّلون، لسنا سوى رفاق درب لقداسته، ينبغي أن تُسامَحَ على نوبات حماستنا. وفي مثل هذه اللحظة يستطيع هذا القريب حتى أن يشعر بأن عصر المعجزات لم ينته. وسوف تكون معرفة هذه «الجماعة» بأن كائناً انتمى إلينا بكلّيته وكان واحداً منّا فسلك طريقاً مختلفة اهمّ ما أُهِمتْ، بل ربّما أحسم ما قرّرتْ. وعلى الرغم من أننا سننفصل عنها فإنّا على يقين من أنها ستكون قريبة منّا وأنّا سنتلقّى صلواتها ودعواتها. ولم يكن في نيّتي أن أقوم بهذا الاستطراد الشخصي، ولكنّي أكرّر أنّي على يقين من أنّ كاترين العزيزة لن تضطغن ذلك عليّ. وعلاوة على ذلك فإني اعتبر أنْ ليس من سوء في التعبير بهذا الشأن عمّا نراه جميعاً. والآن فإنّ عليّ أيها الأصدقاء الأعزاء أن أختصر تعليقاتي وأن أعتذر في النهاية عن كوني كنت، ويالخشيتي، مفكّك العبارات بشكل قبيح، ومطنباً في الحديث أكثر مما ينبغي».

وقد تعثّر وهو ينزل من المنصّة وبدا متخوّفاً ومنزعجاً مذ أخذ دفق بلاغته في النضوب. وحثّ الأب بوب المجتمعين على الصلاة. وجثا الجميع بعد أن أزّت مقاعدهم وهم يدفعونها. وأحنى جيمس رأسه إلى أسفل إحناءة شديدة ساتراً وجهه على الفور براحتيه الضخمتين. وشبكت كاترين يديها فوق جذعها وأغمضت عينيها، وكان وجهها قد تقلّص من جرّاء انفعال استعصى فكّ رموزه على دورا التي أغمضت عينيها هي الأخرى وقد حزرت أنّ پول لابدّ أن يكون مشغولاً بمراقبتها. وإذ انتهت الصلاة وأُختُتم بانتهائها القدّاس فقد شرع الجمهور القليل بالخروج بلا تعجّل.

وإذ بلغوا الردهة المشمسة فقد استوقفت السيدة مارك پول طارحةً عليه بعض الأسئلة. وابتسمت كاترين التي كانت تسير أمام دورا لجيمس الذي

كان يداعبها الآن بطريقة ماكانت لتكون تقريظيّة. وفكّرت دورا أنه قد كان ثقيلاً بعض الشيء، ولكنّه كان له بالطبع الحق في الاعتقاد بأنه سوف يُسامَح، نظراً لعِظَم إخلاصه وصدقه، وكانت في ضوء تعليقاته مستعدّة لاعتبار ارتباكه شكلاً ملحوظاً من أشكال عفويّته الساذجة. وإذ كان قد هزّ مشاعرها فإنها كانت مستعدّة حتى لتصوُّر أنها تعتقد بالحبّ الأخوي. وقد إبتسمت ابتسامة غامضة وهي تنظر إليه ثم أدركت أنها كانت على الشرفة مع كاترين، إذ كان جيمس قد توارى في القاعة المشتركة.

وكان ردّ فعلها الفوري: «يظنّ أن محادثة صغيرة معها من شأنها أن تجلب لي الخير!» ومع ذلك فقد كانت تنظر إلى الفتاة باهتمام وشبه حنان. ولكي تقول شيئاً فقد صدرت عنها هذه الكلمات: «لقد أحببت قدّاسكم».

وكانت تحسّ برغبة في الذهاب للوقوف في الشمس وبدأت تهبط درجات السلّم. وصحبتها كاترين وهي تقول:

ـ حقّاً؟ إنه بسيط للغاية، ولكنه يلائمنا. الأمر معقّد بالنسبة إلى «جماعة» علمانية لاتملك أيّ نظام. ولقد انبغى اختلاق كل شيء بالتدريج مع تقدّمنا.

كانتا تسيران فوق العشب سالكتين الدرب المفضي إلى السدّ. وسألت دورا:

ـ هل قمتم بمحاولات مختلفة؟

قالت كاترين:

ـ هيه، بالطبع. وكان التدبير في البدء أن يحيي كلّ منا القدّاس الكليّ بطريقته الخاصّة كل يوم، بيد أن ذلك كان جهداً كبيراً جدّاً.

ووافقت دورا التي لم تكن تملك قطّ معلومات عن كنه القداس كاشفةً عن طيب خاطر عظيم، فلا بدّ أن يكون ذلك مزعجاً جداً.

twitter @baghdad_library

وتقدّمتا قليلاً فوق السدّ، وكانت الشمس تعكس ظلّهما في الماء، والقرميدات المحرقة المغطّاة بالطحلب تؤلم قدمي المرأة الشابة المنتعلة صندلاً خفيفاً. وكان الشعور الواضح بخجل كاترين وتوتّر أعصابها يضفي عليها إحساساً بالراحة. فقد كانت تشعر بأنّها أقلّ حيرة، وبأنّها راضية بوجودها مع امرأة تماثل سنّها. وقالت:

- الحرّ شديد إلى درجة يشعر معها المرء بالرغبة في السباحة. ولكنّي لا أحسن العوم، وما أشدّ رغبتي في القدرة عليه. أظنّك تحسنينه؛ جميع الناس تعلّموا إلا أنا.

وردّت كاترين قائلة:

- لاأنزل البتة في الماء. سباحتي سيّئة بعض الشيء، ولا أحبّ أن أسبح. أظنّ أنّ عليّ أن أخشى ذلك، فكثيراً ما أحلم بالغرق.

كانت تنظر إلى البحيرة نظرة كئيبة، فقد كانت في ظلّ السدّ مظلمة مخضّرة، وكانت صفحتها العميقة ملأى بالأعشاب الضارّة والموادّ العائمة.

وقالت دورا وهي تلتفت إلى رفيقتها:

- حقّاً؟ ما أغرب ذلك! لم يحدث لي هذا قطّ.

ولاحظت أن ملامح الفتاة تنمّ عن كآبة، وقادها خيالها الفظّ إلى التساؤل عمّا إذا كانت راغبة حقّاً في دخول سلك الرهبنة.

وهتفت بغتة:

- أنت لا تتمنين حقّاً أن تبقي في المحبس؟ تسجنين نفسك في ربيع العمر وبمثل هذا الجمال! إني لحزينة، فالأمر قاسٍ جدّاً، رهيب جدّاً في الواقع. إن مجرّد التفكير في اجتيازك البحيرة إلى الأبد يؤلمني أشدّ الألم.

وابتسمت لها كاترين بلطف مشدوهة وهي تتأمّلها للمرّة الأولى وأجابت:

ـ هناك أمور لايختارها المرء. لاأريد أبداً أن أقول إنها مفروضة، وإنما ـ أكرّر ـ لايختارها الإنسان. وكثيراً ماتكون هي الفضلى.

وفكّرت دورا وقد ساورها الشعور بالانتصار: «لقد أصبتُ، فهي لاترغب في دخول الرهبنة، وماهذا إلا نتيجة مؤامرة عليها. فمنذ زمن طويل وهم يقولون لها إن ذلك هو طريقها ويدعونها «قدّيستهم الصغيرة»، وهكذا دواليك. وبعدُ فإنّها لا تستطيع من ذلك فكاكاً. إنهم يحشون جمجمتها كما فعل جيمس هذا الصباح».

وكانت تستعدّ لإجابتها عندما حدثت مفاجأة مزعجة جداً. فقد كان پول يتّجه نحوهما؛ إنه لايستطيع تركها وحدها حتى ولو لخمس دقائق! وإذ لمحته كاترين أيضاً فقد انحنت بطريقة تنمّ عن الاعتذار وهي تتمتم بشيء لدورا، ثم استدارت وقطعت السدّ تاركة رفيقتها بلا حراك. واقترب پول منها وقال:

ـ ماكنت أظنّ أني سأجدك.

ـ أودّ لو تتركني وحدي أحياناً. كان لي حديث مهمّ مع كاترين.

ـ كيف لي أن أتخيّل أن لديكما كلتيكما ما تتحدّثان به؟ إن أذواقكما تبدو لي مختلفة جدّاً!

ـ لِمَ عليّ ألاّ أكلّمها؟ أتظنّ أني غير جديرة بذلك؟ هل هناك سبب آخر؟

وأجابها زوجها:

ـ ماكنت أقصد قول ذلك، ولكنْ كان عليك بالطبع أن تفكّري في بعض الأمور غير الملائمة التي من هذا النوع. وإذا كنت ترغبين في معرفة رأيي فاعلمي أنّي أعتقد بأن كاترين تملك كل مايجب أن تملكه امرأة: الجمال والعذوبة والتواضع والخَفَر.

قالت دورا بصوت متردّد:

ـ لست تملك لي أدنى اعتبار.

twitter @baghdad_library

أجاب پول:

ـ بالطبع، لست أكنّ لك أيّ احترام. ماالسبب الذي يدعوني إلى ذلك؟ إني مدلّه بك وياللأسى. هذا كل شيء!

قالت دورا وقد بدأت تصرخ:

ـ إنه لأمر مؤسف لي أيضاً.

قال پول:

ـ أوه! توقّفي، توقّفي!

كانت دورا قد بلغت ضفّة البحيرة الأخرى وأخذت تتقدّم تحت سور الدير. واجتازت أول باب من أبواب حجرات الحديث والجةً ذلك الذي يفضي إلى كنيسة الزوّار.

وقد بدا لدورا فيما بعد أنها كانت قد صفقته بقوّة.

الفصل العاشر

قرّر توبي أن ينتقل إلى الجناح، فقد كان لديه مايكفي من الوقت بين القدّاس والغداء للقيام ببعض العوم في الماء.

وإذ فتح الباب فقد توقّف متسائلاً كعادته عمّا يمكن أن يكون «نيك فاولي» مشغولاً به. وهرع مورفي هازّاً ذنبه مقدّماً إليه قائمتيه. وتكوّر لحظة لصق الرأس الناعم الدافىء ثم انتصب بحيويّة. ولم تكن هناك أية علامة على وجود «نيك»! لابدّ أنه خرج.. واندفع بارتياح في الدرج لارتداء لباس البحر الذي كان قد اشتراه، بناء على إلحاح جيمس، من القرية بثمن زهيد، وتناول المنشفة المنفّرة الموحلة المغطّاة بطين استحماماته السابقة في مياه البحر.

وإذ كان يقفز إلى مصطبة الدرج فقد سمع «نيك» يناديه من الحجرة المجاورة ونظر إليه وهو يوارب الباب: كان في سريره. وماكان ذلك بالغريب، وكان عليه أن يفكّر في الأمر. وسأل هذا مرتفقاً مخدّاته واضعاً رواية بوليسية كان يقرأها:

ـ من الذي جَعْجَعَ هذا الصباح؟

قال توبي:

ـ جيمس. كان مستعجلاً للخلاص.

ـ عظة جيدة؟

ـ أجل، مهمّة جدّاً.

twitter @baghdad_library

كان منزعجاً للكلام على هذه الأمور مع «نيك».

ـ ماذا كان الموضوع؟

أجاب توبي:

ـ أوه! البراءة وسائر الأشياء.

وبدا له بغتة «نيك» الذي كان لايزال في بيجامته بوجهه المنتفخ فوق المخدات وشعره المدهن المفرط في الطول النازل على صدغيه وكأنّه الذئب الذي انتحل شخصية الجدّة في الحكاية الشهيرة من حكايات الجنّيات. وابتسم لهذه الفكرة وشعر على التوّ بأنّه أقلّ انزعاجاً.

ـ سوف ألقي عظة ذات يوم. إنهم لم يسألوني أن أنقّر، ولذا سأكتب عظة لك وحدك.

ولم يدرِ توبي كيف يجيب، وتساءل كيف سيتوصّل إلى التملّص للذهاب وقال:

ـ هل استطيع اصطحاب مورفي؟

ـ إذا كان مورفي يرغب في ذلك فسوف يذهب حتى وإن لم تكن تتمنى ذهابه. وإذا لم يكن راغباً فلن يذهب حتى وإن كنت تتمنّى ذلك.

كان ذلك صحيحاً إلى حدّ كبير، وقد أجاب توبي قائلاً: «حسناً» ورفع يده بعناء في سلام مبهم. واستمرّ «نيك» في مراقبته وهو يرحل.

وإذ تحرّر توبي فقد هبط درجات السلّم رُباعَ رُباعَ واجتاز المرجة المعشبة وهو ينادي مورفي الذي بدا عازماً على اللحاق به. وكان قد حمل معه في طريقه إلى «إمبر» معدّات الغطس، القناع وجهاز التنفس، آملاً في أن يجد فرصة ما لاستعمالها. ولم يكن الوكر المائي الذي سبح فيه آخر مرة يبدو له قعر على الرغم من صفائه العذب، وكان قد قرّر استكشاف الجزء القائم خلف الدير من البحيرة. ثم إنه كان قد لمح من فوق السدّ نوعاً من

شاطىء محصب على جانب القصر المطلّ على البحيرة فعزم على التعرّف عليه قبل الغداء والعودة إليه فيما بعد لمدّة أطول. ولم يكن يودّ الاستعجال في اكتشافاته مفضّلاً ألاّ يستنزف بسرعة أسرار الملكّية جميعاً.

سلك طريق المعبر يتبعه الكلب الذي قفز بشجاعة إلى العمق مرجِّحاً القارب وهو يغرز قوائمه في طرفه. وإذ بلغ الضفة الأخرى فقد شرع يركض فوق مرجة العشب غير الظليلة القائمة بالقرب من القصر ليصل إلى نهاية السدّ سالكاً الدرب نحو الغابة. فقد كان مستعجلاً القفز في الماء، ولم يكن يشغل باله أن يتأخّر عن ذلك بفعل لقاءٍ ما. وبينما هو يقترب من الغابة لمح الدكتور غرينفيلد تصحبه زوجته. وكان يبدو أنهما يتشاجران، وقد انحرفا راغبيْنِ في تحاشيه على مايظهر وسلكا الدرب المفضي إلى حديقة الخُضَر. وما إن نفذ إلى الغابة حتى أخذ يركض أسرع فأسرع قافزاً ـ كان يفعل ذلك الآن لمجرّد اللعب ـ فوق حافات العوسج الطويلة وتلاع العشب التي كانت تسدّ الدرب. ولم يكن ليخطر على بال أحد بالطبع أن يسلك هذه الطريق الوعرة.

كانت الضفّة التي يفصل بينها وبين الماء أجمة من ورق الشجر تتعرّج عبر نفق مبقّع بدوائر الشمس والانعكاسات على صفحة المياه. وكان الكلب الذي أوغل عميقاً في الغابة يركض بحذاء سيّده لذلك اليوم، وكان هذا يسمع تخبّطه خلال الأدغال وحفيف جسمه على الأوراق الميتة. وانتهى الأمر بتوبي اللاهث من التعب إلى التخفيف من سرعته، فتوقّف وأخذ يتأمّل المكان الذي ليس في الوسع انتهاكه. وكانت هناك غابة مماثلة من الجهة المقابلة. ومع ذلك فقد فكّر في مدى ما ينبغي أن يكون اختلاف الأمور هناك. وتساءل عمّا إذا كان في الجهة المقابلة دروب منظّمة تتمشّى فيها الراهبات وهنَّ مستغرقات في التأمّل ويجرّرن أذيال أثوابهن فوق جوانبها المخضوضرة. وإذ كان يتقدّم فقد لمح

twitter @baghdad_library

بغتة اثنتين منهن. وجمد في مكانه متسائلاً عما إذا كان مستتراً بما فيه الكفاية. وسلكت الراهبتان ما ينبغي أن يكون درباً غير بعيد عن الماء. وكان يسترهما بشكل خفيف مع الأدغال قصبات عالية، بيد أنّهما كانتا تبرزان من حين إلى آخر في ضوء الشمس. وكان في مُكنته أن يرى تنّورتيهما المشمّرتين قليلاً كاشفتين حذاءيهما السوداوين المتينين وهما تسيران بخطى حثيثة بالقرب من الشاطىء. وكانت كل واحدة ملتفتة صوب الأخرى وكأنهما تتحدّثان. وماهي إلا لحظة حتى سمع ضحكة إحداهما وكانت واضحة وضوح رنين جرس. ثم إنهما انفصلتا واختفتا في العتمة.

وأثارته تلك الضحكة بشكل غريب. وماكان هناك بالطبع من سبب يمنع الراهبات من الضحك، ومع ذلك فإنه لم يكن قد تصوّر يوماً أن ذلك ممكن! وفكّر في أن مثل هذا المرح ينبغي أن يكون رائعاً وأفضل أشياء هذه الدنيا. أفلا يكون النقاء والفرح أشدّ ما تطمح إليه النفس البشرية من المصائر؟ وإذ كان يفكّر في ذلك فقد تذكّر الأقوال التي ألقاها جيمس في الصبيحة؛ إن تعريفه البراءة كان ولا شكّ موجّهاً إليه بشكل من الأشكال. ولم يكن في مقدوره بالطبع الزعم على غرار كاترين بأنه احتفظ ببراءته وحمى ذِمارها. ولقد أصاب الكهل جيمس تماماً بصدد تلك الشابّة وخصلتها الحميدة الفريدة: وأما هو بالذات فإنه لّما يوضعْ على المحكّ، ولكنّ ما قاله الرجل عن المهمّة المعقّدة بشأن الاحتفاظ بالبراءة صحيح أيضاً. ومع ذلك فإنه أخذ يفكّر. أيكون الأمر حقاً صعباً جدّاً إذا كان المرء «واعياً» كل الوعي؟ وإنّ ما يعتري الشباب في أيامنا من قلق شديد مردّه إلى أنهم غير «واعين». ويبدو أنّهم يجتازون شبيبتهم وكأنّهم مسحورون، أوكأنّهم في حلم. وكان توبي من ناحيته واثقاً بأنه متيقّظ. وكان يعجب كيف يمكن القول إنه ليس في وسع المرء في هذه السن أن يدرك لذّة الشباب! وكان هو قد أدرك ذلك وفهمه جيّداً وهو يسير بحذاء الماء وقميصه مبلل بالعرق وقد

تصاعد إلى أنفه فَوَحان البحيرة البارد. وكان مسروراً لأنه جاء إلى «إمبر»، فرِحاً بأنه محوط بأولئك الأشخاص الذين هم من خيرة الناس، شاعراً بعودة إيمانه إليه، مُفعماً بالعرفان بالجميل للربّ. كما كان يسوده الاقتناع بالقدرة شبه المبهمة المحفورة في ذاته، قدرة نيّاته الصافية الصادقة. وربما كانت تلك ما يعنونه بقولهم الرحمة. «ما أنا، بل المسيح في ذاتي». وفيما كان يفكّر في بهجة الراهبتين المباغتة وهما تضحكان على ضفاف الماء أحسَّ بحبور بدا له بدنياً وروحياً معاً، رافعاً إياه من الحضيض تقريباً. ومن يكن في مثل هذه الغمرة لا يكابد عناء في أن يكون نقيّاً.

وكان وهو يفكّر قد خفف من سيره، ثم أدرك أنّه وصل. ولاحظ باهتمام أنّ ماكان يعتبره شاطئاً محصباً لم يكن سوى منحدر عريض مليء بالحجارة يؤدّي إلى الماء. وأوحت إليه بعض الأرومات اليابسة وراء البحيرة خلف رصيف الركوب أنّ رصيفاً خشبياً عائماً كان موجوداً قديماً ولاريب، ولكنّ الأعشاب الحمقاء كانت قد غطّته برّمته. ووجد فيه آثار حجارة وحصى، وفي وسطه درباً عريضاً يعود بسالكه إلى الغابة. ورمى إلى الأرض بعتاد السباحة وسلكه. ورأى أمامه بعد لحظة نوعاً من بناء بدا أنه هِري قديم جدّاً في حالة تداعٍ وقد سقط جزء من السقف الذي كان مبنيّاً قديماً بالقرميد، وكانت عوارضه المصنوعة من خشب السرو بقشورها وأغصانها المشرّمة ماتزال تُرى من جهة واحدة وتنتصب عند أحد الأطراف باتّجاه القباب الضامرة الفارغة. وكانت الجدران مبنيّة بحجارة سميكة مقطّعة مربعات بشكل مضحك ومكّدسة إحداها فوق الأخرى من غير مِلاط. وتصوّر أن هذا الطلل يعود إلى القرون الوسطى، واقترب بحذر من المدخل الفاغر ونظر. كان هناك باب ضخم ينفتح من الجهة الأخرى على المرج، بيد أنّ الداخل كان مريعاً وخالياً إلا من بعض الأكياس والصناديق. ولم يكن هناك من صدى، وكانت الأرضية الخشبية المنخورة قد غدت صلبة

twitter @baghdad_library

كالإسمنت، وإن كانت مشقّقة هنا وهناك تحت الجزء المهترىء من السقف بفعل الأعشاب والنباتات الشائكة. وإذ رفع عينيه إلى أعلى فقد رأى العارضات السميكة جدّاً وقد صُنع كلٌ منها في الزمن البائد من أرومة سنديانة قوية. وكانت نسائج عنكبوت لا تُحصى متداخلاً بعضها في بعض راسمة نقوشاً محوكة تحت هيكل السقف الخشبي. وكان شيء ما فوق، ربما كان خفّاشاً، يتحرّك في العتمة. وأسرع بالخروج من الجهة الثانية.

واتّجه صوب فرجة المرج الكبيرة التي كان قد لمحها خلل الأشجار. وكان في نهايتها درب مزفّت يُستعمل ولاريب لنقل حطب الوقود يتعرّج بحذاء الغابة باتّجاه القصر؛ ولابدّ أن الهِري كان يقوم قديماً عند حافة المرجة، بيد أنّه هُجر لمّا استحوذت عليه الغابة في الوقت الحاضر، وأصبح عديم الجدوى. وإذ أثاره اكتشافه فقد قفز إلى الوراء نحو الشاطىء نشِطاً بمنظر الشمس على امتداد الدرب. ووجد موروفي مُقعياً فوق الطَوْف حارساً له أغراضه ولسانُه الكبير مدلّى في الحرّ مُظهِراً الوجه الصبور لكلب منهوك القوى.

كان برد قارس قد أصاب توبي في الهِري فدفّأته الشمس بتفانٍ تامّ. ونظر إلى الماء مأخوذاً برغبة جامحة في أن يُلقي بنفسه فيه، وإذ رمى ببصره عبر البحيرة فقد رأى أنّ الأرض المقابلة كانت خارجة عن أراضي الملكية. ولّما كان قد سمع أنّ السباحة محظورة قبالة السياج فقد قرّر بدافع الخوف من إمكان أن يُرى من وراء الأسوار أن ينزل إلى الماء ابتداء من المنحدر فقط. وكان يحبّ هذا المكان، ولم يكن راغباً في الذهاب إلى أبعد منه؛ بيد أنّه خيّل إليه وقد نظر عن كثب أن الحافّات كانت تزداد وحلاً واكتساء بالأعشاب الفاسدة، وأنّ طرف البحيرة كان في حال استنقاع مُنفِّرة. وخلع ملابسه على عجل وتمدّد في الشمس قبل أن ينزل إلى الماء. ودفّأته الشمس حتى الأعماق. وحاول في البداية الانبطاح على بطنه، ولكنْ لمّا لم يكن

الجسم البشريّ منذوراً لمثل هذا الوضع فلا عنقه ولا ذقنه استطاعا الاستلقاء براحة على الأرض. وعاد إلى وضع طبيعي واستند إلى مرفقه. وأراد مورفي أن يساعده في هذه الجلسة التي تبدو أكثر إغراء فوضع رأسه لصق كتفه. وإذ أصيب بنوع من النشوة البدنية فقد انتصب متلقّفاً البهيمة بذراعيه متكوّراً فوقها كما كان قد رأى صاحبها يفعل. وكان الإحساس بهذه الفروة الناعمة لصق جلده غريباً ومثيراً. وظل جالساً زمناً بلا حراك ناظراً إلى غور البحيرة الذي كان عميقاً جداً ناحية رصيف الركوب. وفجأة لمح سمكة كبيرة تتلوّى حيث كانت الشمس تنفذ إلى الماء المخضرّ. وإذ كانت طويلة دقيقة ذات شدق حاد فقد عرف أنها زُنجور، وأحنى رأسه إحناءة خفيفة فوق ظهر الكلب وأخذ يراقبها في وداعتها. ثم إنه أغمض عينيه تاركاً حرارة البحيرة اللاهبة تنفذ عبر أهداب جفونه. وشعر بسعادة كان في وسعه أن يموت تقريباً من شدّتها مدعوّاً من قِبَل نعاس الشبيبة الذي يخدِّر فيه رغدُ العيش والفرحُ وغيابُ المشاغلِ الروحَ في عَدَمٍ سعيدٍ لذيذٍ إلى حدّ أنَّ الاستيقاظ لا يكون أقلّ منه سعادة، وأنَّ الوعي يتلاشى بهدوء وهو شبه مشبع باللذة.

استيقظ وأزاح مورفي. وكان على يقين من أنّه لم ينم سوى لحظة، بيد أن صبره على السباحة كان قد نفِد، وبدا أن جسمه الملتهب ينشّ وهو يغطس في الماء المثلّج. وكانت السمكة قد رحلت، وكان الماء الغزير يموج عند أسفل المنحدر، ولم تعُد تُرى الحجارة التي لا لون لها. ومع ذلك فإنه لا بدّ أن يكون هناك مكان يمكن السباحة فيه، ولكنّ العتامة كانت أكثف من أن تسمح بالرؤية. وتوقّف متوازناً باحثاً، وكان وَسَطُ البحيرة متلألئاً. وكانت صورة التلاع الخضراء على ضفافها تنعكس في الماء، وكانت الألوان الصافية، وإن مشوّهةً في هذا العالم المعتم، وسحرُ السباحة في المياه الهادئة تُشعِر بأنها تجتاز مرآةً وتنفذ إلى مكان آخر يتكوّن تحت جذور هذا فتزعجه. وسار خطوة أو خطوتين ثم اندفع بعنف.

twitter @baghdad_library

سبح لحظة بهدوء منتظراً أن يغوص لتكدير الأمواج، وأن تعود صفحة الماء إلى التشكّل مثل غطاء من حرير ماسّاً ذَقنه جالباً لجسده المغطّى الإحساس اللذيذ بأنّه دافيء داخل الماء البارد. وكان كأنّ حجاباً فضّياً يغلّفه ويدغدغ أطرافه. وعاد فتمدّد مثل سمكة ملقاة فوق المنحدر ورأسه وكتفاه خارج الماء شاعراً بأن جلده قد جفّ على الفور تحت الشمس اللافحة. وعاد فغطس. وكان من الصعب البقاء تحت الماء إذ كان القناع يعوم والحجارة الكثيرة تؤلم اليدين. ولم يكن يرى شيئاً تقريباً، بيد أنّه كان يخمّن أنّ المنحدر يمتدّ عدّة أمتار تحت السطح. ورمى بالقناع والخرطوم وراء ظهره وغاص من جديد محاولاً بلوغه. ومالبث مورفي أن انضمّ إليه سابحاً حوله في كبرياء حريصاً على إبقاء قوائمه المكسوّة بالشعر والجزء الأكبر من لحييه بعيداً عن قِراع الماء.

كان منزعجاً لشدّة الظلام المانع من رؤية شيءٍ ما، بيد أنّه عزم على الغطس والبحث عن النهاية قبل بلوغ القرار. وكان يجهل مدى مايمكن أن يكون عمقه الحقيقي في هذا المكان؛ ولكنْ ما همّ فقد كان سابحاً تحت الماء مجرَّباً. واندفع من غير أن ينتظر، وإذ فتح عندها عينيه فقد رأى أشعة الشمس الصفيقة النافذة إلى الماء وحَجَر المنحدر الشاحب المبقّع بحركة التجاعيد الخفيفة على السطح وماهي إلا لحظة حتى غاب الطَوْف في الوحل. وبعد أن دسّ يده في الطين سحبها بقوّة وصعد إلى السطح مرّة أخرى. وبالإجمال فإنّ البحيرة لم تكن قطّ عميقة.

سبح أبعد قليلاً، ثم غطس أيضاً فعثر على قعر البحيرة الناعم. وفتح عينيه ولكنْ لم يكن هناك ما يُرى باستثناء وميض أخضر شديد الدكنة. وقد فتنه مع ذلك فشقّ النسغ الناعم بيديه وترك نفسه ينزلق. كان ذلك لطيفاً جداً، في مثل عذوبة الماء تقريباً، ومع هذا فقد كان موحشاً قليلاً. وماذا لو اكتشف جسماً، شكلاً بشريّاً نصف مدفون في هذا المستودع العميق

القديم؟ وإذ كان يخشى هذه الفكرة فقد صادفت يده شيئاً قاسياً جافّاً. وخاف قليلاً فصعد وسبح في دائرة صغيرة وهو يلهث. وكان قد بقي طويلاً تحت الماء. واستعاد أنفاسه. وأمّا الشيء الذي لمسه فقد كان ولاريب إبريقاً قديماً من القصدير. وتفحّص يديه للتأكّد من أنهما كانتا سليمتين، إذ هو يعرف بالتجربة أنّه من السهل أن يُجرح المرء جرحاً بالغاً تحت الماء من غير أن يدرك ذلك. ولم يرَ أيّ خدش. وكان الوقت تقريباً وقت الرجوع للغداء.

وأراد أن يغطس للمّرة الأخيرة ليعرف ما الذي أمكنة لمسه، وغاص مثل شاقول فاتحاً عينيه مادّاً يديه على مداهما فوق القعر. وأزاح الطين قليلاً فشعر بانعكاس شديد على السطح. ووضع يديه أسفل ودفع. وكان الشيء، مهما يكن كنهه، عريضاً جداً ولاريب. وغائصاً عميقاً في الطين. وغدا الماء الذي كثّفه تكدير القعر صفيقاً للغاية. وكان يمسك بالشيء بيد ويكتشف بالأخرى، وأحسّ بحافة سميكة بشكل قوس وقد ارتفعت فوق الطين. لابدّ أنه إناء كبير، ومع ذلك فإن القوس بدت له عريضة جداً. ربما كان خلقيناً قديماً؟ ولمس بحذر السطح الخارجي الذي قد يكون متآكلاً من الصدأ أو من بعض نباتات مائية، وعاد من جديد إلى السطح وقد انقطع نَفَسُه مرة أخرى.

وإذ كان الآن يسبح وهو يتنفس بهدوء فقد سمع خلال أراضي الدير صوت الجرس اليدوي يقرع لصلاة الأصيل. وكان ذلك يعني أن عليه الذهاب على الفور إن لم يكن يريد الركض طوال طريق العودة. ومع ذلك فقد غطس للمرة الأخيرة ليحاول نبش لقيّته. وتمكّن من ذلك بسرعة وعاد يهيل الوحل حواليها ممسكاً الحافة الكثيفة بيد واحدة. وبدا أن الجزء الأعلى عام بسهولة كبيرة، ولما كان الجزء الذي يتشبّث به هو الأعرض فقد كان في مقدوره الآن أن يحسب حجمه. وقد بدا الشيء دائرياً، ولكنّ الجانب

twitter @baghdad_library

الأسفل كان لايزال غائصاً، وكان الداخل يبدو أجوف متناقص العرض كلما انحدر إلى العمق. وتساءل عمّا إذا لم يكن ناقوساً كبيراً. ثم كان عليه أن يصعد من جديد مبهور الأنفاس.

وسبح حتى المنحدر ثم استراح عليه لحظة. لقد كانت الأبحاث شاقّة جدّاً. وتناول ثيابه بيده المبلّلة، وأخرج ساعة يده من جيب بنطلونه. يالله! ما أكثر ما تأخّر الوقت! واندفع سريعاً خارج الماء وجفّف نفسه على الفور وأخذ يرتدي ثيابه، لقد كانت تلك الحملة رائعة. ولسوف يكرّر ذلك بالتأكيد؛ وسيكون مسلّياً جدّاً استكشاف أعماق الماء لتقدير هذا الاكتشاف على الرغم من أنه لاينطوي في الظاهر على فائدة. ومهما يكن فقد عزم على عدم مشاطرة أيّ كان جمال هذا المكان الساحر، وعلى إبقائه له وحده.

الفصل الحادي عشر

كان جيمس هو الذي أشار على مايكل باصطحاب توبي لإحضار الجرّار.

فعلى الرغم من انقضاء عدة أيام على اتّخاذ القرار، ومن أنّ مايكل كان يصبو بفارغ الصبر إلى دُمْيته، فإنّه لم يكن قد وجد حتى الآن الوقت للقيام بالرحلة. ولقد صمّم على الذهاب هذا الأربعاء عند الأصيل مهما كلّف الأمر وأعدّ بالتلفون الترتيبات اللازمة وهو يعلم أنه سيصل بعد ساعة إقفال المحلّ. وكان المدير المهتّم بكسب زبون حسن قد وعد بانتظاره شرط أن يصل قبل الساعة السابعة.

ولقد سأله جيمس وهما يعملان معاً في المكتب:

ـ لماذا لا تصطحب الفتى توبي؟ إن ذلك سيتيح له رؤية جزء من المنطقة؛ وهو يستأهل ذلك، فقد عزق في المدّة الأخيرة مثل زنجي.

وبدت الفكرة رائعة لمايكل الذي لم تكن قد خطرت له في بال. وما إن أصبح على أهبة الذهاب حتى ذهب باحثاً عن توبي في حديقة الخُضر حيث وجده يعزق أرض ملفوف بروكسيل بصحبة پاتشواي. وكان هذا يقول للبستاني المبتدىء:

لا تعالجها بمثل هذه الدقّة، اضرب حواليها فذلك يحسّن أوضاعها.

وانتصب توبي ليسلّم على مايكل، وكان ملفوحاً جداً بالشمس لامعاً

twitter @baghdad_library

بقطرات العرق فيما كان پاتشواي العاري الجذع يعتمر القبعة الرخوة الأبدية.

وقال مايكل مخاطباً پاتشواي:

ـ جئت أعرض على توبي أن يصحبني إلى «سوندن» فتتاح له فرصة التنزّه، هذا إذا لم يكن لديك مانع؟

وأطلق پاتشواي نخرة موافقة وهو ينظر إلى توبي الذي هتف:

ـ ما أشدّ ما أودّ ذلك إذا كان ممكناً!

وسأل مايكل:

ـ ألم تُثر الحمائم قلقك حتى الآن؟

ـ لماذا بالله تثيره؟ إن لهذه الكائنات الصغيرة اللطيفة ما يكفي لغذائها في الوقت الحاضر. ولكن سوف تراها بالمقابل عندما يُقبل البرد.

ركض توبي لتبديل ملابسه وظلّ مايكل مع پاتشواي في حديقة الخُضر؛ وكان هذا يتمتّع بما يتمتّع به الفلاحون ويُغبَطون عليه ويشاركهم فيه كبار الممثّلين وحدهم من قدرة على البقاء صامتين، وعلى أن يكونوا مع ذلك حاضرين أقوياء ناعمي البال.

وإذ انتهى ذلك التواصل الأخرس فقد ذهب مايكل لإحضار سيارة اللاند روفر من المرآب وأوقفها أمام البيت. ولسوف تكون على قدّ الجرّار وإن كان يفضّل أخذ الشاحنة الكبيرة، ولكنها كانت لاتزال في حالة سيئة بانتظار تشخيص «نيك فاولي» الذي لم يكن قد تنازل بعدُ لفحصها. وكان نوع من الاختلال في الإدارة ناتج عن نقص في الوقت أو في الأهلية يسود القصر. وكان مايكل يعرف جيداً أنّ عليه التأكّد من أنّ متطوّعهم الجديد المخيِّب للآمال سيهتمّ بها، وإلاّ ذهب لإحضار ميكانيكي القرية، ولكنّه كان يزيح دائماً هذه المشكلة، وظلّت اللاند روفر المحمّلة بشكل خطِر توصل الخُضَر إلى «پاندلكوت».

كان يشعر باضطراب، وإنْ يكن على خير مايرام من التأهّب. وكان يعقد أملاً كبيراً على آلته التي ستوفّر إلى حدّ كبير أشقّ الأعمال وتسمح خفّتها بأن تستعملها النساء، أن تستعملها مارغريت على أيّ حال لأن كاترين كانت على أهبة الرحيل قريباً، أو أي شخص يأتي للانضمام إلى «الجماعة». وانقبض قلبه قليلاً لاحتمال مجيء أعضاء جدد من الجنس الضعيف، ولكنّه لاحظ أنّه كان قد استخدم بشكل نافع الاثنتين الموجودتين في الوقت الحاضر. وكان توسيع «الجماعة» أمراً أساسياً من كل وجهة، وكان الخوف المساور عند ولادة الزمرة قد تطامن من زمن بعيد. ولسوف يتّخذ المكان بفضل مساعدين جدد واقتناء بعض الآلات شكل وحدة اقتصادية سليمة وتبلغ الترتيبات الشفوية آجالها، وإن تكن حافلة بنوع من السحر على طريقة روبنسن كروزو. ولم يكن قد ذهب إلى أبعد من «سيرنسستر» منذ أسابيع، وكان يشعر بلذّة صبيانية لمجرَّد التفكير في القيام بجولة في مدينة كبيرة بصحبة توبي، ولا سيما أنّه لم يكن هو نفسه الذي أوحى بذلك.

استغرقت الرحلة التي لم ينفكّ رفيقه خلالها يطرح الأسئلة عن المنطقة المجتازة أكثر من ساعة بقليل. وقد توقّفا وقفة قصيرة في قرية لزيارة كنيسة، وما إن وصلا إلى «سوندن» حتى هرعا إلى المحل لتسلّم الآلة المغلّفة المهيّأة للتحميل. وأقاما الآلة الرائعة في مؤخّرة اللاند روفر بمساعدة البائع وربطاها ربطاً محكماً كيلا تزيح من مكانها تحت وطأة الارتطام في طريق العودة. وكانت تشبه دُمية كبيرة بعجلاتها الصفراء المكسوّة بالمطّاط، الخارجة عن الحدّ تحتها، وبشكلها المربّع الأحمر اللمّاع الذي مزّق الغلاف عند كل زاوية من زواياه. وكانت يدها المنفصلة إلى قطعتين توجّه قرنيها الشبيهين بقرني غزال إلى الأمام ماسّة سقف السيارة بين مقعد السائق والمقعد المجاور. وإذ كان مايكل جالساً بمأمن فقد أخذ يتأمّلها بإعجاب على الرغم من انزعاجه لمعرفة أنّ توبي الذي كان طموحه في الوقت الحاضر

twitter @baghdad_library

أن يقود الجرّار كان يشاطر مع ذلك پاتشواي الرأي بأنّ هذه الآلة تصلح تماماً لبعض النساء.

واقترح مايكل:

ـ ماذا لو ذهبنا لتناول شيء من الطعام؟

كان انطلاقهما المستعجل سبباً في حرمانهما من وجبة الشاي الشهيّة، وكان الحل يبدو في بضعة سندويشات يتناولانها في نُزُل ريفي ما. وتذكّر مقصفاً ريفياً لطيف المظهر قائماً خارج المدينة بقليل على طريق العودة.

كانت الساعة حوالي السابعة والنصف عندما دخلاه. وكان النُزُل أكثر أبّهة ممّا يذكره عنه، ولكنّهما توجّها إلى البار الذي كان قد احتفظ بزينته القديمة من خشب السنديان المسودّ وبمقاعد مرتفعة من الخشب بجوار أخرى من الجلد الأحمر الحديث؛ وكانت الستائر من القطن المطبّع بأقداح البيرة وأكواب الكوكتيل؛ وكانت القناني تتراءى بمرح خلف الكونتوار الذي ارتفقه عدد من السادة ذوي الوجوه المنتفخة البهيجة الذين كانت بِذَلُهم المصنوعة من قماش التويد تجعل من الصعب الحكم بما إذا كانوا مزارعين أو صناعيين. وأجلس توبي في مقعد عريض وثير قرب النافذة ـ الأمر الذي استدعى انبساطه ـ فكان بإمكانه مراقبة اللاند روڤر المتوقّفة في الفِناء مزوّدة بحِمْلها النفيس. وقال لرفيقه:

ـ إنه لعمل غير قانوني تقريباً قمتُ به بإحضارك. عمرك ثمانية عشر عاماً، أليس كذلك؟ بالتمام؟ آه، حسناً! الحاصل! يمكن أن تسير الأمور على كل حال. والآن ماذا تودّ أن تشرب؟ ربما شيئاً خفيفاً ليّناً؟

أجاب توبي مستاء:

ـ أوه، كلا. أودّ أن أشرب أي شراب محلّي. بأيٍّ تنصحني؟

ـ أعتقد أنّه ينبغي أن يكون نبيذَ التفّاح من صنع مقاطعة الغرب. أرى

أنه شراب هؤلاء المتعوّدين. إنه قويّ بعض الشيء. أتريد أن تجرّبه؟ حسناً جدّاً، ابق مكانك، سأذهب لإحضار السندويشات والمشروب.

كانت السندويشات شهيّة مصنوعة من خبز طازج ومليئة بشرائح الروزبيف؛ وتبعها المخلّل والخردل وشرائح البطاطا المقليّة. وكان نبيذ التفاح مذهّباً حِرّيفاً وإن من غير مرارة، ولكنّه كان قويّاً جدّاً. وجرع مايكل جرعة كبيرة من هذا الشراب الذي كان مألوفاً لديه منذ صباه. وما أكثر ما أثاره طعمه من ذكريات سعيدة! وسأل توبي:

ـ هل هذه منطقة الغرب؟ لطالما ظننت أن «سوندن» لم تكن بعيدة جداً عن لندن. ولكن ربما كنت أخلط بينها وبين «سلوف»؟

وأجاب مايكل:

ـ إنها بداية منطقة الغرب. هذا ما ظننته دائماً على الأقلّ. ونبيذ التفاح هذا دليل على ذلك. إني من مواليد المنطقة. أين ترعرعت يا توبي؟

أجاب هذا:

ـ في لندن. لوددت لو كان في مكان آخر. لوددت على الأقل لو كنت طالباً في قسم داخلي.

وتحدّثا بعض الوقت عن صباه، وبدأ مايكل يحسّ بسعادة كان قميناً معها برفع عقيرته لو لم يتحرّز للأمر. ولم يكن قد دخل باراً منذ دهر. ويبدا له وجوده بصحبة هذا المراهق، وشربه نبيذ التفاح، تسليةً هي من الكمال بحيث لم تدع في نفسه ملاذاً لرغبة أخرى. وفكّر بشكل غامض في أنّ الموقف كان غير طبيعي، وأنّه لم يكن قد رفضه بالطبع، ولكنّه لم يسعَ أيضاً إليه. ومع ذلك فإنّه لم يلبث أن وعى جيداً في أثناء بشاشته مافاته من فرص، وجميع ما ضحّى به طوال حياته، ومرَّ في خياله مشهد كثيراً ما كان يراوده في وقت من الأوقات وأصبح نادراً مع ذلك الآن، مشهد الحجرة

twitter @baghdad_library

الكبيرة في «إمبر» وهي مفروشة بالسجاجيد، غاصّة بالأثاث، مزيّنة الجدران بمرايا مذهّبة، ومشهد لوحاتها القديمة في أطُرُها الثمينة، والبيانو الكبير القائم في زاوية، وصواني تقديم الشراب اللطيفة المنظر الموضوعة فوق طاولة. بيد أنّه حتى هذه الصورة لم تقلّل من لذّته: فلأن يعرف المرء بوضوح ما يحيط به، ويعلم ما يكسبه من ذلك، ولكنْ من غير أن يُبدي ندماً ولا أسفاً، ولأنْ يعود فيرى من غير اشتهاء أمكنة السعادة المفقودة، ويذوق السعادة العابرة بلذّة لا تجهّمها معرفته بقِصرها، فذلكم هو الحبور، وذلكم هو بالتأكيد الاستقلال.

وسأل الفتى:

ـ ماذا تحب أن تفعل عندما تغادر الكلّية؟

أجاب:

ـ لست أدري. أن أكون مهندساً بالتأكيد. ولكنّني والحقّ يقال لا أعرف بالضبط ماذا أريد. لا أظنّ أنني أرغب في الذهاب إلى الخارج. الحقيقة أني أرغب ـ بيني وبينك ـ في أن أفعل شيئاً كالذي تفعله أنت.

ضحك مايك وقال:

ـ ولكنّي لا أفعل شيئاً يا ولدي العزيز؛ أنا هاوٍ في كل الأمور.

استطرد توبي قائلاً:

ـ إنك تعمل. أريد أن أقول إنك قد ابتدعت في «إمبر» شيئاً رائعاً. لأودّ أن أكون قادراً على محاكاتك. أعلم جيّداً أني لا أستطيع قطّ أن «أفعل» ما تفعل، ولكنّي أتمنّى أن أكون في تنظيم بمثل هذا النقاء وهذا البُعد عن العالم الحديث.

انفجر مايكل ضاحكاً من جديد، واستمّر النقاش وقتاً لا بأس به في موضوع ذلك المنفى المعزول عن العالم. وقد كان، ولكن من غير أن يظهر عليه، منفعلاً جدّاً وأسِفاً بعض الشيء للإعجاب الواضح الذي يكنّه له

هذا التلميذ اللطيف. فقد كان هذا ينظر إليه على أنه مُرشد نفوس. وعلى الرغم من علمه بمدى التشويه في تلك الصورة فإنّه لم يتمكن من الامتناع عن استقاء منشّط من هذه الاستعارة التي أُسندت إليه. ولم يكن موافقاً على هذا ولا على أمر آخر. ورمق توبي بنظرة جانبية. وكان هذا قد ترك سترته في السيارة، ولم يكن قميصه الذي لايزال أملس بفعل الغسيل والكيّ مزرّراً، ولا كان يعقد ربطة عنق، وكانت ياقته تنتصب متماسكة تحت ذَقنه، في حين كانت فتحة صغيرة في بياض القميص الناصع تكشف عن صدره الملفوح بالشمس. وتأمل مرّة أخرى بإعجاب استقامة أنفه الصغير وطول أهدابه وقسماته الخجولة الفاتنة العذبة الساذجة. فلم يكن له ذلك المظهر المتجهّم، ولا تلك المهارة المستهترة قليلاً والرائحة عند فتيان جيله. وإذ كان ينظر إليه فقد استشعر، بفرح عميق ومن دون اعتبار شخصي، رجاءً في شخص آخر.

قال توبي:

ـ أخشى أن أعجز عن إكمال كأسي. شراب ممتاز، بيد أنّه أقوى مما أحبّذ. لا، لست أرغب في شيء آخر، شكراً. أتريد إكماله؟

صبّ ما بقي من قدحه في قدح مايكل شبه الفارغ فكرعه هذا وطلب قدحاً آخر. ولمح شوكولاتة معروضة على الكونتوار فاشترى شيئاً منها لرفيقه،

وإذ عاد إلى زاويتهما المريحة فقد لاحظ بدهشة أنّ الظلام كاد يخيّم في الخارج. وقال وهو يكرع شرابه بينما كان توبي يأكل الشوكولاتة:

ـ ينبغي أن نعود بعد قليل.

ما أسرع ما انقضى الوقت! ونهضا للرحيل.

وعندما بلغا الفناء أحسّ مايكل بثقل كبير في أطرافه لقد كان غبيّاً إذ شرب قدح نبيذ التفاح الثاني. فلم يكن متعوّداً مثل هذا الإفراط وهاهو ذا يشعر أنه في غاية النشوة؛ ولسوف يفيق لحسن الحظّ من نشوته ما إن يشرع

twitter @baghdad_library

في القيادة. وتكوّما في السيارة، وأضاء مايكل الأنوار وأقلع على طريق العودة والجرّار يهتزّ على هواه خلفه وإحدى القبضات المطّاطية تدغدغ رأسه.

بدت الطريق مختلفة تماماً في الليل. فقد كان العشب يلتمع بخضرة شديدة التلألؤ، وكانت جدرانُ البيوتِ الرماديةُ المذهّبةُ ذاتُ النوافذ العالية تمرّ سريعاً ثم تختفي؛ وكانت الأشجار مجموعة ومبهمة تحت خطّ النور. وهنا وهناك كان هرّ يركض أمام السيارة أو يهوي إلى الحفرة على جانب الطريق وعيناه تبرقان في حزمة الضوء المنبعثة من المصابيح.

قال مايكل لجاره:

ـ بما أنك عالم فكيف تفسّر أن العيون البشريّة لا تبرق هكذا؟

وسأل توبي:

ـ أمتأكد أنت بالتمام من هذا؟

قال مايكل دهِشاً:

ـ أيمكن أن يحدث ذلك؟ لم يسبق لي قطّ أن رأيت عيني أي شخص تبرقان هذا البريق.

وأوضح الفتى قائلاً:

ـ ربما كان الناس يُديرون عيونهم بشكل غريزي. أذكر أني تعلّمت في المدرسة أن «موماوث» وُجد بعد العصيان مختبئاً في بعض الخنادق المائية بجوار «كرامبورن» لأنّ عينيه كانتا تلتمعان في ضوء القمر.

أجاب مايكل وهو يشير في أسفل الطريق إلى بَرْقَتَين خضراوين عائدتين إلى حيوان يصعب معرفة ما هيته وقد اختفى:

ـ موافق، ولكن ليس «على هذه الشاكلة» بالتأكيد.

قال توبي:

ـ أظنّ أن في الخلايا المحيطة بعيونها شيئاً خاصاً، بيد أنّي لست مقتنعاً

كل الاقتناع بأن عيوننا لا تلتمع بقوة لو كنّا في وضعها نفسه. لنجرّب، أتريد؟ سأنزل وأسير نحوك ووجهي إلى النور، وسوف ترى عندها كيف تتصرّف عيناي.

قال مايكل ضاحكاً:

ـ إنك لعالِم. موافق، ولكن فلننتظر أن نصل إلى البيت، هل تسمح؟ عندها تقوم بتجربتك.

لم يجب توبي، وسارا بعض الوقت من غير أن يتكلّما. وقد سمعه مايكل يتثاءب عدّة مرّات. ثم لم يلبث أن قال:

ـ لقد خبلني تماماً نبيذ التفّاح هذا.

قال السائق:

ـ نَمْ إذن.

أجاب توبي بحيوية:

ـ أوه، كلا! لست قطّ وسنان.

وما هي إلا ثوانٍ حتى كان قد نام.

كان مايكل يلمح من طرف عينه رأسه المنحني إلى أمام؛ كان الجهد العنيف المبذول خلال ساعات النهار وقد تبعه نصيب من نبيذ تفّاح قويّ قد أنهك قواه تماماً. وابتسم.

كانت اللاند روڤر تتقدّم بأبطأ ممّا في الذهاب لأن قائدها كان يشعر على الرغم من وعيه الكامل بأنه ثمل قليلاً. وكانت سَوْرته المضمومة إلى اللذة التي استشعرها في البار قد اختفت ليحلّ محلّها خَدَر لذيذ في جسده كلّه. وأكبّ على مقوده يحرّكه بعضده وهو يدندن بصوت خافت. وعند أحد المنعطفات انزلق توبي، وكان لايزال منحنياً ونائماً على مايبدو، مستديراً على جانبه، وحطّ رأسُه برفق على كتف جاره.

كان هذا يقود كما في حُلم. وشعر بركبة الفتى تماسّ فخذه وبحرارة

twitter @baghdad_library

جسده المستند إلى جسده وبشعره يكنس خدّه. وكانت بهجةُ هذا التماسّ غيرُ المتوقّعة من الحدّة بحيث أغمض عينيه للحظة ثم تنبّه لحسن الحظّ أنه كان يقود سيّارة. وحاول التنفس بلطف شديد كيلا يوقظ جاره، ولكنّه لم يتمكّن من ذلك. وخفّف قليلاً من سرعته لتهدئة أنفاسه. وشعر شعوراً واضحاً بأن هيكله قد نما فجأة بفعل الشهيق والزفير الصادرين من أضلاعه والحركة المقابلة من جسد النائم، وخشي أن تتمكّن نبضات قلبه من إيقاظه.

أمسى يقود الآن خطوة خطوة تقريباً راجياً ألاّ يحتاج إلى استعمال الكوابح وأن يترك توبي نائماً حتى يصلا إلى «إمبر». وكان يدير السيارة بعناية كبيرة في المنعطفات: كانت الطرقات لحسن الطالع خالية! ولأن يستمرّ فقط في النوم فقد بدا له ذلك أقصى ما يتمنّاه في الدنيا. واستشعر فرحة مُسكرة وواقية وفكّر في الفلاح العجوز الذي كان قد لمحه يوماً فوق قمّة الألب وهو جالس فوق مقعد خشبي أخضر يراقب بقرته التي كانت ترعى. وسحرته هذه المقارنة غير المعقولة. لقد كان سعيداً.

وغامر على جزء من الطريق مستقيم تماماً بإسبال ناظريه على رفيقه. وكان هذا مشدوداً إليه وساقاه متدلّيتان ويداه مطويّتان بطريقة صبيانية، وكان رأسه الآن مستريحاً بين كتف السائق ومسند مقعده. وكان قميصه الأبيض يخفق مفتوحاً حتى منتصف جسمه تقريباً. وإذ كان مايكل ناظراً إليه مقدارَ ثانيةٍ واحدة قبل أن ينتقل ببصره إلى الطريق فقد فكّر في أن يدسّ يده في القميص المفتوح، وفي اللحظة التالية ـ وكانت تلك الفكرة قد التمعتْ وكأنها شرارة ـ رأى نفسه بوضوح يقود السيارة إلى حفرة ويضمّه بعنف بين ذراعيه.

هزّ رأسه لإزالة ضباب خفيف كان يطفو حوله لأنه كان قد بدأ يشعر بصُداع. ولقد غدا من الضروري أن يتوصّل إلى السيطرة على أفكاره وقد

أدهشه إمكان أن تتلاعب به هذا التلاعب. أفتكون حيازة مثل هذه القدرة العنيفة على الاستحضار مباركة أم ملعونة؟ ومع ذلك فإن الكليشهات التي كانت تمرّ واحدة تلو أخرى في العادة لم تكن منذرة بالخطر إلى هذا الحدّ. واستشعر، وقد غدا الآن مثقلاً رسمياً بالمسؤوليات، أنه حامي فرحةٍ بَدَتْ له أعمق وأصفى مذ اكتسب سيطرة على نفسه أشدّ وأكبر، وأنه لايزال سعيداً بتلك الفرحة. كما استشعر أنه يملك قدرة غير محدودة على حماية توبي من كلّ ألم. واستحضره في ذهنه بهدوء طالباً ثم شابّاً. ولابدّ أن يكون من الممكن بشكل أو بآخر تعميق المعرفة به والإشراف عليه ومساعدته. وأحسّ بغتة بحاجة ملحّة إلى بناء صداقة معه والإبقاء عليها؛ ولم يكن هناك من سبب يحول دون نمائها وخصبها عندهما كليهما، وشعر بثقة مطمئنة برزانته الصارمة. وعليه فإنّ لحظة الامتلاء هذه لن تكون لحظة غريبة وفريدة، وإنما ستكون شيئاً يجلب في المستقبل مسؤولية كبيرة وعميقة، بل يجلب أكثر من ذلك، يجلب واجباً. ولن تتاح مثل هذه اللحظات أبداً، بيد أن قليلاً من هذه العذوبة سوف يبقى بشكل لا يفقهه توبي ويتجلّى في خدمات متواضعة تتمّ بصورة غامضة من الآن فصاعداً.

لم يكن أعمى، وكان يقدّر بوضوح قدرته على الحنان، وعلى حسن الإرادة الذي يملأ نفسه تجاه المخلوق الشاب القابع إلى جانبه. ولم يكن من الممكن أن يكون في نيّة الربّ أن يُنضِب مثل نبع الحبّ هذا. وكان ينبغي أن يوجد سبيل من الممكن أن يُعثر فيه على سلطان من النقاء، وما كان يشعر في ذلك الحين بأنّه من الصعب الوصول إليه.

وأدرك بخيبة عميقة أنهما كانا يقتربان من القصر. ولابد أنّه كان قد اجتاز الجزء الأخير من الرحلة من غير أن يحاذر. تُرى ألايزال ثملاً؟ حمداً لله فقد وصلا من غير طارىء ميكانيكي. واستدار من دون عقبات إلى الطريق البلدي، وما هي إلا دقائق حتى برز سور الملكية الحجريّ العالي

twitter @baghdad_library

على اليمين. وقد كان منزعجاً أشدّ الانزعاج من أن يكون قد وصل. فلقد كان توبي لايزال نائماً نوم الأبـرار وكان عيبـاً إيقاظـه. وخفّت سرعة الـلاند روفـر، وأوقف السيارة، وهـو نهب لحدس غـامض، قبـل محـاذاة الأبـواب وأطفأ الأنوار وأبطل عمل المحرك فغدا السكون شاملاً.

تحرّك توبي وترنّح فوق مقعده وفتح عينيه:

ـ يا الله، هل نمت حقّاً؟ إني آسف.

أجاب مايكل:

ـ لا تأسف على شيء. هاقد عدنا الآن.

أطلق توبي هتافاً ينمّ عن الدهشة وتمطّى متثائباً ثم قال في طيش:

ـ إليك، في وسعنا القيام بالتجربة مع المصباحين. هل أنت مستعد؟ توجّههما مباشرة أمامي وأمشي نحوك وأنا أحدّق فيهما.

أضاء مايكل بانصياع أنوار السيارة فيما كان توبي يقفـز منها. ورآه ينـزل وهـو يركض فـوق الطريق حتى وصـل إلى ماوراء حـزمة الضـوء. وعندهـا انقلب راجعاً على مهل محتفظاً بعينيه مثبتتين بإصرار على المكـان الذي كـان يجلس فيـه مايكـل خلف الشعاع المضيء. ووصـل بخـطو هـادىء ووجهـه مغمور بالنور وعيناه السوداوان مفتوحتان على مداهما من غير أن تطرفـا، ولم تكـونا ملتمعتـين ولا متّقـدتـين. واستمـرّ في المشي بخـطى واسعـة بـطيئـة ساحرة، وكان ممشوقاً جداً ورُدنـا قميصه ملفـوفان عـلى ذراعيه. واستغـرق وصوله وقتاً طويلاً.

وإذ بلغ السيارة فقد مرّ برأسه من خلال النـافذة إلى السـائق الذي قبّله وهو يضع إحدى ذراعيه فوق كتفه.

كانت تلك الحركة من عفوية الاندفاع بحيث لم يكن الذي قام بها واثقـاً تماماً في اللحـظة التي تلت من أنه قـد أدّاها حقـاً أو من أن يكون تـوبي قد تصوّر أمراً مختلفاً تماماً. ولكنّ هذا الأخير لبث ساكنـاً حيث كان قـد توقف

وتملّص من العناق وانحفر على وجهه تعبير عن دهشة كبرى.

وتكلّم مايكل بنبرة بدت له دبِقة ومرتجفة:

- آسف، لقد كان ذلك طيشاً.

كانت الملاحظة حمقاء وعلى العكس تماماً مما كان يتمنى أن يقوله. وصمتا لحظة.

ثم استطرد قائلاً:

- آسف يا توبي. استدر من الناحية الأخرى. سوف أقودك إلى الجناح، مازالت أمامنا مسافة قصيرة جداً من الطريق.

دار توبي حول السيارة مشيحاً بوجهه. وإذ وضع يده ليفتح الباب فقد ظهر شخص على الطريق سائراً على مهل في حزمة الضوء. كان ذلك «نيك». وما إن لمحه مايكل حتى أطفأ المصابيح من جديد مدفوعاً برغبة في الاستتار. وارتسم طيف القادم الجديد بقرب السيارة، وكان توبي لايزال واقفاً فوق الطريق.

صاح «نيك»:

- يوماً سعيداً لكما كليكما. ظننت أنكما لن تعودا على الإطلاق. وما تلك اللعبة التي تتمثّل في الوقوف طويلاً عند الأبواب؟

أجاب مايكل:

- كنت قد أخطأت. لعلك تستطيع العودة مع توبي إلى الجناح؟ أنا ذاهب الآن. إلى لقاء قريب يا توبي.

أضاء الأنوار من جديد وأقلع بالسيارة في انتفاضة فجائية وهبط الطريق واجتاز الأبواب التي كانت لاتزال مفتوحة بالصدفة. وكان توبي و«نيك» خلف المصابيح، بيد أن «نيك» كان قد لمح ولابدّ على الأقل أمراً ما.

وعندما وصل إلى أمام البيت الذي لم يكن قد غرق بعدُ تماماً في الظلمة كانت هذه الفكرة تشغل باله.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

كانت العادة في «إمبر» أن تُتناوَل الوجبات في صمت بينما يقرأ أحد أعضاء «الأخوية» بصوت عالٍ وهو جالس إلى طاولة صغيرة موضوعة جانباً. وكان سائر الأعضاء يجلسون حول مائدة المطعم الطويلة الضيقة يرأسهم في أحد طرفيها مايكل ميد وفي الآخر السيدة مارك. وكان الدور في ذلك اليوم على كاترين أن تقرأ كتاب «التجلّيات» لجولين دونوروتيش بصوت واضح، وإن مرتجفاً قليلاً، وقد هزّها ولاشكّ تلك التعلقيات الدينية.

«هذا هو حجر الفلاسفة الذي حقّقه ربّنا قبل أن يكون أي شيء على الإطلاق قد أصبح عزيزاً ومستتراً في نفسه معروفاً منه وحده! وبفضل هذا يمكنه أن يشتري كل خطأ لأنه مثلما انتشل الثالوث المقدّس كل شيء من العدم بالطريقة نفسها فإن في وسع الثالوث المقدّس أن يشتري كل خطأ ويصحّح جميع الأضرار.

«فكيف لا نؤخذ كثيراً بهذه النظرة، وكيف لايكون إيماننا مدعوماً. إن هذا الإيمان يستند إلى كلمة الله، وخلاصة إيماننا هي التأكّد من أنّ هذه «الكلمة» باقية. مع أنّ نقطة أخرى من إيماننا هي أن نعرف أنّ كثيراً من المخلوقات سيُحكم عليها؛ وهذه حال الملائكة الساقطين من السماء لغرورهم وقد أصبحوا منبوذين، وحال من يموت خارج إيمان الكنيسة

المقدّسة، أي الخاطىء؛ وحال من عاش، وهو المسيحي، عيشة وثنية ومات بمعزل عن المحبّة. فلسوف يُحكم على هؤلاء جميعاً بالنار الأبدية حسبما علمتني الكنيسة المقدّسة أن أعتقد. وإذ كان ذلك كلّه فقد فهمت أنّ الربّ نفسه قد كشف لي أنّه لامجال لأن تكون طبيعة أيّ شيء كاملةً. وعليه فليس في استطاعتي أن أقدم جواباً عن كل ذلك إلا هذا: ماكان مستحيلاً عليك لن يكون مستحيلاً عليّ، وبفضل كلمتي سوف أعيد كلّ شيء إلى نصابه. إنّ هذا قد علّمنيه فضل الله، ولسوف أرجع إلى إيماني وأزيده ثباتاً باسمه كما أرشدني».

كان توبي الذي أنهى سريعاً وجبته يفتّت خبزته دافعاً الفتات إلى شقوق المائدة القديمة المصنوعة من خشب السنديان. ولم يكن يجرؤ على إدارة رأسه خشية أن يلتقي عينيْ صديقه. وكان يحسّ أنّه تعِب خامل بعد ليلة الأرق التي قضاها؛ وكان عمل الصباح شاقّاً، ولم يكن يُصغي إلى القراءة.

لقد كان قد تعلّم بين الليلة وضحاها أحد أول دروس حياته راشداً، وإن لم يكن قد هضمه بعدُ: أنه مامن أحدٍ في مأمن على الإطلاق؛ ففي كلّ لحظة قد يُحرم أيّ إنسان من طمأنينة وادعة ليغرق في حالة مضادّة من غيرما حالةٍ وسطٍ «فمياه نقائصنا ونقائص الآخرين ترتفع حولنا عالية جدّاً». وخُيّل إليه أنّه انتقل في مدى لحظة من حبور شبه منيع إلى حالة توتّر عصبي غير معقول تقريباً. ووجد نفسه عاجزاً خلال سهره الطويل وعندما استيقظ من نوم مضطرب عند الفجر عن تحديد ما إذا كان قد وقع حادث مهمٌّ أم لا ومع ذلك فإنّه كان يجول في أعماق ذهنه أنّ أمراً غريباً قد وقع من غير أن يتوصّل إلى فهم كنهه.

فعندما مشى إلى الجناح مع «نيك» بعد إقلاع اللاند روڤر المباغت كان قد شعر بأنّه تائه أشدّ التيه، بيد أنه نجح مع ذلك في التحدّث بهدوء، وفي الإجابة بابتذال فِكِه عن الأسئلة بشأن الرحلة. وتساءل عمّا إذا كان «نيك»

twitter @baghdad_library

قد رأى المشهد المؤسف، ولكنّه حكم بأن الأمر مستحيل. فلقد كانا خلف المصابيح، وحتى لو كان قد دلف مواجهةً في تلك اللحظة بالذات فإنه لابدّ أن يكون قد انبهر بالأشعة الساطعة. وربما كان قد ارتاب في أن شيئاً ما قد حدث نظراً لغرابة ارتباك مايكل، بيد أنّه لم يكن هناك من سبب ليحزر أنه حدثُ بمثل «هذا الحدث» من الخطورة. ولابدّ أن يكون قد ساور «نيك» الفضول لأنّه أبدى طوال الطريق اهتماماً بالغاً ورغبة واضحة في جعله يتكلّم. وقد وضع حدّاً لحديثهما، وإن بغير تعجّل أخرق، كي يصعد إلى غرفته، فقد كان يرجو بحرارة أن يكون لوحده.

جلس على سريره غامراً رأسه بيديه. وكان ذاهلاً، فما كان ليتوقّع قطّ مثل هذا الحدث. وكانت معلوماته عن اللواط مختصرة، ولم تكن إقامته في الكلّية قد زوّدته بأيّة تجربة، ولاحتى بمجرد ذكرى عن محاولة. وكان هذا الموضوع بالطبع مثار بعض الدعابات من رفاق صفّه عادةً، ولكنْ كان قد تبينّ أن جهلهم به يماثل جهله، وقليلة كانت المعلومات الممكن استقاؤها من هذا المصدر. وإذ كانت دراسته قد شملت اللغة اللاتينية واستبعدت اللغة اليونانية القديمة فإن معارفه عن إفراط القدماء كانت مجتزأة. وماكان يعرفه تسرّب إليه بشكل رئيسي من الصحف الشعبية ومن الملاحظات التي كان يسمع أباه يبديها بشأن «السلبيين». وقد اعتبر هذا المَيْل في النطاق الذي أُتيح له فيه حتى الآن التفكّر فيه شرّاً عجيباً وانحرافاً ذا ترفٍ مُبهم كريه ابتُلي بهما نفرٌ من المنكدوين. وكان يقدّر، على عكس أبيه، أنه من الأعدل اعتبار هؤلاء الأشخاص من اختصاص الطبيب على اعتبارهم من اختصاص الشرطة. ولكنّ معرفته كانت تنتهي عند هذا الحدّ.

كان توبي يميل، شأنه شأن من لاخبرة لهم، إلى الانتقال من رأي إلى آخر، وإذ كان قد رأى سابقاً في مايكل نموذجاً للفضيلة من غير أن يبحث عمّا إذا كان فيه عيب وراثي مستور فإنه لم يَعُدْ يرى فيه الآن سوى لوطي.

لـوطي «وحسب»، بكل مـايتضمّن ذلك من شـذوذ وعجـز عن الـوصف. ذلك كان على الأقل ردّ فعله الأول، بيـد أنّه لم يلبث أن أدرك أن خـواطره كـانت تفضي بأقصى سرعـة إلى سبل رهيبـة التعقيد. وأعقب دهشتَـه تقزّزٌ ونوع من الخشية. وشعر بنفور بدني محدّد نـابع من كـونه هـوجم على هـذا النحو؛ ورأى أنه مهدّد، وربّما كان عليه إخـطارُ شخصٍ ما؟ بـالطبـع لا هل عليه إعلامهم؟ ليس عليه هو بالطبع أن يتكلّم. ومن جهة أخرى فقـد يكون ذلك طريقة من طرق الوقاية. وكان مشغولاً جـدّاً بأنْ يـدرك أنّه من ذلك الصنف من الناس الكفيلين باسترعاء انتباه أشخاص من هذا النـوع. وتساءل عمّا إذا كانت خطوتـه تشي ببعض الانحراف عنـده، بميل إلى هـذه النزعات استشعره شخص آخر فيه مثلُ هذه الرذيلة.

وعند هذه الفكرة بدأ ينعت نفسه بالمبالغة. فلابدّ أنه من الغلوّ بالتـأكيد تعذيب النفس بمثل هذه الحماقة. ألا يكون ببساطة ضحيّة سذاجته، ضحيّة خطأ في الحكم؟ وأخذ يخلع ملابسه عـازماً عـلى عدم التفكـير في الأمر حتى اليوم التالي. وأطفأ مصباحـه، بيد أنّ النومِ لم يواتـه. وبينما هـو متمدّد في الظلام فكّر بغتة في أنّ لذلـك الحادث جـانباً مهـمّاً. ففي وسعه أن يتبجّـح بمغامرة، وساوره - على الـرغم من أنّه لم يكتشف الأمـر على الفـور - شعور باللذّة في أنّه كان قوّة جذب بإزاء شخص كـان قد رضي بـه من دون تحفّظ رئيساً روحياً.

وأعادته هذه المشاعر إلى اعتبارات إنسانية، وعنـدها بـدأت التعقيدات. وأخذ حقّاً يتخيّـل مايكـل. فكيف يكون المـرء عندمـا يكون مـايكل ميـد؟ وماذا كان يفكّر في ما جـرى؟ وكيف سيتصرّف غداً؟ هـل سيكلّمه؟ وهـل سيلمّح إلى الأمر؟ وهل سيتصرّف وكأنّ شيئاً لم يكن؟ وأدرك توبي أنّـه ليس في وسعه احتمال مثل هذا السلوك؛ وبـدأ يبرز لـه بوضـوح إحساس بشيء ينبغي أن يكون قد أُنجز. واعتبر أيضاً ببعض الغربة أنّه يملك حقوقاً عليه.

twitter @baghdad_library

وإذ استحوذت عليه هذه الفكرة فقد استسلم إلى النوم.

وفي صباح اليوم التالي شعر لدى استيقاظه بأنه تعس جداً وخائر وكأنه شارك الليلة السابقة في عربدة استنزفت قواه. ومع ذلك فقد بدا له، على الرغم من تذكّره تلك الحادثة باشمئزاز، أن أفكاره الشخصية كانت هي التي ألّفت بشكل رئيسي تلك الحفلة، بيد أنّه لم يكن راغباً قطّ في طردها من خَلَده. وبينما كان قد عمل في العشية بفرح أيضاً فقد بدا له الأمر اليوم سُخرة، وقتاً ثميناً ضائعاً كان عليه أن يخصّصه للتفكير في مايكل. وقد ودّ أن يمضي الصبيحة هائماً في الأحراج، وكان عليه أن يُجري على العكس من ذلك أحاديث متتابعة مع جيمس وپاتشواي، ثم أن ينكبّ في نهاية الصبيحة على مساعدة السيدة مارك في توضيب الخُضَر في شِباك وصناديق من الكرتون. وكان مايكل قد حرص على ألاّ يلتقيه.

وخُيّل إليه مع ذلك أنّه من الممكن انتهاز لحظة مؤاتية ساعة الغداء فينتحي به جانباً، ولكنّ الوجبة انتهت من غير أن يكون أحدهما قد نظر إلى الآخر. وكان توبي يخشى أن يبدو متلهّفاً على السعي إلى خلوة، وتوارى في أثناء الاستراحة المقتضبة التي تعقب الغداء متوجّهاً إلى ركن بعيد من الحديقة لربط أسلاك من الحديد فوق التعريشات، وهو عمل كان قد طُلب إليه مرّات عدّة القيامُ به. وعندما وصل لم يتمكّن من مباشرة المهمّة، وجلس في الدرب يلهو ببعض الحُصَيّات حتى تحين الساعة الرسمية المقرّرة للعمل.

وعاد مرّة جديدة خلال بعد الظهر إلى العَزْق الدائم؛ فهناك على الأقل كان لوحده. وكان الطقس لايزال مُرهِقاً فعمل بلا توقّف ورأسه مطأطأ، وقد جعلته جهوده الجبّارة يسبح بالعرق. وكان يسمع من بعيد هدير الجرّار الذي كان قد شُغّل على الفور بإشراف پاتشواي، وأُخضع تقريباً منذ تجربته

للمرّة الأولى. وعند الأصيل شرع يحسّ أنه تعِس بشكل بغيض وقاده ضيقه إلى الشعور بحاجة ملحّة إلى مكالمة مايكل.

ووصل لتناول الشاي شبه ذاهل، وبعد أن ظلّ بعض الوقت في الحجرة بشكل علني اضطرّ إلى العودة إلى البستان ليربط أخيراً الأسلاك اللازمة. وكان أن وجدته هناك في حوالي الساعة الثامنة السيدة مارك لإبلاغه رسالة شفهية من مايكل الذي كان يودّ رؤيته من غير إبطاء.

* * *

عندما عاد مايكل عشيّة تلك الليلة إلى غرفته ارتمى على الأرضية الخشبية وساوره لحظةً في أثناء رغبته في الاختباء انطباع بأنّ كلّ إحساس بشخصه كان قد غاب. وكان الاضطراب الناجم عمّا حدث وحدّة شعوره بالندم قد تركاه مذهولاً كل الذهول. فلأن يكون قد فكّر في الأمر، أن يكون قد حلم به فلا ضير، وأمّا أن يكون قد «فعله»!. وإذ كان يسبر غور المدى غير الملحوظ الفاصل بين الفكرة والعمل فقد لمح شرخاً ضيّقاً جدّاً لم يلبث أن فغر بغتة على هاوية بالرغم من مراقبته إيّاه. وحاول الصلاة ساتراً وجهه بيديه، بيد أنّه سرعان ما أدرك أنّه لم يكن قد صحا بعدُ تماماً من ثمله. وقد كان السجود في هذه الظروف عقيماً بقدر ماهو خارج عن حدود اللياقة؛ حتى إنّه لم يكن في حال احتشام للاعتراف بسقطته. ومع ذلك فإنّه نطق ببعض الكلمات المتعارَف عليها والمألوفة التي كان أناس غيره قد جمعوها لمثل هذه الغايات، لأنّه كان عاجزاً عن إيجاد كلمات من عندياته. ونهض واقترب من مغسلته للمسح على وجهه بمنشفة من القطن. وكانت بشرته ملتهبة، وكان عليه أن يتمالك نفسه، ولكنّه ظلّ هناك ومنشفته في يده تقطر ماء، وقد عاوده عذاب أشدّ إيلاماً من أيّ وقت مضى لمجرّد التفكير في أنّه من الممكن أن يكون «نيك» قد رأى ما جرى. وحين تساءل فجأة عن السبب في أن تكون هذه الفكرة مقلقة إلى هذا الحدّ كان

twitter @baghdad_library

ردّ فعله غريباً. فلم يكن يريد أن يشعر صديقه بالهوان الناجم عن الإحساس بأنه خانه أو هجره من أجل شخص أصغر منه سناً. ولكنْ أيّ عبث هذا وياللأسف لأن الأمر يستدعي أن يبقى الزمان ثابتاً. ولأن يكون راغباً في ألاّ يخطر لـ«نيك» أنّه فاسد أو منحرف فذاك معقول إلى حدٍّ ما من أجل نفعهما المشترك، ولكنّ مابدا أنّه يزعجه غاية الإزعاج كان بالحري التفكير في إمكان أن يحكم عليه بعدم الإخلاص.

ووجد من ناحية ثانية أنّ هذه الفكرة مدهشة إلى حدّ أنه أخذ يتعمّق فيها. ورمى منشفته أرضاً، وكان الماء البارد يسيل على عنقه وظهره. وعاوده صداعه والأحاسيس المزعجة في معدته. وجلس على سريره باذلاً جهداً مضنياً كي يظلّ هادئاً. وما إن تمكنّ تقريباً من ذلك حتى أدرك أنّ أول حركة قام بها كانت نوعاً من غريزة المحافظة على الذات وخشية شخصية لم يكن قد تجرّأ بعدُ على الانكباب عليها تماماً. وبدر منه كذلك ردّ فعل أخرق بشأن «نيك». ومع ذلك، أفلم يكن عليه قبلُ أن ينظر إلى الضرر الذي لحق بتوبي؟ ولقد كان مقتنعاً نظراً لماكان يعرفه عنه وعن محيطه بأنّه لم يكن لديه أية تجربة، ولاشيء سوى معلومات ضئيلة جدّاً عن اللواط. وربما كان يعتبر «غير الطبيعيين» أناساً غامضين بقدر ماهم مثيرون للسخط. ولسوف تكون ذيول عناقه خطيرة ولاريب، وحتى لو أرتأى توبي أنّه من الأفضل السكوت عن الحادث فإنّه سيطلب من غير شك توضيحاً عنه. وعدم الكلام عليه معناه تركه في حال دائمة من الهمّ وثورة الأعصاب. لقد كان ينبغي القيام بعملٍ ما.

وإذ كان يفكّر في الأمر بشكل جِدّي للمرّة الأولى شاعراً بالمرارة لأنه لم يفعل ذلك حتى الآن فقد أدرك أنه ألحق الضرر بشخص آخر غيره هو. وتخيّل حال توبي النفسية وتقزّزه وخيبته وشعوره بتلفٍ لاسبيل إلى علاجه. فلقد جاء إلى «إمبر»، إلى هذا البيت الديني، وكأنّه يطلب خلوة ويبحث

عن إلهام، عن قدوة. ولأنْ تكون هالته الشخصية قد خَبَتْ فجأة فليس لذلك أهمية كبيرة، فالمأساة ليست هنا، وإنما هي تدور عند أطلال التجربة التي كان الطالب الشابّ قد أتى يجرّبها. وقد أخذ يقيس نتائج عمله وهو كدِرٌ معاند. فكيف السبيل إلى إدراك أنّ مثل تلك الحركة المبتذلة العابرة استطاعت جرّ مثل هذه الذيول والتسبّب في مثل هذه التدميرات. وفهِم بشكلٍ ما كيف جرى الأمر: كان قد استسلم إلى مجرد اندفاعة حنان بفعل السُكْر، بيد أنّه لم يفهم مع ذلك ما حدث: إنّ أعمالنا شبيهة بسفن في وسعنا مراقبتها حين تنشر أشرعتها، بيد أننا نجهل لحظة عودتها إلى الميناء.

وحاول بصعوبة تهيئة نفسه للنوم. ودعا لحظة جاهداً في توجيه دعواته على نيّة توبي؛ ولسوف يتّسع وقته لامتحان سريرته فيما بعد. وأدرك أنّ عمله قد أطلق سراح الشيطان الذي كان يعتمل في نفسه، وأنّ الفكرة الخرقاء التي كانت تعذّبه بشأن «نيك» لم تكن قد تلاشت. وإذ كان ينزلق في النهاية إلى سريره فقد راودته فكرة أخيرة قبل أن يفقد وعيه إلى حين. فإذا كان قد تصرّف بسوء حيال «نيك» فلقد تصرّف بأسوأ حيال نفسه. وكان هذا يستلزم إجراء فحص.

وبحث في اليوم التالي عن طريقة للسلوك واكتشف خصيصة أخرى من خصائص الوضع. لقد كان يرغب رغبة مجنونة في رؤية توبي مجدّداً وتوضيح ماجرى له. وعند الغداء كان الاثنان جالسين وعيونهما إلى أسفل، وقد هرب مايكل إلى مكتبه ما إن سنحت الفرصة من غير أن يلفت الأنظار. فلقد كان موسوساً بفكرة تقديم إيضاح؛ وكان يفكّر كيف أنّه سمع قلبه ينبض بالحنان للنائم العزيز طوال طريق العودة، وشعر بالاطمئنان إلى أنّ مثل هذا المصدر من مصادر العاطفة لايمكن أن يكون خبيثاً بالكلّية. وأخذ يتساءل في الوقت الحاضر بمزيد من الوقاحة عمّا إذا لم يكن من الأفضل ألا يشغل نفسه بالحيرة التي لا بدّ أن يكون فيها توبي بالتأكيد، وأن يُسقط الأمر

twitter @baghdad_library

بوجه الإجمال من حسابه. فكل حديث مثير، كل مايمكن أن يكون أشبه باعتذار، بتبرير، من شأنه أن يُطيل أَمَد الحادثة. ولقد كان بالطبع راغباً في الاطمئنان عن «نيك»، بيد أنه إذا حدّث توبي كان عليه أن يظلّ بارد الأعصاب ومتحفّظاً جدّاً. فهل يكون في وسعه ذلك؟

وفي الصبيحة وجد متسعاً من الوقت للذهاب إلى كنيسة الزوّار والجلوس فيها في العتمة والسكون. فقد كان من السهل الاقتناع في هذا المكان بمجاورة الربّ لأن جهود الغالبية الخالصة قد رسمت درباً، خطَّ اتّصال واستمرار. وهنا على الأقلّ كان غليان ذهنه يهدأ. وشعر في كيانه برمّته بالرغبة في ألّا يفعل غير ما يرضي الله، وبالاقتناع بأنّ ذلك أمر في وسعه معرفته وإنجازه. وكان في حالة الخشوع هذه أقدر على معالجة ضعف الأفكار التي أحزنته خلال الليل الفائت وفي الصبيحة. فما أسرع ما كان قد ساوره الخوف، وما أبعد ما كان عن الندم الحقيقي، وما أعجز ما كان عن السعي وراء هذه الإرادة الطيبة الحقيقية التي كان ينبغي أن توجّه خطاه على الفور! وأخذ يصلّي الآن للحصول على معرفة أكثر حميمية، على نفاذ أسهل تناولاً إلى الشعور بأنّه ذلك الذي كان قد أخطأ، وإذ كان يحدّق إلى المذبح من خلال القضبان فقد أحسّ بالراحة والعون والسند. لقد كان عليه أن يعمل للأمر، بيد أنّ الربّ لن يتركه يضلّ في النهاية. وعزم على التحدّث إلى توبي.

وعندما غادر الكنيسة كانت رغبته في لقائه قد بلغت ذروتها، ولكنّه قرّر تأجيل هذه المقابلة إلى غد. ولسوف يكون ذلك الاستنكاف الصغير مفيداً، وعلاوة على ذلك فإنه كان يرجو أن يكون قد استعاد بعض الهدوء. ولذا فإنّه كان في أثناء الغداء يصغي بانتباه إلى القراءة متحاشياً لقاء نظراته، متأثراً بإخلاص كاترين الواضح للمؤلِّفة، متذكّراً أنها قصّت عليه يوماً أن «السيدة جوليين» كانت قد أثّرت في تحديد قرارها. وما أكثر النفوس التي لا

تملك للأسف هذا الاستعداد الصوفي لأن تتعزّى وتتشجّع بمجرد فهم حقيقة محبّة الربّ. وخشي لدى استماعه إلى تلك القراءة التي كان يصغي إليها وكأنّها تعنيه شخصياً أن تكون تردّداته المتعدّدة وذلك العجز عن التصرّف ببساطة وبشكل طبيعي مميّزات نقص في الإيمان.

وانصرف بعد الظهر إلى أقصى جزء من الحديقة حاشراً نفسه في عمل بدني شاقّ، تاركاً الجرّار لپاتشواي. وكانت الفرحة بهذه الدمية الملوّنة قد فسدت بالكلّية على كلّ حال. وإذ عاد إلى العمل فقد كان فريسة أفكار متعدّدة، كما كان في ساعة تناول الشاي متوتّر الأعصاب شارد اللبّ معدوم القابلية. وحاول فيما بعد أن يعود بجِدّ إلى العمل ويحرّر مشروع نداء لمساعدة مالية، ولكّن ذهنه ظلّ غير قابل لهذا النوع من الانشغال. ولم يَعُدْ تعقيد أفكاره الصباحية يُطاق. وبدا له ذلك حمقاً وتعقيداً ليس له من دافع ظاهر سوى تأجيل المقابلة. وشعر بإلحاح في مزيج من الألم واللذّة ـ مزيج لم يكن بحدّ ذاته مزعجاً ـ برغبة في إيضاح ما يعتلج في نفسه. وأحسّ بالضرورة الماسّة إلى التخلّص من حاجة كانت تجعل كلّ نشاط آخر مستحيلاً.

واتّخذ قراراً بعدم لقاء توبي في مكتبه ولا في غرفته. وإذ فكّر بعد اتّخاذ قراره في ألّا يُطيل انتظاره فقد رغب في أن تجري تلك المقابلة وكأنّها موعد عمل، ومن غير حميمية. ودوّن بنوع من الرضى مشروع الأقوال التي ستصدر عنه. وقدّر وهو يفكّر في الوعد الذي قطعه يوماً للشابّ بأن يُريه المكان الذي ترتاده طيور السُبد أنّ الوفاء بذلك الوعد سيكون مفيداً جدّاً. ولسوف يكون ذلك طريقة لإفهامه أن شيئاً لم يتغيّر تقريباً، وأن لا وجود لخطّ تماسّ بين المرحلة السابقة على اللحظة المؤسفة من الليلة الماضية والمرحلة التالية لها. وإذ أخبرته مارغريت سترافورد أن توبي كان في البستان فقد عهد إليها برسالته.

twitter @baghdad_library

وذهب ينتظر مُخاطَبه في الجانب الآخر من رصيف الركوب ساعياً بذلك إلى اختصار مدّة الرحلة التي سيقومان بها جنباً إلى جنب على الدرب المؤدّي إلى الغابة، وإلى التأكّد من أنّ «نيك» لم يكن يجول في الجوار. ولاحظ بارتياح أنّه لم يكن يُشاهد في الحقل ولا بالقرب من الغابة. وبينما كان يسير على ضفّة البحيرة الأخرى لمح توبي هابطاً المنحدر من البيت ثم قافزاً إلى المركب الذي جعله ينقلب تقريباً من جراء استعجاله دخوله. ودفع به بقدر ما كان وزنه يسمح بالدفع ووصل إلى رصيف الركوب لاهثاً.

قال مايكل بهدوء منعطفاً على الفور لجرّ توبي إلى الدرب المؤدي إلى الغابة:

ـ صباح الخير يا توبي. سوف أريك طيور السُبد. عليك أن تتذكّر أنّي كنت قد وعدتك بذلك. ليس المكان بالبعيد. هل تملك بعض المعلومات عنها؟

وهزّ توبي الذي كان يسير وعيناه إلى الأرض بإصرار رأسه بالنفي. وأوضح مايكل قائلاً:

ـ السُبد طائر مهاجر، وسوف يغادرنا بين لحظة وأخرى، وهو يغرّد على الدوام بحيوية فريدة قبل أن يرحل. إنه أغرب الطيور، وسوف تلاحظ ذلك بنفسك. واسمه باللاتينية «كابريمولغوس» أي مصّاص الماعز، لأنهم كانوا يتخيّلون قديماً أنّه يتغذّى بألبانها. وتغريده الرئيسي الذي أرجو أن أسمِعك إيّاه نوع من الهديل ذي نغمتين. وهو لا يطير إلا عند الغَسَق بطريقة عجيبة سريعة جدّاً تذكّر بطيران الخفّاش. وله كذلك خصيصة أخرى: فحين يكون جاثماً على غصن فإنّه غالباً ما يلصق جناحيه خلف ظهره.

لم يكن توبي يقول شيئاً. وكانا قد وصلا إلى قلب الغابة، وعلى الرغم من أنّ الوقت كان لايزال نهاراً فإن الدرب كان قد أمسى مظلماً إذ لم يكن

نور الشمس الغاربة الملطّف قادراً على اختراق الأشجار. ودارا إلى طريق عريضة مخضوضرة كانت بعض الصنوبريات قد غرست فيها بين السنديان والدردار. وكان سور الدير يُرى من بعيد مخروقاً بباب صغير وقد تباطأت الشمس فوقه.

وما إن وصلا إلى وسط الممشى حتى توقّف مايكل تحت شجرة وظلاّ صامتين في هدوء الغابة المعتمة المثير. وبقيا طويلاً من غير أن ينظر أحدهما إلى الآخر وكأنّ الفزع كان يهدهدهما. وفجأة سُمع خفق أجنحة خافت كأنه نذير تبعه بعد قليل صوت راجف صادر عن عدّة طيرانات متلاحقة، وفي غَبَش الغَسَق وصلت الطيور بغتة. وحوّمت هنا وهناك بين الأشجار وهي تدور وتلفّ في دائرة ملحّة: كان متعذّراً اكتشاف عددها، ولكنّها كانت تبدو كثيرة عندما كانت تتحرّك في الظلمة مُسمِعة حفيفاً ناعماً من أجنحتها الطويلة الممشوقة.

ثم إن الظلام كان قد خيّم تقريباً بحيث لم يعد في الإمكان الرؤية بوضوح حتى عن كثب. وظلّت الطيور برهة تتراءى بشكل غامض وكأنها أوراق كبيرة كانت تحلّق من غير أن تسقط قطّ. وانتهت بأن اختفت تلفّها غياهب الليل المقتِحم. وانحدر مايكل على مهل من غير أن يلتفت إلى توبي الذي كان يسير إلى جانبه وهو يضع أقدامه بحذر في العشب. وكان يشعر بطمأنينة خارقة مقتنعاً بأن رفيقه كان يشاطره إيَّاها. وتكوّن لديه انطباع بأنه كان يشاهد وإيّاه طقساً محرّراً وسرّياً. وكان حراماً كسر هذا السحر بإيضاحات مبتذلة. ومع ذلك فإنّ الأمر انتهى به على المدى الطويل إلى العزم على ذلك وكأنّه يسمّع درساً حُفظ عن ظهر قلب:

ـ توبي، بصدد ما جرى مساء أمسِ فقد تصرّفتُ بطريقة حمقاء، بشكل ـ أؤكد لك ذلك ـ لم آلفه من قبل. ولقد دهشت لما جرى دَهْشَتَك له تقريباً. ولا أريد أن أجعل من تلك الحادثة مأساة. ولن أقول «لِنَنْسَها» لأنّ

twitter @baghdad_library

ذلك سوف يكون صعباً علينا، بيد أنّي أقترح ألاّ نتحدث عنها، وألاّ نضفي عليها أهميّة بالغة. وأمّا بشأن كونها عملاً جديراً بالعقاب فذلك لا يعنيك على الإطلاق، وأنا وحدي المسؤول عنه. وكلّ ما أرغب فيه هو أن أعتذر وأن أطلب إليك أن تستر هذه الخاطرة في أعماق نفسك. وأنا أعلم أنّي لست في حاجة إلى الاستنجاد بكتمانك، ولكنني عذّبني الخوف من أن تكون قلِقاً بهذا الخصوص. إني لمنزعج أشدّ الانزعاج لأنّك نُغِّصْت وأُربكت بهذا الشكل، وأرجو أن تبذل جهداً حقيقياً كي لا تدع هذه الحادثة تفسد إقامتك في «إمبر».

توقّفا واستدار كل منهما نحو الآخر. وكان الليل قد هبط الآن تقريباً حتى في أكثر أماكن المشى انكشافاً، وكانت الأشجار تُري حواجزها الصفيقة من كلّ جانب. وطأطأ توبي رأسه ثم رفعه بجهد بيّن وقال بصوت خافت:

ـ بالطبع، مفهوم، مفهوم. لقد أحسنت صنعاً إذ كلّمتني على هذا النحو. أفهم تماماً. وفيما يتعلّق بي فإني لست مهتمّاً للأمر على الإطلاق.

وإذ كان مايكل يلاحظ سلوكه عند حلول الليل فقد شعر شعوراً غريباً بأنّ الذي جرى البارحة كان من نوع ما يُقال فيه: «شوهد من قبل». فأين كانت هذه الحادثة بنهايتها الحتمية قد جرت يا ترى؟ وفيما كان يتكلّم، وفيما كان يتحرّك، عادت به الذاكرة إلى مشاهدة النور الساطع في غرفته بالثانوية عندما ظلّ هو و«نيك» وقد جلسا متقابلين، مدّة طويلة بلاحراك.

وأجاب بكثير من العذوبة هو الآخر:

ـ شكراً.

لم يكن في وسع أية قوّة على الأرض أن تمنعه من الاقتراب من توبي في تلك اللحظة. ومدّ يده على غير هدى فقابلتها يد رفيقه وكأنّها منجذبة مغناطيسياً لتتعانق اليدان عناقاً شديداً. وظلاّ طويلاً في الظلام.

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي استأنفت الشمس تلألؤها بأمانة على الرغم من أنّ لسعة برد خفيفة وبعض التجهّم في الجوّ قرابة ساعة الغداء قد ظهرا وكأنهما تباشير بزوال الخريف القريب. ودهش توبي الذي كان قد أمضى ساعات الصبيحة الأولى مع پاتشواي الراغب في تعليمه طريقة استخدام الجرّار أن يجد نفسه غير مهتمّ للأمر على الإطلاق، وأن يبدو كذلك في غاية الخَرَق. وأُرسل ابتداء من الساعة الحادية عشرة كالعادة للقيام بالتوضيب، ولكنّه لم يجد أيّ عمل يقوم به. وإذ كانت السيدة مارك تحثّ الخطى نحو القصر لتنظيفه فقد أمرته بالعودة إلى الحديقة. ولكنّه لم يصدع بالأمر وتوارى. وكان يريد أن يتأمّل فقرّر الذهاب للجلوس برهة في كنيسة الزوّار.

لم يكن قد ذهب إليها من قبل إلاّ لسماع القدّاس، وقد وجدها فارغة في وحدته فكانت مكاناً رائع الجلال. كانت الستائر مفتوحة، وكان المذبح وضوء المحراب الضئيل يُريان من خلال القضبان. وكانت الكنيسة معتمة بعض الشيء إذ كان يضيئها قليلاً نافذتان ضيّقتان من زجاج مخضرّ، وكانت كنيسة الأخوات ـ ماكان بالإمكان رؤيته منها على الأقلّ ـ التي تخترقها نوافذ من العصر الفكتوري بزجاج مدهون تبدو أشدّ ظلمة. وكان السكون في الداخل ضاغطاً، ومع ذلك فإنّه كان يسترعي الانتباه.

ظلّ برهة قرب الباب مصيخاً السمع. وكانوا قد أوضحوا له أنّ إحدى

twitter @baghdad_library

الأخوات كانت تجثو للصلاة ليل نهار في الكنيسة الرئيسية. ولم يسمع شيئاً فتقدّم على رؤوس أصابعه حتى القضبان وتوقّف عند طاولة المناولة الواطئة التي كانت مُجانبةً للمذبح. ومع ذلك فقد تعذّر عليه أن يرى جسم الكنيسة الذي كان مواجهاً له. ولم يغامر بتجاوز الطاولة المقدّسة، بيد أنّه نظر خلفه بعصبيّة وانزلق إلى أبعد ما وَسِعَهُ الانزلاق نحو الحائط الأيسر وأخذ يراقب من خلال القضبان. ولم يتمكّن قطّ من أن يخمّن أكثر من درجات المذبح ويضع بلاطات ملوّنة في الأرضية وحاشية صغيرة من الجدار المقابل. وظلّ صحن الكنيسة مستوراً.

وإذ كان يحملق خلال الظلام الدامس فقد تذكّر بغتة ظلمة البحيرة التي كانت الدنيا تنعكس فيها بألوان مختلفة، وأحسّ برغبة ملحّة في اجتياز الدرابزين. وأخافته هذه الفكرة أكثر ممّا صدمته. وظلّ في مكانه مع أنّه لم يكن هناك مايمنعه من فتح الباب الصغير والنفاذ إلى المحراب مايكفي من الوقت للنظر إلى صحن الكنيسة. وتساءل عمّا قد يراه: كميّة كبرى من المقاعد الخشبية الطويلة الفارغة ولاريب، وربما أيضاً راهبة متوحّدة جاثية في آخر الصحن ناظرة إليه بصرامة، أو - وقد اقشعرّ بدنه لهذه الخاطرة - ربما كانت «الجماعة» الدينية مجتمعة في الوقت الحاضر على بضعة أمتار منه وهي جالسة في صمت مُطبق. فمن وجهة نظرٍ معيّنة لم يكن هناك بالطبع ما يمنعه من الاجتياز، ومع ذلك فقد يكون ذلك عملاً غير مقبول.

إختبأ بسرعة في آخر الكنيسة خجِلاً جدّاً من إمكان أن يُفاجَأ في حال ترقّب، وجلس ساخطاً مرتبكاً مضطرباً. وكان قد شعر قبل البارحة بصدمة، بإحساس بشع، ثم بهذه الحاجة المحمومة إلى الحديث مع مايكل، ولكنّه أحسّ عندها بأنه خارج نطاق القضية، إذ لم يكن فيها على أيّ حال سوى متفرّج. وأمّا اليوم فإنّه يشعر بالحرج. لقد سمح بحركات، وغدا شريكاً متواطئاً، وأدرك أنه كان ماكراً بشكل من الأشكال

بمخاطَبه. فالذي كان هذا قد «قاله» أمسِ، قاله برباطة جأشٍ وبطريقة معقولة، وبعد حديثهما الموجز في الممشى عادا إلى البيت حريصينْ على أن يتناولا بطلاقة موضوعات أخرى. ولكنّ مالم يكن يستطيع محوه من ذهنه فهو اللهفة التي أبداها مايكل للاستحواذ على يديه واللحظة الطويلة التي بقيتا فيها مهصورتين. لو أن الأمر اقتصر على ذلك! فالحقّ أنه لم يكن قد اكتفى بالموافقة على ذلك التماسّ وحسب، وإنما كان متعطّشاً إليه مثل تعطّشه. ونكاية بالكلمات فقد كان ذلك شبيهاً بمشهد بين عاشقينْ، وبالعودة إلى حديثهما خُيّل إليه أنّ الكلمات لم تكن سوى ذرارات قشّ متطايرة في الهواء من أجل أن تدمّرها حرارة اللقاء القاسية. وأحسّ أنّه أنجرّ إلى شيء قذر، شيء مكدّر شعر حياله بالاستفظاع.

ولم يشعر مع ذلك بأيّ عداوة نحو مايكل، وحتى الانطباع بالنفور البدني الذي ملأت تلك المغامرة كيانه به لم يكن موجوداً إلا حيال ذاته. لقد كانت تلك الحركة كشفاً مريعاً؛ فمفهومه للوجود البشري برمّته غدا في لحظة معقّداً للغاية ولم يفتأ يختلط. ولكنّه كان قد أصبح أقلّ ميلاً إلى تصنيفه، إلى الإحاطة به كما هو، ومُفعماً بالحري بفضول عارم. فماذا يمكن أن يعني على أيّ حال كون المرء كاهناً وأن يدور حول الصبيان لتقبيلهم؟ وتساءل عمّا إذا كان مايكل يتصرّف غالباً على هذه الشاكلة على الرغم من كل محاولاته الانكارية. لعلّه أُخذ على غرّة بميل لاسبيل إلى مقاومته. وهل يكون قد ساوره الندم؟ وظلّت تسكن كيان توبي تلك المتعة التي شعر بها لدى معرفة الجانب الخسيس في شخص بمثل هذا الاحترام على الرغم من الاشمئزاز الذي أثارته فيه تلك الحالة. وشعر بلذّةٍ ما إزاء السلطان الذي أصبح له على مايكل، سلطان كان يميّزه في عقله بمشقّة من غريزة الدفاع عن النفس، ويتوقّف بحنان عند الخطى الزائفة لمعرفته الجديدة.

لم يكن من عادته أن يتثاقل. ففي الأوقات الطبيعية كان نشِطاً واقعياً

twitter @baghdad_library

خالياً من الهواجس. وإذ كان يتمتّع بالبساطة المتناسبة مع تربية ممتازة فقد كان ينظر إلى نفسه على أنّه لايزال مراهقاً. ولم تكن النساء حتى الآن قد أَثْرنَ خاطره بأكثر ممّا أثاره الرجال. وكان يرى أن «الوقوع في الحبّ» أمر مرهون بالمستقبل، المستقبل البعيد الذي سيتعرف فيه إلى الجنس الآخر. وعليه فقد كان صدمة حقيقية أن يدرك مدى ما تغيّرت نظرته إلى الدنيا. وساوره نفور حادّ من الذهاب للعمل. وتمنّى أكثر ماتمنّى أن يكمل ماكان يفعله حينذاك، وأن يبقى جالساً يفكّر ويتذكّر إلى مالانهاية أموراً كانت قد قيلت وتمّ إنجازها، وأن يستدعي بلا انقطاع رأس صديقه الشاحب المذهّب ووجهه الضيّق القلِق الشبيه بوجه صقر. وأخذ يتساءل بحيْرة عمّا إذا لم يكن «هذا» هو بالضبط الوقوع في الحبّ.

كان بعيداً جدّاً عن المماحكات التي يعرفها أولئك الذين يتعاملون مع الجنسينْ. وكان يعتقد أنّ الإنسان يحبّ «إما» النساء و«إما» الرجال، وأنه إذا كان أحدٌ منكوداً بعض الشيء وكشف عن ميوله فإنّه لا يتسنّى له قطّ أن يعيش عيشة طبيعية فيما بعد. وملأت هذه الفكرة كيانه بخوف مخادع. لقد أوصاه مايكل بألاّ يغالي في أهمية ماحدث، ومع ذلك فإن ما حدث قد حدث له ويوشك أن يتجدّد، وليس في وسعه قطّ أن يراقبه بأكثر مما يراقب هضم طعامه. وتساءل ـ كانت هذه الفكرة قد بدأت تتصلّب بعد الليلة السابقة ـ عمّا إذا لم يكن بكل بساطة لُوطياً.

هل كانت تجتذبه النساء؟ الحقّ أنّ الأمر لم يكن قد أزعجه قطّ حتى الآن لأنّه لم يحدث، وأمّا الآن فقد أخذ يقضّ مضجعه. وتمنّى لو يتأكّد منه سريعاً. لقد كان له أخ أصغر منه كثيراً، ولم يكن له أخت. كما أنّه نادراً ما التقى صبايا من جيله، ولم يكن يملك صوراً يستدعيها لامتحان ميوله. وتأمّل بعض الوقت في فكرة المرأة. وانتصب أمامه طيف واضح المعالم. وبحياء شرع يعرّيه، وبينما كان يتأمّله دارساً ردود فعله الخاصّة أدرك شيئاً

فشيئاً أن هذا التجسيد الخارق للأنوثة بدأ يتّخذ ملامح دورا غرينفلد.

دهش لهذا التطوّر، وأحسّ في الوقت نفسه بالرضى عنه. افلم يكن قد اعتبر بشكل خاصّ حتى الآن أنّ دورا كانت فاتنة، وأمّا الآن وقد جدّ حقّاً بالتعمّق فإنّه تصوّر أنّه كان منذ بعض الوقت متأثّراً بمفاتنها. كان لها بالتأكيد وجه رائع تؤطّره خصلات شعر ذهبية غامقة كما يُرى أحياناً في اللوحات الزيتية الإيطالية، وعلاوة على ذلك فقد كانت من لحم ودم بنهديْن مثيريْن. وتاه خياله لحظة باحثاً عن أكثر الصور إثارة، بيد أنّه كان يرى على الأخصّ وجهها بفمه الشهواني وملامحه الدقيقة ونظراته المداعبة المشجّعة. وبالإجمال فقد كان مظهرها بأسره دعوة حارّة، في حين كانت صورة كاترين الباردة، على الرغم من عذوبتها، تذكّره بصورة «أرتميز» المأساوية.

قوطعت هذه الرؤى بغتة بصوت صادر عن كنيسة الأخوات، وقع أقدام رشيقة وحفيف أثواب سميكة. وقفز بعصبيّة. لابدّ أنها صلاة الساعة السادسة. وأصغى إلى الخطى وإلى هذا الحفيف الموحي الذي استمر لحظة، ثم إنخفض الصوت شبيهاً بما يحدثه طائر يجثم في عشّه. ثم اخترق السكونَ صوتٌ رنّان وحيد مرتّلاً ترتيلاً كنسياً. وأحسّ وقد عراه اضطراب شامل بشيء بشع، مستفز تقريباً، بإزاء هذا القدر من النساء، على الرغم من كونهنّ متعذّرات المنال وغير مرئيات. ولم تعد صفةُ القداسةِ المطلقةُ على السياج مجرّد حصانة بل أصبحت الآن مثيرة للأعصاب ومغرية ومهيجة. وكانت الراهبة ترتّل بصوت كئيب شبيه بصوت كاترين. وظلّ يستمع إليها حتى لم يَعُدْ طهره المُحنِق وتقشّفه مُحْتَمَلَيْنْ فاستدار وخرج وهو يتعثّر.

وفي ضوء الشمس الباهر في الخارج أحسّ بالانزعاج وفقدان الرجاء. وشعر بحاجة غامضة، وإن كانت لا تُقهر، إلى ممارسة شيء من العنف. وقد أهاجه قليلاً أن يتسكّع بدلاً من العمل في حديقة الخُضَر، ولكنّه أشاع

twitter @baghdad_library

فيه الرضى في الوقت عينه. وابتعد بعزم عن السدّ وسار بمحاذاة سور الدير باتّجاه الطريق البلدي الذي كان لايزال بعيداً جدّاً. ومشى لصقه تاركاً يده تنسحب عليه. وإذ كان مبنيّاً من حجارة صغيرة مربّعة من الغرانيت فقد كان مظهره مذهّباً رخامياً، وكان الغبار المتراكم على سطحه الجافّ يتساقط كالطَّلْع. وكان يتقدّم مطأطأ الرأس ساخطاً على نفسه سُخْطَه على الدنيا.

وإذ أخذ السور يتباعد عن البحيرة فقد أحاطت به فجأة من الجانبين أشجار سامقة ووجد نفسه من جديد في الغابة. وما إن توغّل فيها قليلاً حتى اكتشف أن المشهد كان مألوفاً لديه. وكان ممشى من الصنوبريات ينفتح على يساره مُفضِياً إلى البحيرة، وقد رأى الشمس تتلألأ عند نهايته فوق الفرجة غير بعيد من الجناح. وعاودته ذكرى الليلة الفائتة فأعمته على الفور وراوده شعور عجيب بالخيانة أعقبه إحساس بالدنَس. وساورته رغبة مجنونة في الهرب، ونظر إلى السور.

لم يكن بالطبع ليفكّر قبل يوم أو يومين في إمكان تسلّقه، وأمّا الآن فقد بدا له أنّه يملك حرية التصرّف كاملة نظراً لاختلاط الأمور. وبعدُ فإن الأمر لم يكن بالكريه. واجتاحته ثورة عارمة وأدرك مدى ما كان عليه اضطرابه البدني خلال نصف الساعة الأخير. وتدافعت نبضات قلبه، وفكّر في الباب الصغير المفضي إلى الممشى الذي كان قد رآه مواربةً؛ لقد كان ولا شك مقفلاً. وتفحّص السور، فما كان بالذي بني بالأمس، وكانت حجارته قد جُمعت بشكل غير منتظِم وهي ملأى بالفجوات. واختار موضعاً كانت الحجارة فيه نائئة بصورة مغرية وبدأ يتسلّق ويداه تبحثان عن المآخذ نحو القمّة.

كان الصعود أشقّ ممّا خُيّل إليه للوهلة الأولى. فقد أخذت الحجارة الطريّة تتفتّت وسقط على الأرض دامي القبضتينْ. وكان نافد الصبر لرؤية شيءٍ ما، وعاوده إحساس منكود حادّ بأنه على أهبة النفاذ خلال مرآة.

وكان النجاح يمثّل صعوبة مؤكّدة وإنْ غير مستحيل تذليلها. وحاول من جديد.

ووجد هذه المرة مكاناً مأموناً يضع فيه قدميه، وإذ التصق إلى وسط السور فقد انحرف قليلاً ليجد مكاناً مأموناً لوضعهما. وبلغه على غير هدى فوق رأسه راجياً أن يجد الآن مأخذاً إلى القمّة. وعثرت يده به وهي تتلمّسها، وأطلق أصابعه خلال طبقة دافئة من الطحلب والأعشاب المتعرّشة، وأتبعها يده الأخرى، في حين بدأت قدمه تتراخى وقد فقدت توازنها. وعندها وضع أحد مرفقيه على قمّة السور محرِّكاً رجليه ويديه لبلوغ سند في السطح المتفتّت. وتمكّن وهو يلهث رافعاً ذراعيه من الارتفاع بجسده والانحناء به إلى أمام، واستطاع أخيراً أن يلقي بإحدى ساقيه فوق السور. وإذ تمكّن من ركوبه فقد أخذ يستريح.

شرع ينظر إلى المكان المحظور على الغرباء وهو منهوك القوى وإنْ منتصراً. ورأى لدهشته أنّ ممرّ الصنوبريات كان يكمل خطّه من الناحية الأخرى، ولكنْ استحال عليه أن يرى بوضوح فوقه من موضع مراقبته. وداخل السياج كانت الغابة كثيفة كذلك، ولم يكن ليُرى أيّ مبنى باستثناء البرج النورماندي بعيداً على اليمين. وأحسّ بخيبة أمل كبيرة جدّاً. فقد كان هذا الجانب يكشف بوجه الإجمال عن شَبَه واضح بالجزء الآخر. ونقل ساقيه إلى سفح السور الداخلي وأقام ينظر حواليه. قد يحدث شيء، قد تمرّ إحدى الراهبات من هنا. وظلّ على هذه الحال بعض الوقت، ولكنّ الغابة بقيت ساكنة وغير قابلة للاختراق.

لم يكن في نيّته عندما تسلّق السور إلا التفرّج على أراضي الدير، وأمّا الآن فكأنّ حاجة جسدية إلى القفز داخل السياج كانت تحاصره وتعذّبه. وأدرك بعد بضع ثوانٍ أنّه لايستطيع المقاومة. لقد كان من الممكن تأخير هذه التجربة، ولكنْ كان «ينبغي» القيام بها عاجلاً أو آجلاً. وغدا ثائراً إلى

twitter @baghdad_library

حدّ أنّه لم يستطع مزيداً من الانتظار فهبط إلى الأرض وسط الأجم محدثاً جلبة وجملة من الأضرار في ملابسه. ونهض وظلّ بلا حراك متنفّساً بصوت مرتفع ومصغياً. ما أشدّ ما كان كلّ شيء هادئاً. وابتعد بحذر عن السور وسار على مهل نحو الممشى حيث كان يرجو أن ينكشف له مشهد كامل للأبنية.

وإذ كان مضطرباً بعض الشيء وعالماً بإمكان سماع صوت صارم بين لحظة وأخرى طالباً إليه تفسير عمله فقد وصل إلى فضاء مكشوف عند نهاية الممشى المعتنى به عناية فائقة. ومع ذلك فإنّه لم يكن يقود إلى أيّ مبنى، وإنما إلى سور أقلّ ارتفاعاً من الذي سبق له تخطّيه، وكان فيه باب. ولم يكن هناك شيء آخر يُرى. وظلّ ساكناً طويلاً وهو ينظر وخياله يسبح بين رؤية الراهبات الطيّبات هاربات صارخات صرخات حادّة، ورؤيتهنّ على العكس من ذلك هاجمات عليه وكأنّهن كاهنات أحد معابد الإله باخوس. وكان يجهل أيّ الصورتين أدعى إلى القلق، بيد أنّه دهش على الأخصّ أمام تفكيره بالتي كان يراها أشدّ إساغة. وبالتدريج وبينما كان لايزال في ذلك السكون المثير، زاد ذهوله لجسارته. وفكّر في أنّه من الخير له أن يتسلّق السور من جديد ليهبط إلى الجهة الأخرى، ولكنّ التكرار في نهاية الممشى وفي السور والباب كان يشكّل تحدّياً شديد الفتنة. وإذ عجز عن حجب بصره عن ذلك كلّه وشعر بنفاد الصبر فقد انسلّ بين الأشجار في ذلك الاتّجاه.

وحين بلغه نظر خلفه فإذا سور الحرم العالي كان قد بدا بعيداً. وفكّر في أنّه قد يكون مضطراً إلى الرجوع بأقصى سرعة. ونظر إلى الباب الصغير: هنا كان السور أقل ارتفاعاً، ومع ذلك فإنّه لايزال مرتفعاً جداً ليسمح برؤية شيء. واختفى في ظلّ الأشجار الذي كان لابدّ أن يمتدّ على الرغم من انتهاء الجادّة في هذا المكان. ووضع يده على المزلاج مطلقاً تنهّدة حادّة، وإذ ضغط إلى أسفل فقد نزع العارضة الحديدية بجلبة كبيرة. وعندها صرّ

الباب صريراً خفيفاً فواربه على مهل قلقاً لكـل ذلك الضجيـج . ومع هـذا فقد أكمل حركته إلى أن انفتح الباب انفتاحاً كاملاً. وتوقّف: لقد كـان في مقبرة.

وظـلّ بلا حـراك أمام هـذا الديكـور غير المتـوقّـع ويـده عـلى المـزلاج. وانكشفت لعينيـه مساحـة كبيرة مخضـوضرة محصورة بمستـطيل من الجـدران اصطفت داخلها بوضوح صفوف وصفوف من القبور زُيّن كلّ منها بصليب صغير أبيض. وكان لصق أبعـد جدار خطّ من أشجـار السرو السوداء التي أهزلتها الشمس يضفي عـلى هذا المكـان مظهـراً جنوبيـاً غريبـاً جدّاً. وزاد فزعه بشكل فظيع من هذا الاكتشاف عندما لمح بالقرب منـه راهبتين يبـدو أنّهما كـانتا تعتنيـان بالقبـور. وكانت إحـداهما تمسك بيدهـا مقصّـاً لقـطع النبـات. وكان هنـاك آلة لتشـذيب العشب، ولكنّهـا لم تكن قـد استعملت بالطبع وإلا لكان سمع صوت محرّكها. ونظر إلى الراهبتـين، وكانت هـاتان اللتان توقّفتا عن العمل عند سماعهما الباب يفتح تنظران إليه كذلك.

وضعت الراهبة صاحبة المقصّ آلتها وتحدّثت بصوت خافت إلى الراهبـة الأخرى ثم إنّها تقدّمت من توبي وثوبها الطويل يكنس العشب. ونظر إليهـا تتقدّم منه وقد شلّه الخجل والقلق.

وعندما أصبحت قريبة منـه بالقـدر الكافي ليثبت عليهـا نظراتـه المفزّعـة لاحظ أنها كانت تبتسم. وتراخت يـده عن المزلاج وتـراجع بشكـل آلي إلى خارج المقبرة. وتبعته وأقفلت الباب خلفها وأصبحا وجهاً لوجه في الممشى.

قالت الراهبة:

ـ صباح الخير. لا بدّ أنك توبي على ما أظن؟ هل حزرتُ؟

قال توبي رافعاً رأسه:

ـ أجل.

وأخذا يسيران على مهل بين الأشجار فقالت الراهبة:

twitter @baghdad_library

ـ كنت أعتقد ذلك. فعلى الرغم من أنّنا لم يسبق أن التقينا فإنّه يخيّل إلينا أننا نعرفك وكأنّك واحدٌ من أعزّ أصدقائنا.

كانت تبدو مرتاحة جدّاً في حين كان هو على العكس منها يقاسي مرّ العذاب.

ـ أظنّ أن مقبرتنا الصغيرة قد ادهشتك كثيراً؟

ـ بالفعل!

قالت الراهبة:

ـ إنه مكان جميل حميم جدّاً وصعب البلوغ جدّاً، ويكاد يشبه مَهْجعاً كما يخطر لي أحياناً. وما أعذب أن يعرف المرء أنه سينام فيه هو نفسه ذات يوم.

أجاب توبي بشجاعة بطولية:

ـ جميل جداً، أجل.

ومرّا تحت أرزة كان يتدلّى شيء بين أغصانها. كان ذلك الشيء أرجوحة. ومن غير أن يريد مدّ يده ولمس الحبل.

قالت الراهبة التي نمّت لهجتها بوضوح عن كونها إيرلندية:

ـ إنها أرجوحة جميلة. لماذا لا تجرّبها؟ حتى بالنسبة إلينا قد يحدث ذلك أحياناً.

وتردّد، ثم جلس في الأرجوحة وقد احمّر وجهه بقوّة، وتأرجح عدّة مرات. وكانت الراهبة تنظر إليه وهي تبتسم.

وتمتم كلاماً ونزل راغباً في أن يركض ويختفي تحت الأرض. وأشاح بوجهه ومشى إلى جانب الراهبة التي استمرّت تتكلّم إلى أن بلغا الباب القائم في سور السياج. وفتحته فقال توبي:

ـ ألم يكن مقفلاً بالمزلاج؟

أجابت:

ـ ولماذا يكون؟ إننا لم يسبق لنا قطّ أن اهتممنا بإقفال الأبواب. أرجو أن يكون تسلّقك قد روّح عنك، فطالما أبدى الشبّان استمراء لتسلّق المرتفعات.

وجذبت مصراع الباب المفتوح مشرقة الوجه فاجتازه توبي ونظر كلّ منهما إلى الآخر لحظة من جهتي الباب المتقابلتين. وفهم أنّ عليه أن يعتذر فبحث عن الكلمات المناسبة بصعوبة. قال:
ـ آسف، أعلم أنّه لم يكن ينبغي أن أدخل.
قالت الراهبة:

ـ لا ترهق نفسك. لقد قيل إن الفضول يقتل الهررة، ولكنْ عندما كنت في مثل سنّك لم أكن لأصدق ذلك قطّ. ومن جهة ثانية فإنّنا نملك نظاماً خاصّاً يتيح دخول السياج للأولاد.

وأغلقت الباب فشعر الدخيل بأنها لاتزال تبتسم في الناحية الأخرى. واستدار ليرى الجادّة.

كان كل شيء ساكناً. وكان قليل من الشهود قد رأوه داخلاً، وشخص واحد حضر خروجه المخزي. وانحدر في الممشى راكضاً تائقاً إلى الابتعاد بأقصى سرعة عن السياج الخطِر الذي لايزال ـ كما بدا له بعدُ ـ أشدّ مناعة ممّا كان.

وشعر بأنّه مثار للسخرية وذليل وخجِل، وركض مطأطأ الرأس لاعناً تهوّره. واقترب لاهثاً من الطريق للانتقال إلى مرجة العشب، وبينما كان يجتاز رأى اللاند روفر تتقدّم ببطء لاجتياز الأبواب. ونبض قلبه بعنف، ولكنّه سرعان ما أدرك أنّ الذي يمسك بالمقود لم يكن «ميد» وإنما سترافورد.
وإذ عرف مارك الشابّ فقد خفّف من سرعة السيارة وناداه:

twitter @baghdad_library

ـ اركب، تأخّرنا عن موعد الغداء.

صعد توبي إلى جانبه جاهداً أن يصوغ وهما يتوجّهان إلى البيت أجوبة ذات مغزى عن شكاوي السائق من طبع الناس العنيد في سوق «سيرنسستر». وتوقّفا أمام السلالم فاندفعت السيدة مارك تتأكّد من أنّ زوجها لم ينس أيّاً من الأشياء التي أوصته بإحضارها.

سألها توبي:

ـ هل تستطيعين أن تقولي لي أين هي دورا الآن؟

وأدارت السيدة مارك نحوه وجهها المستدير اللامع متعجّبة أشدّ التعجب وقالت:

ـ كيف؟ ألا تعلم؟ لقد غادرتنا السيدة غرينفلد وعادت إلى لندن.

الفصل الرابع عشر

كانت دورا غرينفيلد في ذلك الصباح لاتزال في السرير. وكانت قد ضاجعت پول الذي ذهب بعدها للعمل. وكانت قد تلقّت معانقاته من غير حماسة، وشعرت بأنها متعبة ونهبٌ للأوهام. وكانت ساعة الفطور قد فاتت، فلم يكن هناك ما يدعو إلى النهوض الآن أو فيما بعد. ونظرت من سريرها خلال النافذة المفتوحة إلى السماء التي كانت قد صَفَتْ مرة أخرى، وتساءلت إزاء عمق الفضاء عما إذا كان أزرق أو رمادياً لأنّها لم تكن تستطيع تحديد لونه من غرفتها القائمة في الجهة الشمالية. وأشعلت سيكارة وشدّت الغطاء حول جسدها، فقد كان في الهواء بعض الرطوبة.

لم يكن هناك ما يسير سيراً حسناً مع زوجها منذ أن ألقى خطابه القصير في مدح كاترين. وما كان ذلك ليعني غَيْرة منها أو تخيّلاً بأن الفتاة قد أدارت حقاً رأس پول؛ وإنما كانت تحسب بدقّة مُرهِقة غير مألوفة لديها الازدراء الحقيقي الذي دَاخَلَ الحبّ الذي يكنّه لها، ازدراء لا علاج له في رأيها لأنها قلّما كانت تراودها الأوهام في إمكان أن تتغيّر حالها. وماكان قد خطر في بالها أن تتساءل عمّا إذا كان من الممكن أن يتغيّر پول نفسه، ولا أن تأمل بالإجمال في شيء من ذلك. وأحسّت بالانتقادات الهدّامة موجّهة إليها. وبالتالي فإنّ ما كانت تبديه من مظاهر الحبّ كان يُساء تَقَبُّلُه. ومع ذلك فقد كانت في زاوية متواضعة من ذاتها تحبّه كما يمكن أن يُحب شخص غريب، من غير أمل، وبكآبة وحياء.

twitter @baghdad_library

وكانت مشاجراتهما قد عادت سيرتها الأولى. وكثيراً ما كانت قد ذهبت لزيارته في ردهة اللقاءات لإلقاء نظرة على كتبه التي كانت تبدو لها، باستثناء عدد مقتضب من الصور، كالحة. وعليه فقد جهر پول بمرارة بأنّه، نظراً للامبالاتها حيال كلّ ما يخصّه، يرى من الصعوبة بمكان إبداء بعض الاهتمام به. وهكذا لم تعُدْ تزوره مذّاك خلال النهار، وأخذت تتسكّع منطوية على نفسها أو قائمة ببعض الأعمال المنزلية بإشراف السيدة مارك. وكانت تظنّ أنها مُراقبة وتتصوّر أن الجميع كانوا يلاحقونها بنظراتهم ليعرفوا ما إذا كانت رائقة المزاج أو إذا كانت قد تصالحت مع زوجها. وكانت تشعر بأنّها مُوَجَّهة ومُحاصَرة. وكانت السيدة مارك قد لّمحت ثلاث مرات بأن محادثة مع «الأمّ كلير» قد تكون ميمونة. وبمرور الوقت قالت دورا خارجة من سكونها إنها ربّما قابلتها ذات يوم، وكان لا بدّ أن تدفع بها السيدة مارك مجدّداً إلى ضرب موعد. وسحقت سيكارتها بعناية فوق ظهر علبة ثقاب وقرّرت أن تنهض.

وإذ كانت تتوجّه إلى النافذة فقد توقّفت أمام المرآة الكبيرة. وكانت ترتدي إحدى البيجامات الزرقاء المصنوعة من النايلون التي عثرت عليها مع الحقيبة، وأخذت تتأمل في ذاتها بصرامة متسائلة عمّا إذا كانت قد ضمرت حقّاً، وعمّا إذا كان لون بشرتها قد تحسّن بسبب إضرابها عن شرب الكحول. ولكنّها لم تتمكنّ من الاهتمام بما كانت ترى، ولا من التأكّد منه، حتى إنها لم تستطع أن تركّز بصرها بشكل مناسب على تلك الصورة المصابة بالذهول. وارتفقت النافذة. كانت الشمس تتلألأ، والبحيرة مزروعة بالانعكاسات، والبرج النورماندي يكشف عن أحد سطوحه المذهّبة، بينما كان الآخر مغطّى بالظلّ، فراودها إحساس غريب جدّاً بأن لا وجود لهذا المشهد إلا في عقلها. ولم يكن هناك من وسيلة للمشاركة في المشهد، فكل شيء كان خيالياً.

وإذ أفزعتها هذه الفكرة فقد بدأت ترتدي ملابسها، وحاولت أن تفكّر في شيء محسوس، بيد أن الشعور باللاواقع ظلّ مستمرّاً. وخيّل إليها أن وعيها قد قَضَمَ ما كان يحيط، وبدا كل شيء الآن ذاتياً. حتى پول نفسه كان في الصباح ذاتيّاً، وطريقتها العجيبة في المضاجعة كانت أشبه بشيء حلمت به، ولم تكن لقاء مع كائن آخر حيّ. وتساءلت عمّا إذا لم تكن مريضة. وربّما كان عليها أن تستعير ميزان الحرارة من مارك سترافورد وتجد دواءً ما في خزانة الصيدلة.

عادت إلى النافذة وخطر لها أن تحاول رؤية المنظر بهدوء. وكانت الخاطرة تتلخّص في قذف شيء صلب جدّاً إلى الخارج فيسقط في البحيرة مُحدِثاً رشاشاً ومزعجاً لعبة انعكاس الأضواء. ووسّعت من فتحة النافذة وبحثت عن شيء ترميه. لم تكن علبة الثقاب ثقيلة بما فيه الكفاية فتناولت اصبع أحمر الشفاه واطلقته بكل ما فيها من عزم. وتوارى ساقطاً على الأرجح بعيداً جداً عن البحيرة، في الأعشاب العالية ولاريب، فحزنت.

وعندها فقط بدأت تتمنّى أن تعود إلى لندن. ولم تكن منذ وصولها إلى «إمبر» قد خطّطت جدّياً للرحيل عنها، وأمّا الآن فكانت تشعر بالحاجة إلى تنفيذ الأمر مدفوعة بذلك الضيق المَرَضيّ الرهيب للغاية. وخُيّل إليها أن العمل الوحيد الذي يمكنها القيام به هو أن تستقلّ القطار إلى لندن. وإزاء هذه الخاطرة تدفّق الدم إلى صدغيها. وأحسّت بالتهاب في خدّيها، وكان قلبها ينبض نبضاً حقيقياً هذه المرّة. وارتدت معطفها وتفحّصت حقيبة يدها فوجدت مايكفي من المال. لن يقفها شيء فقد كانت امرأة متحرّرة. وجلست على سريرها.

هل كان عليها أن ترحل؟ سوف ينغّص رحيلها پول، بيد أنّ علاقاتهما كانت من السوء في الأيام الأخيرة بحيث يبدو من العسير أن تكون أسوأ. ثم إن هذه الصدمة قد تجلب له الراحة، ذلك ما خطر لها بمنتهى الحزم.

twitter @baghdad_library

واستيقظت في أعماقها الحاجة إلى معاقبته، فهو لم ينفك خلال اليومين الأخيرين عن أن يكون بغيضاً. وكان ينبغي أن تثبت له أنّ في وسعها التصرّف، وأنها ليست جاريته. أجل، سوف ترحل، وقد غدت هذه الفكرة التي بدأت تزداد صلابة فاتنة خلّابة. إنها لن تذهب طويلاً بالطبع، وربما كان ذلك حتّى غد. ولم تكن تريد إحداث فضيحة، فسوف تعود متطلّقة رشيقة على الفور تقريباً. وماكان من الضروري رسم مشاريع طويلة الأمد، ولكن ياله قراراً، ويالها إهانة تُوجَّه إلى أعضاء «الجماعة»! ووضعت حاجاتها في حقيبة صغيرة وذهبت خلسة على قدميها إلى المحطة تاركة كلمة تعلن فيها: «أنا ذاهبة إلى لندن».

لم تكن قد فكّرت بالطبع في الاستعلام عن مواعيد القطارات. ومع ذلك فقد كان من حسن حظّها أن أُعلن منذ وصولها إلى المحطة مبهورة الأنفاس عن وصول قطار سريع، واعترتها دهشة كبرى إذ لاحظت وهي تنتقل إلى رصيف «بادنغتون» أن النهار لم يكن قد انتصف. وانتظرت برهة تاركة حشد الناس يتدفّق سعيدة بالمزاحمة وسط الخضمّ، وبسماع ضجيج القطارات، وباستنشاق روائح الشحم والبخار والسخام، وبأن تلتقي من جديد جلبة مدينتها ولطفها وتكتّمها التي تشفي العليل. وشعرت للّحظة بأنها استعادت نفسها. وانطلقت إلى غرفة للتلفون وطلبت رقم «سالي». وإذ كانت صديقتها التي تدرّس في مدرسة ابتدائية قلّما تكون في منزلها إلا في حالات شاذّة فإنها لم تتلقَ جواباً. ولم يزعها وازع عن أن تتلفن إلى «نويل» وهي مطمئنة النفس.

كان في منزله، وقد ألحّ بنبرة تنمّ عن الجذل والنشوة على أن تأتي لتناول الغداء، على أن تأتي في الحال. وكان برّاده ممتلئاً بأشياء لذيذة، ولم يكن لديه عمل عصر هذا اليوم، ولم يكن شيء ليتّفق خيراً ممّا اتفّق. وقفزت إلى تاكسي وهي تكاد تطير من الفرح. وسرعان ما وصلت. كان «نويل» يسكن

بيتاً كبيراً يعود عهده إلى ماقبل العصر الفيكتوري، ولونه بلون القشدة، وله بوّابة واسعة مفتوحة على زقاق مسدود تظلّله الأشجار قرب «برومپتون رود»؛ وكان يقيم في الطبقة الأخيرة منه.

كان اللقاء حارّاً، ولم يدع لزائرته وقتاً لاجتياز الباب إذ أخذها بين ذراعيه وأرجحها ورفعها عن الأرض ثم ألقاها على الصوفا وهو يتواثب حواليها مثل كلب كبير. وأخذا يضحكان ويتكلّمان بأعلى صوتيهما في وقت معاً. وعجبت دورا إذ أدركت كم كانت سعيدة. وصاحت:

ـ يا للعجب! ما أشدّ ما تريحني هذه الجلبة كلّها.

قال «نويل»:

ـ لا داعي للعجب بعد الإقامة في ذلك الدير الملعون. دعيني أنظر إليك. أوه، أجل! إنك أكثر شحوباً وأشدّ نحولاً! عزيزتي، حبيبتي، ما أسعدني برؤيتك!

ورفعها وقبّلها بصخب. ورفعت دورا إليه ناظريها، ومرّرت أصابعها على وجهه وفي شعره الحائل اللون، واستحوذت على يديه الضخمتين وإنْ لطيفتين. ما كان أطوله، ويا لله، ما كان أعظم ما يجلب السلام والراحة.

وقالت آمرة:

ـ قدّم لي قدحاً.

كانت الشقة حديثة يغطي أرضيتها موكيت رمادي اللون وتضم رفوفاً مطلّية بالأبيض عليها كتب في الاقتصاد السياسي، وبشكل خاص كتب لإرشاد المسافر إلى البلاد الأجنبية. وكانت ثلاثة من الجدران مطلية باللون الأصفر والرابع مغطى بورق أسود وأبيض يوهم بأنه حُرَيْج من القصب. وكان كل شيء لامعاً مُتَعَهّداً، وكان يشغل زاوية كبيرة من الحجرة بيك آب شديد الحساسية من خشب الجوز الخفيف تدعمه كدسات عالية من

twitter @baghdad_library

الأسطوانات، وكان يغطّي الديوان الواسع غطاء سرير من القماش السكوتلندي ذي الرسوم الهندسية، ويزيّنه عدد كبير من الطنافس تتفاوت خُضرة لونها الأخضر، وكانت الأرائك من الفولاذ المثنّى مريحة للغاية.

ومدّدت ذراعيها وهي تسمع قعقعة مكعّبات الثلج وتستنشق عطر الليمون الحامض وقد قطّعه مضيفها بسكّين مسنونة جيداً. فلقد أثبت لها «نويل» أنه لا خجل من تمتّع الانسان بشبابه.

وأعلنت قائلة:

ـ سوف أستحمّ.

ـ بالطبع يا حبيبتي، هيّا. سوف أحضر لك قدحك إلى الحمّام. أعتقد أنّ هذه العادة المترفة بالإقبال على الملذّات محظورة في الدير.

لم يكن سخّان الماء الذي تملكه «الجماعة» يعمل إلاّ مرتين في الأسبوع، وكانت لائحة ألصقتها السيدة مارك عند باب الحمّام تبيّن نظام الأفضليّة.

ولم تكن دورا التي ترى في الاستحمام بذخاً أكثر ممّا ترى فيه ضرورة قد استحمّت أبداً في «إمبر»، وأمّا الآن، في حمّام «نويل» الأزهر والأبيض فقد أسالت الماء الشديد السخونة بلذّة عارمة وصبت فيه مساحيق معطّرة وتناولت من خزانة الحائط منشفة دافئة مُزْغِبة. وعندما وصل حاملاً إليها قدح الكوكتيل كانت قد دخلت المغطس. قال وهو يجلس على حافّته:

ـ والآن خبرّيني. أهي الجحيم هناك؟

أجابت دورا:

ـ لايزال الأمر محتَملاً جدّاً في الوقت الحاضر. ولن أقضي هنا سوى نهار واحد على كل حال، فإعلم. لقد شعرت أنني بحاجة إلى تغيير. لم أتحدث حتى الآن إلى راهبة غير التي لها الحق بالخروج من الدير، بيد أنه يعتريني إحساس فظيع بأنّي مُراقَبة على الدوام.

ـ وكيف حال ذلك العمّ پول العزيز؟

ـ جيد جدّاً. الحقّ أنه كان بغيضاً معي هذه الأيام الأخيرة، بيد أنّي أظنّ أن الذنب ذنبي.

وهتف «نويل» مستغرباً:

ـ عدتِ سيرتكِ الأولى! لماذا تشعرين دائماً بأنّك مذنبة؟ في بعض الأمور ربما تكونين، ولكنّك لست كذلك فيها جميعاً. المزعج أن پول يحسدك على مزاجك الكيفي لأنه محروم منه تماماً.

قالت دورا:

ـ لا تكن أبله إلى هذا الحدّ، فأنا لا أملك أية نزوة وپول مفعم بالنزوات. هل تريد أخذ كأسي ومناولتي الصابون؟

قال «نويل»:

ـ هيّا، لنتوقّف الآن عن الكلام على پول ونتحدّث عن ذلك المناخ الديني الذي تعيشين فيه. لا تتركي لهم مجالاً للعبث بوجدانك. إن هذا النوع من الناس يتوق إلى الإحساس بالخطيئة والعيش في جوّ من الاضطراب والمهانة. ولا بدّ أنك مأخذ مهمّ: «الزوجة المستغفرة، وهكذا دواليك». ولكن إيّاك والسقوط في الأحبولة، ولا تنسيْ قطّ يا حبيبتي أنّ ما يؤمنون به باطل.

صاحت دورا:

ـ إنّك تشرب كأسي! أجل أعتقد أنهم على باطل. بيد أنّ هناك شيئاً مقبولاً جدّاً فيهم.

قال «نويل»:

ـ قد يكونون أناساً طيبين، ولكنهم مخطئون تماماً، وعلى المدى الطويل لا يخرج ماهو حسن من المعتقدات المغلوطة، فالله لا وجود له، وليس من

twitter @baghdad_library

حساب سوى الذي يجريه كل منّا مع نفسه، بيد أن هذا عمل خاصّ. ومع ذلك فإنّ علينا أحياناً أن نتدخّل لمنع الأشخاص من عمل ما لايروق لنا من الأمور. ولكنْ بحقّ الله لا تدعيهم ينقلون إليك عدواهم. إنّي لا أستطيع تحمّل الأراذل الراضين عن أنفسهم الذين يسمحون لأنفسهم بمحاكمة الآخرين موهمين إيّاهم بأنهم لا يساوون شروى نقير. وإذا رغبوا في التلذّذ بالشعور بالمهانة فلندعهم وشأنهم؛ وأما إذا أرادوا التأثير في محيطهم فمن الضروري «محاربتهم».

قالت دورا:

- تبدو متحمسّاً جداً! ناولني المنشفة.

أجاب «نويل»:

- أجل، إني نشط ومندفع. لا تتعرضي للبرد يا لطيفتي. سأذهب لتحضير قدح آخر لك ووضع أسطوانتي الجديدة. لو تعلمين أني أستفظع التفكير في أولئك الناس الذين يزوّدونك بعقدة الدونيّة ويتسبّبون في إشعارك بأنّك خاطئة في الوقت الذي لست فيه حقّاً مسؤولة إلى هذا الحدّ. والتفكير في ذلك الشيخ پول الذي يلعب دور الزوج الجريح الفاضل يشعرني بالرغبة في التقيّؤ. وإني لاتساءل عمّا إذا كان ذلك المكان يقدّم فائدة تتعلق بما يجري حالياً من أحداث. فتجمعّات المعتوهين هذه تثير الاهتمام أحياناً بتميّزها وانفرادها. هل في وسعي الذهاب إلى هناك لإلقاء نظرة فاحصة؟

قالت دورا وقد صدمها السؤال:

- لايمكن أن يكون كذلك يا عزيزي فالأمر مستحيل تماماً. سوف يمتلكون جرساً جديداً، أي أنّه سيكون للدير جرس معلّق في البرج، وأظن أن الصحافة سوف تُخطر ببلاغ في هذا الصدد. وإلاّ فلن يحدث شيء،

وسوف يتضايقون بشكل فظيع لو أخذ أحدٌ يكتب عنهم. «إنهم» بصراحة يا «نويل» لطفاء جدّاً.

أجاب «نويل»:

- لا بدّ أن يكونوا كذلك ما دمتِ أنتِ القائلة. اسمعي هذا يا مَلاكي.

سمعت وهي ترتدي ملابسها قرعَ طبلٍ منتظماً ثم اختلط بهذا الصوت الموقَّع هتافات احتجاج غير منتظر من منجيرة وبوق. وغطّى على القرع الذي غدا أشدّ ممّا كان في أيّ وقت جلبةٌ حزينة متصاعدة. وأخذت الموسيقى تنهمر على الحجرة عنيفة لاسبيل إلى مقاومتها. واندفعت دورا خارجة من الحمّام للانضمام إلى مضيفها الذي كان قد أخذ يذرع الحجرة مثل فهد. وبدآ يرقصان على مهل جداً في البدء، ثم بأبّهة والعينان في العينين. وكانا يوقّعان النغمات بحركات خفيفة من الرأس واليدين والردفين. وعندها تحرّكت الأقدام بسرعة كبيرة أوحت بها الخطوة المعقّدة على البساط في الوقت الذي كان «نويل» يخلّص فيه وسط الحجرة من الأرائك والطاولات. ثم إنّه مدَّ يداً نحو دورا فرجّحها ورمى بها إلى خلف لتدور وتحوّم حتى لم تعُدْ سوى مِشكال من تنّورة مشمَّرة وساقين باهرتين وشعر كستنائي مذهّب منسدل على وجهها.

وما إن توقّفت الموسيقى حتى سقطا منهوكين على الأرضية وقد انفجرا ضاحكين بعد طقس الرقص الاحتفالي، وعندما انتهى جذلهما نظر كلّ منهما إلى الآخر وهما لايزالان جالسين أرضاً متخاصرين ويداهما متشابكتان.

صرخ «نويل»:

- كافحي! لا تنسيْ كافحي! والآن أيتها المخلوقة العزيزة ينبغي أن أتركك لجلب الشيء الوحيد الناقص، زجاجة نبيذ. لن يطول غيابي. كما تعلمين فإن البائع على الناصية تماماً. دعيني أملأ قدحك قبل أن أذهب. سيكون بإمكانك أن تتسلَّي في أثناء ذلك بإخراج الغداء من البرّاد.

twitter @baghdad_library

وقبّلها وتوجّه نحو الدرج وهو يغني.

ظلّت الشابة بعد أن خرج جالسة برهة على الأرضية وهي ترشف كأسها التي مُلئت من جديد وتتذوّق إحساساً عارماً برغد بدني أغدقه الرقص. ثم نهضت إلى المطبخ وفتحت البرّاد حيث كانت تبدو بالانتظار بعض الأطعمة المغرية. وأخرجت عدّة أصناف من لحم السلامي وزيتوناً محشوّاً ومطحون الكبد وبعض حبّات البندورة والخيار وقرط موز وقطعة ثخينة من اللحم الأحمر. ونظرت، هي التي تحبّ أن تتغذّى بفضل وجبات صغيرة متتالية، إلى مختلف الأطعمة برضى. ووضعتها على المائدة وتبلّتها بالثوم والفلفل والزيت والخلّ وخردل ديجون والملح البحري وكل التوابل التي كانت تعلم أن «نويل» يستعملها. فطالما كان الطباخ لهذه الوجبات البسيطة الشهية وكانت هي مساعدته المُعْجَبة. ولقد كانت تطفح بِشراً.

أخذ التلفون يرنّ في غرفة الجلوس. وبردّ فعل لا إرادي تناولت السمّاعة. وإذ كان فمها محشوّاً بحفنة كبيرة من بسكويت الكوكتيل فقد كانت عاجزة عن النطق، وكان على السائل أن يكون البادىء بإسماع صوته. وسأل صوت پول: «آلو، هل هنا برومپتون ٨٣٧٩؟».

ارتعدت دورا. وبلعت بسكويتها وهي تُبعِد السمّاعة عن أذنها وتنظر وكأن حيواناً مفترساً يتواثب أمام عينيها.

وساد صمت، ثم استأنف پول قائلاً:

- آلو، هل استطيع أن أكلّم السيد سپنس؟

كانت تكاد تسمع مايقول، ومن غير ضجّة قرّبت السمّاعة من أذنها.

- هنا پول غرينفلد. هل زوجتي عندك؟

كانت دورا تعرف هذه النبرات القاسية المرتعدة غضباً؛ وبمشقّة تجرّأت على التنفّس خشية أن يسمع صوت نَفَسِها فيعرف أنها كانت على طرف

الخطّ الآخر. ولم يكن في وسعها العزم على وضع السمّاعة جانباً. وإذا هي لم تتحرّك فربّما تصوّر أنّ الرقم المطلوب مشوّش.

وعندها قال پول: «دورا».

حين سمعت اسمها أغمضت عينيها وتقلّص وجهها بفعل العذاب. كانت مثلّجة الأطراف تكاد تستطيع أن تتنفس.

كرّر پول:

ـ دورا. دورا، أهذه أنتِ؟

وبغتة سمعت في فترة السكون صوتاً آخر خلال الخطّ. وظلّت لحظة لا تفقه شيئاً ثم تعرّفت إلى تغريد شحرور. وأرسل الطائر بضع نغمات وصَمَت. وتذكّرت أن غرفة التلفون في «إمبر» تقوم عند أسفل السلّم في المدخل. ولابدّ أن يكون الطائر على السُطيحة. واستأنف تغريداً صافياً جدّاً واضح الرنّة، ولكنّه كان معزولاً بشكل لا يرحم بعد أن سكت صوت زوجها. ووضعت التلفون بحذر على الطاولة وذهبت إلى المطبخ. ونظرت بنوع من الاستغراب إلى كومة الأغذية في البرّاد المفتوح الباب، وإلى كأسها الممتلىء حتى نصفه. وإذ عادت إلى الحجرة فقد أعادت سمّاعة التلفون إلى موضعها.

ورجعت إلى المطبخ. كانت على الطاولة قطعة من اللحم نيئةٌ راشحةٌ قد التصقت بالورقة المدمّاة التي كانت تغلّفها. وبدا لها الثوم والزيتون والزيت وكأنّها أجزاء معروضة في محاولة إغراء كئيبة. هنا أيضاً كانت رهن إرادة الغير. وكان الإحساس باللاواقع قد عاود. وبعدُ فإنه لم تحدث قطّ حركات ولا تواصلات. وبقيت مكانها حزينة لا يَقرّ لها قرار. إنها لم تعُدْ راغبة في تناول الغداء مع «نويل»؛ وكانت تتمنّى أن تبتعد عن التلفون. وتناولت معطفها وحقيبتها وخطّت كلمة وزحفت إلى مصطبة الدرج. وكانت تعرف أن «نويل» لن يعلّق أهميّة على فرارها. وكان هذا هو الجانب الرائع فيه

twitter @baghdad_library

المباين جدّاً لما عليه زوجها! فلم تكن تثير هـواجسه أحـداث صغيرة كمثـل المجيء للغداء عنده على حين غرّة ثم التواري بشكل مباغت.

ما إن وصلت إلى ناصية الشارع حتى استوقفت سيارة أجـرة. وإذ كانت السيارة تستديـر لاستقبالهـا عند حـافة الـرصيف فقد رأت «نـويل» راكضـاً للقـائها وزجـاجة النبيـذ في يده. وقـد وصل في الـوقت الـذي وصـل فيـه التكسي فسأل:

- إلي أين تذهبين الآن؟

- إن پول يلاحقني.

- يالله، وماذا قلت له؟

- لم أقل شيئاً؛ وضعت سماعة التلفون جانباً.

- سوف يأتي؟

- كلا، لقد اتّصل من الريف. سمعت طائراً يغـرّد. وإذ لم أُجب فليس في وسعه أن يعلم.

- حسناً. وماذا بشأن غدائنا؟

أجابت دورا:

- لم أعُدْ راغبة في شيء. سامحني، أرجوك.

قال «نويل»:

- كنت أظنّ أنك مناضلة.

قالت دورا:

- إني عاجزة عن النضال. بل إنّي لم أكن قادرة يوماً على تمييز الفرق بـين الخـير والشرّ. ولكنْ ليس هـذا مهـمّاً. آسفـة للفـرار. لقـد تمتّعت جـدّاً برقصتنا.

أجاب «نويل»:

- وأنا أيضاً. حسناً اذهبي؛ لكن لا تنسيْ أنّ أولئك الناس مخطئون.

أجابت:

ـ اتفقنا.

واستدارت نحو السائق وألقت إليه بأول عنوان خطر لها: «ناشيونال غاليري».

صاح «نويل»:

ـ لا تنسيْ! لا وجود لله!

* * *

لم يكن في نيّة دورا بالتحديد الذهاب إلى «ناشيونال غاليري»، ولكنْ لما كانت هناك فقد دخلت. هنا أو في مكان آخر لا فرق لتقرير ما يمكن عمله. ولم تكن راغبة في تناول الغداء، وتساءلت عمّا إذا كانت ستتّصل مجدّداً بـ«سالي»، بيد أنّها لم تشعر بأي رغبة في ذلك. وصعدت درجات المتحف وجالت كيفما اتّفق في جوّ الحجرات المكيّفة الربيعي على الدوام.

لقد سبق لها أن زارت «ناشيونال غاليري» عدداً لا يُحصى من المرّات، وكانت اللوحات مألوفة لديها أَلِفَتَها لذاتها تقريباً. وإذ كانت الآن تجول بينها وكأنها خلال أجمة حبيبة جدّاً إلى قلبها فقد شعرت بالراحة تعاودها. وتسكّعت قليلاً ناظرة بشفقة إلى الزوّار المساكين المسلّحين بالكتيّبات الحافلة بصور الرسوم وهم يتفرّسون بلهفة في الروائع. فلم تكن هي تشعر بالحاجة إلى إبداء اهتمام ثابت؛ فقد كانت تتطلّع وكأنها شخص يعرف هذه الأعمال الكبرى حقّ المعرفة مواجِهة إياها بالأهميّة المسبغة عليها. وكانت تشعر بأن هذه اللوحات ملكها وتفكّر بكآبة حادة في أنها حقّاً ملكيتها الوحيدة. وإذ أحسّت بارتياح غامض أمام هذه المعروضات الجذّابة التي كان لها صدىً في نفسها فقد قادتها قدماها إلى مختلف المرصّعات التي كثيراً ما أحبّتها من قبل؛ الفضاءات الواسعة المنيرة في الزيتيّات الإيطالية، وهي أرحب وأكثر جنوبيّةً من أي «جنوب» حقيقي، وملائكة «بوتيتشلّي» اللمّاعة مثل طيور

twitter @baghdad_library

ساحرة إلهية، بجذوع كأنها مخالب الدالية، وحضور «سوزان فورمان» الجسديّ الخلّاب، وحضور «مارغريت تريب» المأساوي جدّاً، ودنيا «پيرو ديلّا فرانشسكا» الحافلة بالأبهّة، ودنيا «كريڤلّي» المذهّبة الحافلة بالأسرار. وتوقّفت أخيراً عند صورة بريشة «غانسبورو» لا بْنَتَيْه. كانت هاتان الطفلتان تسيران خلال غابة ويداهما متشابكتان وقد ارتدتا ثياباً بألوان متغيّرة وعيونهما صارمة سوداء في وجهين شاحبين مستديري الوجنات، وكانتا متشابهتين تقريباً وإن متباينتين على الرغم من كل شيء.

وإذ كان الرسم قد طالما هزّ مشاعرها فقد كانت اليوم مسحورة بطريقة جديدة مصحوبة بنوع من عرفان الجميل لأن تكون هذه الأعمال لاتزال هنا، ملتهبة حبّاً لهيمنتها ونبلها وسخائها. فقد كان ذلك أمراً حقيقياً، أمراً كاملاً. فمن ذا الذي قال بشأن الكمال إنه يكون حيث تكون الحقيقة؟ وكانت ترى أنه حتى پول لم يكن موجوداً الآن إلا بوصفه واحداً تحلم به، أو بوصفه تهديداً غامضاً خارجياً لم يسبق قطّ أن وُوجِه أو فُهم فحواه. وبالعكس فقد كانت الرسوم ملموسة، وكانت تكلّمها بلطف وإن بنبرات غريبة، وكان سُمُوُّها وتأثيرها يدمّران نوبة الهستيريا المشؤومة التي أصابتها حديثاً. وعندما بدا لها العالم ذاتيّاً بدا لها بلا فائدة ولا قيمة، وأمّا الآن فقد اكتشفت أن هناك بعدُ تسليات أخرى.

كانت هذه الأفكار شبه الباهتة ترفرف في ذهنها. إنه لم يسبق لها أن انفعلت بتلك الرسوم ولا أن فكّرت فيها بهذه الطريقة، بيد أنها كانت مع ذلك قد حصلت على كشف بشأنها.

والتفتت من جديد إلى اللوحة المشرقة الرقيقة الشهيرة شاعرة برغبة مفاجئة في الجثو، في تقبيلها، في ذرف دموع، وتلفّتت حولها بقلق خشية أن يباغت أحد فرحتها العارمة. ومع أنها لم تسجد بالفعل فلا بدّ أن وجهها كان يعكس تعبيراً مدهشاً، وكانت الدموع تتكلّم حقّاً في عينيها.

ولاحظت أنها كانت وحدها في القاعة فابتسمت عائدة إلى بشاشة أقلّ إظهاراً لحكمتها. ورمقت اللوحات بنظرة أخيرة وهي لاتزال تبتسم ابتسامة القادر على الابتسام في هيكل لمعرفته أنه ذو حظوة ومشجِّع ومحبوب، ثم استدارت وتهيّأت لمغادرة المبنى.

كانت الآن تحثّ الخطى لأنها شعرت برغبة في تناول الغداء، ونظرت إلى ساعتها فلاحظت أنها ساعة تناول الشاي. وتذكّرت أنها تساءلت عمّا تفعل، وبدت لها الحقيقة ناصعة: عليها الذهاب فوراً إلى «إمبر». هناك كانت حياتها الحقيقية، هناك كانت مشكلاتها الحقيقية؛ ولمّا كانت أمورٌ خالصةٌ موجودةً في مكان آخر فمن الممكن أن تُلفى تلك المشكلات بعدُ محلولة. وكان ينبغي وجود رباط كانت تلمحه بشكل مشوّش من غير أن تكون قد فهمته بعد. إنه يجب التعلّق بهذه الفكرة: هناك رباط.

واشترت سندويشاً واستقلّت سيارة أجرة للعودة إلى «پادنغتون».

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

ما إن اتّخذت دورا قرارها حتى هدأت نفسها تماماً. وكان من حسن حظّها أن وجدت قطاراً على الفور تقريباً، بيد أنه كان ويالـلأسف بطيئـاً. وكانت تشكو من جوع يجلّ عن الوصف. وعلى الرغم من تفكيرها بهلع في غضب زوجها فقد حاولت أن تحتفظ بالاقتناع بأن حدثاً طارئاً قـد برز في حيـاتها. ومع هذا فماذا يمكن أن تكون علاقة ذلك بوساوسها الحالية؟ لقد كان العيد ساحراً ولكنّ الأضواء كانت قد أطفئت. ومن جديد وجدت نفسها عاجـزة عن التفكير وغدت مثبّطة ساخطة مفزّعـة. وأوقفت سيّارة الأجـرة الخاصـة بـالقريـة على الـدرب تحت الطريق الكـبرى، إذ لم تكن تريـد أن تُقاد حتى القصر لكي تتفادى قدر الإمكان أن يلاحظ عودتها أحد. وعلاوة على ذلك فإنها كانت تخاف ألاّ يكون پول وحده وتخشى حدوث شجار في غاية العنف أمام الناس. ولمحت بعيداً أنواراً مضاءة بدت لها صارمة معادية.

كانت الساعة العاشرة قد دقّت حين وصلت إلى الردهة بأقصى ما أمكنها من هدوء. ولم يكن في وسعها رؤية نافذة غرفتها القائمـة في جانب البحـيرة الآخـر. وبدت لهـا مساحـة البيت مظلمـة تحت نور النجـوم الضئيل. وإذ بقيت ساكنة لحظة فقد سمعت بوضوح رنين بيانو. وأصغت حائرة مندهشة بـادىء الأمر، ثم تـذكّرت حفلة بـاخ الموسيقيـة. وكان اليـوم هو التـاريخ المعلن للحفلة، وكانت «الجماعة» مجتمعة بـالطبـع في الحجرة الكبـيرة. فهل كان پول يحضرها؟ وإذ استندت بحذر إلى الدرابزين لتتسلّق بلا ضجّة فقد

انزلقت على الدرجات حتى الشرفة، وكان من حسن الحظّ أنْ مَنَعَ التسجيل الرنّان أيّ أحد من سماعها تقترب.

وتوقّفت من جديد برهة خارج نطاق حزمة النور متيقّظة. أجل، كانت تلك بالتأكيد موسيقى باخ. وكانت تكره الموسيقى عندما لاتستطيع المشاركة فيها بالغناء أو بالرقص، وكان پول قد استنكف عن اصطحابها إلى الحفلات الموسيقية لشدّة ما كان يزعجه توقيع قدميها المستمّر. وأخذت الآن تستمع بنفور إلى اللوازم الموسيقية التي كانت تثير أعصابها رافضة الإصغاء إليها بحقّ. وزحفت في الظلام لتبلغ مكاناً قد يمكنها منه أن تغمر الحجرة بنظرة واحدة مطمئنة إلى واقع التقابل بين النور والظلّ الذي سيحجبها عن الرؤية. ولاحظت ـ وقد انزلقت على جانبها ـ أن في وسعها تفحّص القاعة. وتخيّلت أن الموسيقى كانت تقيم حاجزاً واقياً ضخماً بينها وبين هذا الحشد القريب جداً. وكانوا تحت سلطان السحر، وأدركت أن بإمكانها أن تجيل ناظريها فيهم مثل ساحر يراقب ضحاياه.

كانت «الجماعة» مجتمعة في نصف دائرة جالسة على المقاعد الخشبية غير المريحة القائمة في الحجرة الكبيرة باستثناء السيدة مارك التي كانت جالسة على الأرضية الخشبية شابكة ساقيها وتنّورتها مسحوبة بتهذيب على عقبيها، وهي مستندة إلى قائمة المقعد الذي يجلس عليه زوجها؛ وكان هذا يمسّد لحيته بإحدى يديه، وقد جلس بقرب آلة إدارة الأسطوانات في وضع أحد ممثلي الصالونات وهو يقوم بدور تمثال موسى لمايكل أنجلو في لوحة حيّة. وكانت كاترين بجواره محتفظة براحتيها مضمومتين مستعدّتين للتصفيق، ورأسها منحنٍ انحناءة خفيفة جدّاً، وعيناها متأمّلتان، وشعرها الذي يشبه شعر غجرية مطروح بعناية خلف أذنيها. وتساءلت دورا عمّا إذا كانت تصغي حقّاً. وكان توبي جالساً في الوسط قبالة النافذة وهو مستند إلى مقعده بسحره المألوف، وإحدى ساقيه الطويلتين مطويّة والأخرى مشبوكة

twitter @baghdad_library

إلى أريكته، ويده مدلاّة. وبدا أن ذهنه كان خارج القاعة، وأنّ هيئته تنمّ عن انشغال بال. وبجانبه كان مايكل مستنداً بمرفقه، ووجهه مستور بين يديه، وشعره الشاحب معقّد بين أصابعه، ثم كان جيمس ورأسه ملقى إلى الخلف وهو منتشٍ ضاحك في شبه رقاعة ساذجة لسماع تلك الحفلة الموسيقية الرائعة. وكان پول جالساً في زاوية بتلك الهيئة شبه الحربية التي لا تليق به وهو مقبّض مركّز انتباهه وكأنّه يستعدّ لإصدار أمر بنبرة جافّة جدّاً.

وانزعجت دورا لوجوده هنا، فقد كان من الأسهل عليها بشيء من حُسْن الحظّ أن تواجهه في غرفتها لأنه لابدّ أن يكون بالطبع سيّء المزاج جدّاً مفعماً بالسخط على سرّ اختفائها الذي لّما يكتشفْ أمره. وتفرّست فيه برهة بعصبيّة ثم أخذت تتأمّل الحاضرين من جديد. وإذ رأتهم مجتمعين على هذا النحو فقد شعرت بأنها مُبْعَدَةٌ عن جمعهم، وعادت إلى ذاكرتها نصائح «نويل». لقد كانوا يتمتّعون برضى واضح عن أنفسهم، بذلك الاطمئنان الخاص بالطبقات المثقّفة، وفجأة أحسّت برغبة لا توصف في أن تكون أقوى ممّا هي، أن تكون أقسى من غوريلاّ، أن تنتزع تلك الأبواب الهشّة المقاوِمة من أُطُرها، أن تُغِرق هذه الموسيقى المقيتة في زمجرة وحش كاسر.

وإذ كان قد مرَّ عليها وقت طويل وهي تلاحظ وتراقب فقد ظنَّت أن أحداً لم يكن يراها وانتقلت قليلاً إلى الوراء. ولاحظت أن توبي كان ينظر إليها من خلال النافذة. ولكنّها لم تكن متأكّدة مع ذلك من أنه رآها بالفعل وظلّت ساكنة تماماً. ولكن تغيّراً في ملامحه والتقاء نظرته غير المقصود وتوتّراً خفيفاً في بدنه أفهمتها أنها كانت قد اكتُشِفت. وانتظرت متسائلة عمّا عساه سيفعل. ولدهشتها لم يفعل شيئاً. فقد اعتدل في جلسته متفرّساً فيها بعزم

شديد ثم غض من بصره. ورجعت من جديد إلى الظلمة؛ لم يكن أحد غيره قد لاحظ وجودها.

وبقيت في أبعد ركن من الشرفة محطّمة خائفة حائرة. ربما كان عليها أن تصعد إلى غرفتهما وتنتظر زوجها، بيد أنّ منظور هذه السهرة الحالكة السواد كان من الهول بحيث لم تتمكّن من العزم على ارتقاء درجات السلّم. وظلت تهيم برهة أخرى في الأسفل على السُطيحة، ثم سارت بتؤدة على طول الدرب المؤدّي إلى السدّ. وكان القمر قد ارتفع والنور كافياً لتوجيه خُطاها. وكان طيف أشجار الدير والبرج يُرى كما في ليلتها الأولى في «إمبر». ووصلت إلى البحيرة التي كانت تبدو متراثية في العتمة وقد ارتطمت بها أشعّة القمر.

وإذ كانت تسلك طريق العودة إلى البيت فقد أصابها الهلع وهي تلاحظ أن شكلاً قاتماً كان يتبعها في الدرب. وكانت على ثقة من أنه لايمكن أن يكون زوجها، وجعل هذا الخوفُ المقيم جوّ الليل مرعباً. واستعدّت للهرب ويدها على صدرها وكأنها تتحفّز للانطلاق، بيد أنها ظلّت مع ذلك بلا حراك. واقترب الشبح حاثّاً خطاه بلا جلبة في الأعشاب، وإذ أصبح قريباً جداً فقد عرفت فيه المرأةُ الشابة توبي.

وقالت بارتياح:

ـ أوه، توبي! مساء الخير. ألم تبقَ لسماع نهاية الحفلة؟

وأجابها مبهور الأنفاس:

ـ لا. خرجت قبل المقطع الأخير.

ـ أتحبّ الموسيقى؟

أجاب:

ـ لا أسيغها كثيراً في الوقت الحاضر. كنت أرغب في الخروج على كل حال، ثمّ إني رأيتك من النافذة.

twitter @baghdad_library

وسألت دورا:

- وهل قلت إني رجعت؟

- لا، فكّرت أنه من الأفضل عدم الكلام بين المقاطع. وقد انسللت ببساطة إلى الخارج. سوف يبقون ثلاثة أرباع ساعة أخرى.

قالت دورا:

- آه، حسناً. يالها ليلة جميلة!

- لنتنزّه قليلاً، أتريدين؟

وخطر لها أنّه يبدو سعيداً برؤيتها. حمداً لله على أن يكون أحدهم كذلك! وسارا في الدرب على حافة الماء مقابل أسوار الدير. وكان القمر الذي ارتفع كاملاً ينشر فوق صفحة البحيرة مروحة مذهّبة. ونظرت إليه، ونظر إليها. وأحسّت بلذة في أن تكون معه. وشعرت بأن تواطؤهما طبيعي إذ أقنعها بقوّةِ شبابهما الكاملة التي لا تَحوُل. فقد كانت بصحبة شخص لم يكن على الأقل ليحاسبها، ولا كان يريد تأديبها وفكّرت بضيق في أن الآخرين، سواء في ذلك پول من جهة وأفراد «الجماعة» من الأخرى، قد يضطرونها ويا للأسف إلى التمسّك بدورها. فقبل ساعات قليلة كانت قد شعرت بأنها حرّة، وكانت قد رجعت إلى «إمبر» بملء إرادتها منجزةً بذلك عملاً مهمّاً. ومع ذلك «فإنهم» سوف يعاملونها على أنها مذنبة مُجْبَرة على العودة وكأنها سجين فارّ. وإذ كانت تدرك حتميّة تفوّقِ «هم» عليها - وكان من الصعب عليها جداً أن تفهم معنى هذه الحتمية - واستحالةَ توصّلها على الإطلاق إلى التفاهم معهم فقد بدأت تندم على رجوعها.

واستمرّ الاثنان يتنزّهان متبادلين بعض الكلمات إلى أن أفضى بهما الدرب إلى الغابة. وغطّاهما غار من الأوراق يضيئه من هنا وهناك بصيص عابر من النور صادر عن البحيرة. وتوغّل فيه توبي باطمئنان تتبعه دورا التي ألفت السكون خفيف الوطء بصحبته. وكانت قد قرّرت أن تترك «ثلاثة أرباع

الساعة»، وحتى أكثر من ذلك، تمرّ لإتاحة الفرصة للزمرة بالانسحاب إلى غرفهم؛ وهكذا راودها اليقين بأن تجد نفسها منفرِدة بزوجها.

قال توبي:

ـ غريب! هاقد وصلنا.

وسألت دورا:

ـ ولكنْ إلى أين؟

واقتربت منه. كانت الأشجار بمنأى عن البحيرة، وكانت حزمة النور تشير بوضوح إلى وجود فسحة مخضوضرة ومنحدر حجري مؤدٍّ إلى الماء.

وأجاب:

ـ أوه، ببساطة إلى مكان مألوف لديّ. كنت قد جئت إليه للسباحة مرّة أو مرّتين. ولا أعلم أن أحداً جاء إليه غيري.

قالت دورا:

ـ إنه موضع ساحر.

وجلست فوق الحجارة عند أعلى المنحدر. وبدت البحيرة راكدة تماماً: بعض الأصوات الغريبة كانت وحدها تقطع السكون المحيط بهما. وكان جدار الدير بدرابزينه الخشبي يتراءى من الجهة الأخرى على مسافة قصيرة إلى اليسار؛ وأمّا في الناحية المواجِهة فلم يكن هناك سوى الغابة المظلمة. وخامرها شعور بأن الدائرة القمرية الواسعة التي تجلس عند طرفها كانت مُخجِلة لا تُحسن الضيافة. ونعبت بومة. ورفعت دورا عينيها إلى رفيقها مسرورة بأنها لم تكن وحدها، ناسية ما كانت تريد أن تقول.

وجعلتها الظلمة والسكون ووجودها بجواره تعي بغتة وجود الشابّ. وتساءلت عمّا إذا كان يشعر شعوراً مماثلاً، وإذ فكّرت في عريه عند حافة بركة السباحة فقد ابتسمت. وكشف ضوء القمر عن ابتسامتها فبادلها توبي الابتسام. وناشدته قائلة:

twitter @baghdad_library

ـ قل لي شيئاً.

ونــزل قليـلاً وهــو يبـدو مختنقــاً بعض الشيء فقـرفص إلى جــانبهـا. وتصاعدت إلى أنفيهما رائحة ماء بارد مفعم بأعشاب متعفّنة.

سأل:

ـ أي شيء؟

وأجابت:

ـ أوه، لا أعني شيئاً معيّناً. قل لي ببساطة شيئاً، تكلّم.

وجلس خلفها على الحجارة وقال بعد فترة صمت:

ـ سأقول لك شيئاً غريباً.

قالت:

ـ هلمّ.

ـ هناك جرس ضخم في قعر الماء.

ـ «ماذا»؟

ونهضت نصف مذهولة عاجزة عن إدراك ما سمعت كل الإدراك.

واستطرد توبي راضياً عن الأثر الذي أحدثه كلامه:

ـ أجـل، أجل. أليس الأمـر فريـداً؟ لقد اكتشفتـه عندمـا سبحت تحت الماء. لم أتأكّد باديء الأمر، لكنّي عدت ثانية. وأنا الآن مقتنع بأنّه جرس.

ـ هل رأيته؟ هل لمسته؟

ـ لمسته، جسسته على طول دائـرته. إنـه ليس غائصـاً في الوحـل إلا إلى منتصفه؛ بيد أن الظلمة شديدة فلا تسمح بالرؤية.

ـ هل هو مزيّن بمنحوتات؟

وفكّر توبي:

ـ منحـوتات؟ هنـاك نـوع من الـزينـة المشغـولـة، نـوع من التشريم في الخارج. ولكنْ قد يكون هذا شيئاً آخر. لماذا تطرحين هذا السؤال؟

قالت دورا:

ـ يا لعدالة السماء!

وغطّت فمها بيدها وهي تنهض. ونهض توبي كذلك، وكان مَكْرُوباً جدّاً.

ـ لماذا؟ ما الأمر؟

وسألت دورا:

ـ هل قصصت ذلك على أحد؟

ـ لا، ولست أدري لماذا على أيّ حال. رأيت من الأفضل أن أحتفظ بالسرّ إلى أن أقوم باستكشاف جديد.

قالت من جديد:

ـ حسناً، من حسن الحظّ. لا تقل لأحد عن ذلك. ليكن الأمر سرّ«نا»، هل تريد؟

لم تكن تشعر بأي ارتياب بعد هذا الوصف في ماهية ذلك الشيء، وملأتها بغتة حماسة كئيبة تجاه السلطان العظيم الذي مُنحته ولم تكن لتعرف بعدُ كيف تستخدمه. وتشبّثت باكتشافها تشبّث طفل عربي بورقة برديّ. وكانت تجهل ما سوف تفعل به، ولكنها كانت مصمّمة على بيعه غالياً.

قال توبي وهو أميل إلى الرضى:

ـ حسناً جدّاً. لن أفوه بكلمة. إنه لأمر فريد، أليس كذلك؟ لست أفهم لماذا لم يُثِرْني. لم أكن متأكّداً بادىء الأمر، وبعدها صرفتني أشياء كثيرة عن هذه الفكرة. وعلى كل حال فإنه لا «يمكن» أن أكون قد أخطأت. ولكنْ ما أشدّ ما تَبْدِين منفعلة بهذا الكشف!

قالت:

ـ أنا مقتنعة بأنك لم تخطىء.

twitter @baghdad_library

وبدأت تسرد عليه الحكاية المثيرة التي قصّها عليها پول، حكاية الراهبة المذنبة ولعنة الكاهن.

وفي نهاية السرد كان توبي يماثلها انفعالاً، وصاح متعجباً:

- لكنّ شيئاً كهذا لا «يمكن» أن يكون صحيحاً.

وأجابت دورا:

- بالطبع، بيد أنّ پول قال لي إنّ هناك في العادة «بعض» الحقيقة في تلك الخرافات القديمة. ولقد قُذِفَ بالجرس في البحيرة بطريقة أو بأخرى، ولكنّه على كلّ حال موجود فيها. وإذا كان جرساً من العصور الوسطى فهو مهمّ جداً للفنّ والتاريخ والباقي. هل في وسعنا انتشاله؟

وسأل توبي:

- نحن؟ تريدين أن تقولي أنا وأنت؟ لستِ تتصوّرين على ما أعتقد أنّ ذلك ممكن. إنه شيء ضخم ينبغي أن يكون وزنه كبيراً. وهو فوق ذلك غائص في الوحل.

ردّت قائلة:

- قلتَ قبلاً إنّه غائص إلى منتصفه، وأنت مهندس، أفلا يمكنك رفعه بواسطة بكرة أو أيّ وسيلة أخرى؟

- قد نستطيع استخدام بكرة، ولكنْ ليس في حوزتنا أيّ واحدة. أظنّ أنّ علينا عندئذٍ أن نستعمل الجرّار. ولكنْ ما الذي تريدين عمله؟

قالت دورا:

- لا أعلم بعدُ.

وكانت قد خبّأت أسفل وجهها بيديها، وكانت عيناها تلتمعان. مفاجأة للجميع. القيام بمعجزة! لقد قال جيمس إنّ عهد المعجزات لم ينتهِ.

أخذ توبي ينظر إليها بتردّد وقال:

- إذا كان ذلك مهمّاً حقاً أفلا ينبغي علينا بالضبط إخبار الآخرين به؟
أجابت:

- سوف يعلمون به عمّا قريب. إننا لا نفعل شيئاً سيّئاً. وسوف تكون مفاجأة رائعة جدّاً! افترض - إني أطرح السؤال على نفسي بالطبع - افترض أن نتمكن من إخفاء الجرس الجديد عند وصوله في الأسبوع القادم، ومن وضع القديم مكانه بطريقة أو بأخرى؟ سوف يقودون الجرس الجديد مغطّى ولن يكتشفوه إلا عند مدخل الدير. فكّر في ذهولهم إذا وجدوا جرس العصور الوسطى تحت الغطاء. الحقّ أن الأمر سيكون خارقاً، شبيهاً بتلك المعجزات، بتلك الحوادث التي يذهب الناس من جرائها حشوداً للحجّ.

- ولكن سيكون ذلك خداعاً حتماً. وعلاوة على ذلك فإن الجرس قد يتضرّر، ينشقّ. وعلى كل حال فإن الأمر صعب للغاية.

قالت دورا:

- ليس هناك ما هو صعب للغاية. يخامرني إحساس بأنّ القضية جُعلت لنا. أودّ أن يُجَنَّ جنونهم بادىء الأمر. سوف يُفاجأون مفاجأة ضخمة ثم يسعدون جدّاً بأنّهم استعادوه. سيكون مثل هديّة غير متوقّعة. ألا تعتقد ذلك؟

- ألا يمكن أن يكون على العكس أمراً دالاًّ على قلّة ذوق؟
قالت دورا:

- عندما يحدث أمر أقرب إلى الخيال والروعة فإنه لايمكن ان يكون قلّة ذوق. لسوف يتحمّس كل منهم له على المدى الطويل، ولو كنت مكانهم لتحمّست بالطبع. هل أنت مستعدّ للّعب؟

twitter @baghdad_library

آخذ توبي يضحك وأجاب:

- إنها لفكرة مثيرة تماماً، بيد أني مقتنع بعدم تمكّننا من تحقيقها.

ردّت قائلة:

- بمساعدة مهندس في وسعي أن أقوم بأيّ عمل.

وأحسّت بالفعل وهي واقفة تحت ضوء القمر تتأمّل المياه بأنها تطفح نشاطاً وعزيمة لبلوغ غايتها. لسوف تكافح بالطريقة الخاصّة بها؛ ستلعب دور الساحرة في هذه «الجماعة القدّيسة».

الفصل السادس عشر

قال مايكل:

ـ المهمُّ لعيش حياة مستقيمة هو أن يملك المرء مفهوماً ما عن قدراته الشخصية، وأن يعرف نفسه بما فيه الكفاية ليعرف ما يفعل في المستقبل. ويجب أن يدرس بعناية كبرى خير الوسائل لاستخدام القوّة التي يملكها.

كان دوره في إلقاء الخطبة. وعلى الرغم من إستفظاعه فكرة الوعظ في ذلك اليوم فقد تشبّث بهذه المهمّة ذاهباً إلى أنّه من الخير التمسّك بإحكام قدر الطاقة بنوعٍ حياته المألوف. وكان يعبّر عمّا في نفسه بسهولة من غير رجوع إلى مذكّرات، إذ كان قد فكّر قبلاً في أقواله. وكان يرى أن دوره الحالي مثير جدّاً للسخرية، بيد أنّ العبارات والصيغ لم تكن تنقصه. وإذ كان فوق المنصّة فقد شمل بنظرةٍ أعضاء جمعيته الصغيرة، وكان المشهد مألوفاً لديه. وكالعادة كان الأب بوب جالساً في الصفّ الأول مشبّك اليدين وعيناه الجاحظتان مثبتتان بانتباهٍ وَرِعٍ على الخطيب. وكان مارك سترافورد، وهو يغمز بعينيه بشكل مبهم بعضَ الشيء، جالساً في الصفّ الثاني مع زوجته وكاترين. وكان بيتر توبغلاس يشغل كرسيّاً في الصفّ الثالث ويجلو نظارتيه بمنديل من الحرير متوقّفاً من وقت إلى آخر لإلقاء نظرة فاحصة عليهما، ثم يعود غير راضٍ إلى ممارسة عمله مُحْنَقاً على الدوام إذ كان الخطيب صديقه القديم. وبقربه كان يجلس پاتشواي الذي كان من

twitter @baghdad_library

عادته الحضور فجأة لسماع مايكل ويُبدي، وقد ترك قبعته الخرافية، جمجمة صلعاء ملفوحة بشكل غريب بالشمس. وكان الزوجان غرينفلد غائبين وقد ذهبا يتنزّهان إذ بَدَوَا معكّري المزاج وعلى خلاف مرّة جديدة على ما يظهر. وكان توبي جالساً في الخلف ورأسه مدفون إلى أسفل جدّاً في يديه، حتى إنه كان في وسع مايكل أن يرى الخطّ الفاصل بين شعره وقذاله.

وأدرك ـ وكان هذا الإدراك قد برز متأخراً جداً فلايعود عليه بالنفع ـ أنّه كان قد ارتكب خطأ فادحاً في ضربه له موعداً. فقد كان للقائهما، لاتّصالهما، وقع حادّ، وكان قد جلب له على الأخصّ لذّة لم يكن قد توقّعها ـ أو أنه لم يتنبّه إلى توقُّعها ـ ومنذ تلك الليلة القريبة العهد اتّخذت تلك الحادثة أهميّة مغامرةٍ كفيلة بأن تتطوّر. وكان يعلم جيّداً أنه كان عليه أن يوجّه المقابلة بشكل مختلف تماماً، ولكن هل كان يملك السلطان لذلك وهو في الحالة التي كان عليها؟ والحقّ أنّه كان من الخير بالتأكيد، نظراً لهذا السبب، أن يكتب له كلمة، أو أحسن من ذلك، ألاّ يظهر بأي شكل، وأن يترك الفتى يظنّ به ما حلا له من شرّ. وكان باستطاعته حتى «في هذه اللحظة» أن يقدّر إلى أيّ مدى كانت تلك المقابلة غير مجدية لكي يتوصّل في النهاية إلى نتيجة بمثل هذه التفاهة.

وما كان مكدّراً للغاية، بل ما كان الحقيقة نفسها في ذلك الحين، هو أن يكون قد قام بعمل خليق بشخص خيرٍ منه. ومع ذلك، وبناء على تناقض جائر، فهل كان شخص أنبل منه ليضع نفسه في مثل هذا الموضع؟ لقد كان من الممكن بالتأكيد توجيه اللقاء بطريقة أقل إثارة، أقلّ ضرراً؛ وأمّا بالنسبة إليه فلم يكن ذلك ممكناً. ولقد فكّر خلال صلواته في الطريقة التي كان قد واجه بها الأمر تفكيرَه في تجربة مرسلة إليه لامتحان إيمانه. وكان بديهياً أيضاً أن يتمكن شخص عميق الإيمان من التصرّف بلا ضرر بمثل هذا القدر من الجراءة، بيد أنّه لم يكن ذلك الشخص. ولم يكن قد عرف

كيف يقيّم قدراته ومستواه الروحي؛ ومن هذه الخواطر الأخيرة كان نصّ عظته قد استقي: إنّ القيام بأوضع الأعمال، شرط القيام به بشكل حسن، خير من القيام بالعمل شبه المستحيل الذي قد يُفْسِدُ كلّ شيء.

لم يكن مايكل يجهل أنّ تقدير أهمية ما حدث فوق قدرها قد يشكّل خطراً، وكان يتوق إلى حسّ سليم متين يتيح له مواجهة عمله بوصفه يدعو إلى الرثاء، ولكنْ يسمح له على الأقل بإنهائه من غير نتائج فادحة. وفكّر في أن شخصاً يستودعه سرّه ويكون ماضي العزيمة، وقحِاً إذا اقتضى الأمر، قد يساعده على السيطرة على ما يمثّله هذا الوضع من انعكاس بالنظر إليه من وجهة أكثر طبيعية، وأقلّ مأساوية على الأخصّ. ولكنّه لم يكن له من يستطيع أن يستودعه سرّه، فظلّ بلا انقطاع، وبشكل محزن، واعياً نتيجة سلوكه. لقد دمّر السلامَ في ذهن ذلك المراهق وحرفه عن شباب نيّر، عن عمل شاقّ ولكنّه مفرح، وجعله مَكْرُوباً كتوماً محاذراً. وبدا له تغيّره من الوضوح بحيث عجب ألاّ يكون أحد سواه قد شعر به.

وكان قد دمّر كذلك سلامه الخاصّ. وكانت ثورة خبيثة تتأكّله. وكان يعمل بانتظام، بيد أن عمله لم يكن مثمراً، ولكنه يستيقظ كل صباح وبه شعور بالأمل والفضول. ولم يكن يستطيع منع نفسه من مراقبة توبي بلا توقّف، وكان توبي من جهته مهتماً بشكل واضح بحضوره على الرغم من تحاشيه إيّاه. وكان قد حزر ذلك من خلال عدة أعراض، وقرأ في سلوكه ردّ الفعل الحاصل. فعندما تحدّثا في درب طيور السُبد كان الانفعال الذي أبداه قد وجد له صدى، وكان هذا التذكار لايزال يثيره. وأمّا شعوره بأن عواطف توبي قد أخذت الآن تأفل، وبأنّه ربما كان قد حجّر قلبه بملء إرادته ونظر باشمئزاز إلى دفق حنانه، فقد قاده إلى نوع من الجنون. وكان يتوق إلى مكالمته، إلى مساءلته، إلى أن يشرح له الأمر مرّة أخرى، ولم يكن

twitter @baghdad_library

في مُكنته الامتناع عن الرجاء عاجلاً أو آجلاً في أن يتمنّى الفتى نفسه إحداث «خلوة» كالتي حدثت. وكان يرغب في أن تتحرّر على الأقل بشكل أو بآخر من هذا الوضع المرتبك ذرّة الخير التي تَبْلوِرُ من غير خطر حُسْنَ إرادته تجاه توبي، وحُسن إرادة توبي تجاهه. ولكنّه كان يعلم جيّداً أن ذلك أمر مُستحيل في هذا الكون. إنهما لن يتمكّنا أبداً من أن يكونا صديقين، وربما كان التحجّر حقاً خيرَ حلّ. ولم ينفكّ مع ذلك يصلّي لأجله، بيد أنه كان يدرك أن صلواته كانت تفضي إلى دروب حافلة بالنزوات. وكان محاصراً برغبة بدنية، بذكرى الجسد الدافىء المتمدّد لصق جسده في السيارة، وكانت تساور لياليه أحلام معذّبة، حلم طَيف غامض هارب كان تارة طيف توبي وأحياناً طيف «نيك».

وعلاوة على ذلك فإنه عندما لم يكن يتوصّل إلى منع ذهنه من التوقّف عند هذا، كان التفكير بأن الفَتَيَيْن يُقيمان معاً يزيد أيضاً من انزعاجه. وكان من جهة أخرى يتمطّى عبثاً عند المسألة المتمثّلة في معرفة ما إذا تمكّن «نيك» من رؤيته يقبّل توبي. وكان يقرّر في كل مرّة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد حصل، ثم يعود بغتة إلى اجتراره. وعلى الرغم من أن سحابة من الضيق كانت تلفّ تلك الفكرة فإنّه لم يكن متأكّداً من أنّ ذلك كان شاغله الرئيسي، وإنّما كان بالحري المساسَ بسمعته، أو احتمالَ الأذى الحاصل لـ«نيك»، أو شعوراً أكثر بدائية هو فَقْدُ حبّه الذي لم يكن لديه بعدُ من سبب للاعتقاد بأنّه لايزال يحتفظ به، ولا الحقُّ بالطبع في رجاء الاحتفاظ به.

وكانت أوضح نتائج هذه الاضطرابات أنه غدا أصعب فأصعب عليه الانتهاء إلى تصوّر ما يفعله من أجل «نيك»، على الرغم من أنّه لايزال عازماً على التحدّث إلى كاترين. وعندما كان يستدعي إلى ذهنه، بفضل رشاقته البصرية اللعينة، مشاهدَ ممكنة الحصول في الجناح، كان يعذّبه

شعور مزدوج بالغيرة يحول بينه وبين إعادة النظر في خطّته المرغوب فيها جداً من عدّة وجوه: إخراج «نيك» أو توبي من الجناح، وربما الإتيان بهما كليهما إلى القصر. وسوف تكون دواعيه ـ وهو يعلم ذلك ـ مكشوفة في المحيط الذي كان في الوقت الحاضر يشغل باله أكثر من أي شيء آخر، ولم يكن قادراً على وضع مشروعه موضع التنفيذ على الرغم من حيازته أسباباً صالحة لتمويهه. وكان عزاؤه الوحيد التفكير في أنّ توبي سوف يغادر على كل حال «إمبر» بعد بضعة أسابيع، وأنّ «نيك» نفسه سيرحل على الأرجح ما إن تدخل كاترين الدير. ولم تكن المسألة سوى مسألة وقت. وسوف يرتّب أفكاره فيما بعدُ بعون الله ويعود إلى مهمّاته، إلى مشاريعه، حريصاً على ألّا يغيّرها هذا الفاصل الكابوسي.

وأكمل عظته مستأنفاً عرضه:

ـ إن هذا التحرّز أمر بديهي. فهل من الممكن الشكّ في أن الربّ يطالب بأن نتعارف؟

«تذكروا مَثَلَ المواهب. ففي كل منّا مواهب مختلفة، ميول شتّى كثير منها قابل لأن يُستخدم للخير أو للشرّ. وعلينا أن نجهد في معرفة إمكاناتنا، وفي استخدام الطاقة التي نملكها حقّاً لتحقيق مشيئة الربّ. وإننا بوصفنا أشخاصاً روحيين، وفي كمالنا المحتمل أيضاً، يختلف أحدنا عن الآخر اختلافاً عميقاً. والتباين الذي يفصل بيننا أمر قد يطول اكتشافه، وقد لا تظهر بعض التفاوتات على الإطلاق. ولكل منّا سبيله لإدراك الربّ. وإني لمقتنع بأنكم ستفهمون ما أقول عندما أعلن أن المرء يجد الله على كلّ حال في بعض الأمكنة، وأنه يشعر فيها خصّ الرب بإحساس بالتوجّه، إحساس بأنّ «هنا» هو أكثر الأمكنة حقيقة وأفضلها وأصحّها. والحسّ بالواقع والأهمية يرتبط هو نفسه ببعض التجارب في حياتنا. والله يكلّمنا بلغات متنوّعة، وعلينا أن نتنبّه لهذا الأمر.

twitter @baghdad_library

«تذكّروا أن جيمس حدّثنا في الأسبوع الماضي عن البراءة. وأودّ أن أضيف هذا إلى ما عبّر عنه خير تعبير، وهو أنّهم علّمونا ألّا نكون فقط مسالمين كالحمائم وإنما أن نكون أيضاً مراوغين كالحيّات. ولكي نحيا بالبراءة ـ أو لأجل العزم عليى استعادتها ـ نحتاج إلى استخدام كل ما نقدر عليه من قوّة. بيد أنه من الضروري لكي نستخدمها أن نعلم أين تكمن. فلا ينبغي مثلاً إتمام عملٍ ما بحجّة أنه يبدو نظرياً عملاً طاهراً إذا كان في الحقيقة مخالفاً تماماً لتخوّفاتنا الغريزية في الواقع الروحي من عجزنا عن أن نبلغ به غاية حسنة، أي إذا كنّا غير قادرين على تنفيذه في الواقع. إنَّ كلاً منا يدرك شكلاً ما من أشكال الواقع، مستوىً ما من مستوياته. ومن جهة ثانية فإن قدرتنا على العيش كأشخاص روحيين تنبع من هذه الانطباعات، وبالعادة وبالرضى عما سبقت لنا معرفته يمكننا أن نصل بتلك القدرة إلى غايتها الخيّرة، أي استطاعة تنفيذها. وسوف تسمح لنا معرفتنا بأنفسنا بتجنّب فرص الإغراء بدلاً من أن نعتمد فقط على قوانا الخاصة للانتصار عليها. وليس من حقّنا أن ننسب إلى أنفسنا أعمالاً تخصّ مَنْ رؤيتهم الروحية أرفع من رؤيتنا أو مختلفة عنها. فلن ينجم عن تلك المحاولة سوى كارثة، ولسوف نلاحظ عندها أن العمل الذي أنجزناه ليس بالإجمال العمل اللائق الذي ندبنا أنفسنا له، وإنما هو شيء مختلف تماماً.

«وأودّ أن أستخدم هنا، حاذياً مرّة جديدة حذو جيمس، صورة الجرس. فالجرس خاضع لقانون الجاذبية، والحبل الذي يرفعه ينبغي أيضاً أن يُنْزِله. وهكذا يجب علينا أن نسعى بانتباه إلى إدراك إوالية قدرتنا الروحية واكتشاف مخابىء نقاط قوّتنا. وهذا ماأريد أن أعنيه وأنا أشرح أنّ هذا هو الجانب الإيجابي لسلامنا. علينا أن نعمل من الداخل إلى الخارج بكلّ قوتنا وبتفهّم، مستخدمين الطاقة التي نملكها لاكتساب مزيد منها. وذلكم هو حَذَرُ الحيّة. وإنه بالتأكيد لمشهد رائق للربّ أن يرى محاولاتنا

لكي نبلغ بشكل أعمق وأكمل الكائن الذي نرغب في أن نكونه، وأن نجعل ذلك الكائن الكامل الذي عهد به الله وهو يخلقنا إلى عنايتنا يبصر النور بالسعي وتطهير كل خبيّة من خبايا نفسه».

وعاد إلى الجلوس وعيناه تبرقان. وكان يحسّ أنه يتصرّف وكأنّه يسير وهو نائم في السكون المُكرب الذي تلا خطابه. وجثا مع الآخرين طالباً بالصلاة هدوء البال، وكان هذا الشيء الوحيدَ الذي في متناول يده في مثل هذه الظروف. وكان يتابع بمشقّة طقوس الأب بوب، وحين انتهى القدّاس فرّ سريعاً يبحث في مكتبه عن ملاذ مؤقّت. وتساءل إلى أيّ مدى كان جليّاً أن كلماته كانت نقيض التي أسمعها جيمس الأحد الماضي، وقاده ذلك مرّة جديدة إلى التأمّل في حاله. ولم يكن في الأيام الأخيرة المأساوية جدّاً قد فكّر إلا في أمر وحيد هو انتهاكه قاعدة. واستذكر أقوال صديقة: «ليس اللواط مرذولاً وحسب، وإنما هو محظور. .»، وكان يعلم حقّ العلم أن «الكيفات» و«اللماذات» وحدها كانت تستفزّ انتباهه. فلم يكن يعتقد أن هذا «ببساطة» محرّم. فالله قد خلق الرجال والنساء ومعهم هذه الميول فأرساها عميقاً حتى كانت في حالات كثيرة النواة الحقيقية للشخصية. ولأنْ يكون ممكناً ذات يوم في مجتمع أفضل ومختلف إقامة علاقات لواطية فقد كان يشعر أنه ينبغي أن يبقى غريباً فيه، وكان مقتنعاً من ناحية ثانية بأنّه مهما كان العالم الذي سيعيش فيه فإنّه سيحكم لأسباب شتّى بأنّه شرّير جداً. ومع ذلك فما كان الأمر ليحمل له اليقين بأنّ عليه، كما كان جيمس قد أكّد، أن يدفن المسألة. فقد كانت معقّدة جداً. وفي نظرة أن الله قد خلقه هكذا، وهو لا يظنّ أن الله جعل منه وحشاً

أجل كان ذلك معقّداً، بيد أنّه كان «مهمّاً»، وهنا بالضبط كانت تكمن الصعوبة. وأدرك أنه من هذه الوجهة، كما من كثير غيرها، كان قد قام على الدوام بما كان صديقه جيمس قد سمّاه العمل الثاني، أفضلَ عملٍ ثانٍ:

twitter @baghdad_library

القاضي باكتشاف الذات وروْز النتائج بدلاً من اتّباع القواعد بصرامة. والحقّ أن عظته قيلت في امتداح الخيار الأفضل، بيد أن الخطر هنا هو الخطر الذي كان جيمس قد أشار إليه. وكان عليه بتحوّله عن مجرّد الخوف من الوصايا المحدّدة أن يخشى الضياع في حمأة مأساة روحية من أجل سلامه الشخصي.

ونظر إلى ساعته متذكّراً أنّه كان قد عزم أخيراً على ضرب موعد مع كاترين قبل الغداء. وكان الوقت قد حان لمحادثتها بشأن أخيها ورجائها إبداء رأي نهائي في الطريقة الكفيلة بجعله يزيد من مشاركتهم نشاطاتهم. ولم يكن راغباً في إثارة هذا الموضوع بأكثر من رغبته في لقائها، ولكنّ ذلك كان على الأقلّ مَشْغلاً طبيعياً ومعقولاً على مايبدو. وكان يعلم أنها ستنصح بشدّة بوقف إبقاء أخيها بمعزل، كما كان يعلم أنه يرجو ذلك. وهبط الدرج ومرّ برأسه في الحجرة الكبيرة فلم يجد كاترين فيها، ولا وجدها على الشرفة ولا على السُطيحة. وكان مارك ستراففورد مشغولاً بتلويح بَشَرَتِهِ على الدرجات وقد ناداه مايكل ليعلم منه ما إذا كان قد رآها في مكانٍ ما. أجابه:

- إنها في فِناء الإسطبلات مع شقيقها التوأم. لقد قرَّر الأخ «نيك» أخيراً أن يصلح الشاحنة «لوجه الله».

وتبرَّم مايكل بهذا التحديد وراوده أن يؤجِّل المقابلة، بيد أنَّه سرعان ما قرّر أنه لم يكن في وسعه التهرّب منها. وكان من الممكن أن تكون كاترين بانتظاره لتخليصها من أخيها. وإذ كان قد عزم أخيراً - وبأيّة صعوبة - على رؤيتها ليحدّثها عنه فقد كان من الأفضل عدم ترك الفرصة تفوت. وعلى كلّ حال فإنّه سيكون من دواعي رضاه ألّا يتهرّب من جديد. وعندها يستطيع أن يتصوّر «أنّه عمل» من أجل صديقه. وعليه فقد انطلق يبحث عنهما.

كانت الأبواب المفضية إلى الطريق مقفلة، ولاحظ بأسى - ولم يكن ذلك للمرّة الأولى - أنها بحاجة إلى طبقة من الدهان وأن أحد الأعمدة كان منخوراً. ودخل من باب آخر. وكان الفِناء، وهو مفخرة من مفاخر «كنت»، محفوفاً من جوانبه الثلاثة بحجرات صغيرة للخيل وفوقها طبقة تضيئها نوافذ دائرية ومستطيلة متشابكة تحت إفريز مسنّن. وكان المجموع يثير انطباعاً مبهماً بأنّه ساحة سكنية صغيرة. وكان السقف القرميدي مكلّلاً قبالة الأبواب ببرج ساعة رشيقة كانت متوقّفة عن الدوران من زمن بعيد. وكانت النيران قد اجتاحت جزءاً من المباني الواقعة إلى اليمين، وكان الصفيح المتموّج الذي قدَّمه جَدُّ مايكل يغطّي الثقوب الناتئة في الطبقة السفلى. وكان الفِناء ينحدر انحداراً شديداً نحو البحيرة ويفصله جدار عالٍ عن الدرب. وكان في ذلك اليوم خانقاً أغبر يبهر العيون تحت الشمس الساطعة ويذكّر بحلبة للمصارعة.

كانت الشاحنة ذات الحمولة البالغة طنّاً ونصف الطنّ في الوسط تحت الظلّ الذي عكسه الجدار مباشرة ومقدّمتها باتّجاه البحيرة. وكان غطاء المحرّك مفتوحاً، وقد خرجت قدمان من تحت المركبة. وإذ لم تبال كاترين فاولي بالغبار فقد جلست على الأرض وثوبها مرفوع إلى وسط جسمها وساقاها الطويلتان مشبكتان ومعرَّضتان للشمس. وفوجىء برؤيتها في هذه الجلسة، كما فوجىء بعدم إرخائها ثوبها وهي تلمحه. ولم تتحرّك وهي ترمقه من غير بشاشة، وافترض مجدّداً أنها لم تكن تستلطفه.

كان «نيك» قد تسلّل تحت الشاحنة واختفت قدماه من جانب وظهر رأسه من الآخر. وظلّ متمدّداً بكسل نصف ظاهر ورأسه ملقى على الأرض. والتفت إلى مايكل الذي كان يرى وجهه مقلوباً من المكان الواقف فيه. وكان يبدو مبتسماً، ولكنّ تلك الصورة كانت من الغرابة بحيث كان من الصعب التأكّد من ذلك.

twitter @baghdad_library

وهتف:

ـ الرئيس الأكبر!

ـ صباح الخير. إنها لَمِنَّةٌ منك أن تفحص الشاحنة. هل ستصلح؟

وأجاب:

ـ يا للغباء! ليست مِنّةً مني أن أفحص الشاحنة، بل إنه ببساطة أمر فاضح ألّا أكون قد فعلت حتى الآن. لماذا لا تقول ما تعتقد؟ كلّ ما هنالك أن موصل الوقود مسدود، وسوف تعمل الآن.

وظلّ متمدّداً ووجهه الغريب الشبيه بوجه عفريت مُلْتَحٍ مرفوع صوب محدّثه.

كان مايكل يفكّر في نظرة كاترين ويفتّش بشكل أخرق عن كلماته.

وقال:

ـ أودّ رؤية شقيقتك.

ـ كنت أحدّثها، وكنا نستعيد ذكرى صبانا، لقد أمضيناه كلّه معاً لو تعلم.

قال مايكل بغباء: «آه!». وكان من المستحيل على كلّ حال مناقشة المسألة معهما كليهما، وخيّل إليه أنها إحدى المناسبات النادرة التي رآهما فيها مجتمعين.

قال «نيك»:

ـ أعلم أنّه من الضعف الثرثرة وتذكّر الماضي، بيد أنه ينبغي أن تغفر لنا كلينا لأنها إحدى فرصنا الأخيرة. أليس كذلك يا كاتي؟

لم تجب كاترين.

وتمتم مايكل:

ـ سأذهب في الواقع. بوسعي بكل سهولة أن أرى كاترين في مرّة أخرى.

قال «نيك»:

- سيسير كل شيء على ما يرام، وستسير كل الأمور القاسية جدّاً على ما يرام. أليس ذلك صحيحاً يا كاتي؟

وفهم مايكل أنه كان ثملاً بعض الشيء. واستدار ليذهب فتوسّل «نيك» قائلاً:

- انتظر دقيقة. ما زلتَ سادراً في قلب الخطط. إنك تهرب كما يهرب ذلك الحليب اللعين من الجناح. إذا كنت ترجو أنْ تنتظم الأمور فعليك، إن أردت، أنْ تُسدي إليّ خدمة.

أجاب مايكل:

- بكل سرور. ما الأمر؟

- أن تصعد ببساطة إلى الشاحنة وتضع عصا السرعة على نقطة الحياد وتفكّ الكابح اليدوي.

وفيما كان مايكل متوجّهاً بشكل غريزي نحو المركبة توقّف فجأة وقال:

- «نيك»، لا تمثّل دور الأبله، ليس الأمر مسلّياً. اخرج حالاً من تحت. إنك تعلم أن المنحدر خطِر، وكان عليك وضع الشاحنة جانباً.

انسلّ «نيك» بهدوء ووقف وهو مقطّب ونفض الغبار عن بذلته. وإذ كان مايكل يراه الآن عاملاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه فقد لاحظ أنه أشدّ نحولاً وأكثر نشاطاً ممّا كان عند مجيئه. وأجمل أيضاً وأخفّ حركة بشكل ظاهر. ولاحظ كذلك أن كلماته كانت الأولى التي وجّهها إليه، وأن «نيك» الذي كان قد تلقّفها بشكل واضح بدا مسروراً بها. وكان يهمّ بمغادرتهما معتذراً حين انفتح باب الدرب الخشبيّ وهو يصرّ مجدّداً. والتفتوا فكان ذلك توبي. وظلّ واقفاً مكانه وعيناه تطرفان وهو ينظر إلى المشهد الدائر بين أربعة جدران: كاترين التي لا تزال جالسة وساقاها في الشمس، ومايكل و«نيك» جنباً إلى جنب قرب الشاحنة. وتردّد متّخذاً موقف

twitter @baghdad_library

الدخيلِ المستثقلِ حضورُه في دائرة حميمة، بيد أنه إذ كان يدرك أن التراجع غير ممكن فقد دخل وأغلق الباب. وتخيّل مايكل على الفور أنه كان ينظر إليه، وراوده شعور بأنه احمّر خجلاً.

وصاح نيك:

- ها هوذا صِنوي. كان من الممكن أن تتلقّى درساً يا توبي، ولكن كل شيء انتهى الآن.

ثم خاطب أخته قائلاً وهو يدير له ظهره:

- كاتي، هل لك في أن تديري المحرّك.

ولدهشة مايكل الذي لم يكن قطّ قد قرن صورة كاترين بصورة سائق نهضت الفتاة على مهل ونفضت ثوبها وصعدت إلى الشاحنة. وشعر لأول مرّة وهو يراها أنها كانت تؤدّي دوراً. وأدارت محرك المركبة وأخذ أخوها يراقب النتيجة بعد أن رفع الغطاء. ثم أغلقه وظلّ يضحك برهة هازئاً أمام صديقه. ومالبث أن رفع صوته في جلبة الآلة المستمرة وقال:

- أظنّ أننا سنقوم بتجربة صغيرة للتأكّد من أن كل شيء يعمل على ما يرام. سوف تقود كاترين. تعال يا توبي.

وبدا هذا الذي كان قد بقي منزعجاً عند المدخل مندهشاً، بيد أنه تقدّم. وقال «نيك» وهو يمسك بباب غرفة القيادة مفتوحاً:

- هيّا بسرعة، تسعنا جميعاً.

وصعد توبي فسأل «نيك»:

- وأنت يا مايكل؟ سنكون محشورين قليلاً، ولكنّني أظن أن أحدنا يستطيع الجلوس على ركبتيْ آخر.

وهزّ مايكل رأسه سلباً، فقال «نيك»:

- تكّرم إذن بفتح الباب.

وجلس بـين توبي وأختـه وذراعاه ممـدودتان فـوق مسند المقعـد هـاصـراً رفيقيه.

وسار مايكل وكأنّه في حلم واتّجه نحو الأبواب الخشبية الكبيرة ودفعهـا. وأقلعت كاترين برفق واندفعت الشاحنة في سحابة من الغبار ثم توارت على الطريق. وما هي إلاّ لحظات حتى لمحها مـايكل، وكـان قد بقي في مكـانه حزيناً ساخطاً في الفِنـاء المقفر، بعيـداً على ضفّـة البحيرة الأخـرى صاخبـة بالقرب من الجناح ثم متلاشية على الطريق البلديّ.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع عشر

قفز توبي من سريره وهو بكامل ملابسه ولمّ حذاءه. ولم يكن قد تجرّأ على النوم خشية أن يستيقظ متأخراً عن الموعد المضروب مع دورا. وكانت الساعة قد كادت تجاوز الثانية حينما فتح باب غرفته وأصاخ السمع. وسمع «نيك» يشخر، وهبط السلم راكضاً. وأفزعته حركة خلفه للحظة، ولكنّ ذلك لم يكن سوى مورفي الذي كان قد تبعه بالضبط إلى أسفل. وشمّ الحيوان ساق بنطلونه وهو ينظر إليه نظرة مستفهمة. وداعبه قلقاً بعض القلق ثم انسلّ إلى العتبة مغلقاً الباب خلفه. فلم يكن في وسعه أن يثق في مثل هذه الرحلة الاستثنائية حتّى في كلب.

لقد كان عليه خلال هذه الليلة أن يحاول بصحبة المرأة الشابة إخراج الجرس من الماء. فمنذ أن وُلد ذلك المشروع والتعقيدات أخذت تبرز بالطبع. وقد رأى في البدء أنه مشروع وهمي، ثم مالبث أن أصبح مديره المتحمّس. ولكنْ لماذا كانت دورا تبسط كل هذا القدر من النشاط في ذلك المشروع العجيب فذاك مالم يتضّح له أوّل الأمر. وكان هذا اللغز أبعد من أن يُحلّ، ولكنْ لا بأس! فلم يكن يصبو إلاّ إلى مرضاتها، ثم إلى تذليل بعض الصعوبات التقنية التي كانت فتنتها قد غدت بديهية لعقله العلمي.

وكان قد عاد في اليوم الذي تلا حديثهما للسباحة وحيداً غاطساً عدداً من المرّات بحثاً عن شكل الشيء ووضعه من جميع وجوهه. وإذ كانت قد

دفعته دورا التي ثبت يقينها عن طريق اكتشافه بالذات فلم يكن ليرتاب في أنه قد عثر على الجرس. وكان عليه حلّ مشكلات مهمّة. وكانت الأولى تتمثّل في كيفية إخراجه من الماء، والثانية في الطريقة التي تمكّن من تحقيق عملية التبديل، أي تحقيق المعجزة العزيزة على قلب السيدة غرينفلد، وهما مهمّتان ينبغي إنجازهما بشكل سرّيّ وبلا معونة غير معونة رفيقته. وكان ذلك لعمري عملاً عظيماً.

وكانت دورا التي لم تكن تملك فكرة واضحة عن حجم الجرس ووزنه ترى على مايبدو أن الأمر ممكن جدّاً، وتعتمد بلامبالاة على كفاية مهندس «ها» الذي كان متشنّجاً وإن بدا متأثراً. وعلى الرغم من علمه بأنّ ثقتها كانت تقوم على الجهل فإنها كانت نافذة إلى كيانه، كما كانت نافذةً فكرتُها الغريبة، تلك الحكاية التي لا معنى لها عن الرجوع إلى حياة الجرس العائد إلى القرون الوسطى. والحقّ أنّ ذلك كان يبدو لها عملاً سحرياً ذا معنى مريع: نوعاً من طقس، من قوّة محرِّرة. وعلى الرغم من أنّ ذلك العمل لم يكن مفهوماً لديه، وعلى الرغم من أنّه ما كان ليجد فيه أي جاذب في ظروف غير هذه، فإنه كان مستعدّاً لمشاركتها حماستها، ولأن يتحوّل في هذه المناسبة إلى ساحر في طور التدريب.

كان الساحرَ المتدرّب الذي ينبغي أن ينظّم تفاصيل العمل السحري. وكان قد ناقش خططاً شتّى مع دورا التي كان عدم أهليّتها العلمية قد هاله. فبعد استبعاد فكرة استخدام خيول الفلاحة كانت القوّة الوحيدة الممكنة ذات الطاقة الكافية هي الجرّار. ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يحدث، كما حاول أن يُفهم دورا، أن يتبيّن أنّ الآلة عاجزة عن رفعه نظراً إلى أنّ كميّة الطين المتسرّبة إلى داخله قد تُضاعِفُ لوحدها وزنه. زد على ذلك أن جزأه الأسفل كان على ما يظهر غائصاً في وحل قعر البحيرة الكثيف جدّاً. وكان قد حاول من جهة ثانية تخليصه في غطساته الأخيرة،

twitter @baghdad_library

ولكن بنجاح نسبي. وكان من المؤسف جدًّاً، علاوة على ذلك، أن لا تُحسن دورا العوم ولا قيادة الجرّار، لأن ذلك كان يحول دون دفع قاعدة الجرس في الوقت الذي يُسحب فيه من قمّته.

قالت المرأة الشابّة ويداها مشبّكتان حول ركبتيها وعيناها مرفوعتان نحو توبي بإعجاب متذلّل عندما جلسا لعقد مشاورتهما الأخيرة:

- أخشى أن أكون عديمة النفع بالكليّة.

وألفاها آسرة بشكل خارق.

كانت الخطّة الرسمية المرسومة للاحتفالات كما يلي: كان وصول الجرس إلى القصر مُنْتَظَراً صباح الخميس. ولسوف يوضع منذ وصوله فوق إحدى العربات الحديدية المستخدمة من حين إلى حين لنقل جذوع الأشجار، وما إن يوضع حتى يُحلّى بزخارف بيضاء ويحاط بالأزهار. وسوف يُباركه الكاهن و«يُعَمِّده» بعد زخرفته على هذه الشاكلة خلال قدّاس صغير يقام عند وصوله مساء الخميس ويحضره أفراد «الجماعة» وحدهم. وعليه فإنه سيقضي ليلة الخميس - الجمعة في فِناء الإسطبلات، وسوف يكون صباحَ الجمعة، الزمان المألوف لقبول المرشحات لدخول الدير، مدارَ احتفال ريفي صغير كانت قد قرّرت تفاصيله بمجبّة السيدة مارك. وسوف تؤدّي الـ«لوكال موريس» رقصة، وتحيي فرقة مدرسة القرية الموسيقية صهجة ليلية، وتقوم مسيرة مهيبة فوق السدّ بإيقاع من فرقة الترتيل في كنيسة البلدة التي كانت تدرس منذ زمن على شرفه مقطوعات على مستوى رفيع من الطموح. حتّى إن إحداها كان قد ألّفها رئيسها لهذه المناسبة. وأمّا المسيرة التي كان تأليفها وتنظيمها لا يزالان معلّقين فستتألف على ما يظهر من المنفّذين وأفراد «الجماعة» وجميع القرويين الآملين في الاشتراك فيها. وإذ كان من النادر جداً أن يحدث أمر بارز في القرية فسيكون عدد كبير جدّاً ولاريب راغبين في حضور الحفلة، على الرغم من الساعة المبكّرة. وسوف تُفتح بوابة الدير

الواسعة عندما تقترب المسيرة، وبينما يصطفّ الموكب على جانبي الجرُف المقابل يُكشف الغطاء عن الجرس في انفجار أخير من التراتيل. وسيبقى بعض الوقت معروضاً وسط الأعجاب العام، ثم يُدفع به ويُقام في الدير على يد عمّال منتخبين مزوّدين بإذن يسمح لهم باجتياز السياج. وسيكون إغلاق الأبواب علامة على انتهاء الاحتفال بالنسبة إلى العالم الخارجي.

كانت الخطّة التي أعدّها الشابّان كما يلي: يحاولان رفع الجرس القديم ليل الأربعاء. وسوف يستعملان لهذا الغرض الجرّار الذي كان يُسمح الآن لتوبي بقيادته أحياناً لحسن الحظّ. وكان استصلاح الأراضي قد بدأ في الوقت الحاضر، ومنذ بداية الأسبوع وهو يشارك فيه مع پاتشواي. ولّما كان هذا الأخير يترك العمل بلا حشمة بدقّة مطلقة فسيكون سهلاً عليه - لن يعترض أحد على ما يقوم به - قيادة الجرّار إلى الغابة قرب الهِري القديم بدلاً من إعادة وقفه في الطريق. وكان قد رفع قبل ذلك الأغصان والعقبات المهمّة على الدرب المفضي إلى البحيرة بحذاء الهِري للتمكّن من قيادته مباشرة تقريباً إلى حافة الماء. وهناك يتركه حتى حوالي منتصف الليل، وهو وقت الموعد المضروب مع دورا. وكان في الجرّار ملفاف وحبل متين من الفولاذ في نهايته عِلاقة تُستخدم لجرّ جذوع الأشجار. وكان يأمل في إمكان رفع الجرس بتعليق الحبل إلى الحلقة الكبيرة القائمة في رأسه بواسطة الملفاف أولاً، وأن يجرّه بعد ذلك إلى الهِري. وحرص على وضع بعض الحجارة والحصى عند أسفل المنحدر تحسُّباً لعلوق طرف الجرس بالحافّة تحت مستوى الطين. وكان الخطر في هذا المكان، بالإضافة إلى سحب الشيء المطموع فيه، يكمن في سماع صوت المحرّك. ومع ذلك فقد كان توبي يقدّر أنه كان من الممكن بفضل الريح الجنوبية الغربية التي كانت تهبّ منذ عدّة أيام ألاّ يبلغ الهدير آذان سكّان القصر، أو ربّما أن يُخلَطَ بينه وبين هدير سيارة أو طائرة بعيدة.

twitter @baghdad_library

وكان للعربة الفسيحة التي كان عليها وضع الجرس فوقها نسخة مطابقة لحسن الحظّ. والحقّ أن وجودها ربّما كان هو الذي يجعل تحقيق العملية ممكناً. وبعد أن يؤتى بالجرس القديم إلى الهري يُدخل الكبل المعدني في حلقة الرافعة الواسعة ويُستخدم الملفاف لرفعه عن الأرض. وإذ يصبح في هذا الوضع يمكن إنزاله بسرعة فوق العربة الثانية فيُدفع بها ليل الخميس من غير صعوبات تذكر على الطريق الإسمنتية المحاذية للغابة. وكان ذلك الدرب يفضي مباشرة عبر حديقة الخُضر إلى الفِناء القائم فيه مستودع الحطب الذي لا بدّ أن تكون قد وضعت فيه الشحنة الثمينة المزيّنة للنزهة في غدٍ. وعليه فإنه سيكون من الممكن تغيير الزخارف. وسوف تُخفي الأزهار وغيرها من معالم الزينة بعض الفروق الطفيفة التي قد يكون في وسع عين خبيرة تمييزها بين التوأمين. وإذا حدث أن كانا بحجمين مختلفين فسيشكّل ذلك عقبة كؤوداً. بيد أن توبي الذي كان قد اكتشف بلمح البصر أبعاد الكنز وقاس قدر المستطاع أبعاد القديم كان يعتقد بأن حجمهما المتقارب لا يختلف أبداً. وما إن يُنتشل المريد المزيّف ويُساق إلى إحدى حجرات الإسطبل الصغيرة الفارغة التي لم يكن ينظر في أمرها أحد حتى تتمّ عملية الاستبدال. وربما كانت أخطرُ مرحلة إلى حدّ ما المرحلةَ الأخيرة. ولّما كان الفِناء بعيداً لحُسْنِ الحظّ بعض الشيء عن القصر، ولم تكن أي من الغرف تطلّ على هذه الناحية، فقد كان بالإمكان الرجاء بأن لا تُسمع أيّة ضجّة.

ومع ذلك فإنه كان لايزال هناك محذورهو أن العربة الثانية التي ينبغي استخدامها لتسيير الجرس القديم كانت السيدة مارك تستعملها يومياً في ورشة التوضيب. وكانت تتّخذ منها طاولة لرصّ الطرود قبل رفعها إلى متن الشاحنة لإجراء التحميل. ولو أخذها توبي خلال ليل الأربعاء فسيُكْتَشَفُ غيابها الخميس. وبدا أساسياً ألاّ تؤخذ إلا في الليلة التالية كيلا يُلاحَظ

اختفاؤها. ولسوف يتدبّر أمره لكي تختصر العمليات إلى الحدّ الأدنى في مخزن الغلال ذلك اليوم. وسوف يرفع الجرس منذ اليوم السابق بواسطة الكبل المشدود إلى الحلقة حتى نقطة مدروسة أرفع قليلاً من مستوى العربة. وسيُعْمَد إلى كبل آخر اكتُشِف بالصدفة في مخزن التموين فيرُبط إلى أحد الطرفين ويُدخل في الحلقة ويُعلّق سريعاً في فرجة جذع إحدى الشجرات القريبة بكلاّبتين تُشَدّان خلال الكبل. وإذ يتحرّر الجرّار على هذا النحو فإنّه يمكن إعادته إلى الحقل في ساعة مبكّرة جدّاً من صباح الخميس. وكانت دورا قد جمعت كميّة كبيرة من الأغصان والنباتات المتسلّقة وفروع الخضرة لِسَتْر تميمتها، على الرغم من أن احتمال اكتشافها كان مُستبعَداً جدّاً. وسوف تُقاد العربة ليل الخميس وتوضع تحت الجرس، وإذا اتّضح أن تقديراته كانت صحيحة فسوف يتطابق السطحان من دون فراغ بينهما. وإذا كان العكس وجب رفع العربة قليلاً على حجارة أو غرزها في أرض مخزن الغلال لبلوغ محيط الجرس. وعندها يُنزع الكبل ويرقد الجرس فوق العربة. وعليه فقد غدت مقاربة الجرس خلال الليلة الثانية غير ذات نفع بإزاء هذه الترتيبات البارعة.

وأغرقت هذه التفاصيل منفذها الجَسورَ في نوع من النشوة. وكان يحدب على مصاعبها وحظوظها في النجاح حَدْبَهُ على عمل فنيّ. وعلاوة على ذلك فقد كان الأمر أيضاً تكريماً لدورا، والبرهانَ على تدلّهه بها. وكان قد غدا ـ وكان يحسّ بذلك ـ تحت سيطرتها منذ اللحظة التي كانت فيها صورتها قد حلّت بلطف في الكنيسة محلّ الصورة التي كانت حتى ذلك الوقت بلا معالم، صورة الأنوثة التي حوّل إليها بتساؤل مُيُولَه؛ بل كان في وسعه القول إنه غدا رهن إشارتها. ولم يكن كونها متزوّجة ليكدّره على الإطلاق لأنه لم يكن في نيّته أبداً التصريح لها بحبّه، ولا أن يكشف لها بكلمة، ولا بحركة، عن الحالة التي هو فيها. وقد استخلص من هذا التحفّظ رضى

twitter @baghdad_library

مزهوّاً وهو يشعر تقريباً بأنه أحد فرسان القرون الوسطى مولهاً بسيدة نبيلة نادراً ما تُصادَف، وليس في مقدوره امتلاكها على الإطلاق. وقد جعلت هذه الفكرة حضورَها أشدَّ إحياءً، وجعلته الحرية التي كانت تعامله بها في أثناء مشروعهما العجيب أكثر سحراً ممّا سبق. وحمل إليه إشراقها وهيمنتها والانفعال الجديد الذي كان يراوده شيئاً شبيهاً بعملية استعادةٍ للبراءة.

وكان انشغال باله بمايكل مقيماً ومحزناً جداً، وكان يتناقض تناقضاً غريباً مع هذا الكشف عن ذاته الذي كانت دورا قد أثارته في هذه الأيام عن غير قصد منها. وكان يتجنّبه، بيد أنه كان يراقبه ولا يستطيع صرف تفكيره عنه. وكانت عواطفه تترجّح بين الشعور بالذنب والضغينة. وكان يعاني شعوراً بأنه قد غُمس في حمّام قذر، ويحسّ كذلك بأنه قد أُلحِق به الضرر. وكان خياله يُعِدُّ مقابلات ضرورية بينهما قبل رحيله، وكثيراً ما راودته الرغبة في الذهاب لقرع باب مكتبه من غير أن تكون لديه فكرة عن الموقف الذي سيتخّذه، ولا عن الأحاديث التي سيتطرّق إليها. وكان يسهر بحرص كبير على الفكرة المزعجة واللطيفة معاً، صورة صديقه مستغفراً إيّاه، بل أحسن من ذلك، ملتمساً منه كلمة عطف رقيقة. وكان يعتقد أن هذه المغامرة بعيدة عن أن تكون قد انتهت.

أخذ يسير بحيطة على طول الدرب الذي يكتنف البحيرة. ولم يكن القمر غائباً، بل كان مرتفعاً في السماء ويكاد يكون بدراً. وكان المنظر المهيب المتألّق بالأشجار والماء يبدو وكأنّه على دراية بالعمل الكبير الذي سيتمّ. وكانت البحيرة المتأهبة عمّا قليل لتسليم كنزها هادئةً، بل تكاد مغرية، وكان الهواء حارّاً. وحثّ خطاه بفعل التوقّع والهيجان باحثاً عن شبح دورا الماثل له. وكانا قد اتّفقا على اللقاء في الهري. وكان توبي يعلم علم اليقين بأن صعوبات لا تحصى قد تبرز، بيد أنّه كان مكهرباً بالثقة والرجاء في أن يُسْعِدَ سيّدته بانتشال الكنز المطموع فيه.

وتوقّف إذ بلغ المَضاءة فأعقب حفيفَ قدميه سكون شبه خارق، ثم ارتسم الشبح الأنثوي تحت ضوء القمر على الدرب المفضي إلى الهِري. ونطق باسمه فقالت دورا بصوت خافت:

ـ حمداً لله. كنت ميتة من الخوف. كان هناك أصوات غريبة جدّاً، ولم أنفكّ عن التفكير في أن الراهبة الغريقة كانت تلاحقني.

وأجفلا لسماع صوت واضح قريب جداً داخل نباتات الأسَل؛ وكان أجشّ، وإنْ غير مجرّد من الرقّة، وقد ارتفع على عدّة نغمات وذهب يتلاشى ساجعاً على بُعد.

وسألت دورا:

ـ ماذا يمكن أن يكون ذلك؟

وأجاب توبي:

ـ إنّها دُخّلة القصب، بلبل الفقراء، هكذا يسمّيها پيتر توپغلاس. لن تزعجنا قطّ. هيا يا دورا، إلى العمل الآن بسرعة.

قالت:

ـ أظن أننا مجنونان تماماً. لماذا خطرت ببالنا هذه الفكرة الخرقاء؟ لماذا شجّعتَني؟

كانت شبه جادّة، فقال توبي:

ـ سيسير كل شيء بشكل رائع.

لقد جعله انزعاج دورا هادئاً وعازماً. وتنفّس عميقاً. وغرّدت الدُخّلة بعيداً من جديد، وكانت البحيرة ساكنة والقصب والأعشاب تتماوج تماوجاً خفيفاً تحت النسيم الدافىء وشعشعة القمر في أوجها. وخُيّل إليه إزاء هذا المشهد أنه سيكون خارقاً عمّا قريب أن يتمكّن الجرّار من الهدير وهو يدخل الماء. وحَسِبَ نفسه قائد جيش قررّ شن هجوم مباغت.

twitter @baghdad_library

وخطا بضع خطوات في الغابة. لقد كانت الآلة حيث تُركت خارج الهري. فلم يكن قد تجرّأ على الإتيان بها قريباً من الماء خوفاً من أن يُرى مقدّمها الأحمر اللّماع في الضوء. ونزع ملابسه بسرعة واقترب من الجرار وليس عليه سوى ثوب الاستحمام وسلّط عليه ضوء مصباحه الكهربائي متفحّصاً الكبل والملفاف اللذين بَدَوا بحالة جيّدة لأنّهما شُحّما في الأيام الأخيرة تشحيماً جيّداً بإشرافه وإن لم يكونا قد استعملا. وأرخى جزءاً كبيراً من الكبل ولفّه حول الأسطوانة. وكانت دورا قد بقيت خلفه في أثناء عمله. واغتبط في مثل هذه اللحظة، على الرغم من تعلّقه الشديد بها، لكونه نموذجاً من رجال القرون الوسطى الذين لم يكن عليهم أن يهتمّوا على الأقلّ بنسائهم ومغامراتهم في وقت معاً. فهي لم تنفعه بشيء في مجمل العمليّة تقريباً. ولقد قال لها:

- إبقي فقط عند حافة الماء من فضلك، وافعلي ما أقوله لك.

وتنفّس نفساً عميقاً وأدار المحرّك.

وخرق سكونَ الغابةِ المُضاءةِ بنور القمر هديرٌ مُجَلْجِل. وسمع صرخات الفزع التي أطلقتها رفيقته، بيد أنّه قفز من غير أن يضيع وقتاً إلى المقعد وفكّ الكابح وترك المركبة الكبيرة تنزل على مهل نحو البحيرة سيراً إلى خلف. وكان يشعر بحبّ لآلته وهو واثق من قوّتها. وتوقّف عند أعلى المنحدر تقريباً. ونزل منها بعد أن شدّ الكابح بعناية. وإذ كان يجرّ عند ذلك ركيزة من الخشب لوضعها تحت العجلات فقد هرعت دورا لمعاونته. وكان قد ترك المحرّك دائراً بملء إرادته لاعتقاده بأن صوتاً متواصلاً أقلّ استرعاء للانتباه من ضجيج متقطّع. ثم بدأ ينزل وهو ممسك بطرف الكبل من عِلاقته الصلبة.

كان الماء بارداً فأجفل حين لامسه وتساءل كيف سيمكنه الغوص فيه. ومع ذلك فقد دخله بشجاعة، وزلّت قدمه فأخذ يسبح. وكان يعرف عن

ظهر قلب طبيعة قاع البحيرة الجغرافية في ذلك المكان، وفكّر في أنه لا بدّ أن يُرى تقريباً. وبينما كان هدير الجرّار يطنّ في أذنيه غاص بسرعة يدفع به ثقل الكبل إلى القعر. وسرعان ما تمكّنت يده من لمس حلقة الجرس. وجرّ العِلاقة إلى قاع البحيرة والكبل ينساب بحرّية بين أصابعه، وشرع يعبث به للعثور على الثقب الكبير. وخلال هذه العملية ساوره بغتة إدراك ما يفعل فذُعر وصعد بسرعة إلى السطح تاركاً وراءه الكبل في الوحل. وسبح راجعاً باتّجاه المنحدر وقد أصابه الفُواق وثاب إليه رشده بفعل هدير الجرّار ومنظر البحيرة المرعب وقد أضاءها القمر.

وأطلقت دورا الواقفة وقدماها في الماء بضع كلمات غير مفهومة بنبرة جنونية. ولم يُعِرْها انتباهاً، وبدأ يُصْعِد الكبل الذي وصل على مهل وقد غطّاه الوحل. وأمسك بالعلاقة من جديد، وعاد إلى السباحة وهو يتنفّس بانتظام، وغاص ثانية فقبض على محيط الجرس واندفع باتّجاهه. وتمكّن من وضع يده على ثقبه الواسع فانزلقت أصابعه فيه. وتشبّث بإحدى يديه بكنزه النفيس وقرّب العِلاقة بالأخرى. وأحسّ بها تنزلق في الفتحة العريضة فغشيه فرح عارم. وعندها صعد متّجهاً إلى المنحدر وهو ممسك بالكبل مشدوداً قدر المستطاع وارتفع بنفسه خارج الماء. لم يكن الأمر لعبة إن صحّ التعبير، فقد أحسن قياس الطول اللازم. وأزاح دورا من طريقه وصعد إلى الآلة فربط المحرّك إلى الملفاف وتركه يدور على وتيرة بطيئة جدّاً، برخاوة أوّل الأمر، وعلى أهبة إفلاته في كل لحظة إذا بدا أنّ الجرس يسحبه إلى داخل البحيرة. وغدا الكبل أكثر تصلُّباً، وشعر بقيام سحْبٍ مباشر بينه وبين الجرس.

وسكن الملفاف، ولم تكن وتيرة المحرّك ضخمة بما فيه الكفاية. وفكّر بسرعة فأبعده قليلاً عن الماء تاركاً الكبل يكرّ، وغيّر سرعته وأعاده حتى جذع الشجرة. وأقلع ثانية فظل الملفاف ساكناً وانشدّ الكبل. وكانت تلك

twitter @baghdad_library

النقطة التي يوشك أن ينقطع عندها. وبدأ صراع جبّار. وتلا دعاء، ورأى غير مصدّق أول الأمر، ثم مقتنعاً شيئاً فشيئاً، أن الأسطوانة أخذت تدور دوراناً خفيفاً. وكانت فقاقيع ضخمة موحلة صادرة عن أعماق البحيرة تنفجر على السطح، وغدت الحركة مستمرّة. وبينما كان الملفاف المتين يدور أخذ الجرس يُسحب بشكل مرتجّ ولكن حازم. واستمرّ الجهاز بالجرّ وكأنّه كائن حيّ. وسمع توبي صريراً، فلا بدّ أن يكون الجرس قد لامس عموداً من الحجارة عند أسفل المنحدر. وحبس أنفاسه وثبّت عينيه على النقطة التي كان الكبل النحيل المفضّض بانعكاس القمر يشقّ عندها طبقة الماء الثقيلة. وأحسّ بصدمة ربما كانت ناتجة عن مرور حاشية الجرس على أسفل المنحدر. وعلى الفور تقريباً ظهرت العِلاقة أبكر ممّا كان يرجو، وارتفعت وراءها على مهل كتلة موحلة من قلب البحيرة.

لم يتحرّك حتى جنح الجرس وقد خرج أخيراً من الماء وكأنه سمكة ضخمة، فلم يكد يصدّق عينيه وقد تجمّد من البرد، وإن ظلّ رابط الجأش بفضل انضباطه في عمله. وقلّل من طاقة الملفاف وترك الكبل يسترخي ثم قفز إلى الجرّار وبدأ يسحب الدعائم من تحت العجلات. وكان يرى من طرف عينه دورا شاحبة شحوب الموتى وهي لاتزال تحاول مساعدته بلا جدوى. وصعد مجدّداً إلى الجرّار المُزَمْجِر وركّب جهاز السرعة وحلّ الكابح على مهل. واضطربت الآلة برهة ثم أَخذت عجلاتها الكبيرة تدور، وبدأت أوراق الشجر تتحرّك فوق رأسه. والتفت لينظر إلى فريسته: كانت الحافّة تصطدم بقسوة الحجارة وجزؤها الأعلى يلامس الأرض. وأخذت أخيراً تهتزّ فوق أعلى المنحدر، ثم التصقت حافتها بسطح الأرض الأشدّ نعومة جارفةً في اندفاعتها كمية من الحجارة وكتل التراب، ومتابعةً الجرّار إلى داخل الغابة. وقد أحسّ مسبّقاً بالعتمة الوارفة التي كان السقف ينشرها فوق رأسه، وتمكّن من قيادة آلته إلى الباب الواسع القائم في الجانب

المقابل. وحين قدّر أن الجرس قد بلغ وسط الهِري توقّف وأسكت المحرّك.

وتلا ذلك سكون شبه مذهِل. ولمّا كان قد بقي ساكناً تماماً فوق مقعده فقد تنفّس بعمق ومرّر أصابعه فوق وجهه وحاجبيه. وكان قد ودّ الآن أن يهرب وينام نوماً عميقاً، إذ كانت الدقائق الأخيرة مشحونة جدّاً بالامتحان. ونزل من فوق مقعده دهِشاً لملاحظته أن التوتّر الشديد الذي كان قد أخضع له عضلاته كان قد جمّد أطرافه، وإذ انحنى لتدليك ساقيه فقد ذهل أن يُلفي نفسه بلباس الاستحمام.

وقال صوت دورا بالقرب منه:

ـ لقد كنت رائعاً. إنك لبطل حقيقي. هل أنت على مايرام؟ رائع، لقد بلغنا غايتنا!

لم يكن مزاج توبي يسمح له باحتمال كل هذا الدفق من العواطف، فعطس وقال:

ـ أجل، أجل، كل شيء على مايرام. لننظر إليه الآن. ربما اكتشفنا أنه هيكل سرير عتيق أو شيءٌ ما مشابه.

وتعثّر وهو يمرّ بالقرب من الشكل القاتم فوق الأرضية وبحث عن مصباح جيبه فأضاءه.

كان الجرس ملقى على جنبه وفتحة فمه المظلمة لاتزال ملأى بالطين، وسطحه الخارجي مكسوّ بالنباتات المائية وبترصيعات خضراء برّاقة بشكل قواقع. وكان يرقد هناك ناتئاً ضخماً، وكانا ينظران إليه بصمت.

قالت دورا أخيراً:

ـ أوه! ربّاه!

كانت تتكلّم بصوت خافت وكأنّ وجود ذلك الشيء كان يفزعها. وكان وهو ملقى على الأرض يبدو ضخماً. ومدّت يدها بحذر للمسه فألفت أن معدنه كان سميكاً وخشناً ودافئاً بشكل غريب.

twitter @baghdad_library

ـ لم يمكن يخطر ببالي أن يكون بهذه الضخامة.

وسأل توبي:

ـ أيكون «هو»؟

ونظر إليه بوجل دهِشاً لأن يكون قد استطاع أن يُخضِع لإرادته شيئاً بمثل هذه الأهمية، بمثل هذا الموات، متسائلاً عن القَدَر الذي سمح لكتلة ملوّنة بشكل متألّق بأن تتمكّن من الخروج من مكانٍ بمثل هذه الظلمة. وجسّه بدوره بخشوع تقريباً. وقالت دورا:

ـ قرّب المصباح. لقد قال لي پول إن هناك مشاهد من حياة المسيح نحتت على سطحه.

وانحنيا معاً منقّلينْ النور على السطح اللامع غير المنتظم المقسمّ إلى شرحات فوق حوافّه. وحكّ توبي بأصابعه الوحل والنباتات المائية المتعرّشة التي كانت لاصقة بالسطح وهتف قائلاً:

يا إلهي!

كان في المربّع المقابل عيون تحدّق فيه، وكانت أشباح جاثية تبرز منه بوضوح. وقالت دورا:

ـ لا بدّ أن تكون هي! استمرّ في الحكّ. ما أشدّ إثارتها للضحك. انظر: ذلك مشهد آخر. ماذا! إنه ميلاد المسيح! هل ترى الثور والحمار؟ وأولئك الرجال الذين يصطادون؟ وكل أولئك الجالسين إلى المائدة، لا بدّ أنّه «العشاء السرّي»، ثم إليك مشهد «الصَّلْب».

وهتف توبي:

ـ وكذلك «القيامة»!

وقالت دورا:

ـ هناك بعض الكتابات.

وأدار توبي المصباح نحو الحافة كانت هناك كلمات مختلطة بصلبان عجيبة الشكل وبارزة بوضوح من المعدن الرمادي.

وأعلن توبي بعد أن دقّق النظر برهة:

ـ باللاتيني.

وأمرته قائلة:

ـ اقرأ بصوت مرتفع.

وأطاع توبي وقرأ:

ـ أنا صوت المحبّة، واسمي غبريال.

وصاحت دورا:

ـ غبريال! أوه ذاك كان اسمه. قاله لي پول. «ذلك هو».

والتفتت وهي ما تزال جاثية لتنظر إلى توبي. وعكس النور عليها. كان شعرها مبلّلاً وخدّاها ملطّخين بالوحل، وكان خط ماء داكن يسيل في فتحة ثوبها الذي زرِّر على عجل. وإذ كانت يداها تشدّان على الجرس وعيناها تطرفان في النور فقد ابتسمت له.

وترك مصباحه يسقط على الأرض وحزمة الضوء المنبعثة منه لاتزال تتلألأ وإذ كان عارياً مثل سمكة فقد شعر بقوة خارقة تجتاح كيانه. فهو، هو وحده، الذي استخرج الجرس من البحيرة. لقد كان بطلاً، وكان مَلِكاً. ووقع على دورا وهصرت يداه الاثنتان كتفيها فتدحرج جسدها فوق جسده. وسمعها تتنهّد وتسترخي وهي تتلقّى ثقله وذراعاها تطوقان رقبته. وبحثت شفتاه النشِطتان بشكل أخرق وبشبق عن شفتي المرأة الشابّة في الظلام. وجنحا من جراء حركتهما إلى الفتحة.

وتحرّك المعدن القاسي الأجوف ضارباً جانبه بعنف، وارتفع هدير خافت منعكساً باتجاه البحيرة التي كانت مياهها قد ركدت من جديد.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

ظلّ مايكل ساهراً بسبب ضجيج كأنه صادر عن كهف من جهة البحيرة. وبقي لحظة ساكناً يستمع بقلق إلى السكون الذي أعقب الضجيج، ثم نهض وتوجّه إلى النافذة المفتوحة على مصراعيها وكان الليل صافياً مُضاءً بنور البدر المتلالىء الذي رمى بألَقه على سطح الماء الهادىء. وفرك عينيه دهِشاً لسرعة ردّ فعله، متسائلاً عمّا إذا كان صاحياً أو ما إذا كان يحلم. وظلّ وقتاً طويلاً يرقب المنظر، ثم أضاء الغرفة ونظر إلى ساعته فوجد أنها الثالثة وعشر دقائق. وإذ صحا تماماً الآن فقد كان قلِقاً، وجلس على حافة السرير مشدود الأعصاب. وساوره من جديد توقّع شرّ محوّم. وتشمّم باحثاً عمّا إذا لم تكن رائحة كريهة ما تلوّث بالفعل جوّ الغرفة، وتذكّر أنه كان يحلم بـ«نيك» قبل استيقاظه مُجْفِلاً.

كان منزعجاً جدّاً فلم يعاوده النوم. وكان الصوت الذي سمعه ـ كان الآن متأكّداً من أنه قد سمعه حقّاً ـ يبلبله. وعادت إلى ذاكرته ذكريات مبهمة عن حكايات سمعها في طفولته عن أصوات قادمة من البحر ممهِّدة لكارثة. وارتدى ثيابه تائقاً إلى القيام بجولة في البيت للتأكّد ممّا إذا كان كل شيء طبيعياً، إذ كانت صورة غريبة تملأ نفسه كرباً: رؤية القصر محترقاً. وأضاء الرواق ومشى فيه لحظة فكان كل شيء كما هو في العادة، ولم يكن يبدو أن هناك ما يتحرّك. وخرج إلى الشرفة ونظر حوله في الليل الرائع البهاء، ولحظ نوراً مشتعلاً في الجناح. لقد كان «نيك» على الأقل ساهراً.

وتوبي؟ وحدّق في ضفاف البحيرة إلى أبعد مدىً ممكن، فكان كل شيء يبدو في الحقّ هادئاً.

ولاحظ فجأة شكلاً يرتسم على الدرب المفضي من السدّ إلى رصيف الركوب. ورأى بوضوح شبح رجل يسير بخطى ثابتة فارتعد خوفاً وترقّب برهة ثم عزم على هبوط الدرجات على عجل واجتياز السُطيحة لتوقيف المتسكّع الليليّ أيّاً يكن. وإذ رآه الرجل فقد توقّف فجأة وانتظر حتى يقترب. وبلغه وهو يمدّ بصره تحت الانعكاس القمري راكضاً تقريباً الآن، وعرف فيه بخيبة أمل، ولكن بارتياح مع ذلك، پول غرينفلد.

قال پول:

ـ آه! هذا أنت.

قال مايكل:

ـ مساء الخير، ما الذي يجري؟

ـ لقد اختفت دورا. استيقظتُ فإذا هي قد رحلت. وإذ لم تعُد فقد نهضتُ وسعيتُ وراءها.

وسأل مايكل:

ـ هل سمعت صوتاً مفاجئاً قبل لحظات؟

ـ أجل، وكان ذلك في الوقت الذي غُصْتُ فيه في أجمة من الشوك. ماذا كان ذلك؟

أجاب مايكل:

ـ لست أدري. يخيّل أنه قرع جرس.

ـ جرس؟

قال مايكل:

ـ لقد رأيتُ نوراً في الجناح.

قال پول:

twitter @baghdad_library

ـ ذاك بالضبط المكان الذي كنت أقصد إليه. فكّرت في أن دورا قد تكون هناك. وعلى كلٍ فإن الفضول يدفعني، وإن لم تكن هناك، إلى معرفة ما إذا كان السيدُ غيش نائماً. ألم تلاحظ اجتماعهما كليهما وكأنهما متآمران؟

كان مايكل قد لاحظ ذلك بالطبع، ولكنّه أجاب:
ـ لا، لم ألاحظ شيئاً.

وشرعا يسيران نحو رصيف الركوب، وسأله مايكل شاعراً هو الآخر برغبة عارمة في معرفة ما يجري في الجناح:
ـ أيكون من غير اللائق أن أرافقك؟

لم يعترض پول على ذلك، واجتازا بالمركب ثم حثّا الخطى على الدرب المفضي إلى الجادّة. وكان النور يحدّد الآن بوضوح معالم الطريق. وانتقلا من ضوء القمر إلى عتمة الأشجار وشعرا بحصى الدرب تحت أقدامهما. وإذ اقتربا فقد رأيا أن الباب كان مفتوحاً. وكان نور غرفة الجلوس والنوافذ غير المحجوبة تكشف البلاط المرصوف والأعشاب العالية وقضبان السياج.

أخذ پول يركض فبلغ العتبة قبل مايكل. ودخل من غير أن يقرع الباب يتبعه رفيقه الذي كان يندفع خلفه ناظراً من فوق كتفه.

كان منظر الحجرة هادئاً حميماً. وكانت الصحف المبعثرة تتربّع على الارضية الخشبية والطاولة كما هي في العادة. وكان الموقد مشتعلاً ومورفي مستلقياً إلى جانبه ـ وكان «نيك» جالساً في مكانه المعتاد وقدحٌ وزجاجة ويسكي عند متناول يده. ولم يكن هناك من شخص آخر.
بدا پول مرتبكاً وقال:

ـ مساء الخير يا فاولي، (كان الوحيد الذي ينادي «نيك» باسم عائلته)، كنت أتساءل عمّا إذا لم تكن امرأتي هنا؟

وانفرج ثغر «نيك» الذي لم يُبدِ دهشة لَمقْدِمه ـ كما اعتقد مايكل ـ انفراجتَه المألوفة علامة على ابتسامة ترحيب. وكان يذكّر بشعره المعقّص المُدهِن، وقميصه الأبيض الوسخ المفكوك العُرى، وساقيه الطويلتين الممدودتين تحت الطاولة، بأحد شخصيات ديكنز الثانوية. وقبض على الزجاجة ورفع حاجبيه ليُظهر ولا شكّ تعجّباً خفيفاً مترفّعاً ـ طالما كان مايكل قد أحسّ بمثله أيضاً ـ للصراحة التي كشف بها پول عن مشكلاته الزوجية، وقال:

ـ صباح الخير يا غرينفلد. لا، ليست هنا. ولماذا تكون هنا؟ هل لك في كأس؟

وأجاب پول بهياج:

ـ لا شكراً. لا أشرب الويسكي أبداً.

وسأل «نيك»:

وأنت يا مايكل؟

وأجفل مايكل لسماع اسمه واحتاج إلى برهة لإدراك ما كان «نيك» يريد قوله. وهزّ رأسه سلباً.

وسأل پول:

ـ هل توبي فوق؟

عاد «نيك» يبتسم له مستمهلاً الجواب ثم قال:

ـ لا، ليس هو الآخر فوق.

ـ هل يضايقك أن ألقي نظرة على الطبقة الأولى؟

واجتاز غرينفلد الحجرة.

وظلّ مايكل ـ وكان قد بدأ يدرك عندئذٍ حالة السُخط التي كان فيها پول ـ وحيداً مع «نيك»، ورمقه بنظرة جانبية وهو متوتّر أيضاً بشكل مرعب.

twitter @baghdad_library

وابتسم «نيك» قائلاً:
ـ إحدى الخطايا السبع الرئيسية. . .
وسأل مايكل:
ـ أيّ منها؟
ـ الغَيْرة.

وسمع وقع قدمي پول على درجات السلم، ثم دخل الحجرة متلمّساً طريقه فسأله «نيك»:

ـ راضٍ؟

لم يجب پول بل ظلّ في وسط الحجرة وقد جوّف القلق وجهه. ثم سأل «نيك»:

ـ هل تعلم أين هو؟
ـ غيش؟ لا، لست حارس غيش.

بقي پول لحظة متردّداً ثم استدار ليذهب. وإذ مرّ بمايكل فقد توقّف وقال:

ـ غريب ما قلته لي بشأن الجرس.
وسأل هذا: «ولِمَ؟».

ـ لأن هناك خرافة رائجة بهذا الصدد. سوف أخبرك بها. إنَّ صلصلة الجرس نذير بالموت.
وسأل مايكل «نيك»:
ـ هل سمعت ذلك الصوت الغريب قبل برهة؟
وأجاب الأخير:
ـ لم أسمع شيئاً.
وخرج پول صافقاً الباب خلفه واتّجه إلى الطريق.

لم يتحرّك مايكل. كان يشعر بأنه خائر مبلبل. فما كان أشدّ رغبته في الجلوس صامتاً بالقرب من «نيك» لو أنه كان قميناً فقط بأن يبقى هادئاً. ومع ذلك فقد كانت تلك فكرة غير معقولة.

وسأل «نيك» مجدّداً:

ـ هل لك في الشراب؟

ـ لا، شكراً يا «نيك».

وبدا له من الشاقّ النظرُ الآن إلى مضيفه؛ فقد كان تصرّفه الاحتفالي يبدو معادياً، ووجهه مقطّباً مستفِزّاً. وحاول مع ذلك أن يبتسم ابتسامة متكلّفة ثم أشاح بوجهه.

ونهض «نيك» وتقدّم من مايكل فجمدت أطرافه. فقد خيّل إليه للحظة أنه سيقترب منه أكثر ويلمسه، بيد أن الشابّ توقّف على بعد خطوتين واستمرّ يبتسم. وتفرّس فيه مايكل هذه المرّة متمنّياً لو يستطيع مَحْوَ تلك الابتسامة من شفتيه، وكانت به رغبة جامحة لمدّ يديه ووضعهما على كتفيه. وجعله الصوت الذي كان قد أرجفه، وضوء القمر، وهذه الليلة الجنونية، يتقبّل أن علاقاتهما الحميمة كان مسموحاً بها من جديد. وكان جسده ينتفض برمّته من جرّاء هذا القُرب. وربما حانت بعدُ اللحظة التي يزيل فيها الحاجز الذي كان قد أقامه بينهما، فما نتج عنه ما يريح البال. فالواقع لايزال قائماً، وقد أدرك للتوّ تمام الإدراك أنه مهما تكن النتيجة، ومهما يكن المغزى، فهناك أمر واحد مؤكّد: إنه يحبّ «نيك». أفليس من الممكن أن ينجم عن هذا الحبّ خيرٌ؟ وبدأ بالقول: «نيك...».

وسأله «نيك» وهما يكادان يتكلّمان في وقت واحد:

ـ ألا ترغب في أن تعرف أين توبي؟

وخيّل إلى مايكل أنه سينهار أمام هذا السؤال، بيد أنه جهد في الاحتفاظ بوجه لا يحُول، وأجاب:

twitter @baghdad_library

ـ أين هو إذن؟

ـ في الغابة يضاجع دورا.

ـ وكيف عرفت؟

ـ رأيتهما.

قال جازماً:

ـ لا أصدقّك.

ولكنه كان قد صدّقه. وأضاف:

ـ على كل حالٍ فإن الأمر لا يعنيني.

أوه! يا للجواب الأحمق! فكيفما نُظِر إلى الموضوع فإنه كان يعنيه في أيّ حال.

وتراجع «نيك» ليجلس بتراخٍ إلى المائدة مراقباً مايكل ومستمرّاً في الابتسام.

واستدار هذا وخرج صافقاً الباب خلفه.

الفصل التاسع عشر

في صباح اليوم التالي سأل جيمس تيپرپيس مايكل وهما منهمكان بقطاف البندورة داخل الخيمة الزراعية:

ـ ولكن ماذا حدث بعدُ؟

كان الجو قد غدا مُنذراً، وعلى الرغم من استمرار الشمس في السطوع فقد هبّت ريح صاخبة عند الفجر جارفة في طريقها كل شيء. وكانت صفوف الفاصوليا العالية تتموّج بشكل خطِر، وكان پاتشواي قد وصل إلى عمله ويده متشبّثة بقبّعته الأسطورية.

ومع هذا فقد كانت الحرارة العطِرة في الحجرة المغلقة داخل الخيمة الزراعية، وأكداس الثمار الحمراء، توحي بجو شبه استوائي. وكان سير العمل اليومي مضطرباً هذا الصباح بسبب قدوم الجرس الملحّ. وكان على الكاهن أن يُطلّ بعد الظهر ويشارك بعد التعميد في حفلة الشاي التي تنظّمها بشكل «بوفيه» مارغريت سترافورد. وبعد ليل يقضيه في «إمبر» يقيم القدّاس تبعاً لأدقّ الطقوس.

وأجاب مايكل:

ـ لم يحدث ما يستحقّ الذكر. فبعد أن التقيت پول رافقته إلى الجناح. ولم يكن توبي هناك فرجعنا، وعدت لأنام تاركاً پول يكمل عملية التفتيش. وعندما قابلته هذا الصباح أخبرني أنه عاد إلى غرفته بعد ثلاثة أرباع الساعة

twitter @baghdad_library

فوجد فيها زوجته. وقد أوضحت له أنها إذ لم تتمكّن من النوم في تلك الليلة الساحرة فقد ذهبت تتنزّه حول البحيرة.

وانفجر جيمس بضحكة عريضة مجلجلة وهو مستمرّ في تغليف علبة بورقة جريدة وقال:

ـ أخشى أن تكون السيدة غرينفلد ما يسميّه العامّة قحـ . . . آسف لأن أكون مضطراً إلى قول ذلك، بيد أنه من الضروري تسمية الأشياء بأسمائها. وإذا لم يجرؤ المرء على ذلك نتجت مضايقات لا نهاية لها.

وسأل مايكل مرة جديدة:

ـ تقول إنك لم تسمع أي صوت خلال الليل؟

ـ أيّ صوت على الإطلاق: الصحيح أنّي متعب بشكل مميت منذ بضعة أيام بحيث أنام نوم الأرومة التي يذكرونها في المثل. وحتى الصُّور الذي يُنفخ فيه يوم القيامة عاجز عن إيقاظي. وعليهم أن يرسلوا إليّ مبعوثاً خاصّاً!

ظل مايكل صامتاً يتناول برشاقة حبّات البندورة التي أدفأتها الشمس، وكانت صلبة جدّاً في إبّان نضجها. وكانت الصناديق سرعان ما تمتلىء.

استطرد جيمس قائلاً:

ـ لا ينبغي أن نهزأ بالأمر طبعاً، بيد أنّي لا أستطيع التصديق بأن شيئاً خطيراً قد حدث الليلة. إن پول متشائم مخيف، وغيور مُزمن على الأخصّ. وعلى كل حال فإن علينا أن نحترس للأمر لأنه يحزنني أن يكونا قد ذهبا إلى أبعد ممّا فعلاه.

أجاب مايكل:

ـ بديهي.

قال جيمس:

ـ أرجو أن يكونا قد اكتفيا بالتنزّه جنباً إلى جنب كزوجين من الأطفال. إن عقليّة دورا هي بالضبط العقلية الخاصة بهذا العمر. ومع ذلك فكن على ثقة من أنه ربما جرت مع مثل هذه المخلوقة بعض الحركات ونُطق ببعض الكلمات التي من شأنها بلبلة مراهقنا الجميل. وبعدُ فإنه لا ينتمي إلى طبقة العمّال الفتيان الآتين من الأحياء المكتظّة بعامّة الناس. لقد كان توبي طفلاً مدلّلاً جداً. أفلا تقدّر أن بوادر السلوك الجنسي مهمّة للغاية؟ والتسلية مع الشباب أمر من الأمور الجِدّية.

قال مايكل:

ـ أوافقك تمام الموافقة.

ـ إنه لمحزن جدّاً ألاّ نترك في نفس السيدة غرينفلد إلا قليلاً من الأثر. لوددت لو تلتقي «الأمّ كلير» ذات يوم. وإني لعلى يقين من أن المقابلة كانت ستهديها سواء السبيل. وأرى أننا أهملنا بول كثيراً في الأيام الأخيرة.

وأجاب مايكل:

ـ مُحتَمل.

وأضاف جيمس:

ـ اعلم أننا علاوة على ذلك مسؤولون تماماً عن الفتى. وقد جاء إلى هنا بوجه الإجمال لنوع من الاستجمام، للتحضير للسنوات التي سيقضيها في أوكسفورد. وليس في سلوكه الصاخب مع دورا ما يُلام جِدّياً عليه، ومع ذلك فإنني أرى أنّ على أحدنا أن يقول كلمة.

وسأل مايكل:

ـ لِمَنْ؟

فأجاب جيمس:

ـ لدورا. ومع ذلك فإنّه يبدو لي أن الاستنجاد بأفضل جانب من طبيعتها عملية صعبة. فأنا أشعر بأنّ هذه الفتاة خرقاء في أكثر الأحيان،

twitter @baghdad_library

إن صحّ التعبير. وأنها تشبه «فتى ديجون الذي لم يكن يتّبع أية ديانـة». ومع هـذا فـإنّـه حتى إن لم تكن تهتمّ لقلق زوجهـا فـإنّ عليهـا أن تبـدي بعض العنـاية بـالفتى؛ عليها أن تفكّـر في ذلك عـلى الأقـلّ. فلماذا لا تـوجّـه إليهـا بعض اللوم أو العتاب يا مايكل؟

- لا أفعل.

- مارغريت إذن؟ إنها تملك روح الأمومة، ويبدو أن دورا تقدّرهـا. وربما كان هذا النوع من التحذير أكثر تقبُّلاً عندمـا يصدر عن امـرأة. هه، هـا هي ذي بالفعل.

ألقى مايكل نظرة ثاقبة. كانت مارغريت سترافورد منـطلقة عـلى الدرب المعبّـد للقائهـا وتنّورتهـا العريضـة تتطايـر في الهواء. وانقبض قلب مـايكل لحمله عجلتها على محمل السوء.

فتحت الباب بخشونـة تاركـة تياراً من الهـواء المثلج ينفذ إلى الـداخل، وصاحت فرِحة بأن تحمل هذه الرسالة:

- مايكل، ترغب «الرئيسة» في مقابلتك على الفور.

- أيّ «حظّ» حظّك!

كان الوجهان المتهلّلان يتأمّلانه بحَسَد.

ذهب مـايكل فغسـل يديـه من الصنبور القـائم في زاوية الخيمـة وجففهما بمنديله وقال لجيمس.:

- آسف لـتركك في إبّـان العمل. اعـذرني إذا أخللت بالتزامي عن غـير قصد.

هبط عـلى عجل الـدرب القائم خلف البيت للوصـول إلى البحيرة لأنـه كان من المألوف أن يهرع لتلبية دعوات رئيسـة الديـر. وعندمـا انعطف إلى اليسار هاجمته هبّة ريح عاصفـة. وعندهـا لمح شـاحنة كبيرة تبرز من ضفّـة

البحيرة الأخرى آتية من الجادّة ومتقدّمة ببطء فوق القسم المكشوف من الطريق. ذلك كان الجرس ولا شكّ. وقد كان عليه أن يكون مهتمّاً له ومتحمّساً وسعيداً، ولكنه سجّل مَقْدِمه بلا مبالاة، وسرعان ما نسيه. ولاريب أن «الرئيسة» كانت قد أنبئت بموضوع توبي. ولم يكن الاعتقاد بذلك معقولاً أبداً بالطبع، إذ كيف كان في وسعها اكتشافه؟ ولكن ماكان أشدّ دهشته مع ذلك لكلّ ما كانت تعرفه! وإذ بلغ ألواح السدّ مبهورَ الأنفاس فقد خفّف من سيره. وأخذ وقع خطواته يتردّد فوق الخشب. إنه لم يكن يتوقّع هذا الاستدعاء. وتساءل عمّا إذا لم يكن على أهبة تلقّي نوع من التعنيف الروحي. وأحسّ بأنّه عنيد ومتوارٍ وصعبٌ تحريكُ مشاعره ومنزعج بعض الشيء.

كانت الأخت أورسول تنتظره عند زاوية حجرات المحادثة مؤدّية دورها المألوف، دور كلب الحراسة إلى جانب «الرئيسة»؛ وتألّق وجهها العريض بالرضى وهي تُدخِل الزائر؛ فقد كانت تعتبر الاستدعاء آية رحمة خاصّة لأن مقابلاتها المطموع فيها من الجميع كانت تُمنح لعدد ضئيل جدّاً منهم.

وأشارت إلى مايكل فيما كان يمرّ أمامها وهي تتمتم ببعض كلمات المجاملة:

ـ في حجرة المحادثة الأولى.

وثب إلى الممرّ الضيّق وتوقّف لحظة لالتقاط أنفاسه قبل أن يفتح الباب الأول. كان الستار مسدلاً من جهته أمام شبكة القضبان؛ وكان الصمت تامّاً. وكان المعمول به أن يكون الشخص المستدعى القادمَ الأول. وأزاح مايكل الحاجز من ناحيته لكشف شبكة القضبان، في حين بقي الستار الثاني مسدلاً على الجزء المقابل داخل السياج, وأصلح ياقته ـ لم يكن يربط ربطة عنق ـ وأعاد تزرير قميصه ومسّد على شعره وبذل جهداً كبيراً لتهدئة

twitter @baghdad_library

نفسه. وظلّ واقفاً عاجزاً عن إلزام نفسه بالجلوس مُثبّتاً بصره على حاشية الستار الداخلي البيضاء.

ومرّت لحظات قصيرة جدّاً شعر خلالها بانقباض قلبه المزعج قبل أن يرى بعد سماعه حركةً ظلّاً يرتسم خلف الستار؛ ثم انفتح الستار وظهرت قامة «الرئيسة» الطويلة قبالته. وجثا بالطريقة المألوفة، وظلّ على هذه الحال منتظراً جلوسها. وابتسمت ابتسامة خفيفة وجلست وأشارت إليه أن يفعل فعلَها. وقرّب كرسيّه من شبكة القضبان وجلس على حافته لكي يكون كلّ من الرأسين قريباً من الآخر.

قالت بالنبرة النشِطة التي كانت تفتتح بها الجلسات على الدوام:

ـ سعيدة برؤيتك يا بنيّ العزيز. أرجو ألّا أكون قد اخترت وقتاً مزعجاً جدّاً، فلا بدّ أنك مشغول كثيراً اليوم.

أجاب:

ـ الأمر على خير ما يُرام، إنّه وقت مؤاتٍ لي.

وابتسم لها من خلال القضبان. وكان توتّره قد اختفى غارقاً في ماكان يشعر به نحو مخاطبته المبجّلة من تعلّق عميق ممزوج بالمهابة. وكان وجهها المميّز السلطوي يتألّق بفطنة خارقة، وذكّرته تجاعيدها الطويلة التي تبدو منحونة بإزميل وخمارها العاجي المنعكس لونه عليه ـ استعادة لذكرى بعض الرسوم الزيتيّة الهولنديّة ـ بأمّه المتوفّاة من زمن طويل جدّاً.

قالت:

ـ أنا نفسي مشغولة جدّاً، بيد أني شعرت برغبة في رؤيتك. مرّ زمن طويل، ألا ترى ذلك؟ ومع ذلك فإني لن احتجزك طويلاً، وأودّ فقط تسوية بعض الأمور التفضيلية.

أحس مايكل بالارتياح لهذا التمهيد. فقد كان يخشى أن يتلقّى توبيخاً،

ولم يكن الوقت ملائماً في رأيه لمحادثة حميمة. وكان يعلم في الحالة التي هو فيها الآن أنّ كل استعجال من قبِله كفيل بإلقائه في مَوْحَلَة من النقد الذاتي الذي ليس فيه أي نفع. وتشجّع وقال بلسان رجل الأعمال:

ـ أظنّ أن كل شيء مُنتظِم لهذا المساء ولغدٍ. لقد حقّقت مارغريت سترافورد أموراً رائعة.

وهتفت «الرئيسة»:

ـ ليُبارك الله فيها! إننا جميعاً مضطربات، ويصعب علينا الانتظار حتى غد. أظنّ أنّه ينبغي أن يصل الأسقف عصر اليوم، أليس كذلك؟ وأرجو أن أتمكّن من مقابلته قبل رحيله. إنه رجل كثير المشاغل، وجميل منه جدّاً أن يخصّص لنا وقتاً.

قال مايكل:

ـ آمل ألّا يعتقد أننا حفنة من غير الصالحين لشيء. وأخشى أن يكون الموكب غداً مختلّاً ومُرْتَجَلاً بعض الشيء. لقد تطوّعت عدّة إرادات حسنة، ولكنْ من غير منهج ولا فعالية.

ردّت رئيسة الدير قائلة:

ـ ذاك أحسن. كثيراً ما شهدت وأنا طفلة مواكب دينية في إيطاليا؛ وكانت في معظمها بلا انضباط، حتى أكثرها أهميّة. وأظنّ أن ذلك كان يجعلها أشدّ عفويّة وحيويّة. وأنا مقتنعة بأنّ الأسقف لا يرتجي استعراضاً عسكرياً. والحق أني لا أشكّ في أنّ غداً سيكون رائعاً. وما أرغب في أن أحدثك عنه هو في الواقع القضية المالية.

وأوضح مايكل قائلاً:

ـ لقد حضرنا مشروع نداء للاكتتاب ولائحة بأسماء أصدقاء «الجماعة» المُحْتملين. وأكون ممتنّاً لك جدّاً إذا قبلتِ أن تُلقي نظرة على هذه الوثيقة.

twitter @baghdad_library

وأفكّر، من بعد موافقتك، في إرسالها خلال خمسة عشر يوماً من الآن. وسيكون من السهل علينا أن ننسخ منها نسخاً بأنفسنا في القصر.
قالت «الرئيسة»:

- إنها لفكرة عبقرية. فلست أرى توجيه مطبوعات من أجل قضية مماثلة. ألا يكون ذلك شيئاً خاصّاً جدّاً، شبه رسمي بوجه الإجمال؟ هناك ظروف يستدعي المالُ فيها المالَ، لكنْ لا دخل لذلك في هذه الفئة. نكتب بكل بساطة إلى أصدقائنا. وسيكون من دواعي سروري أن أرى ما حضّرتم إذا كان باستطاعتك إرساله إليّ اليوم بواسطة الأخت أورسول. وربما استعطنا إضافة بعض الأسماء إلى اللائحة. أي نوع من الإعلان يمكن أن يجلبه جرس في رأيك؟ قد يساعد ذلك في بعض الأوساط، ألا تظنّ ذلك؟ لا أرى مانعاً من تذكير الدنيويين في مناسبات قليلة جدّاً بأننا موجودون.

أجاب مايكل وهو يتبسم:

- لقد فكّرت أنا أيضاً في ذلك. وهذا ما يجعلني لا أرغب في تأجيله. لن يكون بين الحاضرين أي صحافي بالطبع. فأيّ منهم لم يُبدِ أدنى اهتمام للأمر، بيد أني حضّرت خلاصة تقريرية للصحافة المحلّية، وبلاغاً أكثر اقتضاباً للصحافة العامّة. ولقد تناقشنا أنا و«الأم كلير» بصدد ذلك، ورجوت بيتر أخذ بعض الصور التي يمكننا إرسالها.

قالت «الرئيسة»:

- عظيم. الحقّ أني لا أفهم كيف تستطيع أن تعمل على هذا النحو. أرجو ألّا تكون مُرْهَقاً؛ فأنت تبدو شاحباً بعض الشيء.
أجاب:

- أنا في خير حال. وسوف يخفّ العمل من جهة أخرى بعد أسابيع

قليلة. وأنا مقتنع بأن الآخرين يعملون أكثر ممّا أعمل بكثير. فجيمس ومارغريت لا يهدآن في الحقيقة أبداً.

قالت:

ـ يشغلني موضوع صديقك الفتى المقيم في الجناح.

أطلق مايكل تنهّدة عميقة. لهذا بالضبط كانت المقابلة. وأحسّ بالاحمرار يعلو وجهه، واحتفظ بعينيه مشيحتين مثبتتين على أحد القضبان.

قال:

ـ حقّاً؟

تابعت تقول:

ـ أعلم أن الأمر معقّد جدّاً، والواقع لا أعرف عنه شيئاً إن جاز التعبير، ولكنّي أشعر مع ذلك بأنه لم يعثر بالضبط على ما جاء يبحث عنه في «إمبر».

أجاب مايكل بصوت مُكْمَد متوقِّعاً الهجوم الوشيك:

ـ إنكِ على صواب.

واستطردت «الرئيسة»:

ـ افترض أن كلّ الذنب تقريباً ذنبه لأنه يعيش بعيداً عن الحقائق بالكلّية. أليس هذا صحيحاً؟ وسيصبح الأمر أدهى عندما تنضمّ أخته إلينا.

لم يلبث مايكل أن أدرك ـ بارتياح أيِّ ارتياح ـ أن «الرئيسة» كانت تتكلّم على «نيك» لا على توبي. والتفت إليها يتأمّلها. كانت نظرتها ثاقبة.

أجاب:

ـ أعلم. إني أفكّر في ذلك كثيراً. وكان عليّ أن أفعل أكثر. لسوف أفكّر في عمل شيء، سألت شخصاً، ربما كان جيمس، بأن يكون في أثره بشكل جِدّي. قد نستطيع نقله إلى القصر ونحاول جعله يختلط بنا بطريقة من

twitter @baghdad_library

الطرق. ولكنّ الأمر ليس، كما سبق أن أكدّتِ، باليسير. إنه لا يرغب في العمل. وأخاف ألاّ يبقى هنا إلا لبعض الوقت. سوف يعود قريباً إلى لندن.

قالت «الرئيسة»:

- لا بدّ أنّه فرد طالح. وهذا سبب آخر لجعلنا نهتمّ بأمره. ولكنّ شخصاً مثله لا يقيم في مثل هذا المكان للتسلية. لقد أتى بالطبع ليكون بقرب كاترين، ولكنْ أن يكون قد رغب في أن يكون بقربها «الآن»، وأن يكون قد رغب في الإقامة مع «الجماعة» بدلاً من الإقامة في القرية، فذلك أمر له دلالته على أيّ حال. وكيف يمكننا التيقّن من أنه لن تنمو فيه قطّ جرثومة تسمح لنا بأن نرجو صلاحه؟ وإذا كان في وسعي التعبير عما أفكّر فيه فإن الشخص الذي ينبغي حسب تعبيرك «أن يكون في أثره» ليس جيمس، بل أنت.

كان مايكل يتابع نظرتها التي نمّت عن سخرية أكثر ممّا نمّت عن اتهام، وأجاب:

- أظنّ من الصعب إقامة تواصل معه؛ بيد أني سأفكّر بجدّ في اقتراحك.

وزاده الموقف إصراراً على الاحتفاظ بسرّه، وكانت تتفحّص وجهه.

قالت:

- أعترف لك بأني أشعر بأنّ الأمر يشغل بالي من غير أن أعرف بالضبط لماذا. إني قلقة بشأنه ومنزعجة بشأنك أنت أيضاً. وأتساءل عمّا إذا لم تكن راغباً في أن تحدّثني عن أمرٍ ما؟

تشبّث مايكل بكرسيّه، فخَلْفَه كان يبدو أن قوّة المكان الروحية تهبّ عليه مثل عاصفة. يا للسخرية! هذا ما خطر له.   أن تكون قد أرادت

أنْ تعهد إليه بكل شيء، وأن يكون قد استُبعد، وأن ينصاع الآن تماماً أمام تعطّشها إلى معرفة كل شيء. . .

والواقع أنه كان يرغب في نصائحها لا في غفرانها، وكان مستحيلاً طلب تلك من دون تمنّي هذا. لا لأنها ستبدو غير متسامحة وإنما لأنه كان يفكّر بشبه رفض في أن يكشف لها عن حالة الضيق المحزنة التي هو فيها. لقد كانت تعرف بالتأكيد قصته مع «نيك» في خطوطها الكبرى، ولكنّها لا بدّ أن تكون راغبة في فهم عقليته الراهنة. وسوف يستدعي هذا لا محالة قصة مغامرته مع توبي. وهو يعلم أنه إذا بدأ الآن بالإفصاح عن مكنونات نفسه لم يستطع أن يفعل إلّا بانفعال لا سبيل إلى التغلّب عليه من غير أن يتمكّن من رفع راية الإشفاق المعتادة على نفسه، هذا الإشفاق الذي تعوّد أن يخلط بينه وبين الندم. وكان السكون جليّاً ومفضّلاً جدّاً في مثل هذه الحال. وإذ خفض بصره فقد رأى على حافة الشبكة قريباً منه غِواية مُتعمَّدة ناصعة البياض مغضّنةً هي تلك اليد التي طالما غمرتها دموع أناسٍ خيرٍ منه. وإن قدِّر له أن يلمسها قُضي عليه. وحوّل ناظريه وقال:

ـ لا أظنّ.

وحدجته رئيسة الدير لحظة، وأمّا هو فنظر إلى ركن الحجرة خلفه شاعراً بأنه في منتهى الحقارة.

ـ يردُ ذكرُك في معظم الأوقات في صلواتنا، وكذلك صديقك. وأعرف جيداً مدى عنايتك بمن هم في عهدتك، بمن تحاول عبثاً مساعدتهم، بمن لا تتوصّل إلى مساعدتهم. ثق بالربّ وتذكّر أن «مشيئته» تتمّم في الزمان وفي الاتجاه الذي يختاره ما نحاوله نحن بشكل تافه جدّاً. كثيراً ما لا نحقّق للآخرين كلّ الخير الذي نريده، بيد أننا ننجز شيئاً ما، شيئاً ناجماً عن جهدنا. والخير شيء «فائض عن الحاجة». وحيثما نريده بسخاء وصدق نلزم أنفسنا بعمل خلّاق قد يكون غامضاً حتى بالنسبة إلينا، ولأنه غامض

twitter @baghdad_library

يَحْدُثُ أن نخاف منه. ولكنّ ذلك لا ينبغي أن يَقِفَنا. وفي قدرة الله على الدوام أن يهدينا إذا شئنا سبيلاً أفضل وأرفع، وليس في وسعنا أن نتعلّم الحبّ إلا بأن نحبّ. وتذكّر أن جميع إخفاقاتنا هي في النهاية حالات عجز وخَوَر. ولاينبغي أن يُحْكَم على الحبّ غير الكامل، ولا ينبغي أن يُنبذ، بل ينبغي أن يُصلَح ويُكمَل. السبيل أمامنا دائماً وليس خلفنا أبداً.

وإذ كان مايكل ينظر الآن إليها فقد هزّ رأسه موافقاً. وقد وجد أنه من غير الجدير التفوّه بأدنى كلمة بعد ذلك الكلام. وقلبت يدها مادّة إليه راحتها مفتوحة. وتناولها باردة معروقة وهصرها.

قالت:

- لقد استبقيتك طويلاً يا ولدي العزيز. أودّ أن أراك مجدّداً بعد أيام قليلة عندما ينتهي الهرج والمرج. حاول ألاّ ترهق نفسك، أرجوك.

انحنى على يدها مغمضاً عينيه فقبّلها وألصقها بخدّه. ثم رفع إلى السيّدة العظيمة وجهاً اطمأنّت قسماته. وأحسّ احساساً غامضاً بأنه حقّق بصَمْتِه انتصاراً روحياً. واعتقد أنه استحق رضاها. وقاما معاً، وبينما كان ينحني من جديد أغلقت ستار الشاش وذهبت.

ظلّ برهة في الحجرة الساكنة وعيناه محدّقتان في القضبان، في الباب الأبيض المغلق القائم في المأطورة الخلفية. وأغلق ستارته.

ما أعظم ما كانت تعرف أسرار قلبه! ولقد كانت نصائحها رائعة، ولكنْ هل كانت صالحة للتطبيق؟ لم يكن هو سوى وسيلة، وسيلة كثُر دَنَسُها فلا تصلح لتنفيذ العمل اللازم. حبّ. وهزّ رأسه. وحدهم الذين تخلّوا عن الدنيا من حقّهم ولاريب استخدام هذه الكلمة.

الفصل العشرون

لم تهدأ العاصفة. وكانت أكداس من الغيوم المدبّبة تتراكض بأقصى سرعة في السماء حاجبة الشمس أو كاشفة عنها للحظات قصار. وبدا هذا الجوّ الذي يتميّز به شهر آذار (مارس) مزعجاً في شهر أيلول (سبتمبر).

وكانت دورا تتخبّط في سيل من الشرائط البيضاء. وقد جعلها الليل الساهر الذي زاده رَهَقاً القلق الناجم عن تلك المغامرة الطائشة في حالة أقرب ما تكون إلى الذعر. ولقد كان من الممكن أن تسحرها الطريقة التي وثب بها توبي عليها في ظروف غير ذلك الظرف. وحدت بها ذكرى قبلاته الطفولية الناضجة بالهيام إلى الذوبان حناناً، وأدركت بوضوح أنها لم تكن عديمة الإحساس بمفاتن جسده المراهق الصلب ووجهه النضر ذي القسمات التي لمّا تتحدّد معالمها. ومع ذلك فقد خفّف الكربُ الذي لا ينتهي من ثورة ذلك العناق المقتضَب؛ وحسبت نفسها كاهنة مكرّسة لطقس من الطقوس، ضاربة عرض الحائط بالعلاقات الذاتيّة التافهة جدّاً.

ولقد انتهى مَرَحُهما في الهِري بغتة من جرّاء تدخّل الجرس، ولم يتمكّن أيّ منهما، لاستغراقهما في مشاغلهما السابقة، من الكشف عن مدى قوة الصوت. وقد فضّلا أن يتخيّلا فقط تمتمة ناعمة من المستحيل مقارنتها بصوت الآلة الكامل. ومع ذلك فإنه لم يكن في الإمكان ألاّ يُسمع صليل من هذا النوع، وقد انتظرا بقلق في السكون المخيّم من جديد أدنى حركة قد تصدر من جهة القصر.

twitter @baghdad_library

وإذ لم يُسمع شيء فقد انهمكا في الجزء القـادم من العملية. وقـد نفذت بسرعـة وفعاليـة، الأمر الـذي زاد توبي ثقـة فيما كـان يؤمّـل. وكـان أسفـه الشديد ـ وقد عبّر عنه لدورا ـ عـلى أن تكون عـاجزة عن تصـوّر الصعوبـة التي ذُلّلِت بمثـل هذا القـدر من النجاح. وكـان الجرس الآن معلّقـاً بفضل الكبل الثاني، وإن كـاد يلامس الأرض. وكـان الكبل الأول فـوق عارضـة الميزان أمام الباب، وقد دخلت عِـلاقتَه كـلاّبتان قـائمتان في مُنفـرج إحدى اشجار الزّان. وإذ موّه المتواطئان المشهد قدر استطاعتهما بالأغصـان والكَرْم البـرّي فقد تهيّئـا للعـودة إلى سريـريهـما. وبينـما همـا يسـيران عـلى الـطريق الإسمنتية تناولت دورا يـد توبي بـين يديهـا. ولّما بلغـا طرف الغـابة تفـرّس أحدهما في الآخر في ضوء القمر وهما يهمّان بالافتراق. وإذ كان تـوبي يرتعـد حماسة وانفعالاً فقد أمسك بكتفي رفيقته وأدارها إلى أن انعكس الضوء على وجهها. ونظر إليها من جديد دهِشاً سعيـداً بموافقتهـا وأخذهـا بين ذراعيـه وهصرها بعنف وهو يتلقّى قبلتها ويكاد يقع وإياها أرضاً.

حمـل النهار الـوليد بعـد تلك الليلة الرومنسيـة بعض الـرشـد إلى المـرأة الشـابة. ولم يُظهر پول ـ وكان قد بحث عنها عبثـاً، وكانت يـداه مسلوختين من جرّاء آجام الشوك التي سقط فيها ـ أيّ سرور لـرؤيتها في السريـر لدى عودته، كما أنّه لم يشعر بالرضى عندما استيقظا في الصباح الباكـر بعد نـومة قصـيرة. فقد كـان يعلم مافيـه الكفايـة عن أذواق زوجته ليصـدّق حكايـة اتحادها المنفـرد بالـطبيعة، ولاسيّـما في إبّان الليـل، ولم يُخفِ عدم تصـديقه تسكّعها في ضوء القمـر. ولم يتردّد كـذلك في ذكـر أسماء مـلائمة لأخبـارها الجميلة تارةً بعد أخرى. وإذ كانت مبلبَلةً قبـل الفطور فسرعـان ما غـدت على أهبة البكاء وقد أحزنها بإخلاصٍ أسى زوجها وأحسّت لمـرّة أنها متّهمة ظلماً بعض الشيء، وإن تكن عـاجزة عن تقـديم أدنى تفسير. وألحّ پول، موئساً أكثر من أي وقت مضى، على قضاء الصبيحة معها مصطحباً إيّاها في

نزهة شاقّة عليهما كليهما، معاملاً إيّاها كما لو كانت سجينة. واستحال عليها بذلك ضرب موعد للمتواطىء معها للّيلة القادمة، وهو أمر ضروري جعلتهما حرارة الوداع ينسيانه. وكان من المستحيل كذلك أن تذهب إلى الهِري فتخصّص جزءاً من بعد الظهر لتخضير الجرس ليظهر ظهوره المأساوي القريب. ولم يتركها پول في الصبيحة إلا للحظة سعى فيها إلى سترافورد لينزع له شوكة متمرّدة، بيد أنها لم تتجرّأ أن تهرع للبحث عن الشابّ، وجلست مغمومة في القاعة المشتركة. وعندما رجع سجّانها وقد ازداد عبوساً بفعل الألم شمّت رائحة «ديتول» قويّة.

كان الغداء كئيباً، وبدا عدم الارتياح على الجميع. وكان توبي الذي أدرك تمام الإدراك ما فيه الزوج من ضيق يتحاشى نظراته ونظرات الآخرين أيضاً. وكانت السيدة مارك متوتّرة الأعصاب من جراء قدوم الأسقف، وبدا مايكل في حالة سيئة. وأما سترافورد فقد بدا مفعماً بالكآبة بسبب ترقّب مجيء المحاسب الذي أعلن وقوعه في بحر الأسبوع المقبل. وبدت كاترين أشدّ عصبيّة أيضاً من المألوف، وپاتشواي معكّر المزاج لأن الهواء كان قد قلب له صفوف الفاصوليا. جيمس وحده كان يُبدي للمجتمعين وجهاً مطمئنّاً أضفى الدفءَ على الجوّ وهو يصغي إلى قراءة «القديس فرانسوا السالي» بصوت السيدة مارك غيرَ مُدرِكٍ قطّ ما فيه الآخرون من ضيق.

واستمرّ پول بعد الغداء في مراقبة زوجته بيقظة شديدة. وكانت تشعر بكرب لا يوصف بشأن الترتيبات الواجب اتخاذها في الليل القادم. وانسحبت إلى دورة المياه فكتبت على عجل ملاحظة مقتضَبة موجّهة إلى توبي عبّرت فيها عن قلقها لعدم استطاعتها الاتصال به، وضربت له موعداً الساعة الثانية صباحاً قرب الجناح. ودسّتها في جيبها مطمئنة إلى إمكان تمريرها بوسيلة من الوسائل نظراً لعجز زوجها عن قضاء عدّة ساعات بعيداً

twitter @baghdad_library

عن عمله. وبالفعل فإنّ هذا لم يستطع في بداية بعد الظهر أن يصمد أكثر ممّا فعل، ولم يلبث أن توارى باتّجاه غرف المحادثة بعد أن حرص على أن يعهد بسجينته إلى السيدة مارك التي التمست منها معاونتها في القيام بالتحضيرات.

وانهمكتا في تزيين الجرس الجديد المتربّع فوق عربته أمام المقصف الذي كانت أبوابه المفتوحة تكشف عن الطاولات المفروشة بالأغطية على شرف ذلك الاحتفال. وكان الجو المريب قد جعل وضعها في الهواء الطلق متعذّراً. وكانت وليمة كبيرة قد أُعِدّت بمساعدة «حريم» باتشواي (هكذا كان جيمس قد لقّب سكان القرية). وكان الجميع قد تفحّصوا الجرس وأُعجبوا به ريثما يبدأ الحفل. وإذ كان جاثماً وسط السُطيحة والبرونز الصقيل الذي صُنع منه يلمع كالذهب تحت أشعة الشمس فقد بدا غريباً ومشحوناً بالقوّة والدلالة. وكان مكتوباً على سطحه الأملس، باستثناء شريط الزخارف العربية فوق حافّته، عبارة باللاتينية دُوّنت بفضل أبحاث الأسقف الأثرية الدائبة. وكان محفوراً على نتوئه ـ وقد أثار هذا إحساساً غريباً في نفس دورا ـ «أُدعى غبريال».

وكانت زينة من الحرير الأبيض مثبتة حواليه، وقد صنعتها السيدة مارك من فضلة قماش لمظلّة هبوط من مخلّفات الحرب اكتشفتها في المكان الذي تدسّ فيه ما اتفق العثور عليه، وهو مزيج من أشياء لا تجانس بينها. وكان القماش سميكاً ولمّاعاً بعض الشيء، وقد لُفّت حول العربة حاشية من القطن المبروم وسمّرت إلى أوطأ طرف فيها، في حين أن قبّته البيضاء كانت تتجمّع في بعض الأماكن ثم تتباعد من جديد ساقطة شلّالاتٍ في مجموعة من الشرائط ثُبّتت في الأسفل وأُلصق بعضها ببعض عند الجزء الأسفل لتشكّل حاشية مخرّمة. وبهذا حوكي الثوبُ الذي ترتديه فتاة لمناولتها الأولى أو في حفل زفافها. وإذا كان مُفترَضاً حقّاً أن يُعتبر الجرس مريدة رهبنة

تدخل الدير فقد كان المشهد حسب التقاليد الراهنة قليل الاسترعاء على الرغم من مطابقته تقليدهم باكتسائها اللون الأبيض. ووجدت دورا أن ما خاطته السيدة مارك كان فيه بساطة قميص نوم أنيق، ولكنّها لاحظت بارتياح أنه يمكن سحب هذه الزينة المؤلّفة من قطعة واحدة من غير أن يَفْسُد نظام الحواشي أو الثنايا. وقد نُصبت إلى جانبه مائدة مغطّاة بقماش موشّى ثبّتته بعض الحجارة الثقيلة، لتكون بمثابة مذبح مُرتَجل. وكانت كميّة كبيرة من أزهار الحقول التي جمعها أولاد القرية، ولم يجد أي شخص الوقت لضفرها، مطروحةً أكواماً على الأرضية المبلّطة بانتظار تثبيتها على العربة في اللحظة الأخيرة، وكانت تويجاتها مبعثرة في الهواء.

ولقد أحدثت الشرائط للسيدة مارك من الإزعاج فوق ما كانت تتوقّع بسبب الجوّ غير المؤاتي. وكانت الرايات الصغيرة المثبتة في الذروة فقط تموج بمرح مصطفقة بعضها ببعض بصوت يشبه فرقعة السياط وتضفي على الجرس مظهر سمكة نهرية كبيرة أكثر مما تضفي عليه مظهر عروس. وألصقت تدريجياً بالقماش الشعارات المعاندة على شكل صلبان صغيرة كانت المنفِّذة قد رسمتها الليلة الماضية. ومع ذلك فإن الحلقات كانت على الرغم من ترابطها نهباً للريح إلى حدّ أن عملية الإمساك بها - وهي وظيفة أُسندت إلى دورا - توجّب تكرارها عدّة مرّات. وكان جيمس قد اقترح دفع العربة إلى فناء الإسطبلات بقصد حمايتها، بيد أن السيّدة مارك التي أطار صوابها توقّع وصول الأسقف الوشيك فضّلت تركها بارزة للعِيان على السُطيحة.

كانت دورا التي جعلها قلقها أشدّ خَرَقاً من المألوف تخلط الشرائط بإهمال فتغدو رمادية في يديها الملطّختين بتويجات الأزهار. وكانت الرسالة الموجّهة إلى توبي لاتزال في جيبها. ولو أنها كانت تعرف أين تلقاه لوجدت ذريعة للغياب برهة، ولكنْ بدا أن الجميع كانوا يجهلون أين هو في هذا

twitter @baghdad_library

الهرج والمرج. وما كان ليبدو له أثر. وكانت تأمل في أن يأتي لحضور التعميد راجية في المقابل بحرارة أن يستغرق بول في عمله ويدع ساعة الحفل تفوت. ولم تكن تنقطع عن رفع نظرها عن عملها معتقدة رؤية شبح الشاب يرتسم، في حين لم تنفكّ مارغريت تترقّب وصول سيارة الأسقف. وعليه فقد كان عملهما يتمّ بوتيرة بطيئة جداً.

ووجدت السيدة مارك مع ذلك وسيلة للتحدّث إليها، ولم تلبث أن أدركت أنّها ستكون فريسة لهجوم وشيك. ولّمحت رفيقتها عدّة تلميحات ربما كانت صادرة عن مبادرة شخصية منها، أو بدافع من شخص آخر، ولم تلبث بعد بداية حافلة بشتّى صنوف التلوين أن ذهبت إلى الهدف بشكل مباشر. وكان من الممكن أن تحتق دورا في غير هذه الظروف. وأمّا في الوقت الحاضر فقد كانت مسؤوليات دورها الرسمي الجسام تلهيها بما يكفي، وكان إحساسها ببراءتها يُفضي بها إلى الانفصال. صحيح أنها سمحت لتوبي بتقبيلها، بيد أن عناقهما لم يكن سوى حادث عابر. وعليه فقد كان الاتّهام المبطّن بملاحقة الشاب ضعيف السَنَد لأنّ مطامحه كانت أرفع بمالا يُقاس. وإذ كانت ناقمة بعفّة فقد أصغت بأُذُن لاهية إلى محاولات الوعظ الخرقاء المفرطة التي قامت بها جارتها:

ـ أرجو ألّا تسيئي الظنون بأقوالي، ولكنْ لا يمكن النظر إلى «إمبر» وكأنها مكان لتمضية العطلات. وأنا أعرف أنك لستِ متعوّدة على هذا النوع من الجوّ. وعليه ينبغي أن يكون ماثلاً في البال على الدوام أن عمليات هرب قد لا تؤذي في أماكن أخرى لها هنا أهمّيتها. فقد ألزمنا أنفسنا طوعاً ببعض القواعد الخاصّة إلى حدٍّ ما؛ وإذا لم يَحْذُ ضيوفنا حذوَنا عمّت الفوضى، ألا تفهمين ذلك؟ وإني لأعلم أن هذه المبادىء قد تبدو صارمة لا تُطاق، كما أني مقتنعة بأن أصدقاءك اللندنيين ربما ظنّوا أن أفكارنا بالية لأنّ محاولة المرء أن يعيش وفقاً لمثله الأعلى كثيراً ما تجعله هدفاً للسخرية. وأودّ مع ذلك أن

أفهمك أن شخصاً عديم الخبرة قد يتأثّر جدّاً بنوع من الحرية المتسامحة يُبديها تجاهه فرد من الجنس الآخر إذا لم يكن متعوّداً على ذلك. وهكذا فإن علينا أنْ نتوخّى الحذر الشديد، ألا تعتقدين؟ ولكنْ ألا أكون متبجّحة بشكل مرعب يا عزيزتي؟

«هوذا الأسقف»، هتفت دورا سعيدة بأن تتمتّع بحريّة وضع حدٍّ لهذه المواعظ بنبأ من شأنه أن يثير مُراقِبَتها شتّى فنون الإثارة. وكانت سيارة قد انعطفت في الجادّة وأخذت تتقدّم على الطريق من جانب البحيرة الآخر.

وصاحت السيدة مارك من الفرح، ولم تكن تعلم ما إذا كان عليها إنهاء عملها أو الاندفاع إلى المقصف لإلقاء نظرة أخيرة: «أوه! يا عزيزتي! أوه! يا عزيزتي!» وطفقت تتحرّك داخل فتحة الباب، ونزعت مئزرها ورمته على كرسي، ثم اندفعت إلى السلالم لمناداة جيمس الذي لم يكن يبدو موجوداً في الجوار.

وظلت دورا قرب الجرس ويداها على ردفيْها ناظرة إلى السيارة التي كانت تسير بمحاذاة الشاطىء لبلوغ ممرّ الجسور الثلاثة المتتالية عند طرف البحيرة. وبدت السيارة مألوفة بشكل غامض لديها، وافترضت أنها إحدى السيارات المكرّرة النموذج. وسمعت بعيداً خلفها السيدة مارك تشكو من أن «الجميع» اختفوا في اللحظة العصيبة. وراقبت دورا السيارة بهدوء، فلم تكن تضطلع بأية مسؤولية عن نجاح الاحتفالات اللاحقة، وكانت تنزع إلى مشاعر قريبة ولاريب من المشاعر التي ابداها «إلياس» حين كان يشرف على جهود أنبياء «بعل».

اقتربت السيارة مفضية إلى الجزء الأخير من الطريق المؤدّية إلى القصر. وعادت السيدة مارك التي كانت لاتزال مضطربة إلى السُطيحة. وإذ انحدرت السيارة في المنحدر الخفيف المفضي إلى البيت فقد توقّفت على مسافة قصيرة منه وخرج منها شخص: كان ذلك «نويل سپنس».

twitter @baghdad_library

وتركت دورا يديها تسقطان على امتداد جسمها، وصاحت:
ـ أوه! أيتها الآلهة العظيمة!
وقالت السيدة مارك:

ـ إنه ليس الأسقف.
قالت دورا:
ـ لا إنه أحد أصدقائي، صحافي. أوه! ربّاه!
واندفعت راكضة نحو «نويل».

ظلّ هذا واقفاً قرب السيارة وإحدى يديه فوق سطحها، وكان يبتسم وكأنه ما جاء إلا لدعوة دورا إلى العشاء في المطعم. ووصلت إلى قربه وقد نجت من السقوط، وتوقّفت فوق التراب المركوم مباغِتة متوحّشة وكأنها ثور فتيّ، وقالت:

ـ ارحل! ارحل من هنا حالاً! عد إلى السيارة كرامةً لله قبل أن يراك أحد، وانطلق. لا أستطيع تصوّر ما الذي دهاك لتأتي إلى هنا. لقد أوصيتك بأن تستنكف عن ذلك. لسوف تخرب كل شيء.
قال «نويل»:

ـ يا للاستقبال الساحر! حافظي على رباطة جأشك يا حبيبتي لأنه ليس في نيّتي قطّ أن أرحل. لقد جئت للعمل في مهنتي. عليّ وصف حفل إقامة الجرس. ألا تعتقدين أن الفكرة مسليّة؟
أجابت دورا:

ـ أوه! لا، لا أجدها كذلك. أبذل جهداً لـ «التفهّم». إن پول هنا. وإذا التقاك اقتنع بأني طلبت منك المجيء وشاجرني شجاراً هائل الفظاظة. «أرجوك» يا حبيبي، اذهب. سوف تجلب لي إذا أصررت متاعب فظيعة.
قال:

ـ أصغي يا حبيبتي الغالية. من عادتي كما تعلمين أن أتصرّف معك برأفة ملائكية. حتى إني سمحت لك بأن تُدخلي في رأسك أن العم «نويل» العجوز لا يهتمّ أبداً بحركاتك وسكناتك. إنه مباح لك أن ترحلي إلى منزله على حين غرّة كما لا تجهلين لتلقّي العزاء، ثم أنْ تتوارَيْ بعد ذلك حين يطيب لك. ومهما يحدث فسوف تجدينه دائماً هناك بانتظارك وبيده قدح من الجن ـ مارتيني. والحق أن هذا ليس عارياً تماماً عن الصحّة. ومع ذلك فقد اكتشفت مؤخّراً أن هذا الدور لا يليق بي جدّاً كما كان في العادة، وإذ كنت أعترف دائماً بمسؤولياتي نحوك فربّما كان لي عليك بعض الحقوق؟ وكما تعلمين فقد كنت فرحاً أشدّ الفرح عندما رأيتك ذلك اليوم، وأكثر من منزعج عندما فررتِ. وليس من عادتي أن أُضني نفسي من أجل ما لا يتحقّق، فهذا لا يناسب أهوائي. ومع ذلك فقد خامرتني الرغبة في لقائك سريعاً من جديد، وشعرت ببعض القلق بشأن حالتك العقلية. وتخيّلت أنه ربما كانت الراهبات قد استحوذْنَ عليك. ومن ناحية أخرى فإنه بمحض صدفة عجيبة عَلِمَ مديري الذي يعرف الأسقف العجوز المنتظر مجيئه لتكريس الجرس، علم بالأمر من مصدر مختلف تماماً وطلب إليّ الإتيان إلى «إمبر». وعليه فقد فكّرت في أنّ رفضي سيكون في مثل هذه الظروف بلاريب استخفافاً بالغاً.

قالت دورا:

ـ إلى الجحيم جميع ترّهاتك. الواقع هو أن پول «موجود هنا». أليس في وسعك أن تفهم؟ إنك تعرّضني للتعذيب. ارحل، أتوسّل إليك، ارحل قبل أن يراك.

قال «نويل»:

ـ إني أكثر من تعِب من جرّاء الحديث عن پول. إنه يعاملك بشكل

twitter @baghdad_library

مهين، ولم تحفلي يوماً به بوجه من الوجوه. وأظنّ أن خلوة صغيرة محدَّدة جدّاً بينكما لن تكون فكرة مكدِّرة. ولست مقتنعاً بأنّي لن أمنحه قليلاً من تفكيري.

وانتحبت دورا قائلة وقد خرجت عن طورها:

ـ هل ترحمني بأن تتصرّف بجِدّ. إنك لا تعلم «كيف» هو. سوف يحضر الأسقف بين لحظة وأخرى، وسيهرع الجميع، وسيختلق شجاراً لا قِبَل لي باحتماله!

قال «نويل»:

ـ إنك كائن غير معقول. تَسْعَين إلى تهدئة زوجك إلى أن يصبح الوضع فوق طاقتك. وعندها تهربين، بيد أنك إذ يعاودك الخوف تَسْعَيْن إلى تهدئته من جديد. ينبغي إمّا أن تخضعي بالكلية وإما أن تكافحي. وإذا وضعنا جانباً كل سلوك آخر فإن سياستك الحاضرة غير شريفة. إنك لن تعلمي حقّاً إذا كنت راغبة في البقاء معه إلا بالقتال بشكل مكشوف على أرضين مماثِلتين، لا بالهرب بكل بساطة. وإني لأُشَخِّص أنّك ما إن تستأنفين الكفاح حتى تعلمي بعجزك عن البقاء. وهنا تبرز مصلحتي. إنك غير مستقرّة وقذرة وجاهلة ومزعجة حقّ الإزعاج. ولكنّي أودّ بطريقة أو بأخرى أن أراك في بيتي من جديد.

وصاحت دورا مفزَّعة:

ـ يا للّعنة! إنك لن «تقع في حبّي» على ما أظنّ!

أجاب «نويل»:

ـ لست متعوِّداً على هذا النوع من الكلام. لنقل ببساطة إني أشتاق إليك. «بعيدة عن العين، ولكنْ «قريبة» من القلب»، يا فتاتي الصغيرة. إني لأُكذِّب المثل المأثور.

قالت:

ـ أوه! ربّاه! اسمع يا «نويل». لا أملك الوقت اللازم لهذا حالياً. آسفة جداً، فأنا حسّاسة كثيراً في هذا الشأن وأعلم أنك جادّ وسوف أوضح لك؛ ولكن حدث أني خطّطت لمشروع لا علاقة له بهذه القضية. وعليه فإنّه إذا نالت العاصفة منك فسَدَ كل شيء. وعليه، تلطّف تَلَطُّف الملائكة الأبرار وارحل. سوف أخبرك كل شيء في هذا الصدد، بيد أنّ الأمر معقّد للغاية. ارحل يا «نويل»، أتضرّع إليك، قبل أن يحدث أمرٌ ما.

ـ آسف يا دورا، بيد أنّ العم «نويل» سيفعل ما يريد، لا ما تريدينه. أين يمكنني توقيف سيارتي؟ أظنّ من الأفضل أن أحرّر الطريق لسيارة الأسقف «الروز رويس»؟

قالت دورا دامعة:

ـ أنت الآن تقسو عليّ.

ردّ «نويل» قائلاً:

ـ آه حقاً! إذا نفّذت خططي لا خططك سمّيتِ ذلك قسوة. إني لأتعاطف تقريباً مع زوجك العزيز. أظنّ أني سأقود سيارتي إلى ذلك الفِناء؛ يبدو لي المكان مملوكاً.

وصعد في سيارته وقادها سالكاً على مهل من خلال الأبواب المفتوحة للنفاذ إلى الفِناء.

أخذت دورا تراقبه فاقدة الرجاء مقتنعة أمام تصرّفه بأنه كان عازماً على البقاء. فما فائدة التوسّل إليه عبثاً أكثر من ذلك؟ وكان من الضروري أن تبادر إلى عمل يجنّبها انفجار الوضع. وكما كان الموقف يتمثّل لها فإن پول لن ينقطع طوال الليل عن المدير العاصف. وكان ينبغي بوجه الإجمال أن تُفلح خططها في تنظيم الاحتفال؛ ومع أن بعض الفوضى والنشاز ما كان ليكدّر صفوها فإنها لم تكن تريد مع ذلك أن تسير الأمور سيراً رديئاً جداً.

twitter @baghdad_library

وكـانت تحذر قبـل كل شيء من فضيحـة أمام النـاس. ورجعت إلى قـرب السيدة مارك التي كانت مستمرّة في تعليق شرائط كانت اثنتان أو ثلاث منها لاتزال تتطاير وكأنها رايات. وإذ كان إلحاح الخطّة الواجب اتّباعُها يدفع بها فقد رأت من نافـل الأمر الاستمـرار في إضاعـة الوقت في مناوشـات مـع «نويل». فالوقت المحدَّد جدّاً يجب أن يُستخدم بشكل آخر. كيف؟

تمثّل دافعها الغريزي الأول في الهجوم على زوجها وإطلاعه على النبأ قبل أن يكتشفه بنفسه. فربّما تـوصّلت وهي تكلّمه بلطف إلى تهـدئته وإفهـامه. ومرّت راكضة أمام السيدة مارك التي رمقتها بنظرة متسائلة وهمّت بـأن تقول لهـا شيئاً. بيـد أنها قبل أن تبلغ الـدرجات بـالذات بهـرهـا تصـوّر المشهـد وغيّرت رأيها. فإنه ما إن يعلم پول بذلك القـدوم حتى يغدو أصمّ عن كـل تفكـير عـاقـل. وإذ يشـلّ تفكـيره الغضب مقـرونـاً إلى الغـيرة فسـوف يكيل لها التّهم رافضاً أن يستمع إليها وتعجز عن تهدئة خاطره. ومرّت من جديد وهي لاتزال تركض أمام السيدة مارك التي نظرت إليها مجدّداً محـاولة أن تفهم، جـاهدة عبثـاً في التحدّث إليهـا. واتّجهت إلى الشرفة. وانـدفـع «نويل» الـذي كان قـد عاد من الفِنـاء في أثرهـا مناديـاً «دورا»، طالبـاً منها تحديد مكان يلتقيها فيه فيما بعد. وإذ لم تُعِرْه أيّ انتباه فقد اجتازت القاعـة الخارجية بأقصى سرعتها لتغيب في الـرواق. كان قـرارها قد صدر: سـوف تذهب للتحدّث إلى مايكل. فقد كان من الممكن أن يتوصّل هذا إلى إفهام پول، حفاظاً على «الجماعة»، بأنّ أيّة مشادّة غير مـرغوب فيهـا، ولا سيّما في مثل هذا اليوم.

لم تكن قـد دخلت قطّ مكتب مايكـل، ولكنها كـانت تعـرف بـالإجمـال مـوقعه. وعنـدما وجـدته قـرعت الباب ودلفت إليـه من غـيرمـا رسميّـات أخرى. وكان دخولها سريعاً إلى درجة أنه أتاح لها شهود العرض الذي كان يدور فيه قبل أن يتمكّن المشتركـان في التمثيل من إدراك أنـه قارب نهايتـه.

فقد كان مايكل جالساً على أريكة منحنياً جدّاً إلى الأمام ومرفقاه فوق ركبتيه وتوبي قاعداً على الأرضية قبالته تماماً ثانياً إحدى ساقيه وإحدى يديه هاصرة الساق الأخرى عند الركبة، بينما كانت اليد التي ظلّت طليقة ترسم حركة باتّجاه مايكل. وعندما برزت دورا قفزا كلاهما بعجلة واقفين على أقدامهما.

قالت دورا:

ـ أوه! صباح الخير يا توبي، أهنا كان يجب أن أجدك؟ إني في غاية الضيق لإزعاجك يا مايكل، ولكنّ أمراً فظيعاً يجري.

بدا مايكل مذعوراً وقال:

ـ ماذا؟

ـ حضر على حين غِرّة شخص طالما خالطته، صحافي جاء يكتب مقالاً عن الحفلة. ولكن عندما يكتشف پول وجوده فإنه سيخرجه مقطّعاً إرباً إرباً. ومن الملحّ أن تَثْنِيَه عن ذلك.

بدا الارتياح على مايكل، ونظر إلى توبي الذي تمتم شيئاً يشبه: «من الخير أن أذهب الآن». وأرادت دورا أن تكلّمه، بيد أنه خرج من غير أن ينظر إليها. ولحق به مايكل حتى الباب، ولكنّه عاد مبلبلاً متضايقاً. وظلّت دورا مصمّمة، فقد بدأت الخطّة تروق لها. وقالت لمايكل:

ـ هل أدركت؟

أجاب مايكل:

ـ نعم ولا وصل هذا الرجل، هذا المخبر الصحافي، إلى هنا، وتعتقدين أن پول سيعنّفه بدافع الغَيْرة؟ أليس في وسعك إقناعه بالرحيل؟

أجابت:

ـ لن يفعل ذلك. لا فائدة تُرجى من مفاتحتك إياه بالأمر. وما أرجوه هو أن تَثْنِي زوجي عن القيام بمأساة. سوف أطلعه على الأمر في الحال.

twitter @baghdad_library

واستدارت وانصرفت بأقصى سرعة. واندفع مايكل خلفها فهبطا بجلبة السلالم العارية من البُسُط واجتازا القاعة الخارجية.

وعلى السُطيحة كان «نويل» يتحدّث إلى السيدة مارك. وتوقّفا عن الحديث لمشاهدة قدوم مايكل ودورا.

قال «نويل»:

ـ يبدو جميع الناس مستعجلين اليوم!

وهتفت السيدة مارك:

ـ أوه، لا تبتعد أيها العزيز فسوف يصل الأسقف بين لحظة وأخرى.

رجع مايكل الذي كان قد أصبح فوق المرجة راكضاً باتّجاهها لطمأنتها، واتّجهت دورا صوب السدّ. وفي اللحظة التي بلغت فيها وسطه مبهورة الأنفاس تقريباً لمحت زوجها خارجاً من حجرة الحديث الأخيرة. ولوّحت له بيدها بجنون. ثم إنها رأت عندئذٍ سيارة «رولز رويس» سوداء تبرز هابطة الجادّة على مهل بعد أن اجتازت أبواب الدخول.

واندفعت صوب زوجها الذي كان قد حثّ خطاه وهو يلمح حركتها. وأدركت من بعيد اكفهرار وجهه. قالت:

ـ «نويل» هنا.

سأل:

ـ مَنْ؟

ـ نويل سپنس، تعلم ذلك جيّداً.

أصبح پول متشنّجاً مثلّج الأطراف.

ـ تقولين إن نويل سپنس هنا. تزعقين بذلك وكأنّك تزفّين إليّ خبراً سعيداً. هل أتى لرؤيتك؟

ـ جاء يكتب مقالاً يا پول يا حبيبي، لا تزجّ بنفسك في مثل هذا الطَوْر!
كرّر پول:
ـ لقد جاء لرؤيتك. هل كنت قد دعوته للمجيء؟
صاحت دورا:
ـ لقد جاء من أجل ريبورتاج عن الجرس. أتظنّني أصبحت مجنونة؟ إنه هنا لمجرّد مقابلة الأشخاص الذين نظّموا الاحتفال.
قال پول:
ـ طبيعي إذن أن أذهب بدوري لإجراء مقابلة معه. ولسوف يحتفظ بذكراها.
واندفع باتّجاه السدّ.

لحقت به امرأته مواصِلةً الكلام محاوِلةً التشبّث بذراعه. ولم يكن السدّ عريضاً عرضاً يسمح لشخصين يختصمان بالمرور في وقت معاً. وأخذ پول يركض غير عابىء بسيارة الأسقف التي كانت تقطع الجسور عند طرف البحيرة.

وبذلت دورا التي كانت قد سُبقت بعضَ الجهد وتمكّنت من اللحاق به. ولمحت مايكل مسرعاً نحوهما فوق مرجة العشب. وتناولت يد زوجها بكل قواها محاوِلةً جذبه إلى الوراء وهي تصرخ:
ـ پول، لست مسؤولة، لم أكن أرغب في حضوره! لا تُفسدْ سرور الآخرين بغضبك، أتضرّع إليك.
التفت إليها محرِّراً نفسه بيده الطليقة وقال بهدوء وإن صارفاً بأسنانه:
ـ دورا، تمرّ لحظات أمقتك فيها.

ودفعها بعنف كان من جرّائه أن وجدت نفسها فوق الأعشاب. وعاد ينطلق بأقصى سرعة، بيد أن مايكل اتّجه صوبه وذراعاه ممدودتان في وضع

twitter @baghdad_library

من يريد منع حيوان من الهرب في حقل، في حين كانت دورا تنتعل وقد نهضت حذاءها الذي كان قد انزلق وتنطلق راكضة أيضاً باتّجاه السُطيحة. وكانت سيارة الأسقف قد وصلت إلى أمام المنزل ومرّت بالرجلين اللذين كانا قد وقفا بلا حراك غارقين في حديثهما. ورأت دورا أنه لم يكن من ضرورة لوجودها.

ووصلت «الرولز رويس» إلى السُطيحة متهادية بالجلال المألوف في سيّارة قويّة تسير ببطء. وتوقّفت عند أسفل السلالم قريباً جدّاً من الجرس. واندفعت السيدة مارك التي كانت قد تُركت وحيدة على الدوام، وظهر جيمس بعد لحظة فوق الشرفة هابطاً السلالم بسرعة وعلى وشك السقوط والانقلاب. وخرج «نويل» بلامبالاة من المقصف الذي كان يتسكّع فيه وهو يأكل رغيفاً صغيراً معجوناً بالزبيب. ووصلت دورا مبهورة الأنفاس واضطرّت على الفور لطيّ قامتها نصفين بسبب ألم لا يُطاق سبّبته لها وخزة في جنبها.

وخرج الأسقف، وقد بدا أنه يسوق سيارته بنفسه، من المركبة على مهل ببشاشة التسامح المتعجرف الذي يتحلّى به الشخص العظيم العارف بأنه مهما حصل، وفي أي لحظة حصل، لا يلبث أن يغدو للتوّ محطّ الأنظار. وكان رجلاً حلو الوقار، شعره متموّج تموّجاً طبيعياً، وعلى عينيه نظّارتان بلا عِلاقتين، وهو يرتدي جبّة بسيطة سوداء وصديرية قرمزية منشّاة. وأدار إلى الحضور وجهه المنتفخ المشرق بالمحبّة، وصافح، وهو يتوكّأ توكّؤاً خفيفاً على عصا، السيدة مارك وجيمس و«نويل» الذين هرعوا إليه. ثم اقترب من دورا وقد بدا غير راغب في استبعادها على الرغم من أنها كانت قد ارتدّت إلى خلف مرتبكة وتصوّرت أنّه لا بدّ أن يكون قد نظر إليها على أنّها إحدى الخادمات المكلّفات تنظيف الغرف وترتيبها.

قال:

ـ وهكذا فها أنذا! أرجو ألاّ أكون قد جعلتكم تنتظرون. لقد تخلّى عني سائقي الرائع، كما تخلّت من جهة ثانية سيّدة ـ أسارع إلى القول ـ هي سكرتيرتي. لقد دعتها متطلّبات الأمومة لتلبية واجبات أهمّ. فعليها الاهتمام بثلاثة أولاد، باستثنائي أنا! وهكذا كان عليّ لامتحان أعصابي وأعصاب إخوتي زملائي في سوق السيارات أن أقود سيارتي بنفسي إلى هنا.

قال جيمس مشرق الوجه:

ـ إننا سعيدون جدّاً بأن تكون قد تمكّنت يا صاحب السيادة من المجيء. نعلم كم هي كثيرة مشاغلك. وإن لتفضّلك بقبول رعاية حفلتنا لمغزى أيّ مغزى.

قال الأسقف:

ـ لسوف يكون ذلك مشوّقاً جدّاً على ما أعتقد.

وسأل وهو يشير بعصاه إلى الكثيب الملفوف بالشرائط البيضاء:

ـ ذلكم إذن هو مِفتاح الحفل؟

قالت السيدة مارك وقد احتقن وجهها من شدة الانفعال:

ـ أجل، أجل. لقد تخيّلنا أن نزيّنه بعض الزينة.

قال بلطف:

ـ جميل للغاية. أظن أنك ولا بدّ السيدة سترافورد؟

ثم قال مخاطباً جيمس:

ـ وأنت السيد «ميد» ولاريب؟ كثيراً ما سمعت «الرئيسة» ـ بارك الله فيها ـ تتحدّث عنك.

ـ اعتذر يا صاحب السيادة فأنا جيمس تيپر پيس.

ـ آه! أنت مَنْ ليس في وسع «ستپني» قطّ الحلول محلّه. لقد كنت أحضر قبل أسابيع افتتاح مركز الشبيبة الجديدة، وكثيراً ما تردّد اسمك بلا جدوى،

twitter @baghdad_library

أو بالحري لا، ليس بلا جدوى. يا لزلّة اللسان غير المعقولة التي صدرت عنّي. لقد نُوّه باسمك تنويهاً يعود بالخير، ولا أشكّ في أن التنويه كان صادراً عن حماسة بدا جليّاً صدقها.

وغدا جيمس بدوره قرمزي الوجه، وقال:

- كان علينا أن نقدّم أنفسنا بأنفسنا. وإني لأحسّ أن لجنتنا للاستقبال تسيء تصريف الأمور جدّاً يا صاحب السيادة. أمامك بالفعل السيدة سترافورد، وهنا السيدة غرينفلد. وأما مايكل ميد فإنه يقطع مرجة العشب مع الدكتور غرينفلد. وأنا منزعج لعدم معرفتي بهذا السيد.

وقال هذا:

- نويل سپنس من جريدة «دايلي ريكورد» وأخشى أن أكون حاملاً لقب «مخبر صحفي» السيّء الوقع.

وقال الأسقف متعجّباً:

- إنه عظيم، على العكس! وقد كنت أرجو حضور بعض الصحفيين. أقلت «الدايلي ريكورد»؟ اعذرني إذ أجعلك تكرّر فأنا رجل عجوز أصمّ وعاجز عملياً عن السمع بهذه الأُذُن، ولكنْ هل أستطيع سؤالك إذا كان رفيقي العجوز «هولرويد» هو الذي عهد إليك بهذه المهمّة؟ أظنّ أنه هو الذي يدير حالياً جريدتكم الغرّاء.

أجاب «نويل»:

- ذلكم هو. لقد سمع السيد «هولرويد» بهذه الحفلة الرائعة فانتدبني مكلّفاً إياي استدعاءه بإجلال إلى ذاكرتك يا صاحب السيادة.

استأنف الأسقف كلامه قائلاً:

- رفيق ممتاز في أعرق التقاليد الخاصة بالصحافة البريطانية. ولقد طالما رأيت أنه من المؤسف أن تغيب «الكنيسة» عن مجال الدعاية. فالذي

نحتاج إليه هو بالضبط دعاية ما من صنف جيِّد، وهذا أمر مسلّم به. ربما كان عليّ أن أقول من «هذا» الصنف. هل يُعجِب هذا؟ لا شكراً لست بحاجة إلى شيء إن لم يكن فنجاناً طيّباً من الشاي الإنكليزي، شرط ألاّ يزعج ذلك أحداً. فمنذ سفري إلى الولايات المتحدة وأنا أقدّره أكثر من أيّ وقت مضى. وبعد ذلك يمكننا القيام بقدّاسنا الصغير إذا كانت العشيرة موافقة. ثم يأتي دور المهرجانات وتناول الأطعمة. وإنى لألمح مائدة تنوء بحملها من الحلويات.

استأنف مايكل وبول اللذان كانا قد بقيا غارقين في حديثهما عند أسفل السُطيحة سيرهما باتّجاه السدّ. وتفرّست فيهما السيدة مارك بضيق ودورا بكرب. وأُحضر فنجان الشاي للأسقف الذي كان «نويل» يقصّ عليه بلطف ما يُشاع عن أعضاء نادي «الأثينايوم» المعروف منهما كليهما. وكان جيمس حاضراً أيضاً ومبتسماً وإن بخجل. وحمل الأب بوب بعجلة تتناسب والظرف ماتبينّ فيما بعد أنه جرّة ماء مقدّس وضعها على الطاولة وانهمك بالعمل حوالي الجرس بألفة المميَّز المصمِّم على أن يدع للناس الذين هم أقلّ درجة منه فرصة للتعريف بهم. وكانت السيدة مارك تدخل المقصف لمدة قصيرة بين حين وآخر مع احتفاظها بعينها على مايكل. ووصل بيتر توبغلاس وآلة التصوير معلَّقة بكتفه فانضمّ إلى الجمع المحيط بالأسقف الذي كان قد سبق له التعرّف إليه كما بدا. وظلّت دورا مكفهرّة تربّت إحدى شرائط الجرس. وأدّت حركتها العصبيّة إلى اقتلاع أحد الأسلاك فطار في الريح التي لم تكن حدّتها قد خفّت. وبرز توبي حرِداً فاستأثرت به السيدة مارك لتقدّمه إلى الأسقف. وإذ طلب منها جيمس فنجان شاي فقد أجابته في تمتمة أنه يُفضِّل عدم البدء باستعمال الفناجين لأن عددها المحدود لا يسمح إلا بدورة ضيافة واحدة وينبغي أن تكون جاهزة عمّا قريب بعد القدّاس. ودخل پاتشواي وبدأ يشكو إلى جيمس من الأضرار التي أحدثها

twitter @baghdad_library

الحَمام. وسرعان مادعته السيدة مارك إلى التزام النظام وأمرته بـأن يحسر عن رأسه. وبرزت كاترين فوق أحد السلّمين؛ وكانت قد ارتدت أحـد أثوابهـا اللندنية واعتنت بمظهرها. وكانت خصلة من الشعر المضفور ضفـراً شديـداً مثبتة فوق قمّة رأسها ومرسلة قليلاً إلى الـوراء، والخصلات الصغـيرة تروح وتجيء فـوق جبينها. وبـدا وجهها الممـطوط الشاحب مستـطيلاً طـولاً غـير طبيعي، وسرعـان ما غـاضت ابتسامتهـا وهم يقـدّمـونها إلى الأسقف عـلى الرغم من احتفاظها ببشاشتها. وانسحبت ترتفق الـدرابزين واستغـرقت في أحلامها وكأنّها نسيت أين هي.

قال الأسقف:

ـ هيه يا أصدقائي الأعزّاء، لعلّ في وسعنا أن نبدأ الحفلة الصغيرة الآن؟ وأفترض أنكم موافقـون على اقـتراحاتي بشـأن تنظيم القـدّاس. وإني لسعيد بألّا تكونوا قد فكّرتم في أن عقليتي بالية جداً أو أنني بـابويّ. ويبـدو لي أن في مقدورنا أن ننتهي بالمزمـور المئة والخمسـين، واقترح كـذلك التخـلّي عن صلاة القدّاس. ، وعليّ الاعتراف بأني لا أثق الآن قطّ بالسماء، فقد تـرشّنا بحبوب البَرَد في كل لحظة. وعليه فلنبدأ على الفور. وإذ كـان على «رعيّتي» المنكودة أن تجثو فإني أقترح مغادرة الأرض المبلّطة إلى مرجـة العشب. وأخشى أن تحول أمراضي بيني وبـين الجثوّ. يُستثنى «المعفـون من أعمال السخـرة»، هكـذا تعوّدنـا أن نقول في الجيش. هـل لي أن أسأل مَنِ اللذان سيقـومـان بخدمة القداس، أم ينبغي أن أقول بالحري سيكونان عرّابه وعرّابته؟

وأوضحت السيدة مارك:

ـ سيكونان مايكل وكاترين. اعذرني لحظة أرجـوك يا صـاحب السيادة، سوف أُحضِر مايكل ميد.

ونزلت الدرجات راكضة.

كان مايكل وپول عائدين من السدّ وهما لايزالان يتحدّثان. وكانت دورا

تراقبهما بقلق وتتجنب نظرات «نويـل» الباحثـة عن نظراتهـا. وعندئـذٍ نزل الجميع للوقوف في الممشى المفضي إلى رصيف الركوب.

عادت السيدة مارك مصطحبة پول ومايكل. وانضمّت دورا إلى الفـريق المقابل للفريق الذي فيه «نويل». وجاء مايكل يعتـذر من الأسقف. ورُجي من كـاترين أن تتقـدّم. وبعد أن ربـطت السيدة مـارك في اللحظة الأخـيرة شريـطتين إضـافيتين إلى مـا صنعت يداهـا خفّت نـازلـة إلى جـانب دورا. وانضمّ إليهما أيضاً پول، وبعد أن نظر بوحشية في عيني زوجته وقف أمـامها مباشرة ووجهه متقبّض غضبـاً. وانتشر المجتمعون صفّين تـاركـين مـايكـل وكاترين وحـدهما وكـأنهما عروسـان شابّـان. وصعد الأسقف إلى السُـطيحة وتنـاول بإحـدى يديـه الشريطتـين فربـطهما إلى الجـرس في حين غمس بـاليد الأخرى شيئاً غـريباً بـالنسبة إلى دورا في المـاء المقدّس. وبـإشارة من الأب بـوب تضامّت أصـوات جيمس والزوجـين سـترافـورد وكـاتـرين في تـرتيلة التعميد. وأخذ الأسقف يرشّ الجرس بـالماء المقـدّس راسماً خـطوطاً كبـيرة سوداء على ثوبه.

ولاحـظت دورا برعب أن «نـويل» كـان قد قـطع الصفوف وتـدبّر أمـره للوقـوف بجانبهـا. ولم تجرؤ عـلى النظر إلى زوجهـا وسرّحت عيناً مغمـومـة أمامها سامعة اصطفاق سرادق الجرس فوق رؤوسهم.

وظهرت الشمس فوق مرجة العشب وكأنّها إشارة ضوئية، وكشفت الريح التي رفعت جبّـة الأسقف عن بنطلون أنيق أسـود اللون. وتـوقّف الـترتيـل وانحنى المونسنيور إلى الأمام ليسأل مايكل وكاترين:

ـ ما الاسم الذي تودّان إطلاقه على الجرس؟

وبعد صمت قصير أجابت كاترين بصوت حادّ عصبي:

ـ «غبريال».

twitter @baghdad_library

هبط الأسقف درجتين ليناول طرف كل من الشريطتين للعرّاب والعرّابة، ثم توجّه إليهما قائلاً:

ـ تذكّرا أن صوت المسيح يطلب منّا أحياناً أن نتخلّى عن المشاغل الدنيوية لنجلس عند قدميه ونتعلّم أموراً رفيعة جدّاً. ليتقدّس هذا الجرس ويتبارك باسم الاب والابن والروح القدس.

وصعد الدرجتين من جديد لمواجهة الجمع الصغير، وقال:

ـ اسم هذا الجرس «غبريال». لنصلّ الآن.

وجثا الجميع فوق مرجة العشب.

مدّ پول يده باحثاً عن يد زوجته، وقبض عليها بحركة مسيطرة وهصرها بعنف ومن غير أدنى حنان. وتحمّلت للحظة قصيرة هذه الضغطة بشجاعة، ولكنّها أصبحت لا تُطاق بحيث حاولت بلطف، وإن عبثاً، سحب يدها. وشدّ عليها بمزيد من القسوة لاوياً معصمها نصف ليّة. وأجفلت ثم استحوذت عليها ضحكة مجنونة عصبيّة. وإذ عضّت شفتيها محاوِلةً احتواءها فقد سمعت صوت الأسقف خافتاً وجرت من عينيها دموع غريبة أفاضها نوع من نوبة هستيرية.

وبحثت بيدها الأخرى عن منديلها في جيبها فأوقعت على العشب المغلّف المحتوي على الكلمة الموجّهة إلى توبي. وإذ شلّها الذعر، على الرغم من عجزها عن كبح ضحكتها، فقد أوقعت منديلها الذي لم تلبث أن حملته الريح. وكان پول لايزال ينظر أمامه عابس الوجه مستمراً بليّ معصمها بلا رحمة من غير أن يرى المغلّف وهو يسقط. وشدّت بثوبها محاوِلةً إخفاء المغلّف، وجهدت في التقاطه لإعادته إلى جيبها. والتقت يدها المنهمكة في دوامة السعي يداً أخرى: كانت تلك يد «نويل» التي تمكّنت من

التقاطه قبلها وإخفائه عن الأنظار بهدوء. واحتفظ به لحظات ـ وكان وجهه مرفوعاً باطمئنان نحو الأسقف ـ في يده قبل أن ينقله إلى جيبه.

وظلّ پول ينظر أمامه وهو يبدو شارد اللبّ. . وكانت عيون الأفراد الآخرين نصف مغمضة. وخفض الأسقف بصره مكملاً كلامه بصوت هادىء وأخذ يراقب تلك اللعبة الخرساء. لقد طالما رأى أموراً أشدّ غرابة. . . وسوّت دورا تنّورتها وضغطت بيدها الطليقة على فمها. وأخذ المطر يتساقط.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي والعشرون

فقد توبي صبره. لقد كانت أفكاره ومشاعره تقفز من جانب إلى آخر بشكل غير معقول ما كان ليستطيع تصوّره قبل عشرة أيام. وقد ندم بمرارة على ضلوعه في ذلك المشروع الأخرق، الذي بدا له من الآن فصاعداً بلا معنى ومخيّباً للآمال وممجوجاً، بل وكفيلاً بأن ينتهي بكارثة لم يسبق لها مثيل. وكان في ودّه التحرّر، بيد أنه لم يكن يدري كيف يتصرّف. فلم يكن ليعدم الإحساس بغضب پول البادي بوضوح للعِيان، ولا بالنظرة الحانقة قليلاً التي كان أعضاء «الجماعة» الآخرون قد واجهوه بها. وعندما شعر في يأسه بالحاجة إلى وجود دورا بقربه لم يكن قد تصوّر أن شخصاً ثالثاً يمكن أن يتألّم لذلك، ولا حتى أن يملك الحقّ في التألّم. وهاهوذا الآن يدرك انعكاسات تصرّفاته التي كان امتدادها غير مرغوب فيه. وكان من جهة أخرى منشغلاً غاية الانشغال بفكرة المجازفة بفكّ الرباط الدقيق والمبهم الذي كان يربطه الآن بها، ويلعن فكرة وجوب التخلّي عنها. ولشدّ ما كان يرغب في لقائها، ومع ذلك فقد كان يتحاشاها بسبب بلبلة أفكاره.

وفي الوقت نفسه كانت عواطفه تجاه مايكل تمرّ بعملية إعادة نظر؛ فلم يكن الخوف المخاتل الملازم للظرف الشخصي الذي ألهمه سلوكه تجاه دورا قد غاب بعدُ، ولكنه كان بالتأكيد قد تلاشى. فقد طمأنه بعض الطمأنينة ما جرى بينهما، وظلّت الحماسة النابعة من نجاحه في تقبيلها علاجاً لما هو

فيه من ضيق. وكان هـذا يتيح لـه مرّة أخـرى أن يفكّر في مـايكل بـوصفه فرداً، وأن ينظر إلى علاقاتهـما الغريبـة جداً عـلى أنّها أمر حقيقي مهمّ، بـل نفيس. وبـدأ يهتمّ بشأن صـديقه وينـظر في عقليّته. كـما بدأ يهتمّ بـالـرأي الذي لا بدّ أن يكون قد كوّنه عنه. فكيف تكون مغامرته مع دورا قمينـة، وقـد اتّخذت أبعـاداً غير منتـظَرة في مجـالات شتى، بـأن تقلّل من شـأنـه في نظره؟ وبدا له بغتة أن حاله لا تُطاق.

كان توبي يتمتّع بطبيعة واثقة. فقد نشأ عـلى أنه مهـما يكن المأزق الـذي يتخبّط فيه المرء فإنه يستطيع الخروج منه مظفّراً على الدوام شرط أن يكـون صادقاً. ولكنّ الإقرار في هذه الحالة قد يكون تجربة صعبة. فماذا في وسعـه أن يقول؟ وإلى مَنْ يعهد بنفسه؟ وواجه إمكان الذهـاب إلى مايكـل والبوح له بكل ما يتعلق بالمشروع المرتقب. لقد كـان تنفيذ الجـزء الأول من الخطّة مثيراً جدّاً؛ وأمـا إنجاز القسم الثـاني فيبدو ويـاللأسف أبهظ بكثـير من أن يُحتمل. فلم يكن في مقدوره أن يتصوّر نفسه معاوناً دورا في عمليـة تبديـل الجرسين، وأحسّ، بشيء من الجُبن. بـأنّه في حِـلّ من ذلك العمـل. ومع ذلك فإن خيانتها من دون مـوافقتها عـلى العدول، في حـين وثقت فيه ثقـة كـاملة، كانت غـير معقولـة أيضاً. وكـان اللجوء إلى شخص آخـر تفريـطاً بالثقة. ومع ذلك فقد فكّر في «نيك»، ولكنّه كـان قليل الإيمـان به! وكـان من الخير على مايبدو أن يكلّمهـا هي ويقول لهـا إنه يتخـلّى عن مشروعهما. ولن يكـون من شأن ذلـك أن يريـح ضميره، بيـد أن الأمر سيكـون جليّـاً وصريحاً. ومع أنه اقتنع بالعزم عـلى ذلك مـرّات كثيرة خـلال النهار فـإنه لم يقم بتلك الخطوة. وكان مايكل الشخص الذي ذهب لمقابلته.

ومـا إن سلك الطريق للذهـاب إلى مكتبه حتى شعـر بأنـه دخـل حقـلاً مغناطيسياً. وتمكّن بمشقـة من حبس نفسه عن الـركض، ولكنّه بلغ البـاب وهو لايزال حـائراً في مـا سيقول. وقـرع. كان مـايكل وحـده. وقد نهض

twitter @baghdad_library

واثباً، وتركت عبارة «أوه! توبي» الشديدة الاضطراب التي غمغم بها قليلاً من الارتياب في نفس الزائر بصدد المتعة التي أحدثها قدومه. وإذ كان مستغرقاً ولا شكّ في مشكلاته الشخصية فإنه لم يسأل عن الدافع إليه، ولا أحسّ توبي بالحاجة الملحّة إلى التوضيح لأن مجرّد كونه هنا كان بالطبع غاية بحدّ ذاته. وكان يتنهّد ويبتسم على التوالي. وجلس مايكل مكانه ونظر إليه بصراحة لِلَحظات وكأنه يسعى إلى تذكّر سحنته. وعندها جلس توبي، مدفوعاً بقوّة بدا أنها تتحكّم بحركاته، عند قدميه وأمسك بيده. وفي تلك اللحظة بالذات حدث أن دخلت دورا.

بعد هذا العائق الذي حال بينه وبين ما يريد ذهب إلى الحديقة حتى حان موعد القدّاس الذي حضره وهو في حال من الضيق والتردّد والاضطراب الكامل. وما إن انتهى حتى ذهب من جديد متحاشياً الجمع المحتشد في المقصف وفرّ إلى الغابة. وسرعان ما بلّله الرذاذ المتساقط، بيد أنه لم يأبه له. واتّجه ناحية الهِري لرؤية الجرس القديم، ثم غيّر رأيه فجأة. فما كان أشدّ ما ندم من أعماق قلبه على اكتشافه هذا الشيء المزعج جدّاً... وهام هنا وهناك قرابة ساعة ناظراً بين الفينة والفينة إلى البحيرة التي كان المطر يسوط صفحتها الرمادية. وإذ طال به الأمر فقد عاد أدراجه متّجهاً إلى الجناح. وكان يريد تغيير ثيابه قبل الذهاب للبحث عن دورا ليشرح لها أمر تخلّيه.

وإذ كان مبلّلاً حتى العظام ومستسلماً إلى أفكار حزينة فقد جرّر قدميه إلى غرفة الجلوس. وكان الظلام قد خيّم في الخارج وبدت الحجرة المظلمة مقفرة. وتعثّر بالصحف فرماها جانباً برفسة من رجله ووقع منقلباً على ظهره فوق مورفي المتمدّد. وكان قد وصل إلى منتصف الطريق تقريباً من باب الرواق عندما لمح «نيك» خلف الطاولة في جلسته المعتادة. وتمتم بتحيّة المساء. وكان قد فتح الباب حين سمعه يقول بصوت جليّ: «انتظر لحظة يا توبي، أودّ أن أكلّمك». وتوقّف ونظر إلى محدّثه وقد هالته نبرة صوته

الملحاحة. ورأى أن زجاجة الويسكي كانت قد آنست وحدته، فقد كانت رائحة شراب تعبق في الحجرة مختلطة برطوبة الخارج الباردة. وكان الموقد مطفأ.

قال «نيك»:

ـ أرغب في حديث طويل وجدّي معك.

وبدا ثملاً، ولكنْ مصمّماً.

أجاب توبي:

ـ لا أملك وقتاً الآن لذلك.

ـ في مقدورك أن تخصّص لي نصف ساعة أيها الصبّي العزيز. والواقع أنّك ستكون مُكْرَهاً على ذلك شئت أم أبيت.

ونهض.

كان توبي يدرك أن إسكاته قد يستغرق وقتاً فرجع القهقرى باتّجاه باب الخروج. ولسوف ينتظر إلى مابعد لتغيير ملابسه.

واجتاز «نيك» الغرفة بخفّة مفاجئة ووقف أمام الباب وأضاء النور في الوقت نفسه. وأخذ يراقب توبي الذي ظلّت ابتسامته على حالها. وتواجهها.

قطّب توبي عينيه وقد بهره النور الساطع الصادر عن المصباح العاري من كل حاجب وقال:

ـ هيه يا «نيك» لا تكن أحمق. عليّ أن أذهب الآن إلى البيت. سوف نتمكّن من الكلام معاً فيما بعد.

ـ فيما بعد سيكون متأخراً جدّاً يا ولدي المسكين المخدوع. هل تذكر أنني أخبرتك ذات يوم بأني سأسمعك عظة لا يرغب الآخرون في سماعها؟ حسناً، لقد حان وقتها. وأرى أني في حال مؤاتية لإلقائها. خذ مقعداً.

twitter @baghdad_library

قال توبي:

ـ تنحّ عن الطريق.

قال «نيك»:

ـ هيه، هيه. لنستبعد العنف والكلمات التي لا فائدة منها. هل تبحث عن الربّ بينما يمكن العثور عليه؟ إن هذه اللحظة مهمّة لا لشيء إلاّ لهذا. اجلس.

ودفع توبي فجعله يتعثر إلى الخلف ويسقط بعنف على الأريكة بجانب الموقد. ثم تناول زجاجته وأخذ يدفع الطاولة بيد لتثبيتها بجلبة أمام الباب، وارتفع فوقها ثانياً ساقيه على شكل زناد البندقية.

قال توبي:

ـ «نيك» ليس هذا عجيباً. لا أرغب في مقاتلك، بيد أني أريد الخروج.

ـ تُحسِن إذا لم تقاتلني، إلا إذا كنت ترجو أن تُجرح. ولكن لّما كنتَ على عجلة من أمرك فسوف نحذف الأناشيد والأدعية ونتناول رأساً العظة باسم الآب والابن والروح القدس.

«أيها الحبيب الغالي، إننا سليلو عِرق ساقط، ونحن جميعاً خُطاة. لقد انقضت أيام الجنّة ومعها أيام براءتنا عندما كنّا نتحابّ وكنّا سعداء. ومذّاك كل منّا منتصب في وجه رفيقه وقد طبعنا «قايين» بطابعه. وعن خطيئتنا ينجم الأسى والحقد والعار. وماذا هناك ليلمع في غياهبنا؟ وما المسكّن الكائن لتلطيف آلامنا؟ انتظر، هناك بلسم، هناك علاج: كلمة الربّ الحقيقية، بَرَكة السماء. إن مصيراً رفيعاً وفرحة كبرى محفوظان لنا ومجهولان من آدم حين كان يستريح تحت شجرة التفاح ولا ما يُعاب عليه. سوف يأتي ذلك، سوف يأتي ذلك ويجعل منّا جميعاً آلهة. وإني لاتكلّم أيها الحبيب الغالي عن أفراح التوبة، عن مسرّات الاعتراف، عن سحر الألم، عن السجود في الغبار. «أيتها الخطيئة السعيدة!» فلو كنّا بلا خطيئة لحرمنا هذه

الفرحة السامية. وانظر كيف يمكن أن يتغيّر بشكل مُعجِز ألمنا وفضيحتنا! وعندها ما أشدّ ما تصبح خطيئتنا لطيفة، ويغدو ذنبنا مقبولاً لأنه سيكون رسول فظائع تماثل اللذة في حدّتها! فلنعانق خطيئتنا أيها الحبيب الغالي ولنسقط متضامِّينْ على الأرض. ولنتغلّب على خجلنا ونحوّل حزننا إلى فرح. ولنطالب، ونحن جاثيان وساجدان في الغبار، بالحساب نادمينْ مفتونينْ مُفْتَدَيْن.

صاح توبي رافعاً صوته ليعلو على صوت الفتى الذي تزايد رنينه وهياجه:

ـ «نيك»، إنك تهذي! دعني أذهب!

قال «نيك»:

ـ تبقى حتى النهاية. القسم المهمّ سوف يبتديء. هل تتصوّر أني أخطب في الفراغ؟ أبداً. والذي سأقوله بشكل أكثر حميمية يعني كل فرد من المستمعين، ولما كنت الحاضر الوحيد باستثناء مورفي الذي هو بلا خطيئة فالأمر يعنيك وحدك بكل بساطة.

وشرب سريعاً قدحاً من الويسكي. وكان توبي قد نهض، فاستأنف قائلاً بسرعة أكبر ومسدّداً إليه إصبعه:

ـ أصغِ إليّ. هل تتصوّر أني لا أعرف كلّ الأدوار التي تحوكها بمكر يا توبي، كلّ ألاعيبك الصغيرة؟ إنك تعاملني وكأنّي قطعة أثاث، وتعتقد أني لا ألاحظ شيئاً ممّا يدور تحت ناظريّ. آه! ما أسوأ ما تقابلني به! صدّقني أيها الولد العزيز. لقد جعلت منك موضوع دراسة محبّبة. ما كان أنقاك وألطفك عندما وصلت، كنتَ مفعماً بالعواطف الطيبة، وكنتَ تنتمي أيضاً إلى «اتحاد القدّيسين». وما كان أشدّ سروري عندما أدركت ذلك! وما أسعد ما كان قلبي لرؤيتك ناعماً بذلك القدر من المتعة! ولكنْ ما الذي جرى؟ ما الذي اكتشفناه؟ ما أسرع ما تعلّم بريئنا! إن رأسه يدور وزهوه

twitter @baghdad_library

قد دُغدِغ! لقد اكتشف شيئاً ألذّ بعدُ من الانفعال الديني، غَزَلاً تحت أسوار دير، فما الذي يمكن أن يكون أشدّ شغفاً؟ لقد قام أولاً بدور المرأة، ثم بدور الرجل، ليتأكّد من أنه يستطيع أن يكونهما كليهما!

صاح توبي:

ـ كفى يا «نيك»، كفى.

ووقف متصلّباً تماماً أمامه وقبضتاه متشنّجتان ووجهه ملتهب.

استأنف «نيك» قائلاً:

ـ لقد رأيتك وتابعت حياتك المشبوبة في الأحراج زاجّاً برئيسنا الفاضل في حمأة اللواط وبتائبتنا الشهيّة في حمأة الزنى. يا للنجاح! في مقتبل العمر، ومواهبُ متنوعة جدّاً!

وشرب من جديد فقال توبي:

ـ ابتعد عن الطريق.

كان قد غدا شبه متعتع تحت وطأة اليأس والغضب والخوف فأضاف:

ـ هذا لا يعنيك.

ـ حقاً؟ ألا يُفترض فينا أن يراقب كلّ منا الآخر؟ إنّ كلاً منا تابع للآخر. أنت لا تهتمّ بي، وأمّا أنا شخصياً فأضطلع بمسؤولياتي بشكل أكثر جدّية. وبعدُ ففي إمكاني رفع المرآة حتى تبلغك أنت أو أيّ واحد غيرك. ما هي نيّاتك؟ هذا ما أودّ معرفته. وماذا بشأن طيشك الصغير مع الجرس؟ أي نعم، أعرف كل شيء، حتى كما ترى المعجزة المُختلَقة التي تخطّط لها مع حبيبتك الأنثوية الغالية.

صرخ توبي:

ـ اخرس.

وتقدّم وحاول سحب الطاولة. وفكّ «نيك» ساقيه، ولكنه ظلّ جالساً وهو يضحك. وعجز توبي عن زحزحتها.

قال «نيك»:

- أيها الولد التعس! لقد أنذرتك أن عليك البقاء حتى النهاية. وإني لأتساءل عمّا إذا كانت لديك أدنى فكرة عن السوء الذي تسبّبه؟ لمايكل المسكين مثلاً. فيما يخصّه فإن كيله مليء وسيطفح قريباً، ولكن ليس بالطريقة المرموز إليها في الزبور. هل تظنّ أن بإمكانك هكذا أن تلعب مع هذا الشخص المتديّن جدّاً لعبة «يربح من يخسر»؟ ربّما كنت تتخيّله مختنقاً تحت وطأة القُبَل، ثم ذاهباً بقلب متخفّف إلى مائدة المناولة؟ إنك تعمل على تدمير إيمانه، على لَغْمِ حياته، على التحضير لتحطيمه، ومع ذلك فأنت عاجز عن أن تشمله بعنايتك، وتذهب لتلعب لعبة الألغاز مع عاهرة جائرة.

زعق توبي:

- أوه، توقّف، توقّف!

واندفع إلى الأمام ممسكاً بكتف «نيك» لسحبه من مجثمه. وأخذ هذا بخناقه ووقعا على الأرض وهما يتعاركان. وأخذ مورفي بالانتحاب ثم بالنباح وقد ثارت ثائرته! وكان «نيك» هو الأقوى.

- اخرس يا مورفي، إننا في كنيسة!

وكان الآن قد لوى إحدى ذراعي توبي خلفه وراح يضغط بركبته على ظهره. وأخذ رأس الضحيّة ينحني أكثر فأكثر إلى الأسفل.

وتمتم «نيك» في أذنه:

- انزل، انزل، حسن جداً. هنا هو كرسي الاعتراف؛ لكنْ ليس عليك أن تقلق بشأن الاعتراف لأني أعرفه بتمامه. عليك الإدلاء به إلى أحد غيري، أحد لم يسمعه من قبل. إن أفراح التوبة بانتظارك يا توبي. وفي هذه الاثناء خذ جرعة من هذا الشراب ذكرى مني.

وحاول إدارته إليه وتناول زجاجته وصبّ بضع قطرات من الويسكي بين شفتيه.

twitter @baghdad_library

واندفع الفتى في العراك مثل رفّاص يتمدّد. وسقطت الزجاجة بينهما وانكسرت. وانطرحا على الأرضية الخشبية قالبيْن وعاء موروفي وتقلّبا في وخم عشائه. واستمرا في القتال بين أكوام الصحف والزجاج المكسور وقد لطّخهما الماء والويسكي والدهن. وظلّ «نيك» هو الأقوى.

كان توبي ممدّداً على ظهره ووجه «نيك» فوق وجهه. وظلّا في هذا الوضع وقد خارت قواهما كليهما. وخفض «نيك» بصره وابتسم له وقال:

ـ أيها الولد المسكين. إني أتألّم، صدّقني، ولكنّي خلقت لأكون آفة لبعض الناس. ليس في إمكانك أن تفهم، لكنّي آمل على الأقلّ أن تكون قد أدركت معنى عظتي. انهض الآن وسوّ أمر ملابسك ثم انطلق مثل صبيّ وديع واعترف للقدّيس الوحيد الذي تستطيع الوصول إليه، في الواقع، للرجل الوحيد الذي تستطيع الوصول إليه، أي جيمس تيپرپيس. قف.

ونهض «نيك» وترنّح توبي على قدميه وهو يحذو حذوه. ونفض ملابسه ونظر إلى فاولي بدهشة، بذهول. وقال «نيك»:

ـ بودّي أن أهنئك على مخطّطاتك الصادقة، ولكن الواقع أن ما تملك من خِيار قليل. فإن لم تُجرِ غداً مقابلتك الصغيرة مع جيمس، وإن لم تكن قد أطلعته على كل شيء، فسأرى من واجبي أن أقدّم له عرضاً بنفسي. ولا يخفى أنه بقانون من الطبيعة عجيب ـ سعيد، ينبغي أن أقول ـ لا يتمكّن المرء قطّ، مهما رغب في التذلّل والخضوع، من تقديم صورة عن نفسه بقتامة الصورة التي يتوصّل إلى تقديمها المشاهدُ غير الرحيم. وفي هذا يكمن جانب من جوانب سحر الاعتراف. «خطيئةُ سعيدٍ»، توبي «سعيد»! والآن اذهب ولا تدع غضبك عليّ يمنعك من الإقرار بأني ما قلت إلا أشياء صحيحة. هيا، هيا، هيا!

وأزاح الطاولة عن الباب لفتحه. وظلّ توبي واقفاً لحظة ويده مرفوعة إلى وجهه إلى أن دفعه «نيك» دفعة خفيفة بين كتفيه. وانحنى إلى الأمام وكأنه على وشك السقوط وخرج مندفعاً في حلك الليل.

الفصل الثاني والعشرون

كانت الريح قد هدأت، ولكنّ حجاباً رقيقاً من الرذاذ كان يجعل الليل أكثر ظلمة مخفّفاً من ضجّة الأصوات الأخرى. وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً.

وكانت دورا في الهِري وحدها مع الجرس. وكانت تلمسه من حين إلى آخر وكأنّها تتأكّد من وجوده لتخفّف من شعورها بالوحدة. وكانت قبل ذلك بقليل قد تمكّنت بواسطة مصباح توبي الكهربائي من تنظيفه بالماء والصابون وحكّه بسكّين حادّ. وكانت قد اختفت من فوقه كمية من الطين والحصى، ولكنّ نتوءات غريبة كانت لاتزال ملتصقة بسطحه وصلبةً صلابة معدنه. ولم تكن قد فعلت في نصف الساعة الأخير سوى الانتظار. وكانت قد وصلت قبل الساعة المحدّدة بكثير إذ لم تكن قد نامت خوفاً من أن يحجزها زوجها. ولسوف يعلم جيّداً في حينه كم أساء الحكم عليها. وإذ كانت قد ذهبت للنوم في جناح آخر من البيت فقد أغفت قليلاً على كرسيّ ثم ذهبت إلى الهِري تحت المطر المنهمر.

كانت أول الأمر مقتنعة بأن توبي سوف يصل. فعلى الرغم من عدم توصّلها إلى الاتّصال به طوال النهار فإنّه كان عليه مع ذلك أن يحزر الساعة والمكان اللذين يظهر فيهما. وعلاوة على ذلك فإنه كان قد تقرّر أثناء حديثهما الأخير أن يُحضِر العربة الثانية مباشرة إلى الهِري. ولّما لم يكن قد

twitter @baghdad_library

ظهر له أثر بعد الساعة الثانية والنصف فقد تصوّرت أن صعوبات قد طرأت على عملية إخراج المركبة من الفِناء، وذهبت إليه لاستطلاع الأمر. وكانت مواضع الخدمة مقفرة والعربة لاتزال في مكانها، وانزعجت إذ لاحظت نورين مضاءين في القصر، أحدهما في غرفتها الزوجية والآخر في حجرة لم تتمكّن من تحديدها، ولعلّها حجرة مايكل أو حجرة جيمس. وتركت العربة حيث هي وعادت إلى النقطة التي انطلقت منها مقتنعة بأنها ستجد هنا توبي، ولكن لم يكن موجوداً.

كانت غارقة بالمطر على الرغم من مشمّعها ومنديل رأسها، وكانت قدماها المنتعلتان صندلاً باردتين ومغطّاتين بالوحل، وكان أسفل ثوبها المرشوش بالماء يلتصق بركبتيها معيقاً حركاتها. وظلّت هناك مفزّعة بالظلمة وحجاب المطر، مفعمة برهبة غريبة من مجاورة الجرس، مقتنعة في الوقت الحاضر بنكوص شريكها في المؤامرة. وتساءلت عمّا إذا كان عليها أن تذهب للبحث عنه في الجناح.

لم يكن قد فاتها أن نويل سپنس لا بدّ أن يكون قد تخيّل أنّ الرسالة الملقاة على العشب كانت موجّهة إليه. والواقع أن مضمونها كان كما يحقّ له أن يظنّ. وعليه فقد كان من المحتمل أن يذهب إلى جوار الجناح في حوالي الساعة الثانية، وقد منعتها هذه الفكرة من الذهاب إلى هناك بادىء الأمر. ولكن لا بدّ أن يكون قد ملّ الانتظار. وعليه فإنّ في مقدورها أن تقترب من المكان في الوقت الحاضر بكلّ أمان؛ وقد كان ذلك أفضل على كلّ حال من الاستمرار في الدوران داخل الهِري متجمّدة من البرد حتى مخّ عظامها، جاهلة إلى أيّ قدّيس يجب أن تسلّم أمرها. وانطلقت لتسلك الدرب المليء بالعثرات الذي كانت تعرفه حالّياً حقّ المعرفة، غير آبهة للعوسج والأشواك التي كانت تخدش ساقيها، شاعرة بدفء الدم على عقبيها. وعندما وصلت إلى مخرج الغابة لم تَدُرْ حول البيت كعادتها لبلوغ رصيف الركوب بل

انعطفت مباشرة عبر السدّ. وكان الضوءان لايـزالان يلتمعان، وإذ نـظرت إلى الجُرُف المقابل فقد لاحظت أن هناك أيضاً نوراً ثـالثاً مضـاء في الجناح. وأربكها ذلك كثيراً.

مرّت تحت أسوار الدير راكضـة وسلكت مرجـة العشب باتّجـاه الجناح. ولّمـا أصبحت قريبـة جدّاً وهي تتحـاشى الحصى الذي كـان يصرّ تحت وطأة خُطاها مشت بحـذر منقّلة قدميهـا الباردتـين على مهـل جدّاً فـوق العشب المبلّل. ولاحظت أن النور كان ينبعث من غرفـة الجلوس، وأن غرفـة توبي كانت غارقة في الظلام. وتقدّمت محاذرة نحو النافذة ذات المربّعات الصغيرة التي كـانت مواربـة قليلاً، وإذ سمعت كـلامـاً فقـد حَبَتْ حتى وصلت إلى خرجة النـافذة فـاختبأت تحتهـا. وهكذا أخـذت تسمع بـوضوح العبـارات الممزوجة بفرقعة الكؤوس. وكان صوت «نيك» يزعق قائلاً:

ـ يبدو من الصعب الافتراض، من الصعب معرفة ما إذا كـان ينـظر أو لا ينظر إلى الأمر على أنّه دعابة. فمع مثل هؤلاء الناس لا يستطيع المرء قطّ أن يعرف.

كان يبدو ثملاً.

وأوضح صوت آخر قائلاً:

ـ إني متضايق يا سيد فاولي، ولكني ما زلت لا أفهم.

وعـلى الرغم من أن دورا كـانت ترتعـد فقد ازداد إحسـاسها بـالبرد لأنّ الصـوت الذي سمعتـه كـان صـوت «نـويـل». ومن غـير أن تحـاذر رفعت رأسها. كان «نيك» و«نويل» جالسْين إلى المائدة وزجاجة ويسكي بينهما. ولم يكن في الغـرفة غـيرهما. وإذ كـانت مشدوهـة أكثر ممـا كانت مـروَّعـة فقـد ابتعدت وجلست على كومة عشب مبّلل.

واستأنف «نويل» يقول:

twitter @baghdad_library

ـ تعلم، إنها من الوجهة الفنيّة حكاية جميلة جداً من المؤسف عدم سردها بحذافيرها. وعلى كل حال فأنا أحاول دائماً أن أقوم بعملي على أدقّ وجه ممكن. حتى نحن الصحافيين لنا خلقيتنا يا سيّد فاولي. بكل سرور، ولكنْ قليلاً جداً، شكراً.

ـ قلت لك كلّ ما أعرفه. وأما معرفة الأشياء بحذافيرها فمن يستطيع ادّعاء ذلك؟ وكلّ ما عليك فعله هو ذكر بعض الوقائع. لا استطيع اقتراح المزيد. وما سيحدث غداً يظل في طيّ الظنون. والذي أستطيع تأكيده لك هو أنك سوف تشهد عرضاً. أرجو أن تكون قد أحضرت آلة التصوير؟

قال «نويل» بصوت متّزن، صوت رجل متوازن يتحدّث إلى رجل ثمل:

ـ آسف أن أكون مُجبراً على مضايقتك أيضاً، لأني واثق أنك متعب جداً. ومع ذلك فهل يزعجك أن نعيد من البداية؟ أودّ التدقيق في الملاحظات التي سجّلتها. تقول إن اثنين من أعضاء «الجماعة» لم يُكشف عن هويّتهما اكتشفا جرساً قديماً كان ولا بدّ ملكاً للدير منذ زمن طويل جداً، وأنهما يأملان في ما تسمّيه معجزة، في استبدال الجديد بالقديم. ولكن ما الغاية التي يرجوانها إذا تمّ ذلك؟ وبعدُ فنحن في انكلترا لا في جنوب ايطاليا. إن ذلك ليبدو بالحري خداعاً.

أجاب «نيك»:

ـ من يدري؟ إني مقتنع بأنهما يجهلان ذلك هما أنفسهما. ربما بعض الدعاية. لقد شرحت لك أن هذه المؤسسة على وشك الدعوة إلى اكتتاب. وبعدُ، فإذا كنت تعتقد أن هذا غير ذي معنى فإنه ليس أكثر لا معقولية من الاعتقاد بأن يسوع المسيح كان الله، وأنه مات ليكفّر عن خطايانا.

قال «نويل»:

ـ لست موافقاً، فالاعتقاد مسألة انتقائية بدرجة رفيعة. وهناك من يعتقدون «ذلك» في حين أنهم لا يتخلّون في ظروف أخرى عن الحسّ

السليم. ولكن لا يهمّ كثيراً، فلنستمرّ في الاهتمام بمغامرتنا. تقول إن الخطة لن تنفَّذ؟

أجاب «نيك»:

ـ مع الأسف لا لقد كان مشروعاً جميلاً جدّاً، ولكنّ أحد الشريكين أضاع صوابه.

قال «نويل»:

ـ عليّ الاعتراف بأنّك تحيّرني. فعلى النحو الذي ربّما تكون قد تصوّرتَ الأمر فإني لا أشعر قطّ باستلطاف تجاه هذا الفريق. ولا أظنّ أن هذين الشخصين سيئا النيّة، ولكنّهما خُلقا ليكونا مشعوذيْن «رغم أنفهما». وأنا على اقتناع بوجود عدد من الأحقاد الصغيرة والخيانات لدى هذين المتخاصمين ولا أعترض أبداً على نثرها وتناولها بالتعليق. فإذا لم يكن هذان الشخصان يرجوان أن يكونا عضوين طبيعيين ومفيدين لهذه الجماعة، وإذا كانا يحملان عُصابهما إلى مكان منعزل ليفعلا ما يظنّانه تجارب روحية، فإني أعتقد أنه في الإمكان التسامح معهما، ولكنّي لا أرى أيّ سبب لإكبارهما. ومع ذلك فإني أودّ كما قلت لك التأكّد، لا الافتراء. وأما السؤال الذي أرغب في جلائه ـ إذا كان في وسعي طرح سؤال لا علاقة له من قريب أو من بعيد بالريبورتاج ـ فهو عن الدوافع التي قادتك إلى إطلاعي على الموضوع. نعم، شكراً، نعم، ولكن املأه أنت بنفسك.

وأوضح «نيك» قائلاً:

ـ هناك لحظات يرجو فيها المرء أن ينشر الحقيقة، أن يصرخ بها على الملأ، غير حافل بالضرر الذي تسبّبه. وأنا في لحظة من هذه اللحظات. وسأذهب الآن للنوم وأنصحك بأن تحذو حذوي. سوف تحظى غداً بنهار مسلٍ، وإن مضنياً.

twitter @baghdad_library

كان «نويـل» يتهيّأ للردّ، ولكنّ دورا نهضت على عجـل وسلكت راكضةً الطريق الذي كانت قد قطعته قبلاً. وكان المطر المنهمر يـلاشي وقع قـدميها في الإيـاب كما في الـذهاب. وإذ أمست بـالقرب من السـدّ التفتت؛ وخيّل إليهـا أن أحداً لم يكن قـد خرج من الجنـاح، ولكنّهـا لم تكن متـأكّـدةنـظراً لصعوبة الرؤية والسمع. واجتازت من جديد لاهثة ودارت حول الـطريق المحـاذي للبحيرة لتعـود إلى النقطة التي انـطلقت منها. وإذ كـانت الآن قد جرؤت على التخفيف من سرعتها فقد بـدأت تفكّر. لم يكن هنـاك من سرّ عن الطريقة التي سقط فيها «نويل» بين براثن «نيك فاولي». كانت رسالتها هي التي قادته. وأما عن الطريقـة التي عرف بهـا «نيك» المشـاريع المتعلّقـة بالجرس فلم يكن هنـاك من سرّ كذلـك: لقد أحـدثا من الضجّـة في الليلة السابقة ما كان «في وسع» أيّ شخص أن يسمعه، على الرغم من تقديرهمـا العكس في غمـرة تفاؤلهـما. ولّما كـان «نيك» عـلاوة عـلى ذلـك من الـذين يسهرون الليل وعرضة لنوبات من الأرق فقد كان من اليسـير أن يكون قـد قام بنزهة ليلية في هذا الاتّجاه وسمعهما يتأكّـدان من تفاصيـل الاستعدادات قبل أن يغادرا المكـان. ومن الممكن أيضاً أن يكـون قد تمكّن من لمح توبي واللحاق به بدافع الفضول المحض. لقد كان كل ذلـك محتملاً، وقـد شقّ عليهـا أن تؤول الخطّة إلى الفشـل لأن أحـد واضعيْهـا فقـد السيـطرة عـلى أعصابه. وخطرت في بالها للمرة الأولى فكرة تبعث على الجنـون مُفادهـا أن إخفـاق هـذا العمـل غير المنطقي الذي ستتحـدث عنه الصحف وتحـرّفـه سوف يسيء إلى «الجماعة» إساءة فادحة.

يا للخفّة في عـدم التفكير في الأمـر بطريقـة جدّيـة. لقد كـان عليها بالتأكيد أن تفهم أنّ مشروعها منذور لدعاية كبرى، وأنه قـد يحكم الغربـاء بـأنه مـدعاة للهـزء أو مجانب للّيـاقة. ولم يكن لهـذا الضرب من الشعوذة ـ وجود بوجه الإجمال إلا بـالنسبة إليهـا لأنّ تو ي نفسـه ـ وكانت قـد أدركت

ذلـك ـ شارك فيـه لارضائهـا وحسب. وكيف يمكن أن يفهم الأجانب عن المـوضوع عمـلاً مماثـلاً؟ لقد اعتـادت أن تنـظر إلى «إمـبر» عـلى أنها مكـان معزول تماماً ومحروم من كـل اتّصال. وقـد كانت «إمـبر» بعيدة عن العـالم، ولكن كـان في مقدور العـالم بعدُ المجيء إليهـا لإلقاء نـظرة متطفّلة هـدفها التهكّم والانتقاد.

كانت قد بلغت الهِري. ونظرت وأصاخت السمع. كان كل شيء ساكناً وكما كان لحـظة انطلاقهـا إلى الجناح. وسلّطت ضـوء المصباح عـلى الجرس المعلق ضخـماً مشؤوماً سـاكناً تحت وطـأة ثقله. وأطفأت المصبـاح وانتظرت غير دارية بما تفعل. واقـتربت مجدّداً من الجـرس الذي بـدا لها أكـثر حياة، وكأنّه جليس مؤنس. ووضعت يدها على حافته وجسّت من جديـد سطحـه الخشن المرصّع وأحسّت بالدفء الغريب الذي كان ينبعث منه. وسعت إلى أن تعرف باللمس المشهد الذي حطّت عليه أصابعها. لن يـأتي توبي. هـل ينبغي أن تنفّـذ الخـطّة بنفسهـا؟ كـان من المستحيـل أن تُحسن تنفيـذهـا لوحدها، وكانت رغبتها في القيام بالأمر قـد تلاشت عـلى كل حـال. وكان المشروع يبدو لها الآن خِلواً من الفائدة بمقدار ما سيبدو قريباً لقراء الأخبـار المثيرة مشروعاً هـزلياً سـوقياً، بـل أسوأ من ذلـك، دعابـة سمجة. وغمـرها الغثيان من الندم والغضب. فلماذا تحتمّ أن يأتي «نويـل» إلى «إمبر»؟ كـانت الحادثة «ستخـرج إلى الوجـود» على كـل حال، ولكنّ وجـوده على السـاحة يؤكد أنها ستُشَوَّه وتُضخَّم تفاصيلها. وكـانت تعلم حقّ العلم مقدرتـه على ترتيب حكايةٍ ما! كما كانت تعلم حق العلم الهزء المراوغ الـذي سيقابـل به كـل دعوة إلى التستّر. وزاد في بلبالهـا أنها كانت تحسّ كـذلك في أعـماقهـا بالكرب من كون «نويل» من الطيش بحيث يلاحقها بـطريقة يصعب معهـا عليهـا بعد الآن أن تنـظر إليه عـلى أنه مـلاذ ممكن. لقد كـان حكمه عـلى «إمبر» في لندن خفيفاً على قلبها، وأما هنا فقد كان هو هدفاً للمحاكمة.

twitter @baghdad_library

ومع ذلك فقد كانت أكثر أفكارها إلحاحاً تدور حول الجرس. فقد فات الآن أوان الرجاء في الاحتفاظ بسريّة الأمر. وهل هناك وسيلةٌ ما للتخفيف من عبث الكشف عنه، أو من إضراره بـ «الجماعة»؟ لقد قصّ «نيك» الحكاية وكأن المعجزة المنوي تحقيقها من صنع بعض أعضاء «الجماعة»، ولاريب في أن «نويل» سوف يعرضها على هذا النحو: حيلة صادرة عن عقل مخبّل وناجمة عن بعض التباين في مجتمع مؤلف من مجانين. ومع ذلك فإنها هي وحدها التي تتحمّل وزرها. فكيف يمكن جلاء ذلك؟ أيكون عليها أن تصرّح بذلك للصحافة؟ وكيف يتمّ التصريح للصحافة؟ واستدارت إلى الجرس تنشد عوناً.

ألصقت به راحة يدها برفق كما لو كانت تتضرّع. وتحرّكت المطرقة حركة خفيفة فسارعت تضمّها بين يديها لتسكينها. ومن جديد استحوذت عليها روعة بعث الجرس فامتلأت نفسها إجلالاً، بل حبّاً تقريباً. وعندما فكّرت في كيفية انتشاله من البحيرة، في كيفية تعليقه مجدّداً في عنصره الأثيري الخاص، ذُهلت وشعرت بغتة بالخزي. فكيف قَبِل هذا الشيء العظيم أن يُجَرّ بمثل هذه القلّة من المهابة، بل كيف قَبِل أن يُجَرّ إلى حظيرة؟ لم يكن ينبغي أن تلمسه، بل كان ينبغي أن تُذْعَر لذلك؛ ولقد «كانت» مذعورة. وفجأة سحبت يديها.

استمرّ خرير المطر حواليها لطيفاً جدّاً مُحْدِثاً سكوناً مصطنعاً أعمق ممّا يمكن أن يكون سكونٌ حقيقي. وكانت أرض الهِري قد غدت لزجة تحت قدميها بسبب الماء الذي لم يتوقّف عن التقاطر من ملابسها. ولم تأبه لذلك. فقد ألصقت أذنها بانتباه إلى الجرس وكأنها تتوقّع أن تسمعه يهمس همس صَدَفَةٍ حبست في جوفها أصداء البحر. وكانت الأصوات قد همدت من كل صوب في هذا المخروط الكبير. ولم يكن أيّ منها يُسمع على كل حال. وجثت مفتونة على الأرض ودسّت ذراعها في الداخل المظلم الشبيه بشكل

مثير بكهف مقفر. ولمست برفق شديد المقرعة التي كانت لا تزال عالقة بعيداً في الداخل بفعل ذراعها. ولم يفارقها رعبها فأسرعت بإضاءة المصباح. وتفرّست فيها من السطح المائل أطياف جاثية صلبة بسيطة جميلة. لا بدّ أن هذه المشاهد كانت بالنسبة إلى صانعها أشدّ واقعية من طفولته، بل ربما أكثر ألفة، وكان قد نقلها بأمانة. وغدت أكثر ألفة بالنسبة إليها هي أيضاً وهي تتأمّلها مرّة جديدة بمعونة المصباح الكهربائي.

أطفأت النور بعد أن جالت عليها متمهّلة، وكادت تسقط إعياء خدِرة المفاصل باردة الأطراف بفعل المطر. كان كل شيء صعباً جداً! وكان من الخير لها أن تأوي إلى الفراش، ولكنها كانت تعلم مع ذلك أن الأمر مستحيل. فلم يكن في وسعها أن تترك الأمور بلا حلّ، ولا كان في مقدورها ترك الجرس على هذه الحال المبهمة، مصدراً للتندّرات العدوانية الكاذبة. ولم تكن تستطيع الانفصال عن ذلك الشيء وكأن المَخْرَج رهن به، وقد دفّأت خدّيها الباردين دموع الخَوَر والضيق. لقد سحرها ذلك التلاحم الطويل، وكانت قد تصوّرت أن تصبح سيدة ذلك الشيء، أن تجعل منه دُمْيَتها؛ وهاهي ذي الآن تحت سيطرته، وعليها أن ترضخ لإرادته.

بقيت في الظلام تتنفس بصعوبة وترتجف من الخوف والهياج، ومن توقُّع العمل الذي ستقوم به من غير أن تعرف من ذلك ما سيكون. وعادت بها الذاكرة بشكل غامض إلى أنها كانت قد سمعت أن صوت الحقيقة يجب ألّا يخرس. وإذا كان ضرورياً أن تتّهم نفسها فإن الوسيلة إلى ذلك في متناول يدها بالتأكيد، بيد أن صعوبتها أشدّ رسوخاً. ومن جديد مدّت يدها في ذلك الاتّجاه.

دفعته برفق فتحرّك. وكان من السهل تحريكه. وأحسّت، أكثر ممّا سمعت، بالقرع يتردّد داخل المخروط المعدني، ولكنّها لم تتمكن من لمس

twitter @baghdad_library

الجوانب. وترنّحت ترنّحاً خفيفاً وهي لا تزال شبه ساكنة. وعندها خلعت مشمّعها وظلّت وقتاً طويلاً في الظلمة تَشْهَد يداها على انطلاقها. ثم اندفعت بقوّة أوشكت معها على السقوط من جرّاء الدفعة التي كالتها له، والتقت المقرعة بالجانب في زمجرة جعلتها تزعق. كان ذلك قريباً جداً، كان فظيعاً جدّاً! وقفزت إلى الوراء تاركة إياه يعود أدراجه. وعندها بلغ الجهة الأخرى بمزيد من الكتمان. وإذ أحكمت الوتيرة فقد رمت بنفسها من جديد على سطحه ثم ابتعدت.

وتعالى صوت مجلجل من الجرس الذي كان يترجّح بحريّة باعثاً رنينه بأعلى صوت. وكرّرت دورا جسّه؛ كان قد عاد قطعة ضخمة تكاد تُرى وتترجّح في الظلمة. وأصبح لزاماً فقط إدامة ترجّحه. واستمرّ ذلك الضجيج الصاعق الصادر عن صوت كان يعلن بعد صمت دام قروناً أن أمراً عظيماً قد عاد حديثاً إلى هذا العالم. ولم يفتأ صياحه يتعالى نافذاً مُذهِلاً مسموعاً من القصر كما من الدير، وفي القرية كما على الطريق، كما سُمع، حسبما أكّدت القصة فيما بعد، على محيطٍ طوله كيلومترات وكيلومترات.

وظلّت المسؤولة هناك مذهولة شبه متلاشية من جرّاء روعة تصرّفها، ومن جراء هذا الصخب المسلّي. وكان واضحاً أنها نسيت كل شيء باستثناء واجبها في مراقبة الجرس وهو لا ينفكّ عن الرنين. وهكذا فإنها لم تسمع الأصوات التي كانت تقترب لأنها كانت لاتزال مبهورة شبه مخبّلة عندما وصل فيما بعد عدّة أشخاص راكضين فاحتشدوا حولها.

الفصل الثالث والعشرون

كان الجزء الأول من الاحتفال قد انتهى عندما وصلت دورا، وكان الزيّاح قد بدأ بالتحرّك. وكانت الساعة تقارب السابعة صباحاً. وكان المطر قد توقّف والشمس تجهد في البزوغ خَلَلَ ستار رقيق من السحب الناصعة ناشرة نوراً ذهبياً شاحباً لايزال بارداً. وكان غبش أبيض يقنّع صفحة البحيرة، وكان أعلى السدّ يكاد يُرى.

كانت دورا قد نامت. وإذ كانت السيدة مارك قد دفعتها بالقوة إلى القصر فقد ارتمت على السرير وغابت على الفور عن الوجدان. ولم تستيقظ قطّ قبل السابعة، ومالبثت أن تذكّرت أنّ نقل الجرس لا بدّ أن يكون قد بدأ. وبالفعل فقد أصاخت السمع فترامى إليها صوت الموسيقى البعيد. ولم يكن من أثر لپول. ولبست على عجل وهي لا تدري مع ذلك على الإطلاق لماذا ارتأت أنه كان حتماً عليها تماماً أن تكون حاضرة. وكانت صور الليلة الماضية مشوّشة مخيفة مماثلة لرؤى شخص ثَملٍ وعاودتها ذكرى غامضة عن انبهارها بأضواء المصابيح ورؤية الجرس مترجّحاً جليّاً تحت حزمات النور. وكان حشد لا يُحصى عدده قد أحاط بها واستجوبها. وكان معطف قد طُرح على كتفيها. وكا زوجها قد جاء أيضاً، ولكنه لم يوجّه إليها كلاماً، ولم يهتمّ إلا بتفحّص اكتشاف بمثل هذه النفاسة. ولم يكن قد رجع إلى غرفتها، الأمر الذي جعلها تفترض أنه لم يغادر الهِري، مع أن ليلة الحراسة كانت قد قُسمت بين الجميع.

twitter @baghdad_library

كانت لاتزال تشعر بأنها متقبّضة الأطراف، وكان ينهشها جوع لا يوصف، وقد خارت قواها. وكان الجو مكفهرّاً فلبست أسمك ما عندها من ملابس وجلست في المدخل المؤدي إلى الغرفة وفيه نافذة على الواجهة تسمح لها برؤية شاملة. وكان مشهد مذهل بانتظارها. وكان بضع مئات من الناس صامتين صمتاً مُطبِقاً قد اجتاحوا السُطيحة، أو احتشدوا على السُلَّميْن والشرفة، أو اصطفوا عدّة صفوف على الدرب الموصل إلى السدّ، منتظرين الانتظار الساكن المعتاد الذي يُعْقِب توقّف الأغاني أو المحادثات المؤقّت في أثناء حفلة من الحفلات. وكانوا جميعاً قد استيقظوا باكراً جدّاً هذا الصباح ملوّحين بهذا الشعور المأساوي المصادَف لدى اجتماع عدّة أشخاص باحتفال في الهواء الطلق. وكانت جميع العيون مشدودة إلى الجرس.

كان الأسقف الذي علّق جميع شاراته واعتمر تاجه وأمسك بعصاه لايزال على السُطيحة في مواجهة الكثيب الملفوف بالشرائط. وكان خلفه عدّد من الصبايا قابضات على شبّابات يحاولن عدم الابتعاد عن طريق عدّة صبيان يلبسون الدروع الكنسية ويدفعهم الأب بوب جويس إلى الأمام. وكان المونسنيور ينتظر بصبر واضح فِعْلَ شخص لطيف، وكان حريصاً على عدم التلفّت ما دام التدافُع مستمرّاً. ولم يكن، كما اتضح فيما بعد، يعلم شيئاً عن أحداث الليلة الماضية. فقد كانت أُذُنه السليمة غائصة عميقاً في مخدّته فلم يوقظه الرنين المجلجل، ولا ظنّ أحد أنّ من حقّه أن يروي له في الصباح الباكر قصّة بهذا المقدار من مجانبة الواقع.

كان الصبيان قد نجحوا في إبعاد الصبايا فْتبدّد شملهن في آخر الحشد رامقاتٍ معلميهنّ بنظرات مغمومة. ولم يكن وضع الراقصين «موريس» أكثر إثارة للحسد على الإطلاق. فقد كانوا يتدافعون إلى صفّ المنشدين متصوّرين أن لحظتهم قد حانت. وإذ كانوا على أتمّ هيئة بصحبة حصان

من الخشب ومهرّج معتمر قبعة عالية وعازفي كمان رديئين مسلّحين بالعصيّ ومزيّنة سيقانهم بالجلاجل والشرائط فقد شعروا بأنهم مستعارون وعرضة جداً للأنظار ما داموا لمّا يتحرّروا بفعل الرقص والموسيقى. وكانوا قد أُوصوا بالرقص قبل تحرّك الزياح بقليل، وبعدم التوقّف إلا عند وصوله إلى أسفل السدّ، بيد أن مثل هذا التقاطر على الاحتفال لم يكن متوقّعاً. وكان واضحاً الآن أنه لا مكان على السُطيحة وأنه لا سبيل للحصول على مكان خالٍ إلا بترجّي عدّة أشخاص كبار في السن ملتصقين بالدرابزين بالسماح لهم بتسلّقه والقفز إلى مرجة العشب. وشقّ المهرّج طريقاً عبر أفراد جوقة الإنشاد لاستشارة الأب بوب. وأشار هذا بالموافقة وهو يبتسم فما كان من عازف الكمان الرديء الواقف في مكان الوصول، وكان قد اعتمل في نفسه شعور بأنّ الجميع بانتظاره، إلا أن بدأ على الفور «مارش الرهبان». وحاول بعض أفراد «جمعية موريس» أن يرقصوا في حين كان آخرون يزعقون بـ «صه» مدوّيات. وقطّب الأب بوب حاجبيه وهزّ رأسه فتفتّت عزف الكمان. وعاد المهرّج أدراجه ليعطي إلى أفراد فرقته تعليمات بدا واضحاً أنها مثبّطة، وربّت «الأب» بإجلال على كتف الأسقف الذي كان يبدو أكثر صبراً من أيّ وقت مضى. وابتدأ خطبته.

لم تستطع دورا أن تستمع إليها. وإذ كانت مغمومة جدّاً أن تُزاح جانباً فقد هرعت تقف على الشرفة التي سوّدها المشاهدون. وانسلّت فتمكّنت من إيجاد مكان تستطيع منه أن ترى. وكانت خطبة الأسقف قد انتهت لتوّها وأخذ الجرس يتحرّك على مهل جدّاً. وجُرّت العربة إلى الأمام يحرّكها من الخلف زوجان اثنان من العمّال هم أولئك الذين كانوا قد أحضروا الجرس وتلقّوا ترخيصاً بدخول الدير لوضعه فيه. وكانوا يمسكون بمهابة بالحبال التي كانت السيدة مارك قد طلتها في اللحظة الأخيرة بالكلس. وغادر الجرسُ السُطيحة ليوجّه إلى الدرب المؤدي إلى السدّ. وكان على أثره

twitter @baghdad_library

مايكل وكاترين يتبعهما الأسقف وأفراد جوقة الإنشاد؛ وما هي إلا لحظات حتى ظهر من كل صوب من الحشد أفراد «الندوة» مُبدين جميعاً ـ كما لاحظت دورا ـ وجوهاً شائهة جداً. ثم جاء الراقصون «موريس» مقطّبين سائرين من غير رقص وجلاجلهم تصلصل ومناديلهم البيضاء تجرجر على الأرض. ثم كان دور فرقة الشبّابات مع معلّمهن، وخلفها عدد من المرشدين والكشّافين. وكان يؤلّف مؤخّرة الزيّاح بعض وجهاء كنيسة القرية الصغار وقد رأوا من واجبهم أن يسيروا في العرض، ثم بعض أعضاء هيئة المساعدة ممن كانوا يفضّلون التشرّف بالسير في الزياح على الفائدة الناجمة عن كونهم مشاهدين. وبينما كانوا يتقدّمون كان الجمهور بين متسلّق للدرابزين ومتدافع على السلالم لالتقاط الصور زاحماً من كانوا يهرعون إلى أسفل الدرجات أو قافزاً إلى السُطيحة لاتّخاذ مكان على المنحدر عند طرف البحيرة لحضور المرحلة المقبلة من الاحتفال.

ظلّت دورا حيث كانت. فقد كان في وسعها أن ترى بما يكفي، ولاسيما أن الشرفة كانت الآن قد أُخليت. وخفضت بصرها نحو السُطيحة التي كانت ماتزال ملأى، والتي كان الناس يروحون عليها ويجيئون، فلمحت «نويل» فوق قمّة أحد الأسدين الحجريين عند أسفل السلّم يلتقط صورة. وما إن تمّ له ذلك حتى قفز وانطلق راكضاً على امتداد الزيّاح. وكان المرشدون المتجمّعون في زمَر بالقرب من أبواب الإسطبلات يناضلون للدخول في الموكب بقوّة تشهد بالصفات شبه العسكرية التي تتمتّع بها منظّمتهم. وغدا من الصعب من هذا المكان تمييز الزياح من الجمهور المحيط به. وإذ رفع «نويل» رأسه فقد لمح دورا وأشرق وجهه. ثم حرّك غلاف آلة التصوير الجلدي وصفّق بيديه. ولم تلبث أن فكّرت وهي ترى هذه الحركة الإيمائية في أنه كان يلمّح بالطبع إلى وقائع الليلة الماضية. فلا بدّ أنه كان في الهِري، وبذلك كان يتظاهر. وابتسمت ابتسامة خفيفة

ولوّحت بيدها تلويحة ليّنة. وأشار «نويل» بإصبعه إلى البحيرة. فلم يكن يريد تفويت الفرصة لالتقاط صورة أخرى. وهزّت دورا رأسها سلباً. واندفع خلال المحتشدين فأمكنها رؤيته متطاولاً على الآخرين برأسه وكتفيه، متجاوزاً الكشّافة الشبّان، بالغاً صفوف الزّياح الأولى التي كانت قد وصلت إلى السدّ. وكانت أشعة الشمس العائدة تنساب من خلال غطاء الجرس الأبيض، وظلال كبيرة تتدافع فوق العشب. وانفجرت جوقة الإنشاد في ترتيلة، ولمحت دورا من بعيد أبواب الدير الكبيرة تنفتح على مهل.

كانت وحدها الآن على الشرفة. وكان الجمهور قد زاد احتشاداً على طول ضفاف البحيرة من كل جهة من السدّ. وكانت العربة تتقدّم ببطء على المنحدر الصغير المفضي إليه منكشفة أكثر فأكثر للأبصار. وكانت قبّتها الحريرية تلمع في الشمس، كما كان يلمع ثوب الأسقف. ومع أن الريح كانت قد خفّت حدّتها فإنها كانت تحرّك شرائط الساتان والأزهار الزاهية التي تزخرف العربة. وكان المونسنيور يسير بخطوة واثقة ورأسه مُنحنٍ قليلاً وهو يتوكّأ على عصاه. وكانت دروع الأطفال البيضاء كالثلج ترفرف حولهم وهم يرفعون بوقار أوراق النوتة الموسيقية التي معهم. وكان الجرس قد وصل إلى السدّ وهو يتقدّم بصعوبة فوق البلاطات غير المستوية يتبعه موكبه. وكانت طبقة الندى المغبشة لاتزال منتشرة فوق البحيرة حاجبةً بقوة قمّة السدّ ومَسيرةَ الزيّاح التي بدت وهي تتدرّج على طول البحيرة وكأنها تسير على الهواء.

انحنت دورا أكثر إلى الأمام لترى بشكل أفضل.

ورتّلت الجوقة ترتيلة محتفظة بالموسيقى ذات الطابع الرسمي للخطة الخامسة، لخطة اجتياز الجرس البوابة. وفي أثناء ذلك كان القرويون قد حقّقوا تمنّيات الأب بوب بما أبدوا من عواطف:

twitter @baghdad_library

لِيرتفعْ عالياً صوت جرسنا
المرفوعِ على مهل إلى برجه،
وليرنّ كل يوم في منتصف
الطريق بين السماوات والمياه.
وفيما يصلّي طائر الصباح
لربّ الطبيعة، ينشد هو،
وقد آل هذا المآل النبيل،
نشيد الرحمة القادمة.
وعندما يلبس المساء ثوب الظلّ
للصليب، لقبّة الجرس، للبئر العتيقة
يمزج هو صوته الحزين
بابتسامة النهار المولّي!
واستمرّ الإنشاد.

وكان الراقصون «موريس» قد غادروا الآن الضفّة وهم يمشون ثُناءَ ثُناءَ تتبعهم الصبايا وكأنهن يرتعدن في أثوابهن البيضاء المصنوعة من الساتان. وكان الجرس يتقدّم أبطأ فأبطأ وقد بلغ تقريباً منتصف السدّ حيث كانت الألواح التي ساء تجمّعها تذكّر براهبات القرن السادس عشر الطيّبات. وكانت نظرات دورا هائمة الآن في الحشد. ولم يكن في وسعها رؤية «نويل»، ولكنها كانت تُعاين پاتشواي الذي كان يقف رابط الجأش، وقد رفض الانضمام إلى الموكب، في مكان بدا واضحاً أنه تستحيل منه الرؤية. وفي تلك اللحظة كان يحدث شيء على ما يظهر. وحدّدت دورا بصرها. وتلجلج إنشاد الجوقة. لقد توقّف الجرس فوق ألواح الخشب وبدا أن قادته يتدافعون حوله. وكان الأسقف قد أصدر أمراً إلى الجوقة بالتقهقر. وسكن الزيّاح. وتوقّفت الموسيقى من غير توافق، وسُمع صوت صرير في

الهمهمة التي تلت ذلك. وظهر أن الجرس كان قد مال قليلاً على جنبه. وتعالى من الحشد صخب وبلبلة حين رأوا الحوامل الخشبية تنقصف ببطء والملفاف يجنح والجرس يهوي بشكل خَطِرٍ بضع ثوانٍ ثم ينقلب على جنبه ويغوص في البحيرة جارّاً معه العربة.

جرى الحادث بسرعة لم تستطع دورا معها تصديق عينيها. وكان المشتركون في الزياح مصطفّين على السدّ تحت الشمس، وفي الوسط كان المكان الخالي الذي تركه اثنان من قادة الجرس كانا قد فرّا إلى بعيد. وكانت تسمع صوت الماء المتلاطم الفائر من غير أن تراه. وكان الجرس قد اختفى بكلّيته. وتعالت هتافات من الحشد أكثرها نحيب وبعضها صيحات فرح: كان الذين جاءوا يشاهدون العرض قد حصلوا على جزاء تجشّمهم.

هبطت دورا الدرجات بأقصى سرعة راكضة نحو البحيرة. وكان الأب بوب جويس يُبعد الزيّاح في حين كان عدد لا يحصى من الاشخاص يحاولون شقّ طريق لهم عند طرف الشاطىء. وكان شخص لم تتمكّن دورا من التعرف عليه قد سقط في الماء. وانفجرت صيحات وأجهش أحد أفراد جوقة الإنشاد بالبكاء. وظلّ الأسقف البادي بوضوح تحت الشمس في المكان الذي حصل فيه الحادث ينظر إلى البحيرة ويكلّم أحد العمّال. وكان الغبش قد تبدّد قليلاً واستمرّ الماء في الفوران تحت أكداس الأخشاب المغطّاة بالأزهار البيضاء. ولم يكن شيء يُرى من الجرس ولا من العربة على السطح. وكان بعض الناس قد تجاوزوا الأسقف وخَطَوْا فوق الفجوة للنظر من الجهة الثانية. وأُغلقت أبواب الدير مرّة أخرى بسرّية.

كانت دورا بالقرب من البحيرة على الجانب الأيمن من السدّ. وكانت تعاني إحساساً بالاستفظاع لا يوصف ممزوجاً بالهياج. فقد شعرت وكأنها مسؤولة بعض الشيء عن هذه الكارثة الجديدة، ولكنّها شعرت أيضاً وكأنّ طيشها الشخصي قد أمسى قابلاً جداً للغفران بالقياس إلى أهمية المصالح

twitter @baghdad_library

التي كانت عرضة للخطر. وذهبت تقف في نهاية الحشد ساعية وراء فرصة لرؤية أفضل. ودفعها أحدهم بأقصى ما يمكن من العنف، وقد أخبرت فيما بعد أنه لو كانت تلك الحركة أقلّ فظاظة لما كانت بالتأكيد لتحفل بها. ونظرت لترى من يكون ذلك الدافع. كانت تلك كاترين المنطلقة على الدرب المؤدّي إلى الغابة. ونظرت دورا من جديد إلى ما يدور ثم التفتت بعد أن فكّرت لتلمح الشابّة. وكانت قد باتت على مسافةٍ ما وهي تسير بسرعة، ولم يكن أحد قد تنبّه إلى رحيلها.

لم يكن من شأن كاترين قطّ أن تتصرّف بهذا العنف، وكان تعبير وجهها غير مألوف. وكان من الطبيعي أن تبدو مضطربة، بيد أنه بدا لها أنها كانت فذّة وشاردة أكثر مما ينبغي. وتردّدت دورا. فقد كانت محاطة بكثير من الناس، بيد أنهم لم يكونوا أولئك الذين تعرفهم. وما هي إلا أن اندفعت خلال الأعشاب وسلكت الطريق الذي سلكته كاترين من غير أن تدعها تغيب عن ناظريها. وحثّت هذه خطاها وأوغلت في الغابة. وأخذت دورا تركض. لقد كانت كاترين غريبة جدّاً. وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن يعنيها فإنها كانت منشغلة راغبة في التيقّن من أن كل شيء كان طبيعياً.

وإذ وصلت إلى الغابة فقد شرعت المسافة بينهما تضيق. فقد كان الدرب مفروشاً بالعسالج والأغصان التي كسرتها العاصفة، وقد رأتها تتعثّر. ولما كان الأمر قد انتهى بها إلى السقوط بقوّة فقد أدركتها دورا. ونادتها.

ـ كاترين، انتظريني. ألم تتأذّي؟

كانت هذه ترتدي ثوباً لكرة المضرب انقضى عهده قليلاً وغدا الآن مقلّماً ببقع سمراء. وقد تحاملت على نفسها واستأنفت سيرها بأبطأ كثيراً ممّا كان متجاهلةً منادِيَتها. وبدا أنها كانت تذرف الدمع. وإذ كان متعذّراً على دورا أن تسايرها جنباً إلى جنب على الدرب الضيّق جدّاً فقد تبعتها عن كثب وسألتها وهي تلمس ذراعها أن تطمئنها إلى أنها على خير ما يُرام.

وما هي إلا لحظة حتى دافعتها كاترين وقالت لها ملتفتة نصف التفاتة :
- إني على أحسن حال إذ أكون وحدي .

وكانت نظرتها غريبة جدّاً .
أجابت دورا وهي لا تدري إذا كان عليها أن تطيعها أو لا :
- إني متألّمة حقاً .
واستطردت كاترين . :
- أترين، لقد «كان» ذلك بسببي ، ألا تعلمين؟ لقد كان علامة .
استأنفت سيرها .

وإذ كانت دورا قد رأت وجهها فقد ظنّت أنها أمست مجنونة، وهي فكرة مرّت ببالها عندما دفعتها كاترين، بيد أنّها لم تتوقّف عندها طويلاً لاعتقادها أنها غير صحيحة. فقد كانت تبدو طبيعية جدّاً في اليوم السابق. وليس من الممكن أن يصبح الناس مجانين بغتة. ولكنّها لّما كانت لا تملك تجربة في هذه القضايا فقد ظلّت مكانها وقد جمّدتها الخشية والذعر، وتركت الطيف يتلاشى .

وعندما غاب تماماً كان أول ما أَمْلته عليها غريزتها أن تعود على عجل إلى القصر لطلب المعونة، ولكنها رأت أن الأهمّ هو ملاحقة الشابّة لاقناعها بالرجوع . فبإضاعة الوقت قد تضلّ الطريق ولا يُعثر لها على أثر. وبالاختصار فإن دورا كانت مدفوعة بالرغبة في عدم التصرّف بحمق، وفي عدم خلق بلبلة أعظم من السائدة بالتأكيد في القصر عقب المأساة. وكان من الممكن أن تكون بوجه الإجمال مخطئة تماماً. وعليه فإنّ توجيه إنذار عديم الجدوى في الوقت الذي عليهم فيه أن يحلّوا كثيراً من المشكلات سوف يثير حفائظهم بحقّ. واندفعت في الغابة ولمحت الثوب الأبيض تحت الأشجار.

وخطر لها أنهما لن تلبثا أن تمرّا بقرب الهري، وأنه من المحتمل أنّ پول

twitter @baghdad_library

لايزال فيه. ونشّطتها هـذه الفكرة فـأكملت ركضها من غـير أن تنقطع عن مناداة الفتاة باسمها. ولم تُعِرْ هذه النداءَ أيَّ التفات، وإذ تمكّنت هي للمرّة الثانية من إدراكها فقد خُيّل إليها أنها كانت تكلّم نفسها. وفيما كانت تتأمّل في هذا الوجه المذعور إلى درجة الجنـون فقد أيقنت أن حـدسها الأول كـان الصحيـح. وأمسكت بهـا من ثـوبهـا وصرخت في الـوقت نفسـه لإخــطار زوجها. ووصلتا إلى مرجة العشب. وكانت كاترين تزيـد من حثّ خطاهـا ودورا متشبّثة بها ولا تنفكّ عن الصراخ. ولم يَرِدْ أيّ جواب من الهِري. فـلا بدّ أن يكون پول قد ذهب، وبالفعل فقد علمت فيما بعد أنه سلك الطريق المعبّدة لكي يتلفن إلى أحد زملائه. لقد كانتا وحيدتين تماماً في الغابة.

عدلت دورا عن طلب المعونة وقالت لكاترين:

ـ لِنَعُدْ إلى البيت الآن، أرجوك.

وأزاحتهـا كـاتـرين من دون أن تعمـل عـلى أن تلتقي نـظراتهـا وقـالت بصوت جليّ:

ـ كُرمى لله، دعيني وشأني.

وأجابتها دورا التي بدأت تختنق بقدر ما هي قلقة:

ـ هيّا يا كاترين، لا تتغابَيْ. تعالي معي.

والتفتت إليها كاتـرين مكشّرة فجأة تكشـيرة شبيهة بـالتي لم يكن أخوهـا التوأم يتخلّى قطّ عنها وأوضحت مجيبة:

ـ لقـد بسط الله يده. إن ثـوبـاً أبيض لا يمكن أن يُخفي قلبـاً منحـرفـاً. ولهذا لا ينبغي له أن يجتاز هذه البوّابة. وداعاً.

كانتا قد قطعتا المنحدر وبلغتا مكاناً كان الدرب فيه قريباً جدّاً من الحافة لا يْفصله عن البحيرة سوى صف من القصب الطويل. وكان بين المنحـدر والماء الصافي محيط دائرة غشّاه الطمي والأعشاب الضارّة. وابتعدت كاترين عن رفيقتها واقتربت من البحيرة.

وكان فرارها من السرعة بحيث لم تتحـرّك دورا محدّقـة إلى المكان الـذي كانت قد غابت فيه عن نـاظريهـا. وسمعت صوت سقـطة ثقيلة. وسلكت الطريق نفسه مطلقة صيحـة حادّة، ومن دون تـردّد غاصت خـلال الأوراق المتشابكة مفزّعة وهي تحسّ بـالأرض تميد بهـا. وغمرهـا الطين إلى ركبتيهـا تقريباً. وأوتيت كاترين رشاقة ساعدتها على التقـدّم خطوتـين مبتعدة عنهـا. وفي شبه اختيار صادر عن سابحة جسورة غـاصت في الماء المـوحل متخبّـطة للابتعاد عن الشـاطىء. وكانت مستلقيـة على جنبهـا وردنا ثـوبها لايـزالان نظيفين أبيضين بشكل غريب فوق صفحة الماء.

نادت دورا الفتاة، ثم أخذت تصرخ. ولكن من عساه يسمع؟ كان كل واحد مشغولاً جداً هناك في البعيد. وتقدّمت قليلاً محاوِلـةً الوصـول إليها، بيد أنها فقدت تـوازنها وهوت إلى الأمـام في الماء العميق الـذي رشّ برذاذه وجهها. وأحست، وقد جنّ جنونها وأخذت تصارع للاحتفاظ برأسها خارج الماء، بالأعشاب اللزجة تنسحب حـول أطرافهـا. وإذ بذلت جهـداً مجنونـاً فقد جدّت في إعادة قدمهـا تحتها وجلست في الـطين وقد غمـرها المـاء حتى عنقها تقريباً. وكانت كاترين أمامها ترشّ الماء وهي تغرق، وبدت محـاصرة داخل الأعشاب التي كانت أليافها تلتفّ حول ذراعيها. وبذلت دورا جهداً أخيراً فتمكّنت من إمساكها بيدها. وعادت تزعق باسمهـا مرّات ومـرّات، ثم شرعت تصرخ بـأقصى مـا في وسعهـا من حـدّة. وحـاولت جـرّهـا إلى الوراء.

وما هي إلا لحظة حتى كانت قد سُحبت بدورها إلى الأمـام؛ فإذ كـانت كاترين تقاوم ضمّتها فقد جعلتها تغوص في الماء العميق. وتركتها، ولكن بعد فوات الأوان؛ فلقد كانت قد ابتعدت كثيراً عن الشاطىء. وكانت قدماهـا تطآن عبثاً أرض المستنقع الموحل البعيدة الغور المفروشة بالأعشاب الضارّة. وأخـذت تضرب بيديهـا صفحة المـاء وهي لا تنفـكّ عن إرسـال صيحـات

twitter @baghdad_library

حـادّة، مبتلعـةً بعض المـاء، ورأسهـا ملقى إلى الـوراء، وذراعـاهـا نصف مقيّدتين. وأخذ شيء داكن يتخـايل فـوق الماء أمـامها؛ وكـان ذلـك شعـر الفتاة. ورأت، وكأنها في حلم، كتفيها يغوصان في الغرين الأسود، وعينيها مرفـوعتين نحـو السماء، وفمهـا مفتـوحـاً. وانقضّ رعب المـوت عـلى دورا فصارعت بعنف وهي تكاد تختنق، بيد أن الأعشاب كـانت تهصرها وكـأنها تشدّها إلى القعر، وبلغ الماء ذقنها.

عنـدها سمعت صيحـة من بعيد. ورأت وقـد ضاقت بصفحـة البحـيرة الشاسعة شكـلاً أسود عنـد زاوية أراضي الـدير في المكـان الذي تنتهي فيـه هذه الأراضي عند حافة درب صغير على يسار الجُرُف المقـابل. ونـادت من جديد في انتفاضة رعب أخيرة. ولمحت الطيف يخلع مـلابسه، وبعـد لحظة سمعت بقبقة، ثم لم تعد ترى شيئاً. وكان صراعها قد شارف عـلى نهايته. فلقد أخذ الماء يغور في فمها، والتفّت الأعشاب حول إحدى ذراعيهـا شادّة وثـاقها تحت السـطح. وتقيّدت قـدماهـا أكثر فـأكثر إلى الغـرين الـدبق. وأرسلت عويلاً مكروباً. وشعرت بأنها مسحـوبة عـلى مهل إلى رواق أسـود وقد انفتح لاستقبالها.

قال صوت هادىء:

ـ لا تقـاومي. إبقي هادئـة تمامـاً فلا تغـوصي أكثر. حـاولي التنفّس على مهل وبانتظام.

عندها لمحت دورا على مستوى البصر قـريباً جـدّاً وبشكل مـدهش رأساً كـان قد حُلق من زمن قـريب يتحرّك في المـاء، وكان الـوجه الغضّ مشعّـاً بعينين شديدتي الزرقـة. وحدّقت إليـه رائية إيّـاه بوضـوح عجيب، متخيّلةً أول الأمر أنه رأس فتى.

وإذ توقّفت عن الصراع فقد لاحـظت بدهشـة أنها لم تعد تغـوص أكثر. وكان الماء يتلاطم عند أسفـل ذقنها. وحـاولت ألا تتنفّس من أنفها، ولكنّ

فمها ظلّ مفتوحاً بسبب فُواقٍ مرعب. ورأت بذهول منذ أن كفّت عن الجهد كائنين يشقّان أمامها صفحة الماء: الرأس المدوّر للراهبة التي كانت قد سبحت في الماء النظيف خلف العشب ملتفّة بحذر حول كاترين، ورأس هذه الماثل، وفمها وأحد خدّيها، وقد أصبح الآن عائماً، وعينيها الجامدتين جمود الزجاج. ولاحظت بالوعي الغريب نفسه أن وجه «الأخت» كان شبه جافّ.

كانت الراهبة تكلّم كاترين وهي تحاول سحبها من كتفيها إلى الخلف وإخراجها من وسط الأعشاب، ولم تكن كاترين تقاوم. كانت رخوة شبه غائبة عن الوعي. وشرعت دورا تراقبها. وكانت كاترين قد غدت الآن منقلبة على ظهرها وذقنها مرفوع فوق الماء وشعرها عائم وراءها، وكانت الراهبة التي ألقت حولها ذراعاً بيضاء تمسك بها بقوّة. وبلغت ثنيّةُ ماء فم دورا فصرخت مجدَّداً. واستؤنف صراعها وأصبح تنفّسها متقطّعاً. وغاصت. وبدا أن الماء يغمرها؛ وعادت تختنق.

شعرت بدفء لزج فوق خدّيها. ثمّ سمعت بعد هنيهة أصواتاً، ورفعتها من إبطها ذراعان قويتان. ورأت وهي تستدير وتكمل صراعها وجه مارك سترافورد فوق وجهها. وجرّها إلى اليابسة على الرغم من أنه كان غائصاً عميقاً هو الآخر في الطين، وقبضت عليها يدان أخريان. ومُدّدت هامدة على الأرض والماء يسيل من فمها. وتواصلت الهتافات. وإذ تمكنت من رفع رأسها فقد رأت جيمس ومارك كليهما خارج الماء، وإن كانت إحدى قدميهما غائصة في مكانٍ ما في الطين، وهما يرفعان كاترين بينهما. وقد غاص مساعدون آخرون بالتسلسل ابتداء من الشاطىء ساحبين إياهما إلى اليابسة. وكان يبدو الآن أن نصف دزينة من الناس على الأقل كانت تتخبّط في الوحل. وكان رأس الراهبة يختفي أبعد قليلاً تحت الماء. وكانت

twitter @baghdad_library

قد تخلّت عن كاترين. وصاحت بشيء من الكلام وشرعت تسبح عائدة نحو المنحدر.

تهالكت دورا من جديد ساترة وجهها في العشب. وكانت تسعل سعالاً خفيفاً وتبصق من حين إلى آخر وتنتحب بارتياح. وسئلت عن حالها، بيد أنها كانت عاجزة عن قول أدنى كلمة، غارقة في سحر الشعور بأنها لاتزال حيّة. وفجأة انحنى أحدهم عليها وأخذ يضغط ضغطات موقّعة على ظهرها. وقرِقت واعتدلت جالسة. وأصابتها نوبات دوار، وفتحت عينيها ولكنّها وقفت منتصبة تُسندها ذراع أحدهم.

قال مارك سترافورد:

- إنها على خير ما يُرام.

ونقل اهتمامه إلى كاترين التي كان شخص آخر قد بدأ يمارس عليها التنفّس الاصطناعي. واستدارت هذه متنهّدة عميقة ودفعت المحُسِن واستوت جالسة أيضاً. كانت نظرتها ذاهلة وثوبها الأبيض مبلّلاً وشفّافاً فوق جسدها، وكان شعرها الطويل المبلّل يتمسّح فوق نهديها. ونظرت حواليها.

اقترب شخص مضحك على عجل. وتأمّلته دورا في دهشة. كان شخص امرأة قصيرة الشعر، وكان واضحاً أنها عارية حتى وسط جسدها، وكانت تلبس السواد ابتداء من الجذع: كانت تكلم الراهبة في ملابسها الداخلية. وقد انحنت هذه الأخيرة على الناجية من الموت سائلة عن حالها، ثم التفتت وابتسمت لدورا. لم يكن يبدو قطّ أنها مرتبكة، وقد تقبّلت بإشارة مهذّبة من رأسها الملابس التي قدّمتها لها السيدة مارك. وكانت تبدو في مقتبل العمر، وكان وجهها الموشوم ببقع النمش قد بقي جافّاً.

قال مارك:

- إنها الأم كلير. لقد كنتما ولاشك منذورتين لأن تلتقيا.

كانت كاترين قد نهضت على ركبتيها وهي تنظر وكأنها تنتظر شيئاً. وسُمعت أصوات في الغابة وبرز منها عدّة أشخاص طارحين الأسئلة، مطلقين صيحات الدهشة. وكان بينهم مايكل.

يا له مشهداً عجيباً. معظم الرجال يغطّيهم الطين حتى أحزمتهم، وامرأتان نصف غريقتين، والأم كلير مرخّجة الثوب فوق كتفيها! وكان مايكل ينظر مثل شخص سبق أن كان ضحية مفاجآت لا تُحصى، وهو يظنّ أن هذه يجب أن تكون على الأقلّ المفاجأة الأخيرة. ولكنّه كان مخطئاً.

فإذ تقدّم إلى وسط الزمرة وبدأ يتكلّم تهاوت كاترين لتنهض. واتّجهت إليه مثيرة للسخرية بخصلات شعرها الأسود الطويلة المتدلّية وفمها المفتوح. وشعر الجميع بضرورة الصمت.

عندها هجمت على مايكل وهي تنتحب. وبدا لبرهة أنها تتحفز لضربه. ولكن حدث العكس تماماً! فقد تكوّرت بجماع جسدها الرطب وخبّأت رأسها في تجويف صدره وتمتمت اسمه بلا كلل بطريقة تنضح دَنَفاً.

بدا وجه المُهاجَم شاحباً من الذهول والفزع، في حين كانت ذراعاه تنضمّان بشكل تلقائي على المتحمّسة الشابة.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع والعشرون

سدّد پول أجرة الطريق، وأضاع لحظات في حسبان الحلوان المخصّص للسائق، ثم توجّه برفقة زوجه إلى المحطّة. وإذ كان قد وصل حسب عادته قبل موعد القطار بكثير فقد اشترى صحف الصباح وجلسا كلاهما على الرصيف. وشرع يتصفّح الجرائد في حين تركت دورا بصرها يسرح خلال السكك الحديدية. كانت شمس باردة تتلألأ فوق حقل أصفر بلون الخردل، وكان الضباب يذيّل أغصان الأشجار الواطئة بعيداً عند الأفق. وكانت أوراق الصيف الغبراء قد تخلّت عن مكانها لمحاسن الخريف المذهّبة، وهي أكثر إثارة لأنها أسرع فِراراً.

كانت دورا قد قضت بقية اليوم السابق في الفراش. وقد بدا الجميع لطفاء معها باستثناء زوجها، بيد أن الاهتمام العام كان منصبّاً على كاترين. فقد بقيت هذه بعد أن أعيدت إلى القصر في حال تدعو إلى القلق. واستدعي الطبيب وبعد أن وصف بعض المهدّئات هزّ رأسه وتحدّث عن فُصام وأشار بمصحّ في لندن. وفي ساعة متأخرة من المساء اتُّخذت، بعد عدّة مداولات وتأجيلات، تدابير لرحيلها بأسرع مايمكن.

وكان پول قد قسم وقته بين دراسة الجرس وتوجيه اللوم إلى زوجته. ومن حسن حظّ هذه وحفاظاً على راحتها كانت أبحاثه قد استلزمت القسم الأكبر من وقته، وبعد أن تلفن إلى أحد زملائه في «البريتش ميوزيوم» اتّخذ

منذ الصباح قراراً بالرحيل إلى لندن في قطار الساعة العاشرة. ولم تسمح هذه العجلة بحزم الأمتعة، واتُّفق على أن تلحق به دورا في اليوم التالي. ومع ذلك فقد حمل معه أكبر الحقائب محشوّة بدفاتر ملاحظاته. ولسوف تتدبّر دورا أمرها بطرود كيفما اتّفق وتستقلّ عند الوصول سيارة أجرة إذا اقتضى الأمر. وأما الجرس نفسه، الجرس القديم، فسيرحل كذلك في إحدى حافلات الشحن المغلقة ليتفحّصه الخبراء.

رأت دورا بطرف عينها أنه كان هناك مقال عن «إمبر» في الصحيفة. ولم تكن راغبة في استطلاع ما يحويه فنظرت أمامها في حين كان زوجها يلتهمه التهاماً بعينيه.

وما هي إلّا أن قال لها وهو يعطيها الصحيفة:

ـ اقرأي هذا.

ـ ونظرت دورا نظرة عجلى من غير أن تعثر أول الأمر على شيء، ثم أجابت:

ـ أجل، فهمت.

ـ قال بول وهو يمسك بالجريدة أمام بصرها:

ـ لا، اقرأي كما ينبغي؛ اقرأي كل كلمة.

وبدأت دورا القراءة. كان عنوان المقال: «بعيداً عن الجمهور الهائج».

«قليلة في تاريخ «الجماعات» العلمانية أو غيرها هي الأيام التي كانت ولاريب خصبة بالأحداث خصب الساعات الأربع والعشرين المنصرمة في قصر «إمبر»، وهو ملكية قائمة في منطقة «غلاوسترشاير» الموحشة التي اعتكفت فيها إحدى «الجمعيات». فقد كان الحدث الأول اكتشاف شخصين يزوران أعضاء «الجماعة» جرساً من العهد الوسيط كان قابعاً منذ عدّة قرون في البحيرة التزيينية المحيطة بالمسكن. ويُفترض أن هذا الجرس قد كان ملكاً للدير المجاور لـ «إمبر»، وهو دير بنديكتي كان ينبغي أن يُقام

twitter @baghdad_library

فيه بمحض مصادفة غريبة جرس حديث الصنع. وتسري شائعة مُفادها أنّه ينبغي أن يُستبدل الجديد بالقديم بطريقة خارقة في أثناء حفلة التعميد المشهودة خارج أسوار الدير. ومع ذلك فإن المعجزة لم تتمّ، وحصل الذين لم يعلموا بالسرّ على مفاجأة من نوع آخر (الحدث الثاني). فقد دعاهم رنين الجرس في غياهب الليل إلى تجمّع في الغابة أشدّ شبهاً بسبت الساحرات منه بالسلوك الموزون المعروف لأعضاء الكنيسة الانغليكانية.

«وكان لا بدّ من حدوث مفاجآت جديدة. وقد بدأ اليوم التالي، يوم الجمعة، بالطقس المألوف من غير أن يكون هناك وجود ظاهر لسَحَرة. فبعد أن عمّد أسقفٌ يعتمر تاجاً «القادمَ الجديد» سار هذا ببطء في استعراض على طول السدّ المهيب الذي يفضي عبر بحيرة «إمبر» إلى أبواب الدير. وقد حصل الحدث الثالث بمباغتة مأساوية. ففي منتصف الطريق انقلب للحال في الماء وغاص. وقادت أبحاث دقيقة لاحقة إلى مواجهة الاحتمال بأن عملية تخريب، لا حادثاً عارضاً، هي سبب الكارثة. وتشير إصبع الاتّهام إلى أحد أعضاء «الأخويّة».

«ومع ذلك فإنه ما كاد هذا السرّ يبدأ بالانجلاء حتى أعقب ذلك حدث ـ أو بالحري كارثة ـ هو الرابع. فقد اضطرب عقل أحد الأعضاء ـ هي انثى هذه المرّة لأن «الجماعة» تضمّ كلا الجنسين ـ وكان ينبغي أن تجتاز قريباً جدّاً السدّ لتصبح راهبة، فألقت بنفسها في البحيرة. ولقد انتشلتها لحسن الطالع سليمةً امرأةٌ تدعى دورا غرينفلد، وهي في زيارة إلى الدير، بمساعدة راهبة خبيرة في السباحة. وإذ ظهرت الأخيرة في ملابسها الداخلية فقد كان منظرها فريداً من نوعه. والمرشّحة للانتحار هي الآن قيد المراقبة الطبية.

«لقد أُنشئت أخوية «إمبر» منذ أقلّ من عام بهدف السماح للدنيويين بالانتفاع من الحياة الدينية مع البقاء في الدنيا. وعندما لايكون اعضاؤها

مشغولين برياضات دينية يقومون بـزراعة حـديقة سبِخَـة. فلماذا كان حـديثاً هذا الانفجارُ المأساوي؟ إن ناطقاً تربطه وشائج وثيقة بـ «الجماعة» يلمّح إلى وجـود انقسامـات، إلى اضطرابـات عاطفيـة، بيد أن أعضـاء الأخـويـة لا يرغبون في ترك المجال للتعليقات، وقد أكّدوا لنا أن الحياة في «إمبر» وادعـة تماماً.

«و«الجماعة» هي حسب تعريفها تنظيم يحكم نفسه بنفسه ولا يخضع لأيّة سلطة كهنوتية محدّدة. ولا يلفظ الأعضاء نَذْراً بالفقر ولا نَذْراً بالعفّة. فَمَن الذي يساندهم؟ مُكتتِبون لوجه الله. وكان ينبغي أن يوجَّـه عمّا قـريب طلب بالتبرع يتيح زيادة عدد المقيمين من الجنسين. وتشغل المؤسسة مسكناً رائعاً يعود عهده إلى القرن الثامن عشر وتحيط به أراضٍ مهمّة».

وسأل پول:

ـ هه، هل قرأتِ بالتمام؟

أجابت:

ـ أجل.

ـ وهلِ أنتِ فخورة بنجاحك؟

ـ لستُ فخورة كثيراً.

ـ لستِ فخورة كثيراً؟ تريدين القول إنك راضية بعض الرضى؟

ـ لستُ كذلك قطّ.

ـ أظنّـكِ تدركـين أنّكِ ربمـا سبّبتِ ضرراً لاسبيـل إلى ردّه لهؤلاء النـاس الممتازين؟

ـ أجل.

ـ مَنْ صاحب الفكرة؟ غيش أم سپنس؟

ـ هي فكرتي.

ـ وتصرّين على التأكيد بأنكِ لم تتدخّلي قط في ما حدث للجرس الجديد؟

twitter @baghdad_library

ـ كلّ الإصرار.

ـ أتساءل لماذا أطرح عليكِ هذه الأسئلة ما دمتُ لا أصدّق مطلقاً ما تقولين.

ـ أوه! كفى يا پول.

كانت عيناها مغرورقتين بدموع حاولت حبسها.

واستطرد زوجها قائلاً:

ـ لست أفهمك. بدأتُ أتساءل عمّا إذا لم تكوني مختلّة عقلياً. ربما كان من الخير أن تستشيري طبيباً نفسانياً في لندن.

ـ لا أريد رؤية أيّ طبيب نفساني.

ـ ستَرَيْن واحداً إذا أنا قرّرتُ ذلك.

سُمع من بعيد صوت القاطرة. والتفتا معاً ونظرا إلى السكّة. وظهر القطار على مسافة منها. وتوجّه پول وحقيبته في يده إلى طرف الرصيف.

كان هناك بعض الحركة في فِناء المحطّة. ونظرت دورا فرأت اللاند روڤر وهي تتوقّف جانباً. ونزل منها مارك ستراڤورد وزوجته والأخت أورسول وكاترين وتوبي. وصفر القطار وهو يدخل المحطّة.

انشغل پول بإيجاد مقصورة خالية من مقاصير الدرجة الأولى بمقعد قائم في الزاوية بمواجهة المِرقاة. وكانت السيدة مارك تُسند كاترين على الرصيف تواكبها الأخت أورسول، في حين هرع مارك وتوبي إلى شبّاك التذاكر. وإذ رأت مارغريت دورا فقد قادت كاترين في الاتّجاه المقابل. ولحق ستراڤورد بزوجه ليعطيها تذاكرها. وبرز توبي فلمح هو أيضاً دورا فحوّل بصره وعاد أدراجه وصعد إلى أقرب حافلة وهو يلوّح بيده في لطف. ووجد مارك وزوجه مشقّة في إيجاد مقصورة مناسبة لحال كاترين. ودفعتها السيدة مارك إليها ثم جلست فيها هي أيضاً وأغلقت الباب. وأخذت الأخت أورسول

التي بقيت على الرصيف تكلّمها من النافذة وهي تبتسم. وإذ كان مارك قد عاد أدراجه للبحث عن توبي فقد اكتشف مكانه وتسلّق المرقاة وأخذ يحدّثه.

بعد أن وضع پول امتعته فتح النافذة وانحنى نحو دورا مقطّب الحاجبين. وكرّر لها أنه سينتظرها غداً في حوالي الساعة الثالثة في «نايتسبردج».

وأجابت دورا:

ـ سمعاً.

ـ هل فهمتِ جيّداً تعليماتي بشأن الطرود؟

ـ نعم.

قال:

ـ حسناً، إلى اللقاء. لن أمثّل مهزلة تقبيلك.

قالت:

ـ أرجوك يا پول، لا تكن كريهاً إلى هذا الحدّ. (كانت الدموع تسيل على خدّيها) قل لي شيئاً لطيفاً قبل أن تغادرني.

نظر إليها پول نظرة باردة جدّاً وقال:

ـ الحقّ أنّكِ تريدين أن أواسيكِ لأنّكِ في ضيق. ولكن حين رجعت في آذار (مارس) الماضي إلى البيت واكتشفتُ أنك تخلّيت عني، هل كان هناك أحد «لمؤاساتي»، قولي لي؟ فكّري فقط. أوه، لا، لاتلمسيني فلست منجذباً قطّ بدنياً إليك في الوقت الحاضر. حتى إني لأتساءل عمّا إذا كنت سأكون مجدّداً كذلك في يوم من الأيام.

صاح الساعي الذي لا بدّ أن يكون قد ذهب مرة إلى پادنغتون:

ـ أغلقوا «جميع» الأبواب من فضلكم.

twitter @baghdad_library

قفز مارك من فوق المِرقاة وأغلق الباب وانفجر ضاحكاً من جرّاء حديث كان قد وجّهه قبل قليل إلى توبي.

قالت دورا:

ـ پول، إني آسفة جدّاً.

أجاب:

ـ هذا أبعد بكثير من أن يكون كافياً! أنصحكِ بأن تفكّري بأكبر قدر من الجدّ، إذا كنت تستطيعين على كل حال.

بحث في جيبه عن شيء وقال:

ـ إليكِ شيئاً في مقدورك التوقّف أمامه مليّاً. أعيديه إليّ في لندن فهو لا يفارقني على الإطلاق.

مدّ إليها يده بمغلّف، وأُطلقت الإشارة فبدأ القطار بالتحرّك.

رفع نافذته على الفور واختفى. وظلّت دورا في مكانها تنظر إلى الحافلات وهي تمرّ الواحدة إثر الأخرى. ورأت توبي معتدلاً في زاويته مكفهرّ الوجه كئيباً. وإذ مرّت الحافلة فقد لوّحت بيدها، بيد أنه تظاهر بعدم رؤيتها! وكانت المريضة والسيدة مارك جالستين في إحدى الحافلات الأخيرة، وكانت سرعة القطار قد ازدادت. وقد تمكّنت مع ذلك من رؤية مارغريت التي كانت عيناها مسمّرتين في كاترين؛ ونظرت هذه إلى دورا نظرة متفرّسة حزينة مُبهمة وعيناها نصف مغمضتين، ثم غابتا عن بصرها.

اتّجهت دورا إلى المخرج، ووصل مارك والأخت أورسول في الوقت الذي وصلت هي فيه إلى الردهة. وقبل أن ينطلقا التفتا وابتسما. وكان واضحاً أنهما عاجزان عن تقرير ما إذا كان عليهما أن يدعواها للانضمام إليهما. وغابا، وسمعت دورا صوت دوران المحرّك ببطء. ربما كانا ينتظران أن تأتي.

عادت إلى الجلوس ونظرت مرة جديدة إلى الحقل الأصفر بلون الخردل، وفي البعيد إلى الأكواخ الشاحبة والأشجار التي كانت شبه عارية. وكان الضباب قد انقشع تقريباً، واستمرّ المحرّك يدور دوراناً بطيئاً. وأخيراً زاد دورانه وسمعت صوت العجلات يصرّ فوق حصى الفِناء. ومضى الهدير متناقصاً على الطريق.

نهضت وغادرت المحطّة القائمة عند مخرج القرية مباشرة. ورأت درباً أجوف مليئاً بالأجم يتعرّج خلال الحقول. وأما الموصل إلى «إمبر» فلم يكن يبدأ إلّا أبعد من ذلك. وتردّدت متسائلة عمّا إذا كان عليها أن تقطع المزلقان وتنفذ إلى القرية. ولكنّها لم تكن تدري إلى أين تذهب لأنه لا يمكن أن يكون المقهى قد فتح أبوابه بعد. وانعطفت إلى رواق السكّة المظلم. وكانت أصوات القطارات والسيارة قد اختفت؛ وكانت وشوشة ساقية صغيرة غير مرئية هي وحدها التي ترافق خطوها. كانت تمشي ويداها في جيبيها فشعرت في أحدهما بالمغلّف الذي عهد به زوجها إليها. واستخرجته بتخوّف متأكّدة من أنه لا بدّ أن يكون كريهاً. وفتحته مع ذلك.

كان في المغلّف رسالتان موجزتان بخطّ يدها. وكانت الأولى تعود في تاريخها إلى بدايات خطوبتهما ونصّها التالي: «عزيزي، «عزيزي» پول؛ كانت الليلة الماضية رائعة جدّاً، وكان عذاباً كاملاً أن أتركك! كنت مستلقية عاجزة عن النوم، وكانت صورتك تقضّ مضجعي. لم أستطع الانتظار حتى هذا المساء. فذهبت إلى المكتبة أكتب هذه الكلمة. وإنه لاحتضار أن أكون بعيدة عنك، بيد أنه لرائع جدّاً التفكير في أننا لن نلبث في النهاية أن نجتمع قريباً. وفي انتظار أن أكون معك دائماً أيها العزيز الغالي پول فإني إلى الأبد، إلى الأبد، إلى الأبد، دورا التي تحبك».

وما إن قرأت هذه الرسالة بانتباه شديد حتى وجدت في الأخرى ما يلي:

twitter @baghdad_library

«پول، لم يَعُدْ في وسعي تحمّل الأمر. لقد كان في الأيام الأخيرة فظيعاً جداً، وفظيعاً جدّاً بالنسبة إليك أيضاً. وعليه فإني أرحل، أتركك. لم أَعُدْ أستطيع البقاء، وأنت تعرف جميع الأسباب الداعية إلى ذلك. أعرف أني حقيرة، وأن الذنب كلّه ذنبي، ولكني لم أَعُدْ أطيق، أكرّر، ولا أستطيع بعدُ البقاء. اغفر لهذه الكلمة المفككة. وعندما تقرأها أكون قد رحلت. لا تحاول إرجاعي ولا تهتمّ بما تركت من أشياء. لقد أخذت ما احتاج إليه. دورا.

«ملاحظة: سأكتب إليك مجدّداً فيما بعد، ولكن لن يكون لديّ شيء آخر أقوله لك».

كانت تلك الكلمة التي تركتها في «نايتسبردج» في اليوم الذي رحلت فيه. وإذ جاشت نفسها فقد أعادت قراءة الرسالتين ثم طوتهما واستأنفت سيرها. وهكذا كان پول يحملهما في محفظته، وكان يودّ استعادتهما لتخبئتهما فيها من جديد. الغلطة غلطته! لقد مزّقتهما إرباً وذرتهما على طول الأجمة.

الفصل الخامس والعشرون

لم يحصل مايكل منذ أحداث الليلة الماضية على لحظة راحة واحدة. فقد استدعى الطبيب لفحص كاترين. وتحادث معه عند وصوله، وعند رحيله، ولدى زيارته الثانية. وكان قد قضى برهة بقرب سرير المريضة مع مارغريت سترافورد؛ وكانت له مقابلة مع الأسقف، وواكبه إلى سيارته بأقصى ما يمكن من إجلال في مثل هذه الظروف. وكان قد فحص بمساعدة بيتر ألواح الخشب واكتشف أن اثنين من الحوامل كانا قد نُشرا بالعرض فوق مستوى الماء مباشرة. وكان قد اتّفق بالتلفون مع شركة قبِلت أن تأتي على الفور لإصلاح الخراب واستعادة الجرس الساقط في البحيرة. وكان قد وجّه اسئلة إلى رئيس العمّال الواصل باستعجال مذهل. وأجاب عن بضعة وعشرين نداء لممثّلي الصحافة وتحدّث إلى نصف دزينة من كتّاب الريبورتاج والمصوّرين الذين كانوا قد تدفّقوا على المكان. وكان قد ذهب لرؤية دورا واتّخذ القرارات اللازمة بشأن كاترين.

وفي النطاق الذي أُتيح له فيه التفكير في هذا النهار المحموم انصرف تفكيره إلى كاترين. فقد فوجيء أشدّ المفاجأة بمشهد البحيرة إلى حدّ أنه كان عاجزاً عن إعادة تأليفه بكلّيته. فلقد كان مَهُولاً مصدوماً مُفزَّعاً، وكان مع ذلك رؤوفاً. وكان قد عانى، خلافاً لرغبته، شعوراً بالنفور، وارتعد على التوالي لتذكّر الاندماجات التي كان ضحيّتها الصامتة المذهولة. ومع ذلك فإنه كان يؤاخذ نفسه على أنه لم يخمّن، لم يحاول أن يخمّن ما يجري في

twitter @baghdad_library

الحقيقة في ذهن الشابة المتحمّسة. وأما الآن فماذا كان في وسعه أن يفعل أمام الأمر الواقع؟ وأية مساعدة يمكن حملها إليها سوى الدعاء؟

لم يكن يدري ما يفعل، وخيّل إليه أن العبارات المألوفة كانت غير صالحة. وكان يقدّر، من غير حتى أن يدرك، أنه ما من سبب يجعل كاترين لا تتعلّق به تعلّقها بأي واحد سواه، ويرى، وهو يحكم بأنه لا جدوى قطّ من هذا التعلق، بأن اختياره على هذا النحو هو مع ذلك امتياز من الامتيازات. وتساءل عمّا إذا لم يكن من الأفضل - نظراً لظهور علامات اختلال واضحة على الطفلة المسكينة - أن يقدّر أنّه يمكن اعتبار هذا الحب، بوجه من الوجوه، وكأنه غير موجود.

كانت حالها الحاضرة مثاراً لهمّ مقيم. فقد أمضت الجزء الأكبر من النهار في سُبات، ثم إنها ما إن استيقظت حتى أخذت تنتحب وتبكي وتكلّم مايكل، سواء كان حاضراً أو لا، متّهمةً نفسها بجرائم مختلفة لن تتوضّح قطّ، هاذيةً بشأن الجرس. وإذ أخطر الزوجان سترافورد «نيك» فقد هرع إلى قربها مُذْ أعيدت إلى غرفتها. وكان الطبيب قد وصل، وكان عليه أن ينتظر ذهابه. وعندما سُمح له بالدخول جلس صامتاً عند سرير أخته وهو ذاهل لا يدري ما يقول. وتشبّثت في شبه لاوعي بكُمّه موجّهة إليه مع ذلك كلاماً معقولاً بشأن فتح النافذة أو إغلاقها، أو بشأن تسوية مخدّاتها. ولقد كان بلاريب جزءاً كبيراً من كِيانها بحيث يكون في هذا الظرف إما سَنَداً وإما خَطَراً. وأمضى القسم الأكبر من النهار معها لا يفارقها إلا حين تغفو أو لدى دخول زائر. وعندها كان يذهب إلى الحديقة التي قرب البيت فيذرعها جيئة وذهاباً، مضطرباً على ما يبدو، غير موجّه حديثاً إلى أحد، ولم يكن أحد على كل حال يملك، في التشويش الذي ساد هذا النهار، من الوقت ما يسمح له بمحادثته. وقد مرّ به مايكل عدّة مرّات، وهمس له في أول فرصة أُتيحت له بعض كلمات العزاء، وأمّا أن يكلّمه فأمر فظيع، إذ

كانت كاترين ممدّدة بينهم وكأنّها جثّة. وهزّ «نيك» رأسه من غير أن يُجيب وأكمل طريقه.

كان الليل قد تقدّم عندما سوّيت الترتيبات لرحيل المتحمّسة الشابة إلى مستشفى لندني خاص تُدخِلها السيدة مارك إليه وتذهب للإقامة عند أصدقاء يكون سكنهم أقرب ما يكون منه لعيادتها يومياً، هذا إذا بدا الأمر مستحبّاً في نظر الأطباء. وقد وعدت بأن تتلفن إلى «إمبر» بانتظام. وعندما تبيّن أن ذلك سوف يكون الحلّ الأجدى لكاترين شعر مايكل بارتياح عميق لأنه كان يرغب أكثر ما يرغب في أن تتمكّن من الرحيل وأن يُعهد بالإشراف عليها إلى آخرين. فقد كان وجودها بقربه يملأه في آن معاً خوفاً وإحساساً بالذنب غامضاً، ولكنْ مهدِّداً وكأنه استنطاق غير مكتوب.

وإذ سقط في فراشه خائراً فإنه لم يلبث أن فكّر في تصديعات أخرى من شأنها تأخير النعاس المُصْلِح. فمنذ صباح غد ستكون «إمبر» عنواناً بارزاً في الصحف. ومهما تكن الطريقة التي ستقدّم بها القصّة فإنه ما كان ليتوهّم الأوهام بشأن مصير «الجماعة» عمّا قريب. فلسوف تكون الدعوة في الحال للاكتتاب مستحيلة بعد هذه السلسلة من الكوارث. ومع قبوله بأن التنظيم لم يكن قد تلاشى برمّته في الوقت الحاضر فإنه كان متمسّكاً بالاحتراس من أيّة مفاجأة. وسوف يُبدي الزمن ما يمكن إنقاذه، ولم يفقد هو كلّ أمل. ومع ذلك فقد كان شاغله الأساسي الآن، وقد توصّل إلى صرف ذهنه عن التفكير المضني في أمر كاترين، هو التفكير الذي لا يقلّ ضنى في أمر «نيك».

كان پيتر توپغلاس أوّل من شكّ في أنّ سقوط الجرس في البحيرة لم يكن حادثاً عارضاً. وقد انصرف بنفسه إلى إجراء تحقيقات شخصية، ثم لفت نظر مايكل إلى أنه كان قد مورس عملٌ ما على الحوامل الخشبية. ومع أنه لا هو ولا رفيقه نقلا إلى أيّ كان أمر هذا الاكتشاف فقد بدا أن الصحافيين

twitter @baghdad_library

حَدَسوا به. وقد فوجيء مايكل بما أراه بيتر، ولكنّه بات، وقد اقتنع بأن الحادث لم يكن وليد الصدفة، متأكّداً من هويّة المسؤول عنه. بل إنه حَدَس بالدوافع التي وجّهت خطى مفتعل التخريب، أي بدوافع «نيك»، فإذا كان قد أراد بهذا العمل، كما هو محتمل، معارضة أخته في تلبية نداء الدير فإن نجاحه كان ولاريب أكبر ممّا توقّع.

ما إن استحوذ عليه التفكير في أمر «نيك» حتى حال تماماً بينه وبين استعادة رشده. وفي نحو الساعة الثالثة صباحاً غادر فراشه للذهاب إلى الجناح. وتمالك نفسه، بيد أنه عزم على لقائه في ساعة مبكّرة من اليوم التالي. وأحسّ بشيء من الارتياح ـ من السرور المكتوم تقريباً ـ أن كوارث الأيام السابقة كانت قد فتحت له، إذا جاز التعبير، الدرب الذي يفصله عن صديقه. وخُيّل إليه من آونة إلى آونة أنها كانت منذورة لهذه الغاية. فامتلاكه بعد الآن، بطريقة في مثل هذه المأساوية، أي إمكان النظر إليه على أنه مجرم ويائس معاً يجعل تحطيم الحاجز القائم بينهما أمراً لا مفرّ منه. وإذ كان الآن يدعو لأجْله فقد أحسّ مرّة جديدة إحساساً قدسياً بأن الله يعينهما كليهما، ولكنّه يُعينهما بطريقة غير مفهومة على ملعب منافعهما المتبادلة المعقّد. لقد بات إذن يعلم أنّ «عليه» أن يهتمّ بصديقه. وكان ينبغي في مثل هذا الوضع أن يؤدّي دوره بحذافيره نظراً لأنّه ليس له غيره في «إمبر». إن أيّ سوء لا يمكن أن ينجم بعد هذه المأساة المريعة، وقد بدا له واجبه في الكلام بصراحة أمراً طبيعياً. ومع ذلك فقد تساءل بارتباك عمّا إذا لم يكن الشعور الذي يعتبره حقّاً كذلك شعوراً آخر مقيماً في ذاته منذ مدّة. ألم يكن قد تراءى فقط لعينيه؟ وفضّل ألا يغوص في ذلك، ومالبث أن أطمأن سعيداً بهذا القدر من الرؤى، وغاب في سُبات لذيذ.

بدأ الصباح التالي ببرنامج مثقل بالهموم والتعقيدات. فقد عهد مايكل بتنظيم رحيل كاترين إلى عناية الزوجين سترافورد يعاونهما جيمس، ولم

ينفكّ هو مشغولاً بمكالمات تلفونية شتّى بما في ذلك اتّصال من الأسقف. فإذ كان هذا قد قرأ الصحف فقد عبّر عن رغبته في كتابة رسالة إلى «التايمس» لتصحيح بعض ما جاء من تفسيرات مغلوطة للوقائع. وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة قبل أن يجد وقتاً لمغادرة مكتبه. وإذ تمكّن أخيراً من الخلاص فقد نزل واجتاز السُطيحة. وكان «نيك» قد رفض مرافقة أخته في سفرها، وكانت مارغريت سترافورد قد أمسكت عن الإلحاح لاقتناعها بأنه من الخير أن تبتعد الأخت عن أخيها في الوقت الحاضر. وقد قال مع ذلك، ولو بعبارات غامضة، إنه لن يلبث أن يلحق بها. وعليه فقد كان مايكل يؤمّل أن يجده في الجناح أمام زجاجة الويسكي. ولم يكن يتصوّر أنه جدير باستمداد الطاقة اللازمة لمغادرة «إمبر» سريعاً.

وإذ وصل إلى السُطيحة ملاحظاً مدى زرقة السماء ودفء الصبيحة ولمعان الشمس فقد خامره أمل غامر بأن ما مرّوا به من أحداث شنيعة سوف يمّحي من أذهانهم. ولسوف يكون كل شيء على ما يُرام. وانضمّ إلى هذا الشعور شعور بتدخّل العناية الإلهية التي عرف فيها مرّة أخرى، بلاريب ولا حَصر، مزيجاً من حبّه القديم لـ «نيك» والفرحة الحقيقية بأن يكون من جديد في الطريق الموصل إليه.

قال سترافورد من خلفه:

ـ أوه، انتظر لحظة يا مايكل.

توقّف والتفت فرأى مارك منحنياً فوق الشرفة.

ـ يودّ جيمس رؤيتك. إنه في مكتبه.

استدار مايكل على عقبيه، مع أنه لم يكن راغباً في رؤيته الآن. وإذ كان مدفوعاً بردّ فعل شبه تلقائي فقد قرّر تلبية دعوته. وعاد أدراجه. وفكّر وهو يرقى الدرج المفضي إلى مكتب رفيقه في مدى وقاحة الطريقة التي استدعاه بها. فعندما كان هذا يرجو مقابلته كان يبحث عنه في العادة بنفسه

twitter @baghdad_library

زاعقاً، تاركاً عمله معلّقاً إلى أن يجده. وإذ بلغ الباب فقد قرعه ودخل.

لم تكن الحجرة كبيرة، وكانت عملياً خالية من الأثاث. وكانت مائدة مآدب من خشب السنديان تقوم مقام طاولة للكتابة. وكان عند كل طرف من طرفيها كرسيّ من كراسي الحدائق ذات القماش الرخيص. وكانت رسائل وأوراق مكدّسة في علب على الأرضية الخشبية. وقد علّق صليب على الحائط خلف المكتب. وكانت الأرضية نظيفة وخلِواً من أي سجّادة، والسقف مخطّطاً بالشقوق؛ وكانت شمس الخريف تُرقِص فيها غباراً ثرّاً.

عندما دخل مايكل كان جيمس جالساً خلف مكتبه وهو يجيل يديه في جانبي شعره الأسود المشعّث. وجلس مايكل قبالته، في حين كان صديقه يغوص في مسند كرسيه القماشي الذي انتفخ تحت وطأة وزنه.

وسأل مايكل:

ـ هل تمّ رحيل كاترين على ما يُرام؟

أجابه جيمس: «أجل»، وكان يتحاشى النظر إلى عينيه ويلعب بأشياء موضوعة على مكتبه.

قال مايكل، وكان مشغول البال نافد الصبر:

ـ رغبتَ في رؤيتي يا جيمس؟

أجاب جيمس:

ـ أجل.

وأعاد الأشياء إلى وضعها الأول وقال:

ـ إنني متضايق يا مايكل. الأمر صعب جدّاً.

ـ ماذا يجري؟ تبدو مضطرباً. هل حدث جديد؟

ـ هيه. نعم ولا تعلم أني عاجز عن المواربة، وأنت لا تريد ذلك، على ما أظنّ. لقد قصّ عليّ توبي كل شيء.

نظر مايكل من النافذة. لقد خامره من جديد شعور غريب بـ «سبقت رؤيتُه». أين حدث ذلك من قبل يا تُرى؟ وبدا في السكون الذي تلا أن العالم يتصدّع على مهل من حوله، وأن مظهره بقي هو إيّاه، ولكنّه الآن على أهبة التلف. وما كان للكارثة أن تُدْرَكَ بمثل هذه الطريقة المحسوسة.

كانت الكلمات الأولى التي قالها:

ـ وماذا قال لك؟

قال جيمس:

ـ أوه، تعرف، الذي حدث بينكما. إني متضايق حقّاً.

رفع مايكل بصره إلى الصليب، فلم يكن قد تمكّن بعدُ من النظر إلى جيمس.

وكان شعور بالسخط يرافقه بشكل غريب إحساس بانهياره التام قد أبقاه هادئاً متعقّلاً. قال:

ـ أمور قليلة جدّاً هي التي حدثت.

أجاب جيمس:

ـ إنها وجهة نظر.

دوّى صوت طلقة نارية في البعيد فانصرف ذهن مايكل بذعر إلى پاتشواي وحماماته. ومع ذلك فقد كان العالم الواقعي بعيداً جدّاً بعد الآن. وتساءل عما إذا كانت هناك طريقة ما يقدّم بها إلى جيمس روايته الشخصية. وخلص إلى أنه ليس هناك من طريقة. فقد كانت الأعذار كالتوضيحات خارجة عن الموضوع؛ وعلاوة على ذلك فإنه كان بلا أعذار. قال:

ـ حسناً جدّاً. لقد علمت شيئاً ما بشأني، فماذا علمت؟

كرّر جيمس وهو يدعك من جديد الأشياء التي على الطاولة ويُعيد وضعها ليتأمّل يديه:

twitter @baghdad_library

ـ إني منزعج بشكل رهيب.

كان مايكل ينظر الآن إليه. فعلى الرغم من مظهر الحجرة الـزنزاني فـإن جيمس العزيز لم يكن يتمتّع بديباجة «كبير المفتّشين». وكـان من الممكن أن يستمدّ معظم النـاس غيره من ذلـك البَوْح فضـولاً أو سروراً. وأما جيمس فـلا: وإذ كان يـلاحظ ما يـرتسم على وجهـه من عـلامـات الألم والضيق، ويراقب ما هو فيه من اضـطراب، فقد تخيّـل للحظة الكيفيـة التي لا بدّ أن يرى بها صديقه أَبْعادَ عدم توازِنه والميـل الشاذّ المثير الذي كُشف لـه عنه. كان على حقّ بالطبع. لقد حدثت أمور كثيرة.

ـ متى أسمعك توبي هذا الاعتراف؟

كان يجهد في الاحتفاظ بهدوئه، وفي التفكير في أمر توبي أكثر ممّا في أمـره هو، في التفكير في أمر ضحيّته.

ـ الليلة قبل الماضيـة. لقد جـاء لمقابلتي في غـرفتي بُعيْد السـاعة الحـادية عشرة. وكان قد هام طويلاً تحت المطر، وكان مضطرباً بشكل رهيب. وقد تحدّثنا ساعات. كما أنه أخبرني كل شيء عن الجرس، أعني الجرس الآخر، وعمّا خطّطه هو ودورا، وعن الطريقة التي انتشلاه بها من البحيرة. ولكننا لم نناقش الأمر حتى الساعات الأولى من الصبيحة، فقد تكلّمنا طويلاً عنك.

قال مايكل وقد تزايدت رقعة السخط:

ـ إنه للطف عظيم منك. وماذا قلت لتوبي؟

ـ كلّمته بكثير من الجدّ.

كان الآن ينظر إلى مايكل نظرة متسائلة، وأضاف:

ـ أظنّ أنـه تصرّف تصرّف معتوه، بـل أساء بـطريقة مـا إلى دورا وإليك، وقـد أوضحت له ذلـك. ولا بدّ لـوجه الحقّ أن يكـون قد استـاء من نفسه استياء شديداً ليتّخذ هذا القرار الصارم. وعليّ أن أقول إني أرى إقدامه على فعل ذلك صائباً بقدر ما هو مثير للإعجاب. ولقد أرفقه بكـل الجدّيـة التي

تستحقها هذه الحالة. ولو كان غير ذلك لكان الأمر تافهاً جدّاً.

سأل مايكل:

ـ وأين هو الآن؟

ـ أَعَدْتُه إلى منزله.

قفز مايكل من فوق مقعده. وكانت به رغبة في الصراخ، في الضرب على الطاولة. ومع ذلك فقد قال بهدوء:

ـ إنك لغبيّ غبيّ.

وذهب إلى النافذة وقال:

ـ متى رحل؟

قال جيمس:

ـ هذا الصباح. أرسلته في أول قطار. لقد التقطته السيارة التي كانت تقلّ كاترين عند الجناح. آسف لأني لم أتمكّن من التحدّث إليك بكل هذا أمس، لكنّ كثيراً من الأحداث المؤلمة كانت قد حصلت. وكان عليّ أن أتّخذ قراراً. ورأيت من الأفضل ألاّ يراك مجدّداً. لقد كان يعاني إحساساً واضحاً بأنّ الأمر ـ كما تعلم ـ نوع من فوضى ذميمة، وحاول بوضوح أن يجلو مدى قذارته. وقد قدّرت أنه من الأفضل إبعاده في الوقت الذي كان يشعر فيه نوعاً ما بأنه رجع إلى درجة معيّنة من البراءة. ولو بقي لكان حدّثك وعاد إلى السقوط في الوحل، إذا كنت تفهم ما أريد أن أقول.

أخذ مايكل ينقر النافذة نقراً خفيفاً بأصابعه. لقد كان جيمس على حقّ تماماً في أن يفكّر على هذا النحو. ولكنّ قلبه كان يتألم بشدّة لتوبي الذي أُعيد حاملاً مثل هذا الحمل من الاعوجاجات، مثقلاً بشعوره بالذنب، مقذوفاً به بفعل احتفالية رفيقه بين لوالب الخطيئة والندم اللذين قد لا يملك القدرة على التعامل معهما. لقد كان هذا من شيمة جيمس؛ وقد تصرّف بشكل طبيعي جدّاً وبلياقة، ولكن بعدم إدراك أيضاً. فهو بإعادته

twitter @baghdad_library

توبي قد حفر الأمر في ذهنه على أنـه مريـع. وربما كـانت أية وسيلة أخـرى لإنهاء القضية أفضل من هـذه. ومع ذلـك فإنـه لم يكن مقتنعاً تمـاماً، وهـو يفكّر في الطريقة التي كان سينهي بها هو الأمر، بأن طـريقته كـانت ستكون أسمى.

سأل جيمس:

ـ لماذا أنا مغفّل؟

ـ لم يكن من حـاجة إلى إطـلاق اللعنة بمثـل هذه الاحتفـاليـة. إن اللوم الحقيقي يقع عليّ. وبـطردك توبي غـرستَ فيه الشعـور بأنـه مجرم وحـوّلتَ القصّة بكلّيتها إلى كارثة مريعة.

ـ لا أفهم لمـاذا لا يتحمّل نصيبـه من المسؤولية. لقـد بلغ من العمر مـا يكفي.

أشاح مايكل بوجهه صوب البحـيرة ثم حطّ ببصره على الخميلة الكبـيرة باتّجاه الجناح، وقال:

ـ أتساءل لماذا عنّ له فجأة أن يعترف لك؟

ـ ولماذا لم يكن ليفعل؟ كان فريسة للقلق. وأظن على أي حـال أنه قـرّر ذلك فجأة بعد حديث وجّهـه إليه نيـك فاولي. ويبـدو أنّ هذا الأخـير كان على علم بكل شيء، وأنه أخذه عليـه وأقنعه بـالاعتراف بـه إليّ. وفي رأيي أنه الأمر المعقول الوحيد الذي قام به منذ مجيئه.

استمرّ مايكل في النقر عـلى النافـذة. وكان لألاء البحـيرة الخفيف يحرق عينيه. وأخذ يـرجّح رأسـه على الجـانبين وكـأنّه يُعِـين دماغـه على فهم مـا سمع. وكان أشدّ ذهولاً من أن يتكلّم. فهكذا كان «نيـك» يعلم كل شيء عن هذا الموضوع. إن ثأره ما كان يمكن أن يكون أكمل. ولقـد كان إغـواء تـوبي سهـلاً عليـه. وبـدلاً من هـذا أكـرهـه عـلى أن يؤدّي بـالضبط الـدور الذي أدّاه هو نفسه قبل ثلاث عشرة سنة. لقد كان توبي تلميذه في ذلـك.

وقد رجا أن ينقذه ويشهد ضياعه بالطريقة نفسها بالضبط. .

رجع إلى وسط الغرفة وألقى ببصره على جيمس الذي كان قد عاد إلى تخليل شعره بيده في عصبية.

ـ في الواقع أن الأمر كان ينبغي أن يتمّ على هذه الشاكلة. إني آسف إذا بدوتُ غاضباً. أؤكّد لك أني اعتبر نفسي مَلُوماً جدّاً. وليس من حاجة الآن إلى الإيغال أعمق في القضية. بديهي أنني سوف استقيل وأغادر «إمبر».
قال:

ـ آسف لتدخّلي بما لا يرضي، ولكني كنت بالقرب من رصيف الركوب وسمعت ضجّة غريبة صادرة عن الجناح. أظنّ أنه مورفي ينبح بصورة عجيبة، وأتساءل عمّا إذا لم يكن قد حدث شيء تحت.

دفعه مايكل وأسرع ينزل الدرج ثلاثاً دفعة واحدة، وما كاد يضع قدمه على السُطيحة حتى كان ينهب الدرب متقطّع الأنفاس على أثر ذعره الحادّ. وسمع خلفه طرق أقدام الآخرين. وبلغ الجسر الخشبي الصغير قبلهما بمدّة وقفز إلى المركب منطلقاً على الفور. وبدا الاجتياز وكأنه لا ينتهي فيما كان المركب يترجّح ببلادة هنا وهناك مدفوعاً ببطء بالمجذاف الوحيد. وإذ كان يغمسه بوحشية في الماء رأى ببصرِه المتحجّر، كما في مرآة، الشبحين اللذين كان قد خلّفهما على الجانب الآخر. وإذ بلغ أخيراً الضفّة الأخرى فقد قفز سريعاً وسُحب المركب بقوّة باتّجاه البيت.

تعثّر على مرجة العشب وهو لايزال يلهث. لقد بدا الجناح بعيداً إلى مالا نهاية. وسُمع بوضوح نباحُ مورفي، وكان مرعباً. وواصل ركضه، بيد أنه حينما وصل إلى قرب الأشجار اضطر إلى تخفيف سرعته وكبح خطاه إذ بدا أن نَفَسَه ما كان يصل بشكل طبيعي. وكاد يسقط وهو مُكِبٌّ إلى الأمام في هاوية من الغمّ. وكان عليه أن يسير مئة المتر الأخيرة سيراً منتظماً.

twitter @baghdad_library

ووصل. وكان البـاب مفتوحـاً. ونادى «نيـك» فلم يتلقَّ جوابـاً. ووراء الباب توقّف. كان شيء ما ممـدّداً في الخِصاص. ونـظر عن كثب فرأى يـداً مفتوحة. وخطا فوق العتبة.

لقـد انتحر «نيـك» وكان قـد أفرغ بنـدقيـة صيـده في رأسـه. ولكي لا يخطيء هدفه فإنه كان قد وضع بالتأكيد فوهتها في فمه. ولم يكن هنـاك من شكّ، فقد أنجز عمله. واستدار وخرج. وأما مورفي الذي كان واقفاً فـوق الجثمان فقد لحق به وهو يُعْول.

برز جيمس ومارك عند أسفل الجادّة راكضين. ونـاداهما مـايكل. «لقـد انتحر نيك».

توقّف سترافورد وجلس على العشب. واقترب جيمس فألقى نظرة داخل الجناح وخرج. وقال مايكل:
ـ اذهبا وادعُوَا الشرطة، سأبقى هنا.

مضى جيمس متّجهـاً صوب البحـيرة. ونهض مارك ولحق بـه. وحـاول مايكل اجتياز العتبة ولكنه عجز. وظل ينظر بعض الوقت إلى يد صـديقه. لقـد كانت يـداً يعرفهـا جيّداً. وتقهقـر وجلس مستنداً إلى حجـارة الجـدار الدافئة. لقد ظنّ أنه لم يكن بالإمكان أن يكون انتقامه أكمل ممّا كان. وقد أخطأ فالأمر على ما يُرام «الآن». وبدأت تجتاح عينيـه دموع محـرقة وانفغـر فمه وهو يرتجف.

وبقي مورفي إلى جانبه مرتعـداً مُعْوِلاً نـاظراً إليـه. واقترب فـربّت عليـه مايكل بلطف. وتلاشى المشهد.

الفصل السادس والعشرون

كانت عدّة أسابيع قد انقضت منذ حدوث المآسي المتلاحقة التي بلبلت «الجماعة»، وكان جميع أفرادها، باستثناء مايكل ودورا، قد غادروا «إمبر». وكان شهر تشرين الأول (أوكتوبر) قد شارف على النهاية، وكتل مختلفة الألوان من السحاب تتهادى في السماء بلا انقطاع، ولم تكن الشمس تتوهج إلا بين الفينة والفينة فوق مجموعة الأشجار التي اكتست لون النحاس. وكانت الأيام باردة مضبّبة، وحجاب شبه دائم يغطّي البحيرة.

كانت «الرئيسة» وجيمس قد اتّخذا بالتوافق قراراً بتصفية «الجماعة» دون إبطاء. وكان جيمس قد عاد إلى «إيست إند» في لندن، وكان الزوجان سترافورد يأملان في أن يقيما بين ظهراني «جماعة» من الفنانين تابعة لأحد الأديرة في «كومبرلند». وانضم پيتر توپغلاس بعد أن توسّل إليه مايكل إلى فريق من علماء الطبيعيات كان قد أقام في جزر «فيرويه». وكان پاتشواي قد عاد يعمل بلا تذمّر في مزرعة مجاورة. وبقي مايكل وحده بعض الوقت لإجراء التدابير اللازمة، وقرّرت دورا البقاء بقربه.

كانت مارغريت سترافورد لاتزال في لندن بالقرب من كاترين التي كانت، بعد تلقيّها علاجاً مهدّئاً، تظلّ معظم وقتها تحت تأثير المخدّرات. ولم يكن أحد قد تجرّأ بعد على إخبارها بموت أخيها، وبقيت الزيارات ممنوعة.

twitter @baghdad_library

وكان مايكل بانتظام على علم بتحسّن حالها الحقيقي، ولم يكن الأطباء قد فقدوا الأمل في شفائها التامّ.

وبعد أن تردّدت دورا قليلاً أعلنت بوقار وعزم استثنائيين جدّاً أنها ستبقى طالما أمكن أن يشكّل وجودها بعض الفائدة. ولم يكن يبدو أنها منزعجة أكثر ممّا ينبغي للتفكير في أدنى توالٍ للمكالمات التلفونية من الخارج. وفي بادىء الأمر كان كل شخص مشغولاً جداً عن التفكير في الإيحاء إليها بضرورة الرحيل، وانتهى بها الأمر بعد ذلك إلى الظنّ بأنه لا غنى عنها. وكانت تؤمّن الخدمات على الدرّاجة ذهاباً وإياباً إلى القرية وتغسل وتكنس مؤدّية بتواضع مهمّة مزدوجة في القصر. ثم حان الوقت الذي أخذت تقوم فيه بأكثر من ذلك عقب رحيل الضيوف المتتالي. فما إن اصبحت وحدها مع مايكل حتى أخذت تطبخ وتشتري المؤن، بل قامت حتى بوظيفة سكرتيرة. وكانت في البدء ضاربة هزيلة على الآلة الكاتبة، ولكنّها لم تلبث أن تحسّنت حالها جدّاً على المدى الطويل إلى حدّ أنها كانت تكتب جميع المراسلات الجارية وتحرّر البريد بصيغ مختلفة كان هو يقترحها.

كانا الآن وحدهما منذ خمسة عشر يوماً. وكان پيتر آخِرَ من استقال، وقد أدخل هذا الانفصال بالذات الراحة إلى قلب صديقه؛ وأما الآخرون فكانت علاقاته بهم قد أصبحت مؤلمة ومتوتّرة بشكل لا رجوع عنه. فقد كان مارك يعامله بمجاملة خرقاء من غير أن يقدر على الامتناع عن البقاء محقِّقاً وحامياً إلى حدّ. وكان جيمس يلاحقه بنظرة ملؤها الشفقة حتى إنه سُرَّ جدّاً حين عاد إلى لندن. ومع أنه لم يكن يعرف من تفاصيل قصّته أكثر ممّا يعرف مارك فإن خيالها كان قد عمل لأن المسكين بدا عاجزاً عن إخفاء قنوطه عنهما طوال الأيام التي تلت المأساة. وقد فهم من نظراتهما الغريبة أنهما استنتجا من تلقائهما بعض الاستنتاجات، وكان وجودهما في «إمبر» تعذيباً حقيقياً له. وعلى العكس من ذلك لم يكن وجود دورا يجلب إليه أدنى

انزعاج. فقد كانت تسعى إلى أن تكون مفيدة، ولم تكن تعرف شيئاً ولا كانت لتخمّن فوق ذلك، وكانت عاجزة عن إطلاق الأحكام.

ما إن اتّخذت دورا قرارها حتى أدّت دورها بنشاط على الرغم من عجزها في البداية عن الامتناع عن الفِرار إلى القرية من حين إلى آخر.

وفي بداية تشرين الأول (اوكتوبر) تجدّد الحرّ وأفصحت دورا عن رغبتها في تعلّم السباحة. وإذ لم يكن هناك من أحد لتثنيها عن رأيها أو لتوجيهها فقد ألقت بنفسها إلى الماء بجسارة. وعادت وكأنها وُلدت سابحة وهي تعوم بلا وجل. وقد حضر بيتر، ومايكل فيما بعد، حضوراً متقطّعاً ما تبذل من جهود، وقدّما إليها بعض النصائح، وقبل أن يشرف الجوّ المعتدل على نهايته كانت تملك ما فيه الكفاية من ذلك الفنّ.

كان مارك قد خَلَفَ في المطبخ زوجته منذ رحيلها مع كاترين، ولكنّ دورا لم تلبث أن أبعدته عنه وأبدت فيه تفانياً عوّض عن النقص في موهبتها؛ وقد أُشيد بجهودها، وبدا أنها مفتونة بنشاطاتها المتعدّدة. ولكنّ الأيام الوادعة بالنسبة إليها كانت تلك التي وجدت فيها نفسها، بعد رحيل الجميع، وحيدة مع مايكل، مهيمنة بلا منازع ممكن على «إمبر». وقد داخلها سرور خاصّ جدّاً لانعدام كل مبادرة لديه فيما يتعلّق بتدبير المنزل وباحت له بأنها سعيدة كثيراً بأن تطبخ لرجل لا يتصوّر أنّه يمكن أن ينجح خيراً منها. ولقد كانت العناية بالمنزل جيدة نسبياً، والمكتب مرتّباً، وكانت كثيراً ما تطوف بالحديقة لتجمع من زواياها غير المزروعة أزهاراً خريفيّة كبيرة كانت تزيّن الردهة والقاعة المشتركة؛ وكانت إضمامات كبيرة من النجميّات المخضلّة بالندى وزهريات اللؤلؤ والأقاحي العطرة تؤلف باقات تذكّر مايكل بأيام العُطَل في طفولته.

وتعرّى المكان شيئاً فشيئاً. فقد بيعت حديقة الخُضر بحالتها الحاضرة إلى

twitter @baghdad_library

مزارَع من الجوار، ومـالبث قسم كبير من نتـاجها أن حُمِـل. وأخذ الأثـاث يختفي قطعة بعد أخرى من البيت، وعاد بعضه بالشاحنات إلى الذين كانوا قد أعاروه عن طيب خاطر، ودفعت الأخت أورسول بقوّة ببعض آخر فوق عربة يد إلى الدير للعناية بحفظه. وكـان السدّ قـد أُصلح، ورُفع الجـرس الجديد من البحيرة برافعة وأُدخل بـلا احتفال إلى حَـرَم الديـر. ومالبث أن أُقيم حـديثاً في الـبرج القديم وأعلن عن نفسـه لآخر سكّـان القصر برنـين شبيه برنين البلّور ذات صباح عند ساعة الفطور.

خيّم على «إمبر» سلام غير حقيقي. فالفرق بين الأيام لم يكن واضحـاً، والوَجَبات المقـدّمة في أوقـات غير منتـظِمة كـانت تدوم طـويلاً عـلى المائـدة الثقيلة المُقامة في أغلب الأحيان على السُطيحة. وكـانت الصبيحات مضبّبـة وأوقات العصر رطبة ناعمة، وكان السكون ثقيل الوطء في بعض الأحيان. وكانت الليالي باردة والسماء صافية شتوية ملأى بأمـارات الصقيع. وكـانت البوم تنعق قرب البيت، وطيـور الدخّـل قد رحلت. وعنـدما كـان مايكـل يعود من الكنيسة في ساعة متـأخرة بعـد انقضاء النهـار، كان يلمـح وميضاً ضئيلاً على الشرفة ويسمع من ضفّـة البحيرة المقـابلة أنغامـاً لـ«موزار» عـلى الغراموفون، إذ كانت دورا قد أظهرت تحمّساً مفاجئاً للموسيقى.

كـانت قد انعقـدت بينهما عـلاقات محيّرة غير واضحـة أبداً، سـوداويـة بالحري، وإن كانت تحمل إلى مايكل شيئاً من الارتياح، نوعاً من العذوبة. وربما كان هذا الوضع ممكناً لعلمهما كليهما بـأن هذه المـدة ستكون وجيـزة. ومن بين كثير من الموضوعات التي كانت تشغل بال مايكل أنه كان يتسـاءل عن مستقبل دورا، وبعد أن ترك بضعة أسابيع تنقضي أثار سؤالاً لاستطلاع ما إذا كان ينبغي أن تعود إلى لندن أو لا

وأبدت تلهّفاً شديداً للتحدّث إليه في الأمر وشرحت له أنه ما من ذريعة تستطيع جعلها تعدِل عن قرارها بالعيش بعيداً عن پول، في الوقت الحاضر

على الأقلّ؛ وإن لم يكن كذلك فسوف تهرب من جديد. فلم يكن من شكّ في أن زوجها سوف ينغّص عليها عيشها، وأنها لن تتردّد في الخضوع رهبةً أو المقاومة كراهيةً. وبعدُ فقد كانت مقتنعة بأن مردّ قسم كبير من الوضع إليها، وأنه ما كان عليها أن تتزوّجه. وإذ كانت الواقعة قد وقعت فإنها تعلم أنها لن تتمكّن من استئناف الحياة الزوجية إلا حين تصبح مؤهّلة لمفاوضته نوعاً ما مفاوضة النِدّ للنِدّ. ولم تكن تحسّ بأنها مستعدّة لمحاولة تحسين موقعها، في حالتها الذهنية الحاضرة على الأقلّ، بأن تصبح سريعاً أمّاً لولده. وكانت تشعر بحاجة ماسّة ـ وهي الآن تحسّ بالقدرة على ذلك ـ إلى أن تعمل لتعيش، وإلى أن تحصل على استقلالها باكتساب مالم يسبق لها يوماً أن امتلكته،أي النضوج. وشرحت لمايكل بشيء من الغمّ هذه الطريقة في النظر إلى الأمور وهي تحاول تبرير نفسها وتتوقّع بشكل ظاهر أن يحكم بأنّ من واجبها العودة إلى لندن. ومع ذلك فإنه لم يشعر وهو يتعمّق في المشكلة بالاستعداد لتذكيرها بإلحاح بواجباتها كزوجة. وكان يفهم أن وجهة نظره الحالية قد تكون هرطوقية، وأن بصيرته ربما كانت قد ضعفت، وأن حكمه ربما كان غير سليم، ولكنّه كان كلما ازداد تفكيراً ظلّ جدول الحساب على حاله. وعندما قالت له دورا بصوت حطّمه الانفعال إن كل عمل قامت به مع پول كان في نظرها «قُبلة الموت» غمّه أن يتصوّر ما ستكون عليه الحال إذا هي استأنفت الحياة الزوجية. ولقد كان پول حريّاً جدّاً بالشفقة، ولكنّ سلوكه كان سلوك إنسان عنيف مشوّش، وعلى الرغم من أنه ربما كان عليها ألاّ تتزوّجه أبداً فإنه ربما كان عليه هو أيضاً ألاّ يتزوّجها، وهكذا فقد اكتفى بإفهام المرأة الشابة أنها تكنّ مع ذلك لزوجها، بشكل من الأشكال، عاطفة رقيقة، وأنّ كونها زوجته أمر في غاية الأهمّية. وعلاوة على هذا فإنه لأساسي أن تفهم أن پول يطالب بحضورها لأنه مدلّه بحبّها.

ومهما تكن المشاريع المحضَّرة لمستقبلها الفوري فإنّ عليها أن تُهدهد فكرة

twitter @baghdad_library

استئناف الحياة الزوجية فيما بعد إذا كانت لاتزال تشعر على أي حال بالرغبة فيها. وليس للفِرار من قيمة إلاّ إذا استطاعت أن تعثر على طريقة للعيش بكرامة واستقلال، طريقة تتمكّن بها من اكتساب القوّة اللازمة للقدرة على التعامل معه على قَدَم المساواة والتوقّف عن الخوف منه.

وأما كيف يكون هذا النمط من العيش فقد ناقشا ذلك بأكثر العبارات إيجابية. فقد قصّت دورا على مايكل بشيء من روح الدعابة تجربتها الصوفية في الـ «ناشيونال غاليري». وأوحى لها أنها ربما استطاعت العودة إلى الرسم. ووافقت على الرغم من إلحاحها ـ من دون أن تفاجئه ـ على ضآلة موهبتها. ربما استطاعت الحصول على وظيفة تعليمية تترك لها بعض الوقت للذهاب إلى معهد من معاهد الفنون؟ ربما استطاعت استعادة المنحة التي تخلّت عنها يوم زواجها؟ وأشبعا بدقة درس أمر سَكَنها والطريقة التي ستعيش بها. وكان من رأي مايكل ألاّ تعود إلى لندن في الحال. وأعلنت بادىء الأمر أن الحياة في أي مكان آخر تبدو لها مستحيلة، ثم سرعان ما أدركت الفائدة من هذا الحلّ، بل إنها هلّلت له. وإذ بلغت المداولات هذه المرحلة فقد جاءتها من «سالي» رسالة كأنما هبطت عليها من السماء، وفيها تخبرها أنها وجدت عملاً مجزياً كمعلّمة رسم بمدرسة في «باث»، وأنها وضعت يدها على شقّة لائقة جدّاً. وقد سألتها عما إذا لم تكن على صلة بشخص كريم يعرف أحداً يقاسمها شقّتها. وغدا بديهياً في هذه الأحوال أنه كان على دورا أن تلحق بها، وكتب مايكل بعض الرسائل للعثور لها على معونة تمكّنها من إكمال دراستها في تلك المدينة. وعُرض عليها في آن عمل صغير ووظيفة معلّمة في مدرسة ابتدائية. وناسبتها الوظيفة كل المناسبة. وتوالت بين الصديقتين المكالمات التلفونية المفعمة بالفرحة.

لقد دهش مايكل عندما فكّر في الأمر فيما بعد للفعالية التي ساعدها بها على تنظيم مستقبلها القليل التوافق مع نهج الاستقامة. ولعلّ عدم مبالاته

الكامل بها، مضافاً إلى تحرّر فكري غريب ناجم عن وضعه الشخصي، هو الذي دفعه إلى التصرّف تصرّفاً ربما تردّد في أن يتصرّفه في الأوضاع الطبيعية، أو ربما كان تصرُّفه إذّاك مغايراً. وتساءل عمّا إذا كانت نصائحه حكيمة. وممّا لاريب فيه أنه ما كان ليتاح له الوقت للتأكّد من الأمر. ولكنّه كان يظنّ أنه بات يعرفها بعض المعرفة في الوقت الحاضر. وكانت قد استفاضت في البوح له بأسرارها، وكان قد لمح في ما سردته بلا مرارة عن طفولتها غير المرغوب فيها بعض الأسباب الداعية إلى حالتها الراهنة. فلم يكن أحد قد علّمها أن تُعير وجودها أدنى قيمة؛ وكانت تشعر دائماً بأنها حطام إنسان غير مقبول اجتماعياً. وكانت هذه التربية، أو بالحري هذا النقص في التربية، قد جعلتها متواضعة، ولكنّها جعلت منها في الوقت نفسه مخلوقاً متقلّباً نَزِقاً. وكان پول بمطاليبه الاستبدادية واحتقاره المضني ونوبات غضبه أسوأ شريك بين الشركاء الذين كان عليها أن تختارهم. ولم تكن قد فقدت الأمل تماماً في الرجوع إليه، وكان مايكل يتمنّى ذلك أيضاً. ومع اقتناعه الشديد بأن جيمس كان على حقّ في الحكم عليها بصرامة فإنه ما كان ليرى من غير المحتمل أن يكون اندفاعها نحو الشرّ قد قارب نهايته.

وقد اقترحت دورا من تلقاء ذاتها إمكان لقاءات مع «الأم كلير». وقد قابلتها ثلاث مرات وبدت راضية عن زياراتها، بيد أنها تحفّظت بشأن الأحاديث التي وُجّهت إليها. ولقد تحدّثتا بالطبع عن مغامرتهما في البحيرة، وقد كان ذلك اليوم مبدأ إعجاب المرأة الشابة بهذه الراهبة الباسلة؛ لكنهما تحدّثتا على الأخص ـ وقد حزر مايكل ذلك ـ عن مستقبلها، وقد سُرَّ لتمكّنه من أن يعلم أنّ الدير لا يعرقل سير المشروع المرتقب، وأنه لم يقل لها بخشونة أن ترجع بلا إبطاء إلى زوجها. وإذا كان يشعر بضآلة الفرصة في التوصّل طوعاً أو قسراً إلى أن يجعل منها خاطئة نادمة، الأمر الذي كان غريباً جدّاً عن طبيعتها، فربما أصلحت مع ذلك أمرها على طريقتها؛ وربما نجت بالطريقة عينها.

twitter @baghdad_library

وكان أن بدأ يشعر بعد بضعة أسابيع من خلوتهما بأنها كانت مدلّهة قليلاً به. وقد جعله يظنّ ذلك شيءٌ لا يُذْكَرُ في نظراتها وأسئلتها وطريقتها في خدمته. وقد رقّ لذلك على الرغم من أنه كان حانقاً قليلاً، وإن لم يكن متخوِّفاً ولا مُستهجِناً لأنّه كان ممتنّاً لها بأن يدرك أنها لم تكن مخلوقاً في وسعه الإضرار به. وكان هناك ما يشغل ويوئس في هذا الحب الذي كان ولاريب جديداً عليها. وكان مايكل يراقبها بحنان تقريباً، بيد أنه لم يكن يفعل شيئاً للتقليل من بُعد الشُقة بينهما. وكان يُكرِهها على التحدّث عن نفسها متهرّباً برفق من جهودها الخرقاء لحمله على البوح بسرّه سواء بسواء. ولم يكن عقلها المستأمِن الساذج ليشكّ بالطبع في ميوله المخالفة للطبيعة، وعلى الرغم من تخمينه بأنها لا بدّ أن تكون من اللاتي ينظرن إلى اللواطيين باستظراف مثير للاهتمام فإنه لم يكن في نيّته قطّ إعلامها بالأمر. ولم يلبث أن أدرك بعد وقت قليل أنها كانت تتصوّره هائماً بكاترين: كان ذلك أكثر إثارة للغيظ. وكانت تُحنِقه بتلميحاتها الدائمة إلى هذا الموضوع وبزعمها الرغبة المعذِّبة التي لا بدّ أنه يعانيها لكي يراها إلى جانبه. غير أنه رأى من الأفضل ألّا ينزع هذا الوهم من رأسها. وهكذا استمرّا جنباً إلى جنب، ومايكل على علم بأنه يسبّب لها بعض الحزن، ولكنْ مقدِّراً أنّه ربما كان ذلك تسلية لها غير مألوفة، وغير ضارّة بالتأكيد.

وكانت المرأة الشابّة تتفتّح بشكل مدهش لكل هذه الأسباب، ومن جرّائها جزئياً. وقد شعر بذلك في الأيام الأخيرة بعدما أصبح أقلّ انشغالاً في مكتبه. وكان يلقاها كثيراً على ضفة البحيرة أمام حامل لأوراق الموسيقى كانت قد نقلته من الحجرة الكبيرة، وهي منهمكة برسم صور للقصر بالألوان المائية. يا لروعة أن تُرى وهي تصارع على هذا النحو للبقاء! لقد كانت قد اغتذت مثل نهِم بالمصائب التي حلّت بـ «إمبر»، وكانت هذه المصائب قد زادت من جوهرها. وتأمّل بحسد يخالطه بعض الاحتقار هذه

الطبيعة البسيطة المتينة حتى عاد به الفكر إلى آخر صباح عندما ذهب لرؤية «نيك»، وكيف أفاد هو الآخر من المصيبة قبل أن تبلغ منه مقتلاً.

وذات يوم وصلت رسالة من توبي الذي كان الآن ينعم بالإقامة في أوكسفورد. وقد فكّ رموزها بارتياح. وكان يعتذر فيها بعبارات خرقاء عن رحيله العاجل وإذاعته الأسرار التي يرجو ألّا تكون قد سبّبت كثيراً من الإزعاج، ويشكر مضيفه على لطفه ويلحّ على المغزى الذي استفاده من «إمبر»، ويُفصح كذلك عن مدى انزعاجه من استحواذ الصحف على كلّ ما جرى. والذي يُستخلَص بشكل رئيسي من رسالته، وهو ما طمأن مُتسلِّمها، أن القضية كانت قد انتهت بالتأكيد في نظره. ولم يكتشف مايكل أي عَرَض من أعراض شعور مُقلِق بالذنب، ولا أية أفكار كئيبة، ولا أية افتراضات عن حالته العقلية. لقد فاته لحسن الحظ المعنى الحقيقي لما جرى، ولم يكن يعاني بعد الآن من أي فضول رجعيّ المفعول بشأنها. وكان يعيش في عالم جديد ورائع. وكانت «إمبر» قد دخلت عالم الخرافة. وقد وصف له غرفته الجميلة المكسوّة جدرانها بخشبيّات حديثة مصنوعة في «كوربوس» ومزيّنة بيده بصور الجرس العائد إلى القرون الوسطى، وقد قصّها من الـ «ايلستريتد لندن نيوز». وقد أُعجب مديره كثيراً عندما أخبره بالطريقة التي اكتشفه بها! وأمّا مورفي فعلى خير ما يرام، وهو يعيش عيشة راضية في منزل والديه، ولا يُبدي أية حسرة. فيالحسن إلهام بيتر بأن يعهد بحراسته إليه! ولقد آلمته وأحزنته ميتة «نيك» المأساوية التي شقّ عليه تصديق صحّتها. وها هوذا يدعو مايكل - إذا سنحت الفرصة - أن يأتي لشرب قدح في غرفة الطالب التي يقيم فيها.

وابتسم هذا ابتسامة خفيفة وهو يقرأ ذلك وشعر بالرضى عنه. وربما ذهب ذات يوم ليراه ويمنحه المسرّة بأن يحميه قليلاً، وبأن يشرح لأصدقائه، بعد

twitter @baghdad_library

رحيله، أنه كان الشخص الغريب الذي حدّثهم عنه، وأنّه جاء لـرؤيته من المكان الذي اكتشف فيه الجرس.

* * *

كان التفكير في دورا كما في توبي يسبح بين الفينة والفينة في ذهن مـايكل لأنه كان يفكّر بحدّة وباستمرار في صديقه الراحل. وكـان الألم الذي أحسّ بـه عندمـا شاهـد موتـه من العنف بحيث ظنّ أول الأمر أنـه لن يستـطيـع العيش من بعده. ولم يكن يصبرّه في الأيام الأولى إلا الواقع القاضي بـأنّ في مقدوره هو أيضـاً أن يضع مختـاراً حدّاً لحيـاته. ومـع ذلك فـإنه لم يكن من الممكن أن يمتدّ هذا الأسى إلى ما لا نهاية. فهو لم يكن يهتمّ إلا بالأمور التي تتّصل به، ولا كـان يفتح فمـه إلا للحـديث عنـه. وقـد قـام عـدّة مـرّات بتقصّيـات من أسفل الجنـاح إلى أعـلاه بحثـاً عن رسـالـة أو مـذكّـرة مكتب تحتوي على كلمة. ولم يكن في وسعه القبول بأن يكون قد رحـل من غير أن يترك له كلمة. ولم يعثر على شيء. وكان المـوقد مليئـاً بالصحف المتفحّمـة، وربّما كان قد دمّر مراسلاته في جحيم أخيرة. فكل شيء كان قد أُحرق بدقّة وعناية. ولم ينجح تفتيش جديد في إخباره بالمزيد على الرغم من بحثه، وقد فقد الرجاء وأعمته الدموع الفيّاضة، في الخزانة والحقائب، وحتى في جيوب البذلات.

واكتسب حبّـه خلال هـذه المدّة حـدّة شيطانيـة فبلغ الأبعـاد العمـلاقـة لشجرة كبيرة كانت قد نمت في داخله. وكانت تعذبـه أحلام غـريبة تتـوالد بشكل فظيع. وكثيراً ما كانت تمرّ أمام ناظريـه صورة صـديقه، سـواء وهو بعـدُ يافـع، أو متـوثّبـاً في ملعب لكـرة المضرب رشيقـاً متينـاً سريعـاً واثق النظرة. وفي مرّات أخرى كان يتصوّره وقد مات طفلاً، وكان ينمو في نفسه مع هذه الرؤى رغبة بدنية مرهقة تعقبها صبوة مشغوفة تبدو وكأنها نابعة من كل جزء من أجزاء كيانه إلى ضمّه بعدُ بين ذراعيه.

وذهب عدّة مرّات لرؤية «الرئيسة». وإذ كان قد فات الأوان فقد اعترف لها بكل شيء؛ ولكنهما كانا يعلمان كلاهما أنها لا تستطيع له شيئاً على الأطلاق. وقد حكم بأنه كان مسؤولاً عن تلك الميتة كما لو أنه مرّ بالشاحنة بملء إرادته فوق جسده، ولم يكن في وسع «الرئيسة» أن تحاول تخليصه من هذه المسؤولية. وكان يرجع من اجتماعاته بها منحنياً تحت وطأة الندم والأسف المزدوجة بلسعة داخلية ناتجة عن شهوة لم يكن بعدُ يملك أداة التعبير عنها. وهاهوذا يتذكّر الآن مدى اكتشافه عدم الجدوى من الدرس الملقّن سابقاً بأن الطريق كان على الدوام إلى أمام. لقد كان «نيك» بحاجة إلى حبّ، وكان عليه أن يمنحه ما كان يملك منحه من غير أن يخشى سوءاته. ولو كان إيمانه أرسخ لكان تصرَّف على هذا النحو، ولكنّه فكَّر كذلك في أنه كان ولاريب سيّء الإلهام إذ أبدى جرأة أكبر حيال توبي. ومع ذلك فإنه لم يُلحِق به أيّ ضرر، وعلاوة على هذا فإنه لم يكن ليتحمّل حياله المسؤولية التي يتحمّلها حيال «نيك» لأنه لم ينذر له من الحبّ ما نذر لـ «نيك». وكان ينبغي أن يحتوي هوى بمثل هذه الحدّة بعض جراثيم الكمال، شيئاً يمكن على الأقلّ أن يجعل صديقه يتعلّق بهذه الدنيا وهو يحمل إليه بصيص رجاء. وإذ كان مبلبل الخاطر فقد أخذ يُكره نفسه على تذكّر المناسبات التي كان يستنجد به فيها عندما كان في «إمبر»، وكيف أنه كان يتهرّب في كل مرّة منشغلاً بالاحتفاظ بيديه نقيّتين وبمستقبله مؤمَّناً بدلاً من أن يفتح له قلبه. وقد كان عليه أن يكسر بطيش، بحميّة، بعيداً عن كل اعتبار، جرّة المرمر المحتوية على بلسم في غاية النفاسة.

وكان كلما تقدّم الوقت جهد في التفكير بأمر كاترين، كاترين المسكينة النائمة نوماً اصطناعياً في أحد المشافي اللندنية جاهلة باليقظة المريعة التي تنتظرها. لقد كان يفكّر فيها بكثير من الشفقة من غير أن يُوفَّق إلى طرد الرؤية التي كانت قد ثبتت في خاطره. وكان يخشى وصول رسائل تحثّه على

twitter @baghdad_library

المجيء لرؤيتها. فربّما كان قد حكم على وجودها بأنه فضيحة حقيقية منذ اليوم الأول، ربما كان قد أحسّ بالغيرة عندما تحدّث عنها أخوها للمرّة الأولى. وحاول التذكّر فلم يقع إلا على أفكار تتسّم بالعنف، تمنّيه موتها بدلاً من موت أخيها التوأم متخيِّلاً أنها تتحمّل بشكل من الأشكال مسؤولية اختفائه عن وجه الأرض. ومع ذلك فقد استمرّ في الرثاء لحالها عالماً بأنه سيهتمّ بها، ببرودة واكتئاب طبعاً، ولكن حتى آخر يوم من أيام حياتها، وأنه سيحرص على أن تعيش في رغد ورفاه. لقد رحل «نيك» وبقيت كاترين لتُكمل عذابه.

وخفّ القنوط الأول، ووجد من جديد أنه لايزال حيّاً ومتفكّراً. وإذ كان قد خشي بادىء الأمر أن يتألم بشدّة فإنه بات الآن يخشى ألاّ يتألّم بما فيه الكفاية، وألاّ يكون تألّمه بالطريقة المؤاتية. إن القلب البشري يتوصل إلى العثور على بعض الراحة وكأنّه مدفوع بقوة مغناطيسية، ونوبات الندم نفسها تخفّ مع الزمن. ولقد قال مايكل في نفسه إنه لم يكن راغباً في العيش ولا في التأسّي عن انتحار صديقه ـ وكان يرغب في الموت هو أيضاً. بيد أن الموت لا يأتي دائماً في الساعة المرجوّة، وقد تنتهي الحياة بالغلبة وهي تتّخذ قناعها. وحاول أن يجد طريقة للتفكير في ما كان قد جرى من غير أن يعثر على ملاذ ولا على عزاء. بل كان يرفض أن ينسى للحظة واحدة ما حدث؛ وكان راغباً في استخدام فطنته بهذا الصدد. وأخذ يفكّر في أرواح «دانتي» التي ظلّت بمحض اختيارها في النار المطهِّرة. فالندم معناه التفكير في الخطيئة من دون السعي إلى تحويل هذه الفكرة إلى عزاء.

كان قد ظلّ بعد المأساة زمناً طويلاً عاجزاً عن الصلاة. وتصوّر بالطبع أن إيمانه بالله كان قد خمد من مجرّد نفخة، بل اكتشف فجأة أنه لم يكن قطّ يملك أدنى إيمان. وكان مستغرقاً تمام الاستغراق، وبيأس، في التفكير بصديقه بحيث كان يعتبر تحويل ذهنه إلى الربّ تدخّلاً، بل عدم لياقة.

وبالتدريج غدا أكثر لامبالاة ولكن من غير أي عَرَض من أعراض انتعاش الإيمان في صدره. وكان يفكّر في الدين وكأنه شيء بعيد، شيء لم يسبق له يوماً أن فهمه. وتذكّر بشكل غامض أنه كان قد شعر بانفعالات، وقام بتجارب، وأحسّ بالرجاء، بيد أن الإيمان الحقيقي كان مختلفاً تمام الاختلاف عن هذه المشاعر. وانتهى به الأمر إلى فهم ذلك، وأحسّ من غير أدنى حَصر تقريباً باستحالة إدراكه. والنموذج الذي كان قد رآه في حياته عنه لم يكن قد تجسّد إلا في مخيّلته الروائية. وأما عن المستوى البشري فإنه لا يوجد أي مِثال له. «لأنه لمّا كانت السماوات أرفع من الأرض كانت سُبُلي وأفكاري أسمى من سُبُلكم وأفكاركم». وإذ شعر ببعض المرارة حيال تصلّب هذه الأقوال فقد قال في نفسه: «نعم، هناك إله، غير أني لا أومن به».

وفي نهاية الأمر غمره نوع من الطمأنينة شبيه بهدوء حيوان مطارد تكوّم طويلاً على نفسه للاختباء فغاب عن الوجدان في نوع من سلام. وكانت الأيام الرتيبة تمرّ كما في حلم. فما إن ينتهي عمله حتى يجلس في المقصف مع دورا التي كانت تحدّثه عن مشاريعها وهي تشرب عدداً لا يُحصى من فناجين الشاي، فيما كانت تويجات الورود الذابلة تتساقط على الطاولة باعثة رائحة خفيفة ولكنْ مصدِّعة كرائحة الأصص الفاسدة. وكان يراقب المرأة الشابّة التي كانت تستقبل الحياة والسعادة كما تستقبل نبتةٌ قوية الشمس، متمثّلة كل مايقع في متناول يدها. ولكنّه ظل يفكّر مع ذلك في «نيك» محدِّثاً إيّاه إلى ما لا نهاية، مطلقاً تضرّعاً أبديّاً غير ملفوظ وكأنّه صلاة.

وببطء شديد عاوده الإحساس بشخصه وحلّ محل شعوره الكامل المبيد بالذنب رؤية أكثر تمييزاً وأشدّ تعقّلاً. وكان ذلك كما لو أن كثيراً من ذاته قد اختفى. وما كان عليه أن يخشى النماء والازدهار على حساب الكارثة. كان قد تضاءل حجمه. ولم يكن التفكير الذي يصنع أسباب الرجاء والمسوّغات

twitter @baghdad_library

ليحمل إليه أيّ بلسم. وكان يفكّر ببلادة في ميوله المخالفة للطبيعة وفي أخطائه المنكودة. ولسوف يكون كل ذلك مُثْقَلاً من جديد ذات يوم ولاريب بنتاج واسع، وسيجهد مرّة أخرى في اكتشاف الحقيقة؛ كما أنه سوف يمتحن مجدّداً ذات يوم، عاملاً بقلبه، ذلك الإسقاط المتواصل لكائن بشري على آخر. وكان يُدرك ذلك بشكل غامض متسائلاً عما إذا كان سيفعل بشكل أفضل في تلك الآونة. وقد كان ذلك قليل الأهمية جدّاً! فما كان شيء ليستطيع محو الماضي.

ولم يَقُدْه أي إحساس حادّ بحاجاته الشخصية إلى الصلاة بإلحاح، وقد نظر حواليه بعاطفة الإنسان المحطّم. ولم يكن قد بقي له من حياته السابقة سوى القدّاس. فبعد أن ترك بضعة أسابيع تمرّ عاد يسلك الطريق إليه قاطعاً السدّ باكراً صباحاً في الضباب ناقلاً قدميه بعناية فوق القرميدات التي كانت تبدو مضاءة بنور الشمس التي كانت مع ذلك متوارية، مستجيباً لرنين الجرس. ولم يكن القدّاس ليتبدّل، ومع أنه لم يجلب إليه الراحة ولا طهّره فإنه كان مفيداً على كل حال. ولم يحمل له الثقة بأن كل ما هو شرّ سوف يغدو خيراً، ولكن كان هناك ما يشبه الحقيقة المجرّدة يفصله عن أفكاره الشخصية. وقد حضره مُشاهداً تقريباً، متذكّراً بدهشة العهدَ الذي كان قد فكّر فيه بأنه سوف يُحيي القدّاس بنفسه في يوم من الأيام، مقتنعاً بأنه سوف يموت عند ذلك من السعادة. ولكن ذلك اليوم لن يأتي أبداً، وقد كانت هذه الانفعالات بالية وغير ممكن بلوغها. ومع ذلك فسوف يبقى، أيّاً كان الذي يُحييه ويغريه بالنهل من معينه. ولم يكن يأتي الآن بحركة، ولا كان يمدّ يده. وكان ينبغي أن يُبحث عنه ويُعثر عليه. وإذا كان غير ذلك فسيبقى على هامش أيّ سَنَد، ويكون مستحيلاً بلاريب أن يُعان. وأخذ يفكّر في جميع الذين أهانوه جامعاً إيّاهم حوله بانهماك متواصل ربّما كان بلا معنى. وكان عدم الاعتقاد الكامل بكلّ هذا يعود إليه حيناً بعد حين، من

الباب الجانبي إذا صحّ التعبير، وهو يستمع إلى نشيد «يوم الغضب» ذليلاً فاقد الرجاء.

* * *

نزلا من التاكسي، ودفع مايكل إلى السائق أجرة الذهاب والإياب ورجاه أن ينتظر ليعيد دورا إلى القصر. ودخلا المحطّة.

كان اليوم السابق قد حمل إليه الرسالة المحذورة. وقد أخبرته السيدة مارك بالتحسّن الأكيد في حالة كاترين التي بدا في الواقع أنها عادت طبيعية تقريباً، على الرغم من أنه لم يكن في مقدور أحد قطّ توكيد ذلك. وكان لابدّ بالطبع أن يتوقع رؤيتها وقد تغيّرت تغيّراً شديداً؛ ولم تكن بعدُ قد سألت عن أخيها؛ وقد رؤي من الأفضل أن يعلن مايكل بنفسه الخبر الفظيع. وهكذا أصبح وجوده في لندن ملحّاً.

وغدا على الفور راغباً في الذهاب إليها، إذ كانت مشاغله في القصر قد انتهت ولم يَعُدْ هناك ما يحمله على البقاء فيه. وأمضى النهار يُعِدّ أمتعته ويُجري مكالمات تلفونية، وأعدّ العُدّة للذهاب في اليوم التالي بقطار الصباح. وكان على دورا أن تغادر «إمبر» فيما بعد بقطار آخر يقودها إلى «باث» بعد تبديل واحد. وقد تلفنت لـ «سالي» كي تنتظرها في ساعة مبكّرة من العشيّة في اليوم التالي.

وإذ كانت قد راقبت بقلق وصول كلّ من رسائل السيدة مارك فقد حزرت بفضل اضطراب رفيقها أنه لا بدّ أن تكون «تلك» هي الفاصلة. وكانت قد ترقّبت بأسى يرافقه إحساس بتوقّع ما لا يمكن تفاديه نهاية اجتماعها. وكانت تحبّه من دون أمل في أن يطلب شيئاً. وقد كان عدم تأثّرها الحقيقي بعد هذا القدر من الآلام والمآسي معزّياً. ولم تتمكّن من إقناع نفسها بضرورة أن تغار من شخص بمثل غرابة كاترين وسوء طالعها.

twitter @baghdad_library

ولم تندم على قرارها بعدم العودة للعيش بقرب پول. فبأيّ ارتياح كبير كانت قد استقبلت معونة مايكل متخفّفة من عبء ثقيل. فإذ كانت قد أرسلت إلى زوجها رسائل مستفيضة تشرح فيها موقفها فقد أجاب هذا بِخُطَبٍ مملّة مُخْنَقَة، وإنذارات برقية، ومكالمات تلفونية كان واحدهما أو الآخر يقطعها بفظاظة، ولكنّ أمراً متّصلاً ولا شك بوجود مايكل كان قد جنّبها قدومه شخصياً. ولقد عرض عليها بأوضح من أيّ وقت مضى طريقته في النظر إلى الأمور. فليس هناك سبيلان. فهي تنتمي إلى صنف النساء المخلوقات للتّرجّح بين التمرّد والخضوع. وقد تعب هو من استفزازاتها وآن الأوان لكي تنصاع. وكان ذلك في الواقع ما ترغب فيه حقّاً. ولسوف تكتشف أن سعادتها الحقيقية تكمن فيه. لقد كان الاستقلال وهماً. وستكون نتيجته الوحيدة مغامرة غرامية جديدة تنجذب إليها. فهل كان من الإنصاف ـ لأنها كانت تعلم أنه سوف ينتظرها إلى الأبد ـ أن تسبّب له، بل أن تسبّب لهما كليهما، هذه الآلام الدائمة التي لا طائل تحتها؟ ولم يكن يجهل أنها عندما تخطر لها نزوة جديدة تصبح فاقدة الحسّ عديمة الرحمة، لكنّه كان يتوجّه إلى إدراكها السليم، إلى جميع الذكريات التي لم تكن قد نسيتها، على ما يظنّ، عن الحبّ الذي حملته له. فهل يكون من الممكن بناءً على ذلك أن يستعيد الرسالتين اللتين كان قد عهد بهما إليها؟

لقد رقّت دورا له، بيد أن هذه الذرائع لم تهزّ مشاعرها. وتأمّلت في هذه الرسائل وأجابت ببذل جهود خرقاء. وكتبت كذلك رسالة إلى «نويل» الذي اعتذر عن مضايقتها بمجيئه إلى «إمبر». فقد أدرك الآن أن ذلك التصرّف كان طائشاً، وعبرّ لها عن أسفه الصادق لأن يكون قد هُزِىء في الصحافة إلى هذا الحدّ من ذلك المكان، ولكنْ أمَا كانت الوقائع قد حكت عن نفسها بنفسها؟ وقد كان مقاله هو بالذات أَمْيَلَ إلى الاعتدال. ولقد آلمه

كذلك أن يعلم بحلّ «الجماعةِ» نفسهَا. ومع ذلك فإنه لخبر سعيد لأنه يبشّر بقرب عودتها إلى لندن. فمتى إذن؟ آه! أين سيلتقيان ومتى؟ إنها تدين له بغداء. وكان يعبّر بإخلاص وهو يقول لها إنه مشتاق إليها. وهو أسِف جدّاً لفراقها في الوقت الحاضر.

أجابت دورا بأنها لن تحضر حالياً إلى لندن. وسوف تراه فيما بعد. فهي تفضل أن تبقى وحيدة بعض الوقت. إنها تعاني حنيناًواضحاً إلى الهناء الذي يغمرها وهي بصحبته، بيد أنها لا تحسّ بالحاجة المحمومة إلى الانطواء على نفسها بقربه. وكانت تحاول أن تصرف ذهنها عن پول، وعن «نويل»، بل عن مايكل. ولم يكن ذلك باليسير. وأعدّت أمتعتها وجمعت الرسوم التي حقّقتها خلال هذه الأسابيع الأخيرة ونامت خائرة القوى. وتصوّرت، كما في كلّ ليلة، پول جالساً في غرفته الباذخة في «نايتسبردج» والتلفون الأبيض في متناول يده وهو ينتظر مكالمة. ومع ذلك فإن آخر ما فكّرت فيه كان أن مايكل سوف يغادرها في اليوم التالي. ومن يدري؟ ربّما تزوّج كاترين عندما يلتقيان؟ وذرفت، إلى أن استولى عليها النوم، دموعاً ناعمة شبه منشّطة.

وصبيحة الانطلاق كان الضباب أكثف ممّا هو في العادة. وتمشّيا على طول الرصيف وانتهيا بالجلوس. وكانت سحب كبيرة بيضاء تحجب رؤية الريف، وكان الهواء رطباً وبارداً جدّاً. وسأل مايكل.

- عندك معطف شتوي؟

- لا لقد بقي بالأصحّ في «نايتسبردج»؛ لا أهميّة لذلك فلست من الذين يرتعدون برداً.

أجاب مايكل:

- من الخير أن تشتري واحداً. ليس في وسعك أن تُمضي الشتاء كلّه بهذا

twitter @baghdad_library

المشمّع. اسمحي لي أن أُقرِضك مالاً يا دورا، فلن يزعجني الأمر.
هتفت:

- لا، بالتأكيد. سأتدبّر أمري جيداً الآن وقد حصلت على وظيفة معلّمة بنصف نصاب. أوه! مايكل! أوه! مايكل! ما أشدّ رغبتي في عدم رحيلك. وعلى كل حال فإنه من المؤكّد أن قطارك سوف يتأخّر في هذا الضباب.
ولاحظ مايكل:

- أرجو ألا يتأخّر كثيراً. سوف تنتظرني مارغريت في «پادنغتون».
وتنهّد بعمق.
وفعلت دورا فعله. قالت:
- هل وضبت رسومي بعناية؟
أجاب:

- اعتنيت بها، فأنا أحبّها كثيراً. إنها ترقد مسطّحة في قعر صندوقي. وسوف أؤطّرها في لندن.

قالت دورا:

إنها لا تستأهل هذه المشقّة، بيد أني سعيدة بأن تعجبك. لست سوى هاوية.

لم يعارضها مايكل. وبقيا برهة جالسين صامتين ينظران إلى الضباب الكثيف، مصيخين السمع، متنبّهين إلى هدير القطار.

وأوصاها مايكل:
- لا تَنْسَيْ أن تعطي المفتاح إلى الأخت أورسول عندما ترحلين.

- ماذا سيحلّ بـ «إمبر» على أي حال! إلى من تعود ملكيتها؟ الغريب أني لم اتساءل عن ذلك قطّ من قبل. كنت أعيش فيها وكأنّها بكلّ بساطة مِلكُنا.

أجاب مايكل:

ـ الواقع أنها ملكي.

قالت دورا ملتفتة إليه:

ـ «ملكك»؟

دهشت للأمر، وسرعان ما رأت بعين خيالها «إمبر» وقد تغيّرت. فالحديقة زاهرة، والحجرة الكبيرة مؤثّثة بأناقة ومفروشة بالسجاجيد، والبيت غاصّ مدفّأ معمور وقد غدا بيت مايكل وكاترين وأولادهما. كانت تلك صورة مؤلمة.

استأنف مايكل قائلاً:

ـ إنه منزل عائلتي القديم. وإذ لم نتمكّن من سكناه خلال سنوات كثيرة فماذا كان ليحلّ به؟ سيؤجّر إلى الأبد للدير.

سألت دورا بتنهّدة ارتياح خفيفة:

ـ للدير؟ وماذا سيفعلن به؟

أجاب مايكل:

ـ يُقِمْنَ فيه. منذ مدّة طويلة والأخوات في حاجة إلى التوسّع.

ـ وهكذا ستصبح الملكية جميعها داخل السياج حقاً؟ البيت، البحيرة؟

ـ أفترض ذلك.

وهتفت دورا بشكل أضحكه:

ـ إنه لأمر مريع تماماً.

قال:

ـ إنه ببساطة عَكْسُ مواقف. كان الدير فيما مضى أمراً يدعو إلى الغرابة في أراضي القصر، وبعدُ سيكون القصر أمراً يدعو إلى الغرابة في أراضي الدير.

هزّت دورا رأسها. فلم تكن تستطيع أن تفهم كيف يتحمّل مايكل

twitter @baghdad_library

فكـرة عدم العيش فيـه، حتى وإن لم يكن في وسعه أن يسمـع جَرْس هـذا الاسم. ودوّى ضجيج القطار البعيد في الضباب.

صاحت دورا:

ـ أوه! أوه! واأسفاه، قطارك قادم.

نهضا وكانت القاطرة قد اصطدمت بحاجز الوقوف.

كان المسافرون قلّة، وسرعان ما وجد مـايكل مقصـورة خاليـة. ووضع حقيبته على الرفّ وفتح النـافذة وانحنى لـيرى دورا. كانت تبـدو على أهبـة الانفجار بالبكاء.

قال مايكل:

ـ هه، هه! تَجَلَّداً!

قالت دورا:

ـ أعرف أني غبيّة، ولكني سـأشتاق إليـك كثيراً. ستكتب لي، أرجـوك، وتبعث لي عنوانك.

قال:

ـ بالطبع. سأبقى في لندن حتى بحر شهـر كانـون الثاني (ينـاير)، ثم في «نورويتش» إلى الصيف. وعلى كل حال فسأُعْلمِك بمكان إقامتي.

كـان قد حصـل على عمـل مؤقت في مؤسسة للتعليم الثـانوي للفصلين الأخيرين.

قالت دورا:

ـ سأكتب إليك. لسوف تأذن لي بذلك على ما أظنّ؟

أجاب:

ـ بالطبع.

ـ انقل إلى كاترين حبّي، وأرجو أن تُبِلّ من مرضها تماماً.

ـ لن أتوانى.

وظلّ كلّ منهما ينظر إلى الآخر محاوِلاً إيجاد كلمات يقولها. ولاحظت دورا يده الموضوعة على حافة النافذة؛ لقد كانت تتمنّى تغليفها بيدها، ولكنها تمالكت نفسها. وتساءلت عمّا إذا كانت ستتجرّأ على تقبيله عندما يتحرّك القطار. وقالت:

ـ لم يسبق لي التعبير تعبيراً يوفي امتناني بشأن «باث». فما كنت لأحصل قطّ على هذا المنصب لولا مساعدتك.

أجاب:

ـ أوه! أرجوك! إني جدّ سعيد بأن يكون هذا الأمر قد سُوّي. قدّمي تهانيّ لـ «سالي»!

ـ لن أنسى هذا. لو تعلم أني أتمتّع سلفاً. فلم يسبق لي أن كنت في تلك المنطقة، وأتساءل مع ذلك كيف السبيل إلى أن آلفها. ما المشروب المَحَلّي؟

ـ نبيذ التفاح.

سألت دورا:

ـ أوَليس طيباً؟

أجاب:

ـ طيّب، لكنه قويّ جدّاً. لو كنت مكانك لَحَذِرْتُه.

أجابت:

ـ سأتلفن لـ «سالي» أن تجلب دورقاً كبيراً منه. وسنشرب هذا المساء في صحتك نبيذ تفّاح الغرب.

أُطلقت إشارة الانطلاق وأبدى القطار ارتعاشة مفاجئة. وانتصبت على رؤوس أصابعها وقد احمرّت احمراراً شديداً وجذبت برفق رأس مايكل وطبعت قبلة على خدّه. وبدا متعجّباً ثم قبّلها بدوره على جبينها. وأقلع

twitter @baghdad_library

القطار. وما هي إلا لحظة حتى لم تعد ترى في الضباب غير يد مستمرّة في التلويح بمنديل.

وعندها سحبت دورا منديلها، ثم عادت على مهل إلى التاكسي. وذرفت بعض الدموع، واخترق قلبَها شعورٌ بالكآبة. ومع ذلك فإن القبلة كانت قد أصلحت كل شيء. وصعدت إلى التاكسي وقالت للسائق أن ينزلها عند باب الدخول للملكية.

وإذ كانت تهبط الممشى تبدَّد الضباب وبرز القصر قبالتها جليلاً تحت قبّته النحاسية الحمراء الشديدة اللمعان. وكان نور فضّي خفيف في سماء لاتزال تقطّعها الغيوم المتحرّكة يرتفع عند حافة البحيرة التي مازالت تغشاها سحابة ضبابية رقيقة. وبدت لها النوافذ المهجورة الشاحبة قليلاً وكأنّها عينا شخص مشرف على الموت.

وعندما وصلت إلى رصيف الركوب كان المركب على الشاطىء المقابل لايزال غير مرئي. وجذبت الحبل بقوّة فوصل بطيئاً جدّاً ثقيلاً جدّاً، ولم يَغْدُ ظاهراً إلا وهو يرتطم بالجُرف. وتهيّأت لركوبه وتحريكه كما علّمها مايكل بمجذاف واحد فتذكَّرت أنَّ مجذافاً آخر كان يُترك باستمرار على رصيف الركوب إذا اقتضت الضرورة. وأمسكت به ونزلت إلى المركب. وزلقت المجذافين في حلقتيهما وحلت الحبل الذي كان يربط الزورق إلى طرفي الجسر، فلن يعبر أحد بعد اليوم بهذه الوسيلة.

وبعد أن جلست حرّكت المجذافين بلطف وقد أصبحت خبيرة في فن استخدامهما. وبعد عدّة رشّات تحرَّك المركب ببطء. واسترخت مفتونة بأن تنزلق في السكون المخيّم على البحيرة المضبّبة يقطعه فقط سيلان الماء على راحتي المجذافين. وأخذ الضباب ينقشع وبدأت ترى بوضوح القصر وأسوار الدير العالية وهي تتّجه إليها. وكانت الغيوم فوق البيت في حركة دائمة، بيد أن السماء ظلّت صافية في سَمْتها، وشرعت أشعّة الشمس

تدفّئها. وخلعت صندلها وغمست قَدَماً في الماء من فوق حافة الزورق، من غير أن يفزعها عمق البحيرة على الإطلاق.

ونظرت إلى القصر عاجزة عن حبس فرحتها: لن يعيش فيه مايكل وكاترين ولا أولادهما ولا أحفادهما. فقريباً سوف تُحشر هذه الملكية في مُمتلكات الدير، ولن يتمكن إنسان قطّ من تأمّله. ولسوف تختفي إلى الأبد هذه القصبات الخضراء، وهذا الماء المترائي، وهذه الانعكاسات اللطيفة جداً على الأعمدة. لقد كان ذلك في الحقيقة وكأنّ «إمبر» لم تَعُدْ موجودة (ما أشدّ ما تُدخِله هذه الفكرة على النفس من راحة ونشاط!)، ومع ذلك فإنها بإسرها مِلْكُها في هذه الساعة الأخيرة، ولسوف تبقى هي من بعدها.

وسحبت قدمها من الماء وشرعت تجذّف من جديد ببطء شديد. وعلا فوق رأسها رنين الجرس في البرج داعياً الراهبات. وبكدّ النفس سمعته: لقد أصبح يرنّ في عالم آخر.

لسوف تكتب تفاصيل الحكاية لـ «سالي» في ساعة متأخّرة من الليل.

twitter @baghdad_library